أساقفة الروم الملكيّين بحلب
في العصر الحديث

بقلم
المطران ناوفيطوس إدلبي
متروبوليت حلب وتوابعها للروم الملكيّين الكاثوليك

سلسلة من النبذات التاريخيّة
ظهرت تباعًا بشكل مقالات متفرّقة
في "نشرة أبرشيّة حلب للروم الكاثوليك"

مطبعة الإحسان –حلب
١٩٨٣

إهداء

إلى روح الأساقفة الأبرار الذين سبقوني
في خدمة الأبراشيّة الحلبيّة العزيزة،

إلى إكليروس الأبرشيّة وأبنائها العلمانيّين
الذين أحببتهم وعملتُ معهم
في جوٍّ من الخلاص والمودّة،

أهدي هذه المجموعة من المقالات
عن أساقفة لروم الملكيّين بحلب
في العصر الحديث

ناوفيطوس ادلبي
متروبوليت حلب للروم الكاثوليك

توطئة

إنّ سلسلة أساقفة حلب لطائفة الروم الملكيّين تعاني ثغرة كبيرة تمتدّ من أواخر القرن العاشر الميلاديّ حتّى منتصف القرن السادس عشر. فآخر أسقف روميّ ملكيّ لحلب حفظ لنا التاريخ إسمه من أساقفة الأجيال السابقة هو أغابيوس (أو حبيب) المعروف بالمنبجي، الذي كان أسقفًا ملكيًّا لحلب عندما توفّي البطريرك الأنطاكيّ ثاودورس الثاني في ٢٨ أيّار سنة٩٧٦، فرشّح نفسه لخلافته، ونُصّب بطريركًا لأنطاكيّة في ٢٧ كانون الأوّل سنة٩٧٧، ومات في القسطنطينيّة، بعد أن اضطرّ للإستقالة عن منصبه، ودُفن فيها في غضون شهر أيلول سنة ٩٧٧. ويقول يحيى بن سعيد الأنطاكيّ إنّ أغابيوس هذا قد رشّح نفسه لمنصب البطريركيّة، رغبةً منه في الانتقال إلى بلاد الروم، لأنّ أنطاكيّة كانت وقتئذٍ واقعةً في حكمهم.

ثمّ يتوالى الأساقفة الروم الملكيّون على حلب، لكنّ دون أن يذكر التاريخ اسم أحدهم. ففي سنة ١١٢٤م مثلاً، عندما تحوّلت أربع من كنائس النصارى بحلب إلى مساجد بأمر القاضي ابن الخشّاب، كان في حلب أسقفان، واحد للسريان اسمه غرغوريوس، وآخر مجهول الاسم، "للخلقيدونيّين" أي الروم الملكيّين، على ما أورده المؤرّخ الرهاويّ الذي كتب حول سنة ١٢٣٤.

ومنذ ذاك التاريخ حتّى منتصف القرن السادس عشر لم نعثر إلى الآن على أيّ ذكرٍ لأسقفٍ روميّ ملكيّ تبوّأ كرسيّ أبرشيّة حلب. ولعلّ المنقّبين الذين يطالعون هذا البحث قد يوفّقون يومًا في لإماطة اللثام عن هذه الحقبة الطويلة من تاريخ الروم الملكيّين بحلب، فيدلّوننا على اسم أحد الأساقفة، أو على أثر لوجوده، حتّى نتمكّن من سد هذه الثغرة التاريخيّة الكبيرة، مستعينين خصوصًا بمذكّرات الحجّاج الروس، الذين كانوا يمرّون بحلب في طريقهم إلى الأماكن المقدّسة. لكنّه لم يتسنّى لنا حتّى الآن الإطّلاع على تلك الوثائق التاريخيّة التي خلّفها الحجّاج الروس في الأجيال الوسطى.

وأنّ البطريرك مكاريوس بن الزعيم الحلبي في حديثه عن خراب أنطاكيّة سنة ١٢٦٨م على يد الملك الظاهر بيبرس البنقداريّ، ونقل الكرسيّ البطريركيّ منها إلى دمشق، يقول: "إنّ رؤساء كهنة أبرشيّة أنطاكيّة عملوا مجمعًا، ونقلوا البطريركيّة من أنطاكيّة إلى دمشق، لأنّها أم بلاد الشام، وكانت وقتئذٍ كل أبرشيّتها نصارى. وكان حولها فقط سبعة رؤساء كهنة، وهم مطران حوران وبعلبك والزبداني وصيد نايا ومعلولا ويبرود وقارا. وكان لهم رعيّة لا تُحصى". في هذا التعداد لا يرد أيّ ذكر لمطران حلب. على أنّ هذا البرهان

غير قاطع، إذ لا يرد أيضًا أيّ ذكر لمطران حمص أو مطران حماة، مع أنّه كان اهذين المدينتين بوجه التأكيد مطرانٌ في ذاك العصر.

أمّا في الوضع الحاضر لمعلوماتنا، فلا بدّ لنا من اجتياز القرون الوسطى كلّها، والبلوغ إلى منتصف القرن السادس عشر لكي نعثر على اسم أوّل أسقفٍ روميّ ملكيّ لحلب في العصر الحديث، وهو غريغوريوس بن فضيل. ومنذ ذلك الحين يتوالى أساقفة الروم الملكيّين على حلب دون انقطاع، وعددهم خمسة وعشرون. وسوف نسطّر في هذا البحث أهمّ مراحل سيرة كلّ منهم، مستعينين قدر الإمكان بالمصادر التاريخيّة الأصليّة التي بلغتنا عنهم، ولا سيّما بمحفوظات مطرا نيّتنا بحلب ومكتبتها الخطيّة.

والمعلوم أنّ هذه النبات التاريخيّة قد صدرت تباعًا في "نشرة أبرشيّة حلب للروم الكاثوليك". فكان القرّاء يتسارعون لمطالعتها بلهفٍ. وإنّ إدارة النشرة ، بالتعاون مع إدارة مطبعة الإحسان، كانت تُعنى كلّ مرّة بطبع تلك النبذات على حدة، في شكل سحب خاصّ، فتجمّع منها هذا الكتاب، الذي يسرّنا أن نهديه إلى أبناء الأبرشيّة وأصدقائها، شاكرين للجميع تعاونهم معنا وتقديرهم لمثل هذه الأبحاث التريخيّة. وللّه الحمد أوّلاً وآخرًا.

حلب في ١ تمّوز ١٩٨٣

ناوفيطوس ادلبي
متروبوليت حلب وسلوقيّة وقورش
للروم الكاثوليك

-١-

غريغوريوس بن فضيل
(١٥٤٠-١٥٨٢)

يبدو من الثابت تاريخيًّا أنّ أوّل أسقف لحلب على طائفة الروم الملكيّين في العصر الحديث، أي منذ الفتح العثمانيّ للبلاد سنة ١٥١٦، كان غريغوريوس بن فضيل. فقد جاء في كتاب "المجموع اللطيف" الذي وضعه البطريرك مكاريوس الحلبي ابن الزعيم، في معرض الحديث عن أساقفة حلب، ما نصّه: "وأخيرًا، بعد زمن طويل، لمّا خلت باطن حلب من النصارى، ثمّ عمرت ورجع إليها أهلها المؤمنون ظن صار عليها أسقف حلب اسمه غريغوريوس بن فضيل، ومات في حماة، ودفن هناك".[١]

هذا وإنّ البطريرك مكاريوس الحلبي، واضع هذه المجموعة، هو أعلم الناس بمن سبقه من الأساقفةالروم الملكيّين على كرسيّ حلب في العصر الحديث، إذ أنّه شغل هذا الكرسيّ بدوره سنة ١٦٣٦، أي بعد فترة غير طويلة من وفاة سلفه الغير مذكور. ولو كان قد سبق غريغوريوس بن فضيل هذا أسقف آخر على حلب في العصر الحديث لما فات المؤلّف أن يعرفه وأن يذكره في مجموعته.

وممّا يثبت ذلك أيضًا بطريقة سلبيّة عدم ذكر أي أسقف آخر لحلب سابق لغريغوريوس بن فضيل في وثائق المجامع الطائفيّة التي يفترض أن يحضرها أسقف مدينة حلب مع سائر أساقفة الطائفة. منها المجمع الطائفيّ الذي انعقد في دمشق يوم الثلاثاء الموافق في ١٤ أيلول سنة ١٤٥١م لانتخاب مرقس أسقف صيد نايا بطريركًا أنطاكيًّا على الطائفة باسم مخائيل الثالث (١٤٥١-١٤٩٧)، وقد حضر المجمع واشترك في الرسامة البطريركيّة كلّ من يواكيم ومتروبوليت بصرى، وكيرلس متروبوليت بيروت، ومرقس متروبوليت الحصن، ويوحنّا متروبوليت أوخايا، وأفرام متروبوليت حماه، وميخائيل أسقف الزبداني، ويواكيم أسقف يبرود، ومكاريوس أسقف قاره، وأورسانيوس

---

١ نّ"المجموع اللطيف" الذي وضع البطريرك مكاريوس الحلبي ابن الزعيم أبان رحلته الأولى إلى روسيّا بين سنتي ١٦٥٢ و١٦٥٩ لم يبلغ إلينا إلاّ في مخطوطة واحدة، نقلت عن الأصل سنة ١٦٧٠، وهي مخطوطة مكتبة دير الشير التي تحمل الرقم الجديد ٦٠٠. راجع فيها من ٢٤٨.

أسقف عكّا[٢]. ومن الغريب أن لا يذكر بينهم أسقف حلب، لو صحّ أنّه كان لحلب أسقف في ذاك الوقت.

وكذلك لم يأت ذكر أسقف لحلب في المجمع الذي عقده في قاره سنة ١٥٣٩، البطريرك ميخائيل الخامس ابن الماوردي (١٥٢٢-١٥٤٠)، لحلّ خلاف حول تاريخ عيد الفصح في تلك السنة، وقد حضره يوحنّا أسقف يبرود، ويوحنّا أسقف صيد نايا، وأسقف بعلبك، وأسقف الزبداني[٣].

أصله ونشأته

هو عفيف بن فضيل بن توما بن موسا آل نجّار، من قرية كفر بهم القريبة من حماه، المعروف بالمطران غريغوريوس بن فضيل.

أمّا كون اسمه الأصليّ عفيفًا فيتّضح لنا من الحاشية التي ذيّل بها أحد كراريسه الطقسيّة، وقد نسخه ثمّ ضمّه إلى غيره من الكراريس في المجموعة المتنوّعة التي تضعها المخطوطة الفتيكانيّة العربيّة رقم ١٧٤، حيث جاء في الصفحة ٧٩ب منها ما يلي: "وكان الفراغ من نساخة هذه الكراسة المباركة نهار الثلاثاء الثامن عشر من أيلول المبارك، سنة سبعة آلاف وتسعة وأربعين لأبينا آدم عليه السلامٍ [١٥٤٠م] في مدينة حمص، وذلك بحضور الأب السيّد البطريرك ظروثاوس أدام الربّ الإله رئاسته[٤]. وذلك على يد العبد الأثيم الخاطىء آخر البشر وأخطأهم وأقلّهم وأذنبهم، الملتجىء إلى رحمة ربّ العبا، عفيف باسم شمّاس فضيل، من مدينة حلب"...

وإنّ الأكسرخوس يوسف نصرا الله في كتابه الفرنسيّ عن "تواريخ بطاركة أنطاكيّة الملكيّين من سنة ١٥٥ إلى سنة ١٦٣٤،[٥] يفيدنا، دون ذكر المصادر،بأنّ عفيفًا بن فضيل ها ارتسم شمّاسًا إنجيليًّا في صيد نايا يوم ٨ أيلول سنة ١٥٣٩.

أمّا عن أسرته وبلده الأصيل فيخبرنا غريغوريوس بن فضيل نفسه في الحاشية التي زيّل بها كتاب السواعي الذي نسخه سنة ١٥٦١، وهو أسقف

---

[٢] راجع كتاب البطريرك مكاريوس زعيم، "تاريخ جداول الأربعة بطريركيّات"، في المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٦٨٩، ص١٢٧آ. وكذلك كتاب الأرشيديا كون بولس زعيم، "سفرة البطريرك مكاريوس الحلبيّ"، في مجموعة الآباء الشرقيّين، المجلّد ٢٢، الكراس الاوّل، ٣٣.

[٣] راجع مقدّمة مخطوطة اقتناها الأب لويس شيخو في حمص سنة ١٩٠٢، وحفوظة اليوم في المكتبة الشرقيّة بيروت، وهي تتضمّن "القواعد الشمسيّة وحساب الكيكلوس القمري لأجل عيد الفصح المجيد".والمخطوطة المذكورة نسخت سنة ١٧٠٩ عن الأصل لمكتوب سنة ١٥٧٣.

[٤] هو البطريرك الأنطاكيّ ذوروثاوس الثالث، الذي كان إذًا بطريركًا قبل التاريخ المذكور (١٨ أيلول ١٥٤٠)، وحطّ على كرسيه في أواخر سنة ١٥٤٣.

[٥] ص ٣٨، الحاشية رقم ١.

على مدينة حلب، والممثّل حاليًّا في المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٥٠ ص ٢١١آ، حيث يقول حرفيًّا ما يلي: "وكان الفراغ من نساخة هذا السواعي المبارك نهار الأربعاء في ثالث يوم من شهر أيلول المبارك سنة سبعة آلاف وسبعين لأبينا آدم عليه أفضل السلام [١٥٦١م]، وذلك على يد أحقر العباد ومأوى الجرائم والآثام الحقير في رؤساء الكهنة غريغوريوس خادم كرسيّ حلب والقصر والسويديّة، ابن المرحوم فضيل ابن المرحوم موسى لبن تجّار من قرية كفربهم،قاطن يوم إذن بمحروسة حلب"...

وفي المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٤٧ ص ١٠ آ، ذكر أكمل لنسبه إذ كتب بخطّ يده: "هذا القنداق المبارك برسم الأخ القسّيس عبد المسيح ابن المرحوم فضيل ابن المرحوم توما ابن المرحوم موسى ابن تجّار من معمورة كفربهم، وهو ساكن يومئذٍ (أي سنة ١٥٨٣)، بمحروسة حلب".

إنّ هذه الحواشي تشير إلى والده واسمه فضيل، وجدّه واسمه توما، وجدّ أبيه واسمه موسى. أمّا كنيته فلم نستطع قراءتها بوجه التأكيد. فالنقاط الثلاث الموضوعة على الحرف الأوّل منها تشير إلى حرف الثاء، والحرف الأخير قد بدا لنا وكأنّه الدال، أو يكون الرّاء.

على أنّ الاسم الحاصل، أي "ثجاد"، غير معروف. فلا بدّ لنا والحال هذه من اعتبار حصول خطأ خفيف في النسخ، وتثبيت الكنية باسم "نجّار" أو "تُجّار". والقراءة الأخيرة تبدو أصح من الأولى. وفي دير عطيّة إلى يومنا هذا عائلة كريمة معروفة ببيت التجّار، ومن أشهر البيوتات الإسلاميّة هناك.

وإنّ صاحب الترجمة نفسه قد حفظ لنا تاريخ وفاة والده، إذ كتب في الصفحة ٥٠آ من مجموعته المتنوّعة المحفوظة في المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٧٤ ما يلي:

"كان نياح الوالد إلى رحمة الله تعالى سنة سبعة آلاف وخمسة وستّين لأبينا آدام عليه أفضل السلام، أوّل السنة الروميّة،في عيد الأب باسيليوس" [أي في الأوّل من كانون الثاني سنة ١٥٥٧]. وإنّ حواشي المخطوطات تشير إليه باسم "الشيخ فضيل"، ممّا يدلّ على مقامه الاجتماعي المرموق وشرف أسرته.

أمّا جدّه توما، وجدّ أبيه موسى، فلا نعلم عنهما شيئًا. لكنّ الطريف في الأمر هو أن يكون أوّل أسقف روميّ ملكيّ لحلب حمويًّا من قرية كفربهم. على أنّ الاستغراب يزول إذا ذكرنا أنّ معظم الوافدين إلى حلب من أبناء طائفة الروم الملكيّين في أوائل العصر الحديث إنّما جاؤوها من حمص وحماة، كالمطران ملاتيوس كرمة مثلاً، وآل الصائغ وآل لبّاد، وجميع الذين يكنون إلى اليوم في

حلب بآل الحمصيّ وآل الحمويّ، وإذا ذكرنا أيضًا أنّ كفربهم ومحردة كانتا آهلتين بالمؤمنين الروم، كما في الوقت الحاضر وأكثر منه، وأنّهما كانتا دعامة الكرسيّ الأنطاكيّ من الوجهة الماليّة على الأخص. وقد ثبت لدينا أنّ طائفة الروم الملكيّين بحلب قد اقتبلت في غضون القرن السادس عشر عددًا مرموقًا من العائلات الحمويّة، أمّت الشهباء بدافع التجارة والاستقرار والازدهار الاقتصادي الذي نعمت به إذ ذاك عاصمة الشمال السوريّ.

ويخبرنا البطريرك مكاريوس زعيم الحلبيّ، في "المجموع الطيف"[٦]، أنّ كان صاحب الترجمة أربعة إخوة في حلب. وقد استدللنا عل اسم واحد منهم، وهو الخوري عبد المسيح بن فضيل، الذي اقتنى لنفس المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٤٧، وهي تتضمّن نصّ الليتورجيّات الثلاث، أي "كتاب القنداق"، كما كان يقول القدماء. ففي الصفحة ١٩آ منها نقرأ الحاشية التالية بخط البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ (١٥٧٧ـ١٥٨٠، والمتوفّى في ٢٥ كانون الأوّل ١٥٩٢): "هذا القنداق المبارك برسم الإشبين العزيز والركن الحريز الخوري عبد المسيح، أخي الأخ المكرّم والجوهر المتمّم كير غرغوريوس مطران مدينة حلب وطرابلس المحروستين... سطّر بتاريخ شهر شباط سنة ٧٠٩٠ لآدم، سادس سنة من بطريركيّة الحقير" [أي سنة ١٥٨٢م]. والكتاب المذكور قد نسخه البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ نفسه في مدينة حماه، وذيّله بهذه الحاشية الموضوعة بخطّه في الصفحة ١٨آ: "وكان الفراغ من هذا القنداق المبارك نهار الأربعاء من جمعة الجبن الحادي عشر من شهر شباط سنة ٧٠٩٠ للعالم [أي سنة ١٥٨٢م]. وقد علّقه بيده الفانية الفقير إليه تعالى ميخائيل برحمة الله تعالى البطريرك الأنطاكيّ، ابن المرحوم وهبه ابن المعلّم عيسى الصبّاغ بمدينة حماه المحروسة... والكتاب المذكور برسم الأخ الخوري عبد المسيح ابن المرحوم الشيخ فضيل والد الأخ المكرّم كير غريغوريوس مطران مدينة حلب وطرابلس"...

ويبدو أن الخوري عبد المسيح هذا ارتسم بدوره مطرانًا على أبرشيّة لم نعثر على ذكر اسمها حتى الآن، ولعلّها اللاذقيّة، واتّخذ له كذلك في السيامة الأسقفيّة اسم غريغوريوس. ثمّ توفّي قبل أخيه غريغوريوس مطران حلب، فانتقل كتاب القنداق الآنف الذكر إلى أخيه غريغوريوس مطران حلب. ثمّ توفّي هذا الأخير أيضًا، فانتقل الكتاب إلى نجله القسّ منصور، إذ نجد في الصفحة

[٦] مخطوطة مكتبة دير الشير رقم ٦٠٠، ص ٦٢١.

٧آ من المخطوطة الفاتيكانيّة عينها بقلم البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ نفسه هذه الحاشية: "انتقل هذا الكتاب المبارك، الثلاثة قناديق، من ملكيّة المرحوم المتنيح إلى رحمة الله تعالى الإشبين العزيز المطران غريغوريوس أخي المتنيح كير غريغوريوس ضابط كرسيّ مدينة حلب المحروسة، إلى ملكيّة النجل السعيد والذهب ولابريز القسّ منصور نجل المرحوم المطران المذكور بطريق الوراثة الأهليّة"...

هذا من الثابت أنّ صاحب الترجمة غريغوريوس بن فضيل كان متزوّجًا وله أولاد. ولا شكّ أنّه ترمّل قبل سيامته الكهنوتيّة. ومن أولاده الذين بلغت إلينا أسماؤهم "القسّيس منصور ابن المرحوم غريغوريوس بن فضيل". فقد جاء في حاشية بخطّه في الصفحة ٢٩٥آ من المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٧٤ ما يلي: "لمّا كان تاريخ عيد الفصح المجيد سنة سبعة آلاف وخمس ةتسعين للهجرة [ويعني للميلاد أي سنة ١٥٨٧م]، قطع الحقير في الكهنة قسّيس منصور ابن المرحوم كير غريغوريوس ابن المرحوم فضيل الزفر، على زمان البطرك كير يواكيم. وكان العيد في تلك السنة في ١٦ من نيسان". في هذه الحاشية نرى أنّ المطران غريغوروس بن فضيل كان قد توقّي قبل التاريخ المذكور (١٦ نيسان ١٥٨٧)، وأنّه كان له ولد يدعى القسّيس منصور، وإنّ هذا الأخير صام ثمّ "قطع الزفر" بتاريخ عيد الفصح من تلك السنة. ونعلم من الصفحة ٨٣ من المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٥٤ أنّ القسّيس منصور هذا قد نسخ صلاةً بتاريخ ١١ أيّار سنة ١٥٩٣ والقس منصور هذا هو الذي، كما رأينا، انتقلت إليه ملكيّة كتاب القناديق الثلاثة (المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٤٧)، "بطريق الوراثة الأهليّة"، من والده غريغوريوس مطران حلب، الذي كان ورثه بدوره من أخيه غريغوريوس الآخر الذي لا نعلم حتّى الآن على أيّ أبرشيّة كان أسقفًا.

وكان المطران غيغوريوس بن فضيل أسقف حلب ولد آخر باسم قسطنطين، تزوّج من أخت ميلانوس مطران حماه، الذي اشترك سنة ١٦٤٧ في انتخاب ورسامة البطريرك مكاريوس بن الزعيم، وأنجب ولدًا عرف باسم الشمّاس جبرائيل بن قسطنطين الصائغ أو الحموي. ومن هذه الأسرة انحدر الخوري نقولا الصائغ، ابن نعمة الله بن موسى الحموي، وابن عمّه الشمّاس عبد الله الزاخر.

تعيينه أسقفًا على حلب

إذا كنّا نعلم أنّ عفيفًا بن فضيل رسم شمّاسًا إنجيليًّا في صيد نايا يوم ٨ أيلول سنة ١٥٣٩، فإنّنا نجهل إلى الآن في أيّ تاريخ سيم كاهنًا.

أمّا سيامته الأسقفيّة وتسلّمه كرسيّ أبرشيّة حلب فتاريخهما ثابت لدينا بفضل حاشية كتبها المطران غريغوريوس نفسه في الصفحة ٢٠٥ ب من المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٧٤، وقد جاء فيها ما حرفه: "لمّا كان بتاريخ سنة ٩٧٤ هجريّة مات السلطان سليمان، لمّا جرد على بلاد البيج، وتولّى السلطنة بعد موته ابنه السلطان سليم، نصر الله، وفي التاريخ المعيّن أعلاه الموافق لسنة ٧٠٧٥ لأبينا آدم عليه أفضل التحيّة والإكرام، وفي تاريخ تلك السنة المعيّنة أعلاه كان مضى للحقير في الأسقفيّة ستّة وعشرون سنة في كرسيّ حلب. وهو يسأل الربّ الإله أن يغفر له ولوالديه ولمن ترحّم عليه". يلي ذلك توقيع المطران غريغوريوس باليونانيّة.

إنّ سنة ٩٧٤ هـ تمتدّ من ١٩ تمّوز ١٥٦٦ إلى ٩ حزيران ١٥٦٧. أمّا سنة ٧٠٧٥ للعالم فتوافق سنة ١٥٦٦/١٥٦٧م. على أنّ السلطان سليمان قد توفّي في ٥ أيلول سنة ١٥٦٦،وتولّى الخلافة ابنه السلطان سليم مبشرةً. وبذلك التاريخ، أ ي في شهر أيلول سنة ١٥٦٦، كان قد مضى على تسلّم المطران غريغوريوس زمام أبرشيّة حلب ستّة وعشرون عامًا. يعني هذا أنّه سيم أسقفًا وتبوّأ كرسيّ أبرشيّة حلب سنة ١٥٤٠ على أقرب وجه أو ١٥٤١ على أبعد وجه. فإذا ذكرنا أنّه سيم شمّسًا إنجيليًّا في ٨ أيلول سنة ١٥٣٩، وأنّه كان لا يزال شمّاسًا بتاريخ ١٨ أيلول ١٥٤٠، لابدّ من الإقرار بأنّه تدرّج بسرعة غير عاديّة في درجات الكهنوت، بحيث سيم أسقفًا سنة ١٥٤٠ أو ١٥٤١.

وفي السيامة الأسقفيّة اتّخذ عفيف له اسم غريغوريوس جريًّا على العادة القديمة. ولعلّه في اختياره اسم غريغوريوس دون سواه قد راعى عادة أخرى تقضي بأن يبدأ الاسم الرهبانيّ أو الحبريّ لجديد بنفس الحرف الذي كان يبدأ به الاسم العلمانيّ القديم، أو بالحرف الذي هو أقرب ما يكون إليه باللغة اليونانيّة. ولمّا لم يكن حرف العين معروفًا باليونانيّة، فقد اتّخذ له اسمًا يبدأ بأقرب حرف يونانيّ إلى العين العربيّة، وهو غريغوريوس.

بعض حوادث أسقفيّته

في غريغوريوس بن فضيل أسقفًا للروم الملكيّين بحلب اثنتين وأربعين سنة، من سنة ١٥٤٠ إلى سنة ١٥٨٢. وفي هذه الفترة الطويلة من الزمن، حفلت أسقفيّته بالنشطات المتنوّعة، أهمّها التأليف والترجمة والنسخ، وسف نفرد لها بابًا خاصًّا في مقالنا هذا. أمّ سائر ونشاطات حوادث أسقفيّته فلا نعلم عنها

سوى النزر القليل، نورده فيما يلي كما توصّلنا إلى استخلاصه من حواشي كتبه ومن مصادر تاريخيّة نادرة أخرى.

١- أنّ غريغوريوس، كغيره من الأساقفة، لاقى في أبرشيّته معارضات وصعوبات. وقد تفاقم الخلاف يومًا بينه وبين الرعيّة إلى حدّ أنّ الناس "أبطلوا ذكره وحصّته من الكنيسة في حلب". هذا ما جاء في حاشية وضعها في الصفحة ١٠٥ب من المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٧٤، حيث نقرأ ما يلي: "لمّا كان بتاريخ تاسع وعشرين من شهر آب سنة سبعة آلاف وواحد وسبعين [أي ١٥٦٣م] أبطلوا ذكر الحقير وحصّته من الكنيسة في حلب". هذا كلّ ما أورده غريغوريوس عن هذا الاضطراب المؤسف في أبرشيّة حلب والخلاف الذي قام بينه وبين الرعيّة. ويبدو أنّ غريغوريوس لم يستفض في الشرح، إمّا لكونه لا يريد أن يعرّض أبناء رعيّته للملامة، وإمّا لأنّ الخلاف سوّي بسرعة، ولم يبقى عنه أيّ أثر سوى هذه الأسطر الثلاثة التي دوّنها المطران بيراعه كمن يريد أن يذكره وينساه في الوقت عينه. على كلّ فمن الأرجح أن يكون المطران غريغوريوس، على إثر هذه الخلافات، قد ابتعد عن مقرّ كرسيه بحلب، إذ نراه ينسخ بعض فصول مخطوطاته في قرى أبرشيته، كقرية قرصبلو أو قرية اليعقوبيّة. ثمّ يوجّه إلى أبناء أبرشيّته رسالة راعويّة يحضّهم فيها على الوحدة، حفظتها لنا المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٧٤، ص ١٨٠ آ-١٩٥ ب، عاد على إثرها إلى كرسيه بحلب.

٢- ثمّ إنّه عند وفاة البطريرك الأنطاكيّ يواكيم الرابع ابن جمعة في أوائل سنة ١٥٧٦، ترشّح غريغوريوس بن فضيل إلى البطريركيّة، لكنّه أعرض عنها تلقائيًّا، تجنّبًا لمشاكل المنصب البطريركيّ، ورغبةً منه في البقاء في حلب ينعم بالسلام وراحة البال بالقرب من إخوته الأربعة وذويه. فإنّ البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم يقول في كتابه المذكور "المجموع اللطيف"[٧]: اجتمع بعد ذلك كلّ رؤساء كهنة النوريّة بدمشق، وانتخبوا منهم ثلاثة رؤساء كهنة، وهم غريغوريوس (فضيل) اسقف حلب، وميخائيل (صبّاغ) مطران أوخابيطا، ويواكيم[٨] ضو مطران طرابلس، وقالوا لهم: ادخلوا ثلاثتكم إلى قلاّية، واتّفقوا على واحد منكم حتّى نعمله بطركًا. وإنّ أسقف حلب، لمّا كان إخوته الأربعة في حلب وأهله، لم يشأ أن يفارقهم. فأخذ الورقة وكتب هكذا: يقول كاتبه غريغوريوس اسقف حلب بأنّي رضيت ميخائيل

[٧] مخطوطة مكتبة دير الشير رقم ٦٠٠، ص ٦٢٠-٦٢١.
[٨] اسمه الحقيقيّ ذوروثاوس ضو مطران طرابلس. ولم يتّخذ له اسم ميخائيل إلاّ عند تنصيبه بطريركًا.

مطران أوخابيطا[٩] بأن يكون عليّ بطركًا. فلمّا نظر يواكيم مطران طرابلس ذلك كتب أيضًا نظيره... وحينئذٍ رسموا ميخائيل بطركًا. وكان ذلك في سنة ٧٠٨٥ للعالم" (أي سنة ١٥٧٧م).

٣- لكنّ البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ هذا (١٥٧٧-١٥٨٠) ما لبث أن عانى الأمرّين من مقاومة فئة من الدمشقيّين له، يساندهم حسن باشا والي دمشق. فقد بلغت بهم الجسارة إلى حدّ أنّهم رشّوا اكليريكيًّا من حاشية البطريرك، مثل أمام القاضي وشهد زورًا بأنّ البطريرك كان يقترف المعاصي الأخلاقيّة خلسة. فحطّ البطريرك عن رتبته. ولمّا كان تقيًّا بارًّا لم يرد أن يقاوم الشرّ، بل اعتزل منصبه بكلّ تواضع، وانسحب إلى حماه مسقط رأسه. إلاّ أنّ غريغوريوس بن فضيل مطران حلب، إذ كان عالمًا ببراءته، جاءه إلى حماه، وعنّفه على تخاذله أمام طغمة من الأشرار، وعاتبه لكونه لم يرفع أمره إلى السينودس المقدّس لكي يحكم فيه. ووعده بأن يكون معه ويعاضده على أخصامه الدمشقيّين، الذين اغتنموا فرصة ابتعاده عن الكرسيّ البطريركيّ لكي ينصّبوا عليه ذوروثاوس ضو مطران طرابلس باسم يواكيم الخامس ضو. فتشجّع البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ، وجمع إليه بعض الأساقفة، وأقام قدّاسًا حافلاً في حماه، وحرم الدمشقيّين، ثم لجأ إلى حلب، في حمى صديقه المطران غريغوريوس بن فضيل، وبقي فيها إلى ما بعد وفاة صديقه سنة ١٥٨٢.

إذ ذاك انشقت الطائفة إلى فئتين متنازعتين: فئة سوريا الشماليّة (حلب، حماه، اللاذقيّة) وقد سارت وراء البطريرك ميخائيل لسابع الصبّاغ، وفئة سوريا الجنوبيّة (منطقة دمشق وطرابلس) التي سارت وراء البطريرك يواكيم الخامس ضو. وكانت كلّ فئة تحرم الأخرى. ويقول البطريرك مكاريوس ابن الزعيم في "المجموع اللطيف"[١٠] عن البطريرك يواكيم الخامس ضو أنّه "كان كلّ نهار أحد يقدّس ويحرم البطريرك ميخائيل وحزبه. وصارت بينهم شرور كثيرة، وخسارات أموال لا عدد لها. وصارت الرعيّة فرقتين، لأنّه من حماه وحلب واللاذقيّة وما يليها إلى أدنه، كانوا ميخائيليّين.وأهل دمشق وطرابلس وما يليها فكانوا يواكيميّة. وذهب البطريرك ميخائيل إلى

---

[٩] كانت أوخابيطا من أهمّ أبرشيّات الكرسيّ الأنطاكيّ في العصر الوسيط. ويقال لها أيضًا حناك. وفيها نشأ الشاعر الروميّ الملكيّ ابراهيم الحناكي، والناسخ ميخائيل بن شحادة الحناكي. وإنّ أهم قرية داخلة في ولايتها كانت قرية محردة، التي لا تزال معقل الروم الأرثوذكس في جوار حماه.

[١٠] مخطوطة مكتبة دير الشير رقم ٦٠٠، ص ١٢٨ب.

القسطنطينيّة دفعتين في هذا الخصوص، وعاود إلى حلب وحماه. وقتل من الرعيّة كثيرون بهذا السبب، ومن جملتهم بركات معلّم السلطان بحماه، أرشوا عليه، وقتله البستانجي باشا طرابلس. وأقام الخوري وهبة الحموي كلّ حياته ما وضع في رقبته بطرشيلاً لأنّه هو الذي كان السبب في قتله. وأيضًا خرج كثيرون من النصارى عن أديانهم لهذا الامر، ومن جملتهم الشمّاس ميخائيل الحدّاد ابن نعمة ابن أم سرور الحلبي، الذي في زقاق الشمالي وغيره. وأخيرًا ذهب البطريرك ميخائيل إلى بلاد الروم، وتنيح في جزيرة رودس وبها دفن" (وذلك بتاريخ ٢٥ كانون الأوّل سنة ١٥٩٢)، أي عشر سنوات بعد وفاة صديقه المطران غريغوريوس بن فضيل.ويقول البطريرك مكاريوس الحلبي ابن الزعيم في موضع آخر من كتابه "المجموع اللطيف" [١١] إن البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ، أثناء لجوئه إلى حلب وإقامته فيها، بين سنتي ١٥٨٠ و١٥٨٢، "عمل أسقف حلب وكيله على سائر البلاد الخاضعة له، وألبسه وقتئذٍ صاكو (أي الحلّة الحبريّة)، لأنتّ هذه العادة لم تكن (دارجة) سابقًا بأنّ رئيس كهنة حلب يلبس صاكو"، بل كان يرتدي الحلّة الكهنوتيّة العاديّة.

إنّ موقف غريرغوريوس بن فضيل مطران حلب من بطريركه الشرعيّ ميخائيل السابع الصبّاغ، ودفاعه عن براءته، ومعاضدته إيّاه على خصومه، وقبوله إيّاه في حلب، كلّ هذا أنشأ في قلب البطريرك المضطهد عرفانًا بالجميل لا يوصف، وأطلق لسانه بالشكر لمحسنه وعضده الأكبر، فنعته في مؤلّفاته بأجمل النعوت، كما قرأنا، وسمّاه: "الأخ المكرّم والجوهر المكرّم"، بل أضاف إلى ذلك إكرامًا غير عادي، فقلّده "الصاكو" أي الحلّة الحبريّة. ومن المعلوم أنّ "الصاكو" كان في الأصل اللباس الخاص بالأمبراطور البيزنطيّ. وعند اندثار الإمبراطوريّة البيزنطيّة بسقوط القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣ في أيدي العثمانيّين، لبس البطاركة "الصاكو"، كمن يخلف الأباطرة في سلطتهم على رعاياهم المسيحيّين. أمّا الأساقفة فما زالوا يرتدون الحلّة الكهنوتيّة العاديّة، حتّى جاء البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ، بين سنة ١٥٨٠ و١٥٨٢، فأنعم بالصاكو على صديقه ومناصره غريغوريوس بن فضيل. وهكذا كان مطران حلب أوّل من ارتدى الصاكو بين أساقفة البطريركيّة الأنطاكيّة.

٤- ولمّا وقف غريغوريوس بن فضيل أسقف حلب المشرّف إلى جانب البطريرك ميخائيل السابع صبّاغ ضد مطران طرابلس منافسه، الذي نصّبه

[١١] مخطوطة مكتبة دير الشير رم ٦٠٠، ص ٦٢٢.

الدمشقيّون بطريركًا باسم يواكيم الخامس ضو، فقد اعتبر ولا شك أنّ كرسيّ طرابلس قد شغر بعصيان صاحبه على بطريركه الشرعيّ، أو بترقيته غير الشرعيّة إلى السدّة البطريركيّة، فضمّ كرسيّ طرابلس إلى كرسيه الحلبيّ، ودعا نفسه، اعتبارًا من سنة ١٥٨٠، "مطران حلب وطرابلس" معًا، كما نقرأ في إحدى حواشي المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٤٧، ص٩/آ، وهذا نصّها: "هذا القنداق المبارك (أي كتاب القدّاس) برسم الإشبين العزيز والركن الحريز الخوري عبد المسيح أخي الأخ المكرّم والجوهر المتمّم كير غريغوريوس (بن فضيل) مطران مدينة حلب وطرابلس المحروستين... سُطّر بتاريخ شهر شباط سنة ٧٠٩٠ لآدم" (أي سنة ١٥٨٢م).

٥- كان المطران غريغوريوس بن فضيل في حلب دار أسقفيّة يدعوها في كتبه "القلاّية". ولسنا ندري هل بناها، أم وجدها مبنيّة ووسّعها. ففي الصفحة ٣٠٣ب من المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٧٤، يقول أنّه وجد نسخة عن طريقة صنع الحبر الأسود "مع الولد الشمّاس داوود من مرمنيثا (أي مرمريتا) في قلاّية الحقير في محروسة حلب".

٦- بل إنّ غريغوريوس بن فضيل بدأ يجمع خزانة للكتب في قلاّيته المذكورة بحلب. فقد ذيّل كتاب الإفخولوجي المحفوظ في المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٥٤ بهذه الحاشية: "نقل هذا الكتاب المبارك من ملك القسّ موسى (ابن المرحوم خيار) إلى خزانة الحقير في رؤساء الكهنة غريغوريوس خادم كرسيّ حلب والقصر والسويديه، لمّا جاء القسّ المذكور من (بلاد) الروم، وخلصت نفقته، فأخذ حقّه من الحقير بالزائل (أي بالمال الزائل) من الدراهم. وقد نقرّر برسم القلاّية الأسقفيّة. جعله الله تعالى مباركًا".

٧- في عهد غريغوريوس بن فضيل بدأت حركة الإتّحاد مع الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ بين أفراد طائفة الروم الملكيّين بحلب. ففي سنة ١٥٧١ تحرّك بعض الرهبان الفرنسيسكان من ديرهم في بيروت، ورافقوا قافلة من التجّار البنادقة إلى حلب، حيث بدأوا اتّصالاتهم بالمسيحيّين من أبنائها. لكنّنا لم نعثر حتّى الآن على أيّة إشارة إلى وجود علاقة أو رابطة مباشرة بينهم وبين المطران غريغوريوس. وعندما جاء موفد البابا غريغوريوس الثالث عشر، ليوناردو هابل مطران صيدا الفخري، والمرسل اليسوعي اليانو، إلى حلب سنة ١٥٨٥ للتحدّث مع البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ عن إعادة الشركة بين البطريركيّة الأنطاكيّة والكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ، كان المطران غريغوريوس ابن فضيل قد توفّي. لكنّ المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٢٤

(ص ٤٠) حفظت لنا رسالة وجّهها احد كهنة أبرشيّة حلب، القسّ مانويل، بالإتّفاق مع كاهن حلبيّ آخر، إلى الكاردينال رئيس مجمّع انتشار الإيمان يعرض فيها وضع المسيحيّين الحلبيّين والمظالم التي يتعرّضون لها. وأنّ ليوناردو هابل، موفد البابا غريغوريوس الثالث عشر، بعد أن واجه البطريرك ميخائيل الصبّاغ في حلب سنة ١٥٨٥، اقتنى في حلب ما وجد فيها من مخطوطات المطران غريغوريوس بن فضيل (وكان قد توفّي إذ ذاك)، وجاء بها إلى رومة، ووضعها في المكتبة الفاتيكانيّة، حيث تحفظ إلى اليوم تحت الأرقام ٥٠، ٥٣، ٥٤، ١٤٧، ١٧٤.

امتداد ولايته

منذ أن لجأ البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ إلى حلب سنة ١٥٨٠، كما سبق ورأينا، اتّخذ المطران غريغوريوس بن فضيل لنفسه لقب "مطران طرابلس"، وضمّ هذ الأبرشيّة إلى أبرشيّته الحلبيّة، وذلك إمّا لأنّ أبرشيّة طرابلس شغرت بانتخاب راعيها ذوروثاوس ضو إلى الكرسيّ البطريركيّ باسم يواكيم الخامس ضو، وإمّا لأنّ البطريرك الشرعيّ ميخائيل السابع الصبّاغ أقامه وكيلاً على جميع الأبرشيّات التابعة له ضدّ منافسه يواكيم الخامس. على أن رئاسة غريغوريوس بن فضيل لأبرشيّة طرابلس لم تكن سوى إجراء مؤقّت، لأنّ البطريركيّة انقسمت إذ ذاك على نفسها، فحاول كلّ من البطريركيّين أن يوسّع رقعة نفوذه قدر الإمكان، وقد عيّن البطرايرك يواكيم الخامس ضو مطرانًا آخر يخلفه على كرسيّ طرابلس، فنتج عن ذلك أنّه كان لطرابلس في الوقت عينه أسقفان، واحد من طرف البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ، وهو غريغوريوس بن فضيل "مطران حلب وطرابلس"، وآخر من طرف البطريرك يواكيم الخامس ضو، هو انسطاسيوس مجلّي، المعروف بمقاومته لكلّ اتّصال بين البطريركيّة الأنطاكيّة والكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ.

على أنّ ولاية غريغوريوس بن فضيل الأصليّة كانت لمدينة "حلب والقصر والسويديّة"، كما وقّع في جميع مخطوطاته، فكتب هكذا: "الحقير في رؤساء الكهنة غريغوريوس خادم كرسيّ حلب والقصر والسويديّة" أو "غريغوريوس أسقف حلب وأعمالها وبلاد القصر والسويديّة"، أو باختصار "الحقير في رؤساء الكهنة غريغوريوس". وأنّنا نقدّم في ما يلي نموذجًا عن توقيعه في اليونانيّة.

أمّا حلب فهي مركز كرسيه الأصليّ. وأمّا سلوقية فهي الاسم القديم لمدينة السويديّة، مرفأ أنطاكيّة على البحر، وهي لا تزال إلى اليوم إحدى المدن الرئيسيّة في ألقاب مطران الروم الملكيّين بحلب. وأمّا "القصر"، فإنّنا نعتقد أنّ هذه الكلمة إنّما هي تحريف لمدينة "القيصر" وقلعتها القديمة الواقعة على نحو عشرين كيلومتراً جنوبيّ أنطاكيّة، والتي بناها الصليبيّون في قلب منطقة "جبل القيصر"، وجعلوا منها غالبًا مركز البطريرك اللاتيني الأنطاكي. ثمّ احتلّها السلطان بيبرس سنة ١٢٧٥، وضمّها إلى ولاية حلب. أمّا سبب تحريف الكلمة في مخطوطات المطران غريغوريوس بن فضيل فلعلّه متأتٍ من كون الكاتب قد اعتمد اللفظ الدارج للكلمة، فكتبها بضمّ القاف وكسر الصاد: قُصِر، بدلاً من قُصير.

على أنّه من الثابت أنّ ولاية غريغوريوس بن فضيل كانت تمتدّ إلى الجزء الأكبر من سوريا الشماليّة. فإنّنا نراه ينهي أحد كراريسه "في قرية قرصبلوا في تاريخ الثلاثين من شهر تشرين الأوّل سنة ٧٠٦٥ لكون العالم، وللهجرة سنة ٩٦٣، وكان قسّ ضو حاضرًا" (أي سنة ١٥٥٦م) (المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٧٤، ص ٢١٥ب).

وإنّه ينهي كراسًا آخر "في قرية اليعقوبيّة بتاريخ السادس من شهر تشرين الآخر سنة ٧٠٧١" للعالم (أي سنة ١٥٦٢م)، ويوقعه "الحقير في رؤساء الكهنة غريغوريوس" (المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٧٤ ص ٢٦٨آ).

وبتاريخ ٧ تمّوز سنة ٧٠٨٤ للعالم [١٥٧٦م] يوقّع مخطوطة بتريركيّة الروم الأرثوذكس بدمشق رقم ١٧٨١ بهذه العبارة: "غريغوريوس رئيس أساقفة حلب وحنّاك" أو "خادم كرسيّ حلب وأوخابيطا" (أي حنّاك)...

وقد حفظت لنا الصفحة ١٩٩آ من المخطوطة الفاتيكانية العربيّة رقم ٤٧ (وهي تتضمّن نصّ الليتورجيّات الثلاث، باليونانيّة والعربيّة، منسوخة بيد البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ سنة ١٥٨٢) نص "الذبتيخا" التي كانت تنشد للمطران غريغوريوس ابن فضيل في القداديس الحبريّة، لكنّها باللغة اليونانيّة مكتوبة بأحرف عربيّة، وقد استطعنا أن نستبين منها أنّ صاحب الترجمة كان يعتبر أنّ ولايته تمتدّ لا على حلب فحسب، بل على طرابلس وبمفيليا وأرمينيا وأوخايطا وتوابعها، ممّا جعل هذا المطران يعتبر، بعد البطريرك، أوّل زعيم لطائفة الروم وكبير أساقفتها بلا منازع، لا سيّما وأنّه قد بقي أسقفًا على حلب نحوًا من اثنتين وأربعين سنة، وطعن جدًّا في السن، فأصبح بلا ريب عميد المصف الأسقفيّ في البطريركيّة الأنطاكيّة.

نشاطه الأدبيّ

إنّ غريغوريوس بن فضيل كان ناسخًا أكثر منه مؤلّفًا. وخطّه غير جميل، وكتابته محشوّة بالأخطاء الإملائيّة، كما أنّ لغته أقرب إلى العلميّة، ممّا يستدل معه على أنّه كان رجل عمل وإدارة أكثر ممّا كان رجل قلم وأدب.

١) فمن كتبه مجموعة من المقالات والقصص والصلوات والأحكام والأشعار، حفظتها لنا المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٧٤، وقد بدأ بكتابتها وهو شمّاس باسم غفيف بن فضيل سنة ١٥٤٠، وما زال يكتب فيها وينقل وينسخ حتّى وافته المنون وهو أسقف سنة ١٥٨٢. ولكي نعطي القارئ فكرة عن هذه المجموعة الغريبة نورد فيما يلي أهم فصولها:

- قصّة دانيال الحبيس القدّيس (صلاة استقسام ضدّ الشياطين)
- صلاة لأجل السمّ وغيره
- تعويذة للطاعة والقبول
- قصة الملك الأبجر
- صلاة سيّدتنا مريم العذراء لمّا خرجت هاربة إلى مصر
- صلاة وحجاب لوجع القلب
- قصّة القدّيس ساسين وأخيه
- صلاة لمن وقع في الفنداسيا
- قصّة القدّيس العظيم مار كلّس، وهي حرز للأولاد من التوابع
- ترتيب قراءة الإنجيل والرسائل
- منافع المزامير
- ماذا يجب أن يفعله الكاهن الذي يريد أن ينزل عن كهنوته
- أمثال ومعاني لقمان الحكيم
- عظة ليحنّا الذهبيّ الفم
- بدء قدّاس يوحنّا الذهبيّ الفم بالعربي
- شرح عن المحبّة وعن حفظ الأحد وعن الأربعاء وعن الاعتراف الذي يغفر الذنوب وعن خوف الله
- عظات وصلوات لحالات مختلفة
- أبجديّة الأمثال الحلبيّة السائدة بين الناس (ص ٢٦٨ب)
- حساب استخراج العيد الكبير
- مجموعة من الأشعار العلميّة (ص ٢٩٦آ حتّى ص ٣٠١).

٢) في سنة ١٥٦٢ نسخ كتاب السواعي (المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٥٠). ولهذه النسخة أهميّتها، لأنّها سابقة للترجمة المصحّحة التي قام بها خلفه على كرسيّ أبرشيّة حبل المطران ميلانوس كرمة.

٣) كل ما يمكن أن ينسب إلى المطران غريغوريوس بن فضيل من تأليف شخصي هو قانون "الأمانة المستقيمة" الذي كتبه بخط يده في المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٤٧، وذيّله بهذه العبارة (ص ٨ب): "تمّت الأمانة المستقيمة نهار الخميس ثامن شهر آذار المبارك سنة ٧٠٧٩ (١٥٧٠م) في الصوم المقدّس، على يد الحقير الخاطئ غريغوريوس خادم كرسيّ حلب وأعمالها". وإنّ هذه "الأمانة المستقيمة" تضمّنتها أيضًا المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٣٢، المنسوخة سنة ١٥٨٤، أي بعد وفاة صاحب الترجمة. وإنّ ناسخها قدّم لها بالملاحظة التالية (ص ٥١آ): "هذه بيستيس (أي الأمانة) عن المطران غريغوريوس في معاني الاعتقاد الأرثوذوكسية في الأمانة المقدّسة".وهناك قانونان آخران للإيمان تضمّنتها المخطوطة المذكورة، دون ذكر نسبتها صراحة للمطران غريغوريوس، فالأوّل منهما (ص ٥١آ) يبدأ بهذه العبارة: "نقول نحن معشر النصارى الأرثوذكسيّة...". وثانيهما (ص٥٧آ) يبدأ بالعبارة التالية: "هذه الأمانة المستقيمة الأرثوذكسيّة...". أمّا بقيّة المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٤٧ فهي مجرّد نقل لبعض مؤلّفات بولس الأنطاكيّ أسقف صيدا بخط غريغوريوس بن فضيل.

٤) يضاف إلى ذلك مجموعة صلوات طقسيّة وقوانين كنسيّة وبعض المواعظ، نسخها في مخطوطة مكتبة بطريركيّة الروم الأرثوذكس بدمشق تحت رقم ١٧٨١، وقد كتبت سنة ١٥٧٦ وسنة ١٥٧٩.

هذا كل ما عثرنا عليه حتّى الآن من نشاط المطران غريغوريوس بن فضيل في حقل التأليف والنسخ. وهو كما يرى القارئ بسيط جدًّا. ومع ذلك فالمطران غريغوريوس بن فضيل هو المؤلّف الروميّ الملكيّ الوحيد في القرن السادس عشر...

وفاته

في شهر شباط سنة ١٥٨٢ كان غريغوريوس بن فضيل لا يزال في قيد الحياة. إذ أنّه بتاريخ ١١ شباط سنة ١٥٨٢ فرغ البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ من نسخ كتاب "القناديق الثلاثة" المحفوظ في المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٤٧ وذيّله بهذه الحاشية ومهره بتوقيعه باليونانيّة فقال (ص ٦٨آ): "وكان الفراغ من هذا القنداق المبارك نهار الأربعاء من جمعة الجبن حادي

عشر من شهر شباط سنة ٧٠٩٠ للعالم (أي ١٥٨٢م). وقد علّقه بيده الفانية الفقير إليه تعالى ميخائيل برحمة الله تعالى البطريرك الأنطاكيّ ابن المرحوم وهبه ابن المعلّم عيسى الصبّاغ بمدينة حماه المحروسة.. والكتاب المذكور برسم الأخ الخوري عبد المسيح بن المرحوم الشيخ فضيل والد الأخ المكرّم كير غريغوريوس مطران مدينة حلب وطرابلس". وأضاف البطريرك ميخائيل المذكور في الصفحة ٩آ من المخطوطة عينها: "هذا القنداق المبارك برسم الاشبين العزيز والركن الحريز الخوري عبد المسيح أخي الأخ المكرّم والجوهر المتمّم كير غريغوريوس مطران مدينة حلب وطرابلس المحروستين... سطّر بتاريخ شهر شباط سنة ٧٠٩٠ لآدام، سادس سنة من بطريركيذة الحقير". وفي الصفحة ١٠آ من المخطوطة عينها كتب المطران غريغوريوس خادم كرسيّ حلب وأعمالها. هذا القنداق المبارك برسم الأخ القسّيس عبد المسيح ابن المرحوم فضيل ابن المرحوم توما ابن المرحوم موسى ابن تُجّار من معمورة كفر بهم، وهو ساكن يومئذٍ بمحروسة حلب". يلي ذلك توقيع المطران غريغوريوس بالأحرف اليونانيّة، ممّا يدلّ على أنّه بتاريخ شهر شباط سنة ١٥٨٢ كان لا يزال على قيد الحياة.

على أنّه في حاشية أخرى (ص ٧آ) من المخطوطة المذكورة عينها، يقول البطريرك ميخائيل السابع الصبّاغ أنّ "كتاب القناديق" هذا قد انتقل "بطريق الوراثة الأهليّة" إلى القسّ منصور نجل المطران غريغوريوس بن فضيل، خادم كرسيّ حلب، ويسمّيه "المرحوم". ولكنّه فاته أنّ يؤرّخ هذه هذه الحاشية، بينما لم يفته أن يوقعها. مع ذلك فنحن نعلم أنّ البطريرك ميخائيل الصبّاغ قد غادر حلب إلى القسطنطينيّة بين سنتيّ ١٥٨٢ و١٥٨٤ لكي يدافع عن نفسه أمام بطريركها المسكونيّ، فيتوجّب علينا إذًا أن نضع وفاة المطران غريغوريوس بن فضيل بين شهر شباط ١٥٨٢ وأواخر سنة ١٥٨٤.

وإنّنا نستطيع كذلك أن نحصر وفاته بين شهر شباط ١٥٨٢ وشهر نيسان ١٥٨٧ إذًا أنّنا نتبيّن من الحاشية التي كتبها ابنه القسّيس منصور في ذيل الصفحة ٢٩٥آ من المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ١٧٤ إنّ والده المطران غريغوريوس كان قد توفّي قبل ذلك التاريخ، إذ يقول أنّه بتاريخ عيد الفصح المجيد سنة ٧٠٩٠ للعالم (١٦ نيسان ١٥٨٧) "قطع الحقير في الكهنة القدّيس منصور ابن المرحوم كير غريغوريوس ابن المرحوم فضيل الزفر..".

وإنّنا نقترح اعتماد سنة ١٥٨٢ كتاريخ لوفاته، لأنّ هذا هو تاريخ آخر إثر عصرنا عليه من حياته، ولأنّه التاريخ الذي يتلاءم وتواريخ تنصيب خلفائه

على كرسيّ حلب، كما سنرى في المقالات التالية. ويشاطرنا هذا الرأي كلّ من المرحوم حبيب الزيّات والإكسرخوس يوسف نصر الله.

أمّا أين توفّي وأين دفن، فيقول البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم في "المجموع اللطيف" [١٢] إنّه "مات في حماه ودُفن هناك".

هذا هو غريغوريوس بن فضيل، أوّل أساقفة حلب على الروم الملكيّين في العصر الحديث: أسقف همام، زعيم قويّ، راعٍ حريص، لاهوتيّ عادي، كاتب وناسخ بسيط، لكنّه لعب دورًا كبيرًا في تاريخ الكنيسة الروميّة الملكيّة في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلاديّ.

مصادر البحث

- مخطوطة بتريركيّة الروم الأرثوذكس بدمشق رقم ١٧٨١
- المخطوطات الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٣٢، ٤٧، ١٤٧، ٥٤، ١٧٤، ٧٤،٥٠
- "المجموع اللطيف" للبطريرك مكاريوس الحلبيّ لبن الزعيم في مخطوطة مكتبة دير الشير رقم ٦٠٠
- J, NASRALLAH, Chronologie des patriarches melchites d,Antioche de 1500 a 1634 Jerusalem 1956-1957, p. 38, note 1.
- G. GRAF, Geschichte der christlischen arabischen literature, t. III, p. 90
- مجلّة النعمة، السنة الثالثة، ص ١٤
- مجلّة المشرق، السنة الحادية عشرة، ص ٥٤٠، وسنة ١٩٣٨ ص ٤٦٧
- الخزانة الشرقيّة للمرحوم حبيب الزيّات، السنة الثالثة، ص ١٦ و١١٠

-٢-

مكاريوس بن خلف

(١٥٨٢-١٥٩٧)

تنصيبه أسقفًا على حلب

إنّ معلوماتنا عن هذا الأسقف لا تزال نادرةً غامضة. وأهمّ ما بلغنا عنه إلى اليوم هو أنّه كان خلفًا مباشرًا للمطران غريغوريوس بن فضيل. فقد جاء في "المجموع اللطيف" للبطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم: "وبعده [أي بعد

[١٢] مخطوطة دير الشير رقم ٦٠٠، ص ١٤٨.

غريغوريوس بن فضيل] صار مكاريوس بن خلف أسقفًا على حلب، ومات في القسطنطينيّة ودفن هناك"[١٣].

فكما اقترحنا، من باب الإفتراض، سنة ١٥٨٢ تأريخًا لوفاة غريغوريوس بن فضيل، نقترح كذلك من باب الإفتراض السنة ١٥٨٢ عينها تأريخًا لتنصيب مكاريوس ابن خلف أسقفًا على حلب، ريثما يثبت خلاف ذلك بالعثور على وثائق جديدة.

علاقته بالمرسلين الأجانب

إنّ الرهبان الفرنسيسكان التابعين لحراسة الأراضي المقدّسة بلغوا حلب وأقاموا بها منذ سنة ١٥٧١. على أنّه في سنة ١٥٨٥، وصل إلى حلب كلّ من الأسقف ليوناردو آبل والراهب اليسوعيّ اليانو، موفدين من قبل الحبر الرومانيّ البابا غريغوريوس الثالث عشر لتفاوض مع الكنائس الشرقيّة في موضوع إعادة الإتّحاد والشركة بينهما وبين الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ. وقد بلغا حلب قادمين من طرابلس.

لسنا ندري ماذا كان موقف مطران حلب مكاريوس بن خلف من هذه البعثة البابويّة، ولا ما إذا كان اتّصل بها.

على أنه كان يقيم في حلب إذ ذاك البطريرك المستقيل ميخائيل السابع الصبّاغ، الذي كان قد تنحّى عن البطريركيّة سنة ١٥٨٠، ولجأ إلى حلب لدى صديقه ومناصره الكبير المطران غريغوريوس بن فضيل. وعند وفاة هذا الأخير بقي في حلب حتّى وافته المنون سنة ١٥٩٢، فلقيه إذن الموفدان البابويّان وفاتحاه بشأن إعادة الوحدة والشركة مع الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ. فتجاوب البطريرك المستقيل معهما إلى أقصى حدّ. وأعلن إيمانه الكاثوليكيّ شفاهًا أمام الموفدين البابويّين، ثمّ وقّعه خطيًّا (المخطوطة العربيّة رقم ١٤٨٢ من مخطوطات المكتبة الفاتيكانيّة، ص ١آ-٢ب). وأضاف إلى ذلك رسالة مطوّلة إلى البابا سيكستس الخامس (المخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٤٨، ص ٦٨آ إلى ٦٩آ)، يظهر في صحّة إيمانه وخضوعه لسلطته، ويشكو له عجزه عن الذهاب إلى رومة، وشدّة الاضطهاد الذي ناله من مزاحمه البطريرك يواكيم الخامس ضوّ وأعوانه. كما كتب رسالة أخرى، بتاريخ شهر أيّار سنة ١٥٨٥، إلى الكاردينال جوليو أنطونيو سانتورو دي سنتا سفرينا

[١] مخطوطة مكتبة دير الشير رقم ٦٠٠، ص ٢٤٩.

(المخطوطة الفاتيكانية العربيّة رقم ٤٨، ص ٦٦آ إلى ٦٧آ)، نقطتف منها المقاطع التالية[١٤]:

"ليس بخافٍ عن محبّة قدسكم حضور المحبّ الكامل، العالم العامل، المحقّق المدقّق، فريد دهره وحيد أهل زمانه وعصره، الأسقف كير ليونارضو أيقف مدينة صيدا إلى البلاد، وإنّه أنشأ محبّةً وسلامةً وصلحًا مثل الرسول بولس. وكلّ ذلك لأجل اتّضاعه ومنطقه الحلو. ولأجل محبّته الزائدة آثر الحقير أن يصحبه مسافرًا معه إلى عند قدسكم، ويشاهد طلعة قدس أب الآباء كير سيسطوس البابا الجزيل قدسه بمدينة رومية العظمى، وقدسكم أيضًا. وما قطعنا عن السفر إلاّ الضعف في مدينة حلب، وشيء من الشيخوخة وعدم القوّة، وشيء من عدم قوّة الباصرة. ونرجو من الله أن يكون في العمر فسحة ويريد الله أن نَحضُر بين أيديكم إن شاء الله تعالى وبركة صلواتكم. آمين.

"ونطالع قدسكم: لا تسأل عمّا جرى على هذا الحقير من الامتحان والشدائد. وأخذني الروم مرتين مقيّدًا بشاوي . وصار على الحقير شيء ما صار على الشهداء، ولكنّ الشهداء جرى عليهم (ذلك) من الملوك عباد الأصنام. وأمّا نحن فقد صار علينا هذا من أبناء جنسنا وعشيرتنا من جماعة الروم. وقدس الأخ الأسقف يعلم ذلك. وفي مطالعة الأب البابا مسطّرٌ ذلك. وصبرنا على ذلك جميعه، وقبلناه بشكر، وشكرنا الله عليه. ونحن أضعف عباده. وفي التواريخ كما في شريف علمكم جرى (مثل هذا) على آباء وقدّيسين كانت أشباحهم تقيم الموتى. وكلّ ذلك سمح الله به لأجل خطايانا وقلّة محبّتنا لبعضنا بعضًا، وتعدّينا على النواميس المقدّسة، إذ صارت البطريركيّة والكهنوت ينباعوا بالمال، ويؤخذ عليهم الرشا. ويا ليت ينباعوا من النصارى، بل من الأمّة الغريبة. وجميع ما كتبناه وعرفنا به قدسكم من تعدّي النصارى ما هو إلاّ قيراط من اربعة وعشرين. ونعرّف قدس الأب أنّه من عظْم ما عملوا مع الحقير إنّه لم يعد يقدر على القوت واللباس، يشهد الله"...

هذا ما كتبه البطريرك المستقيل ميخائيل السابع الصبّاغ المقيم إذ ذاك في حلب، ممّا يدلّ على نجاح البعثة البابويّة فيها، وبدء انتشار الأفكار المواليّة للكثلكة بين أبنائها.

أمّا البطريرك الفعليّ يواكيم الخامس ضوّ، فقد لقيه المبعوثان البابويّان في قرية بجوار دمشق تُدعى عيتا. وتواعدوا على أن يلتقوا مرّة أخرى في

---

[٢] هذه الرسالة نشرها لأوّل مرّة الأب قسطنطين الباشا المخلّصيّ سنة ١٩١٢ في حاشية من كتابه للعنوان "نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبيّ، بقلم ولده الشمّاس بولس"، ص ٢٣-٣٥.

طرابلس. ولكنّ البطريرك لم يستطع الحضور، أو تهرّب عن المجيء، وسافر إلى القسطنطينيّة.

على أنّ الموفدين البابويّين جاءا طرابلس في الموعد المضروب، وتحدّثا إلى زعماء الروم الملكيّين فيها. وقد لاقت بعثتهم استحسانًا مشجّعًا من قبل الكثيرين، وبعض المعارضة من قبل غيرهم. وعلى إثر ذلك كتب زعماء الطرابلسيّين الملكيّين إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر بتاريخ ١٦ أيلول سنة ١٥٨٤ رسالة جميلة نقطتف منها المقاطع التالية، موردين إيّاها على أصلها الركيك:

قال الطرابلسيّون: "إنّ الأب الأقدس والإناء المقدّس أبانا وسيّدنا كير دون ناردو [أي ليوناردو] أسقف صيدونيا خبّرنا عن جميع إحسان قدسكم وحنوّكم ومراحمكم والخير الذي تفعلونه مع سائر الطائف المسيحيّين، وبالأكثر لطائفتنا عبيدك الملكيّة. وحمدنا الله تعالى، وتزايد شكرنا له على ما أنعم علينا في زماننا هذا ببركة قدسك ورأفتك على سائر الشعب المسيحيّ. وبعده سافر من عندنا الأب السيّد كير دوناردو المشار إليه من طرابلس على حلب، ثمّ رجع إلى مدينة الشام، واجتمع مع سيّدنا وبطركنا كير يواكيم البطريرك الأنطاكيّ، بطريرك الملكيّة، في قرية من قرى الشام تُدعى عيتا، واتّفق معه أنّه يجتمع عندنا في طرابلس...زكان الإتّفاق بين سيّدنا البطريرك كير يواكيم وبين كير دوناردو أن يكون تمام المحبّة والطاعة إلى الكرسيّ البطرسيّ الرومانيّ على ما رتّبه الآباء القدّيسون الثلاثمائة ثمان عشر في مدينة نيقيه، وأيضًا على ما رتّبه الآباء القدّيسون في مدينة فرنسيا [أي فلورنسا]، وعلى أنّ الإتّحاد يكون واحدًا، والأمانة واحدة، وهي الأمانة المستقيمة الكاثوليكيّة الأرثوذكسيّة تكون واحدة والمحبّة واحدة. وأيضًا خبّرنا عن سبب القاعدة الجديدة التي صارت في كنيسة روما المقدّسة وهي قاعدة الأعياد والمواسم، تكون عند جميع الطوائف. ولكنّ ما قُسّم نصيب في الاجتماع في هذه المدّة، لكون سيّدنا البطريرك كير يواكيم بطركنا صار عليه حيف كثير وخسر خسائر كثيرة وتديّن مبلغًا له صورة، ولي سله قدرة على وفاء دينه، وخشي من أصحاب الديون أن يحبسوه، فما قدر أن يحضر إلى طرابلس، فنزل في البحر وسافر إلى مدينة القسطنطينيّة... وإن شاء الله تعالى يرجع بطركنا مجبور الخاطر. والذي في خاطركم يصير على أتمّ الوجوه بوجود قداستكم ومحبّتكم... ولا شغل عندنا وعند المطارنة والأساقفة والكهنة الذين لنا إلاّ تكميل الإتّفاق والمحبّة في استقامة الامانة الأرثوذكسيّة الكاثوليكيّة... ونسال من الله سبحلنه وتعالى

وحنوّه على شعبه أن يرجع سيّدنا البطريرك يواكيم مجبور الخاطر في قريب غير بعيد، وتكمل المحبّة. ونحن عبيد قدسكم سميعون مطيعون وخاضعون إلى الكرسيّ البطرسيّ الرسوليّ وإلى قداستكم وبركتكم... ولا تنسونا من صالح دُعائكم وبركتكم في عقيب صلواتكم المقدّسة، بعد طرح مطانيات عدّة لدى قدسكم... مع استعراض خدمكم لنفوز بقضاها على الرأس والعين، والتلاميذ واقفون على قدم الطاعة لما تبرز به أوامركم المُطاعة".[15]

سفره إلى القسطنطينيّة

بقي مكاريوس بن خلف أُسقفًا على حلب نحو خمسة عشر عامًا. وفي أواخر عهده بالأسقفيّة عانى مشقّة وافرة سبّبها له أحد النصّابين المحتالين من دمشق، من أسرة بيت الكباب. وكانت هذه المشقّة في النهاية سبب وفاته. وإنّنا ننقل هذه القصّة بحذافيرها، كما أوردها البطريرك الحلبيّ ابن الزعيم في "مجموعة اللطيف"[16] حيث قال:

"في أيّام [البطريرك الأنطاكيّ يواكيم السادس بن زيادة (١٥٩٣-١٦٠٤)] مضى واحد من أهل دمشق من بيت الكباب، وكان يتظاهر بلباس الرهبان بالزيّ فقط لا بالفعل، وكان يطوف البلاد في هذا الشكل الكاذب. ونظره أقوام من المسلمين في قهوات حلب مراراً كثيرة جالسًا هناك يأكل ويشرب في الصيام الكبير من باكر. وشهدوا عليه بذلك قدّام كهنة حلب. وبعد ذلك مضى من حلب إلى بلاد الكمخ وحمزك[17] وما يليها، وعمل ذاته بأنّه مطران مرسل إليهم من قبل بطرك انطاكية بطركهم. وكان معه كتب كاذبة على لسان البطرك. وأن الجماعة لأجل صلاحهم وسذاجتهم، ولأجل أنّه لم يمضِ إليهم رئيس كهنة منذ قطّ، قبلوه وأكرموه كثيرًا. وإنّه بدأ يقدّس عندهم ويشرطن لهم كهنة وشمامسة ورهبانًا، ويعمل كلّ الأمور اللائقة برؤساء الكهنة. فلمّا علم بهذا البطرك اغتاظ كثيرًا، وبخاصّة لمّا سمع عنه بأنّه قد جمع منهم مقدارًا من المال. فأرسل هذا البطرك إلى مكاريوس مطران حلب الملقّب بابن خلف بأن يقوم ويمضي إلى القسطنطينيّة ويعلم بتركها بالأمر. وأرسل إليه مكتوبًا منه إلى بطرك القسطنطينيّة بالتفصيل. فذهب مطران حلب ودفع مكتوب البطرك الأنطاكيّ إليه. فلمّا قرأه البطرك وعرف مضمونه أرسل وأعلم الوزير بالقضيّة. فأرسلوا وأحضروه من هناك مع جاويش . فلمّا أحضروه إلى

---

[15] RABBATH, Documents inedits pour server a l,histoire du christianisme en Orient, T. I, P, 183-185

[٤] المخطوطة المذكورة، ص ٦٢٤-٢٢٦.

[٥] هي مقاطعة ديار بكر وآمد وارظروم، حيث كان للملكيّين جاليات كبيرة.

القسطنطينيّة وادّعوا عليه قدّام الوزير بالمال الذي جمعه من أولائك وطالبوه به، فللوقت جحد المسيح، وصارت تفرقة. وإنّ المطران غريغوريوس [ويعني مكاريوس]،من كثرة غيظه، مرض في القسطنطينيّة ومات، ودُفن هناك. وأمّا الكهنة المشرطنون من قبل ذلك الشقيّ، فحكم البطركان والمجمع المقدّس بأن تُعاد شرطونيّتهم، لأنّ ذلك المحروم لم تكن عليه شرطونيّته".

وفاته

يقول البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم في كتابه "المجموع اللطيف"، كما أوردنا في مطلع هذا البحث، أنّ المطران مكاريوس بن خلف "مات في القسطنطينيّة ودُفن هناك". وإنّ هذا التأكيد يبدو لنا أحقّ بالتصديق من رأي الخوري ميخائيل بريك في كتابه "الحقائق الوضيعة في تاريخ الكنيسة الأنطاكيّة الأرثوذكسيّة"[١٨] حيث يقول أنّ المطران مكاريوس بن خلف، بعد حادثة القسطنطينيّة، عاد إلى حلب ومات ودُفن فيها.

ويقول الأكسرخوس يوسف نصر الله[١٩] أنّ مكاريوس بن خلف توفّي سنة ١٥٩٩، دون ذكر الإثباتات اللازمة. بينما نعتقد أنّه توفّي سنة ١٥٩٧، استنادًا إلى أقوال البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم الذي يعلّمنا في "مجموعة اللطيف" أنّ سيماون أسقف مرمنيثا الذي خلف مكاريوس هذا على كرسيّ حلب إنّما بقي في إدارة تلك الأبرشيّة خمسة عشر عامًا، ثمّ خلفه المطران ملاتيوس بن كرمه الذي تبوّأ كرسيّ حلب في ١٢ شباط سنة ١٦١٢، ممّا يثبت لنا أنّ مكاريوس بن خلف توفّي سنة ١٥٩٧، لا سنة ١٥٩٩.

هذا كلّ ما توصّلنا إلى معرفته من سيرة مكاريوس بن خلف الصاجاتي، ثاني أسقف ملكيّ على حلب في العصر الحديث.

-٣-

سيماون أسقف مرنيثا (١٥٩٧-١٦١٢)

يقول البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم في كتابه "المجموع اللطيف"[٢٠] أنّه بعد وفاة المطران مكاريوس بن خلف، "انشقّ الحلبيّون، وصاروا فرقتين، وانتدبو اثنين للأسقفيّة. فلأجل ذلك أبطل عزمهم المرحوم

---

[٦] طبعة سليم قبعين سنة ١٩٠٣، ص ٦٢٥.

7 J. NASRALLAH, Chranologie des pariarches melchites d,Antioche de 155 a 1634, p. 52.

19

[١] مخطوطة مكتبة دير الشير رقم ٦٠٠، ص ٢٤٩.

البطريرك يواكيم بن زيادة، وأحضر لهم سيماون أسقف مرمنيثا ليدبّرهم. وأقام في حلب خمس عشرة سنة، وذهب إلى مرمنيثا، وهناك تنيّح".

لسنا ندري هل نُصّب سيماون هذا أسقفًا أصيلاً على حلب، أم قام فقط بتدبير أبرشيّة حلب الشاغرة فترة طويلة من الزمن، بصفة مدبر بطريركيّ. والرأي الثاني يبدو لنا الأرجح، استنادًا إلى التعابير التي يستعملها البطريرك مكاريوس الحلبيّ، وإلى كون سيماون المذكور عاد في آخر عمره إلى مرمنيثا أي مرمريتا، كرسيه الأصليّ، وفيها مات ودُفن.

وفي مكان آخر من "المجموع اللطيف"، يتحدّث البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم عن وضع أبرشيّة حلب في مطلع القرن السابع عشر فيقول[٢١]: "لم يكن وقتئذٍ على مدينة حلب رئيس كهنة مختصّ بها، لكنّ كان ناظرًا عليها سيماون أسقف مرمنيثا المغبوط من قبل المرحوم يواكيم البطريرك ابن زيادة"، أعني به البطريرك الأنطاكيّ يواكيم السادس ابن زيادة الذي شغل الكرسيّ البطريركيّ من سنة ١٥٩٣ حتّى سنة ١٦٠٤.

أمّ تاريخ تولّيه أبرشيّة حلب وتاريخ انسحابه منها فنستلخصهما من قول البطريرك مكاريوس الحلبيّ بأنّ سيماون المذكور دبّر كرسيّ أبرشيّة حلب مدّة خمس عشرة سنة، علمًا بأنّ خلفه المطران ملاتيوس كرمه سيم أسقفًا على حلب يوم ١٢ شباط سنة ١٦١٢، كما سنرى. فيكون سيماون المرمنيثيّ دبّر أبرشيّة حلب من سنة ١٥٩٧ حتّى سنة ١٦١٢.

وقد حاولنا أن نعرف شيئًا عن سيماون هذا أسقف مرمنيثيا، فلم نتوصّل حتّى الآن إلاّ إلى مجرّد افتراضات تحتاج إلى تمحيص ومزيد من التنقيب.

إنّ المرحوم حبيب الزيّات، في كتابه "خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا"،[٢٢] قد أفرد فصلين لأسقفين لصيدنايا عُرف كلّ منهما باسم سيماون: الأوّل كان أسقفًا لصيدنايا منذ سنة ١٥٦٥ حتّى سنة ١٥٨٠، ثمّ خلفه على كرسيّ صيدنايا أسقف آخر باسم أثناسيوس من سنة ١٥٩١ حتّى سنة ١٦٠٤، والآخر، وهو سيماون بن الخوري شحاته من قرية داريّا بجوار طرابلس، كان أسقفًا لصيد نايا من سنة ١٦٠٤ حتّى سنة ١٦٣٥.

وقد افترضنا وقتًا ما أن أحد هذين الأسقفين المدعوّين سيماون كان أيضًا أسقفًا على مرمنيثا، وتعيّن لإدارة أبرشيّة حلب الشاغرة بوفاة أسقفها مكاريوس بن خلف. لكنّ افتراضنا لم يثبت لسببين: أوّلهما أنّ مرمنيثيا غير واقعة بجوار

---

[٢] المخطوطة المذكورة عينها، في سيرة ملاتيوس كرمه، ص ٥٩٩-٦١٨ .

[٣] طبعة حريصا سنة ١٩٣٢، ص ١٥٩-١٦٦

صيدنايا، فلا يجوز دون برهان جازم القول بأنّ أسقفًا واحدًا كان يرأس كلتا الأبرشيّتين، صيدنايا ومرمنيثا. والسبب الثاني هو أن فترة تولّي سيماون أسقف مرمنيثا تدبير أبرشيّة حلب الشاغرة تمتدّ من سنة ١٥٩٧ حتّى سنة ١٦١٢، بينما نعلم أنّ سيماون الأوّل كان قد توفّي سنة ١٥٩٧، وأنّه في تلك السنة عينها لم يكن سيماون الآخر قد تبوّأ كرسيّ صيدنايا، فضلاً عن أنّ أحد الاثنين لم يضف قطّ، في حواشي المخطوطات التي أوردها المرحوم حبيب الزيّات، لقب أسقف مرمنيثا على لقبه الأصليّ "خادم كرسيّ صيدنايا".

لم يبقى لنا إلاّ أن ننتظر أن يقدّم أحد البحّثة والمنقّبين على كتابة تاريخ أساقفة مرمنيثا أي مرمريتا حتّى نستقي منه بعض المعلومات عن سيماون أسقف مرمنيثا الذي دبّر شؤون الأبرشيّة الحلبيّة، بصفة قائمقام بطريركيّ، من سنة ١٥٩٧ حتّى سنة ١٦١٢.

-٤-

ملانيوس كرمه

(١٢ شباط ١٦١٢-١ أيار ١٦٣٤)

إنّ أوثق مصدر لسيرة هذا الأسقف العظيم هو ما كتبه عنه تلميذه وخلفه على كرسيّ حلب، البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم، في "مجموعه اللطيف".[٢٣] وقد نشره المرحوم المطران لاونديوس كلزي في مجلّة "المسرّة" سنة ١٩١٣.

[٢٤]، وعنه استقينا أهمّ مراحل سيرة هذا البارّ، مضيفين إليه ما توصّلنا إلى معرفته من مصادر أخرى موثوق بها، فنقول:

نشأته

هو عبد الكريم كرمه، ابن الخوري حوران، وأمّه سعادات. وُلد في حماه سنة ١٥٧٢ [٢٥]. وقد قُتل أبوه أثناء رحلة قام بها من طرابلس إلى حماه، في مكان يُقال له "الجرن الاسود". فنشأ في حماه تحت رعاية والدته التقيّة سعادات. ولمّا تسلّم زمام أبرشيّة حلب، "أرسل فأحضرها من حماه إلى عنده وأسكنها بقربه. وكان يطيع كلامها ويعمل به، لأنّها كانت صالحة جدًّا. وأخيرًا

---

[١] مخطوطة مكتبة دير الشير رقم ٦٠٠، ص ٥٩٩-٦١٨. عن هذه المخطوطة تنقل كلّ ما ورد في مقالنا بين معكوفين دون ذكر مصدر آخر معيّن.

[٢] ص ٤١-٤٧ و ص ٨١-٨٩ و ص ١٣٥-١٤٤.

[٣] يقول البطريرك مكاريوس الحلبي إنّ ملاتيوس كرمه توفّي بطريركًا في ١ كانون الثاني سنة ١٦٣٥ "وله من العمر ٦٣ سنة". فيكون مولده إذًا سنة ١٥٧٢.

لمّا مرضت ألبسها الثوب الملائكيّ، ثمّ الإسكيم الكبير. ثمّ تنيّحت فدفنها وعمل عنها قداسات وصلوات وصدقات".

وكان له أخ أكبر يدعى الحاج تلجه بن الخوري حوران. وُلد في حماه في اواخر القرن السادس عشر. وحجّ إلى القدس الشريف. ولم يتدرّج قطّ في الرتب الكنسيّة، بل اكتفى بلبس الإسكيم الرهبانيّ، متّخذًا لنفسه في الترهب اسم يواصاف. وقد توفّي بعد سنة ١٦٥٠. وكان دأبه الدائب نسخ المخطوطات. لكنّه أكمل أيضًا ترجمة سنكسارات زمن التريودي والبندكستاري التي كان قد بدأ بها أخوه ملاتيوس كرمه، فعاجلته المنون قبل أن يتمّها. وكتابه هذا محفوظ على اليوم في المخطوطة رقم ٢٢ من مكتبة دير القدّيس يوحنّا الصابغ بالشوير، وقد نسخها سنة ١٦٥٠. وقد ألّف أيضًا رسالة "إلى ملاتيوس أسقف حلب في فضائل رؤساء البيعة وما يتحتّم عليهم من الواجبات لتدبير الرعيّة". كما أنّه كتب إلى البابا أوربانوس الثامن رسالة يخبره فيها عن وفاة أخيه البطريرك. فكان إذًا تلجه أو يواصاف بن الخوري حوران ناسخًا ماهرًا، وراهبًا مثقّفًا، تتلمذ على يده في حلب طلاّب كثيرون، منهم الأرشيدياكون بولس الزعيم، ابن البطريرك مكاريوس الحلبيّ.

وهكذا نشا صاحب الترجمة في أحضان أسرة كهنوتيّة من حماه، ورضع مبادئ الدين والأخلاق مع الحليب.

ولمّا أصبح شابًّا، حذا حذو أخيه تلجه، فحجّ إلى الأراضي المقدّسة، بصحبة صديق له يدعى برلعام، وترهب في دير مار سابا بالقرب من القدس، على يد أفلافيوس رئيس الدير، ولبث فيه راهبًا زاهدًا زهاء سنتين، ممّا أتاح له تعلّم اللغة اليونانيّة وإتقانها، لأنّ معظم رهبان الدير كانوا من بلاد اليونان.

وفي الرهبانيّة قد يكون اتّخذ له اسم ملاتيوس. على أنّه ما زال يستعمل غالبًا اسمه الاصليّ (عبد الكريم)، كما نرى ذلك في حاشية للمخطوطة الفاتيكانيّة العربيّة رقم ٤٠١، ص ١٧٢ب، وهي تتضمّن كتاب "الفردوس العقليّ"، وقد انتهى من نسخه "عبد الكريم بن الخوري حوران الحمويّ" يوم ١٧ شباط سنة ٧١١٣ للعالم، أي سنة ١٦٠٤ للميلاد، في دير الملاك ميخائيل بالقدس، التابع لدير القدّيس سابا. ومن هذه الحاشية نستنتج أنّ عبد الكريم دخل الدير وله من العمر تسع وعشرون سنة، وقضى فيه زهاء سنتين.

لكنّ أهل حماه ما لبثوا أن استدعوه والحوا عليه بالعودة إلى وطنه ومسقط رأسه، لكي يستفيدوا من وعظه وإرشاده. فرسمه سيماون بن القلّة مطران

حماه شمّاسًا إنجيليًّا، في نحو الواحدة والثلاثين من عمره، ثمّ رقاه إلى درجة الكهنوت المقدّس. فبقي يخدم الكنيسة في حماه حتّى سنة ١٦٠٨.

تنصيبه أسقفًا على حلب

يقول البطريرك مكاريوس الحلبيّ: "وفي تلك السنة (؟) أتى إلى حلب وزير ليشتو هناك، لأنّه كان ماضيًا لمحاربة العجم. فذهب هذا المغبوط (أي الكاهن ملانيوس كرمه) إلى حلب ليسقط عن أهل مدينته عدّة أسماء من دفتر السلطان..."، أي لكي يثبت أنّ عدد الأشخاص المكلّفين بالجزية من الروم الملكيّين بحماه هو في الواقع أقلّ ممّا هو مدوّن في سجلاّت الدولة العثمانيّة، وعلى ذلك يتعيّن تخفيض مقدار الجزية المترتّبة على الطائفة جماعيًّا، والتي كانت السلطة الدينيّة مكلّفة بجمعها ودفعها تحت طائلة أقصى العقوبات.

على أنّ البطريرك مكاريوس سها عن ذكر اسم الوزير وذكر سنة مروره بحلب. وقد توصّلنا إلى الاستدلال على أنّ الوزير المشار إليه هو مراد باشا القويوجي، الذي عيّنه السلطان أحمد خان الأوّل صدرًا أعظم وقد تجاوز الثمانين من عمره، وإنّ الشتاء الذي قضاه بحلب كان شتاء عام ١٦٠٨م. فقد أورد الشيخ الكامل الغزّي في "كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب"، الجزء الثالث، ص ٢٧٦، أنّ مراد باشا، بعد أن كسر في مرج دابق من أعمال قنسرين عساكر ابن الجانبولاط نهار الثلاثاء ثالث رجب سنة ١٠١٦ه، "توجّه إلى حلب، فوصل إليها في التاسع عشر من رجب. وضرب خيامه في الميدان الأخضر. واستقبله أعيان البلدة ووجهاؤها، وهنّؤه بالظفر والنصر. ثمّ التفت الوزير إلى استخلاص القلعة من أيدي بعض أعوان الجانبولاط...

ثمّ شرع يتجسّس في حلب على الأشقياء وأتباعهم. فقتل منهم جماعة. وقرّر الراحة في حلب... ونظّم أمور العسكر. **وأكمل الشتاء في حلب** (أي شتاء عام ١٦٠٨) ثمّ أقلع عنها..." لمحاربة العجم.

ويضيف البطريك مكاريوس الحلبيّ أنّه في أثناء إقامة الكاهن ملاتيوس كرمه في حلب لهذا الغرض، "تضرّع إليه المحبّون للمسيح أن يعظهم... فأقام عندهم مدّة طويلة يفعل هذا. ولم يكن وقتئذ على مدينة حلب رئيس كهنة مختصّ بها، لكن كان ناظرًا عليها سيماون أسقف مرمنيثا المغبوط، من قبل المرحوم يواكيم البطريرك ابن زيادة. ثم أنّهم بأمر الله وبرضى الكهنة وكافّة المسيحيّين القاطنين بحلب انتدبوا هذا المغبوط ليكون مطرانًا عليهم. وذهبوا به إلى دمشق، وشرطنه المرحوم أثناسيوس الثاني دباس بطرك أنطاكية مطرانًا على حلب بموجب النواميس المقدّسة في اليوم الثاني عشر من شباط، وأسماه

ملاتيوس باسم قدّيس ذلك اليوم، في سنة ٧١٢٠ للعالم، [أي سنة ١٦١٢م]. فيكون ملاتيوس قد خدم المؤمنين في حلب بصفة كاهن واعظ من سنة ١٦٠٨ إلى سنة ١٦١٢.

وبرسامة ملاتيوس كرمه أسقفًا على حلب انتهت "نظارة" سيماون أسقف مرمنيثا عليها، فعاد إلى أبرشيّته حيث مات ودُفن، بعد أن ساس أبرشيّة حلب مدّة خمسة عشر عامًا، من سنة ١٥٩٧ حتّى سنة ١٦١٢.

الراعي الصالح

يقول البطريرك مكاريوس الحلبيّ أن المطران ملاتيوس كرمه، ما أن تسلّم زمام أبرشيّة حلب حتّى "ابتدأ بالعناية بإخوة المسيح، وكتب أسامي كل الفقراء والعميان والمقعدين والأرامل والأيتام في دفتر، وجعل لهم في كلّ يوم أحد وعيد شيئًا معلومًا من الصدقة. وأقام لهم وكيلاً فاضلاً. وذلك الوكيل كان يجمع لهم يوم الأحد والعيد صدقة من المؤمنين. وبعد القدّس كان يمضي إلى مواضعهم، ويفرّق على كلّ واحد منهم ما هو مرتّب له، لا دراهم فقط، بل أيضًا في بعض الأوقات لحمًا وخبزًا وأطعمة، في كلّ وقت ما يليق به، وفاكهة أيضًا، وفي أيام الشتاء ثيابًا لكسوتهم، وفحمًا. ثمّ يفتقد مرضاهم بما يحتاجونه، وبيوتًا يسكنونها، ويعطي عنهم كراهًا".

"وعمل كذلك وكيلاً آخر للغرباء والواردين. وشرع في تزويج البنات والعزّب عند إدراكهم. وأبطل ذلك النقد الكثير الذي كان مرسومًا للبنات. وكذلك أبطل عمل الأعراس التي بالطبول والزمور والملاهي عم السكر والغناء. وأمر بأن تكون الأعراس بالبركات والصلوات في الكنائس، وأن لا يجتمع أحد في بيت العريس بالجملة. وأبطل كلّ تلك الأمور المعوّقة عن الزواج من الكلف الكثيرة والمغارم والشرور...".

"ومنع أيضًا النساء عن التحلّي بزيّ الخارجات، ممّا يضعنه من المواد على وجوههنّ وحواجبهنّ، فإنّه يهرم الوجه والجسد، ويهلك النفس في جهنّم. وأمر الرجال أن لا يسرفوا في النفقة على المآكل والمشارب والأجساد، لكن ما كان ضروريًّا فقط، وأن يوفّروا كلّ يوم شيئًا من أتعابهم لأجل الخراج والخسائر الموضوعة على المسيحيّين، ليكونوا أبدًا ناجحين في أمور الروح والجسد...".

وقد عني عناية خاصّة "بتهذيب الكهنة وحسن سيرتهم ونظامهم، لأنّهم نور في العالم. وابتدأ هو بعمل الفضيلة قدّامهم، لأنّه لم يكن يشرب الخمر ولا العرق بالكليّة. ولا كان يمضي إلى وليمة بالجملة، ويتوفّر بذلك على التعليم وتدبير أمور المؤمنين بأسرها، للخاصّ منهم والعام، وليس الروحانيّة فقط،

لكن والجسدانيّة أيضًا. وهكذا أمر الكهنة بأن يكونوا، لأنّهم رعاة لخراف المسيح الناطقة. وأمر العلمانيّين كذلك باجتذاب السكر وشرب الخمر، وحذّرهم كثيرًا، وأمرهم بأن يستسيروا سيرة حسنة تليق بالمسيحيّين، وأن يجتهدوا في خلاص نفوسهم، ويسعفوا ويهدوا بعضهم بعضًا، ويحبّ كلّ واحد رفيقه من كلّ قلبه... وكان يُعنى بتزويج بنات الفقراء واليتامى. وكان يقرنهم بشبّان لائقين بهم في العمر والمرتبة... فكان أبًا لليتامى، ومعضدًا للأرامل، ومسعفًا للعميان والمقعدين، ومسلّيًا للغرباء، ومعزّيًا للذين هم في الشدائد والأحزان. فكان وسيطًا بين الله والناس..."

نشاطه العمرانيّ والثقافيّ: إنشاء أوّل مدرسة مسيحية في حلب

يقول البطريرك مكاريوس الحلبيّ عن صاحب الترجمة أنّه منذ بداية عهده بالأسقفيّة "شرع في عمارة البيعة وتوطيدها وزينتها بآلة القدّاس والإيقونات الطاهرة والكتب الإلهيّة وما يتبع ذلك".

كان لطائفة الروم الملكيّين بحلب، منذ أوائل القرن الخامس عشر، كنيسة صغيرة في ساحة الكنائس بحي الصليبة، إلى جانب كنيستي الأرمن وكنيسة الموارنة وكنيسة السريان. ولا بدّ أن يكون المطران ملاتيوس كرمه قد عمد إلى ترميمها أو توسيعها، بحيث جاز للبطريرك مكاريوس الحلبيّ أن يقول أنّ المطران ملاتيوس كرمه قد "شرع في عمارة البيعة وتوطيدها".

على كلّ فقد كان له في أقلّ تقدير الفخر بتجهيزها بما يلزم لإقامة القدّاس الإلهيّ بتزيينها بالإيقونات المقدّسة. ونحن نعلم أنّه كان لملاتيوس رفيق يونانيّ هو الراهب ملاتيوس الصاقزي (أي الذي من جزيرة خيّو)، اصطحبه إلى حلب من دير القدّيس سابا، وكان من مصوّري الإيقونات. فأخذ عنه بعض الشبّان الحلبيّين فنّه. ومنهم الخوري يوسف المصوّر، الذي أسّس المدرسة الإيقونغرافيّة الحلبيّة، ولقّن فنّه لابنه نعمة المصوّر، وهذا لقّنه لابنه حنانيا المصوّر، وهذا لقّنه لابنه جرجس المصوّر، ولكثيرين آخرين في سوريا ولبنان. وهكذا بدأت في عهد ملاتيوس كرمه النهضة الفنيّة بين الروم الملكيّين بحلب. وجدير بالذكر أنّ ملاتيوس كرمه كان يكنّ لرفيقه الصاقزي أكبر تقدير، بحيث أنّه قبل وفاته أوصى به خلفًا له على الكرسيّ البطريركيّ، فعُيّن له وشغله بجدارة من سنة ١٦٣٤ حتّى سنة ١٦٤٧.

ويقول الشمّاس بولس ابن البطريرك مكاريوس الحلبيّ أنّ المطران ملاتيوس كرمه "عمّر منزلاً في قلاّية المطرانيّة عجيبًا جدًّا، ذا منافع كليّة، متقن البنيان، سامي الجدران، بديعًا في تكوينه، متينًا في تركيبه. وقد تمّ بسعيه

وجدّه. وأوقفه على رؤساء الكهنة الوافدين بعده"[٢٦]. يستنتج من هذه الأقوال أنّ ملاتيوس بنى داخل دار المطرانيّة بحلب منـزلاً فخمًا لسكن الأسقف.
وبدأت هكذا في عهد ملاتيوس كرمه نهضة ثقافيّة بين الروم الملكيّين في حلب، كان هو رائدها بما ألّف وما صحّح وما نقل وما نسخ، ممّا سنفرد له بابًا خاصًّا عند كلامنا عن إنتاجه الأدبيّ، وحسبنا أن نشير هنا إلى أنّه في شهر كانون الثاني سنة ١٦٢٩ سعى بفتح مدرسة لأبناء طائفته وأبناء الطوائف الأخرى في دار مطرانيّته، وعهد بالتعليم فيها إلى الأب اليسوعيّ جيروم كيروت (Queyrot)، فكانت هذه أوّل مدرسة مسيحيّة تنشأ في حلب.

تقواه وزهده وتقشّفه

يقول البطريرك مكاريوس الحلبيّ أنّ المطران ملاتيوس "لم يكن يقبل من أحد شيئًا من المأكول والمشروب هديّة قطعًا، إلاّ ممّن كان يأتيه بشيء لأجل الفقراء والمساكين والكنائس والأديرة، فكان يقبله ويوصله إلى أصحابه. وكان لا يكتفي بالنهار وبتعبه وشقائه مع الرعيّة، لأجل إصلاحها وتدبيرها، بل كان لايفتر في الليل من الصلاة والسهر والتضرّع إلى الله من أجل أبنائه. ولم يكن يقطع خدمة القدّاس الإلهي! بذاته أبدًا، وليس في أيام الآحاد والأعياد وللأحياء فقط، بل للمتوفّين أيضًا..."

وفي تقرير كتبه الأب اليسوعيّ بيسّون (j.Besson) إلى رؤسائه عن نشاط زميله الأب جيروم كيروت اليسوعيّ ورد "أنّ الأب كيروت، بعد شفائه من علّته، استعاد من القوّة ما مكّنه من تقديم خدماته لمطران الروم، وهو رجل كاثوليكي حتّى الصميم ومتقشّف في سيرته إلى أبعد حدّ. وقد قرّر أن يسلّمنا تثقيف شبيبة الروم في هذه البلاد، ونبذ عنه أقاويل أعداء الإيمان الروماني. وجدير بالذكر أنّ هذا الأسقف القدّيس لم يكن يتناول الغذاء سوى قليل من الخبز والماء في وجبات طعامه العاديّة. وكانّ العناية الإلهيّة أرادت أن تكلّل بإكليل الثواب ذاك الاندفاع الذي كان يظهره نحو تحمّل الآلام، فمنحته أيامًا عوّضته فيها عن قصرها بعلوّ مجدها، فسمحت بأن يختلسها بعضهم منه. وجدير بالذكر أيضًا أنّه على أثر توبيخ البطريرك القسطنطينيّ له على كونه يستعمل راهبًا افرنجيًّا في داره الأسقفيّة بالذات لتعليم اللغة الروميّة، لم يعدل هذا الرجل العظيم عن خطّته، فسمح لأولاد الروم أن يتتلمذوا للأب كيروت في مركزنا. فكان هذا التغيير في مكان المدرسة مظهرًا جديدًا من مظاهر العناية

[٤] نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبيّ، ص ٣٩-٤٠.

الإلهيّة، لأنّ المكان الجديد قد أعدّ لإنشاء معهد إكليريكيّ فيه، ولأنّ الأب جيروم (كيروت) ما كان ليقوى على تحمّل أعباء التعليم في المدرسة، والوعظ، وقسوة العيشة المتقشّفة جدًّا التي كان يتحمّلها في بيت ذاك المطران، في حيّ المسيحيّين المعروف بالجديدة. لأنّه كان يذهب يوم الاثنين من كلّ أسبوع إلى دار المطران، غير مصطحب سوى قليل من الأرز يطبخه على موقد صغير في قدر من نحاس، وقليل من الخبز يقتات به، دون الخمر، حتّى يوم السبت، حيث كان يعود إلى رفيقه الأب مانيليه (Maniglier)، الذي لم يكن أقلّ تقشّفًا منه، فيقضيان معًا يوم الأحد، وهكذا فقد كان المطران والآباء المرسلون يتنافسون في الزهد والتقشّف، مع هذا الفارق الوحيد وهو أنّ ذاك المطران الفاضل كان يتحمّل منذ سنوات عديدة ما لم يتحمّله مرسلونا إلاّ من زمن قريب"[٢٧].

نموّ عدد أبناء الأبرشيّة الحلبيّة في عهده

إنّ الرعي الصالح يزيد من عدد أبناء أبرشيّته وازدهارهم الروحيّ والزمنيّ. وهكذا جرى للمطران ملاتيوس كرمه، إذ يقول البطريرك مكاريوس الحلبيّ: "كثيرون من الناس، لأجل محبّتهم له وشغفهم بوعظه، تركوا بلادهم ومواطنهم وأتوا مع أهاليهم وقطنوا مدينة حلب، ليتمتّعوا بتعاليمه المحيية للنفوس وتدبيره الصالح، وكانوا يتقاطرون إليه أقوام كثيرة لا إحصاء لها، حتّى إنّ البيعة الطاهرة لم تكن تتّسع إلاّ للقليل منهم، لأنّ الرعيّة بصلاته المقدّسة صارت لا عدد لها، فكثروا ونمو جدًّا، وباركهم الله كثيرًا".وبهذا يشهد أيضًا الشمّاس بولس ابن البطريرك مكاريوس الحلبيّ إذ يقول: "بعد أن كانت مدينة حلب قد أقفرت من المسيحيّين منذ مدّة كثيرة من السنين لا يعلم أحد مقدارها، أقبل المؤمنون إليها من كافّة البلاد ومن كلّ صقيع يليها، لمّا سمعوا بتعاليمه الإلهيّة وأقواله الربّانيّة وعظاته المحيية. وغُرسوا فيها فأينعوا وأثمروا ونموا وازدادوا وتكاثروا.وأغنى فقر نفوسهم بالغنى الروحيّ، وأسعدهم أيضًا بحسن تدبيره الجسدانيّ"[٢٨].

إنّ هذه التعابير تدلّ ولا شكّ على توافد المسيحيّين عمومًا، والروم الملكيّين خصوصًا، على حلب من حماه وقراها، ومن حمص وأنطاكية وسواها، بحيث شكّلوا منذ مطلع القرن السابع عشر أكبر مسيحيّة في حلب.

موقفه المحايد من انقسامات البطريركيّة

---

[27] J. BESSON, La Syrie et Terre Sainte au XVIIe siècle. Paris 1862, p. 23-24

[٦] راجع المرجع المذكور في الحاشية رقم ٤.

في غضون شهر أيلول سنة ١٦١١، انتخب أثناسيوس الثاني دباس بطريركًا أنطاكيًّا على الروم المكيّين في دمشق، وهو الذي سام ملاتيوس كرمه أسقفًا على حلب في ١٢ شباط سنة ١٦١٢. وإنّما رشّحه الدمشقيّون للبطريركيّة لأنّه وعد بأنّه يسدّد الديون الباهظة المتراكمة عليهم من جرّاء ضريبة الجزية. لكنّه لم يستطع أن يفي بوعده. فأراد أن يرغم مطران حلب على دفع جزء كبير منها، فلم يفلح. وقامت على أثر ذلك خصومة بين البطريرك وملاتيوس كرمه، زادها حدّة ما عرف عن هذا الأخير، كما سنرى، من ميول كاثوليكيّة وعلاقات مع المرسلين الإفرنج والكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ. ففي سنة ١٦١٤ سافر البطريرك أثناسيوس الثاني دباس على القسطنطينيّة في محاولة لإقناع البطريرك القسطنطينيّ بإنزال العقاب بملاتيوس كرمه وحطّه عن كرسيّه. لكن مطران حلب لحق ببطريركه إلى القسطنطينيّة، حيث توصّل بحذاقته وقوّة حجّته إلى حلّ المشكلة، فتصالح مع بطريركه، وعاد إلى أبرشيّته بعد غياب دام تسعين يومًا فقط.

لكنّ البطريرك أثناسيوس الثاني، إذ عاد إلى دمشق صفر اليدين، لم يستطع وفاء الديون المترتّبة على الكرسيّ البطريركيّ. فاعتقله الوالي وزوّجه في السجن، ولم يخرج منه إلاّ بعد دفع غرامة كبيرة. فنهب إلى طرابلس، وهناك توفّي في زمن الصوم الكبير لعام ١٦١٩، ودُفن في دير السيّدة في قرية كفتين.

ولدى وفاته انقسمت البطريركيّة الأنطاكيّة من جديد على نفسها، إذ قام في نفس الوقت بطريركان متنافسان، نُصّبا كلاهما في اليوم عينه (٢٤ نيسان ١٦١٩، يوم أحد السامريّة في الطقس البيزنطيّ): أوّلهما أغناطيوس الثالث عطيّة، مطران صيدا، رشّحه الدمشقيّون، ورسمه البطريرك المسكونيّ تيموثاوس الثاني في القسطنطينيّة وعضده الأمير فخر الدين الثاني المعني إذ كان في خدمته كأمين للسرّ قبل أن يصبح مطرانًا على صيدا سنة ١٦٠٤. والثاني كيرلّس الرابع دباس، مطران بصرى وحوران، وشقيق البطريرك الراحل أثناسيوس الثاني دباس. وقد عضده البطريرك الإسكندريّ كيرلس لوكاريس، ووالي طرابلس ابن سيفا، الذي بعث فاستدعى مطارنة حماه وحمص والحصن لكي ينصّبوا البطريرك الجديد في قرية أميون من أعمال الكورة.

أمام هذا الانقسام الفظيع وتداخل السلطات المدنيّة والدينيّة الغريبة، آثرت أبرشيّة حلب أن تبقى محايدة، وحرص ملاتيوس كرمه على عدم ذكر أيٍّ من البطريركين المتنافسين في القدّاس الإلهيّ.

على أنّ البطريرك كيرلس الرابع دباس كان أكثر طموحًا من منافسه البطريرك أغناطيوس الثالث عطيه، فأراد أن يعترف به جميع أساقفة البطريركيّة الأنطاكيّة وخصوصًا مطران حلب ملاتيوس كرمه، الذي كان يعتبره الجميع ويقدّرون فضيلته وعلمه. فقصد حلب في أوائل سنة ١٦٢٤، وقضى فيها اثنين وأربعين يومًا. لكن ملاتيوس كرمه "لم يشاركه في القدّاس. ولا كيرلس [الرابع الدباس] عمل هناك قدّاسًا"، بل قرّر التوجّه إلى القسطنطينيّة، حيث كان مناصره كيرلّس لوكاريس قد تبوّأ سدّة الكرسيّ البطريركيّ المسكونيّ. وفي القسطنطينيّة توجّه إلى بلاد الفلاخ وملدافيا، وجمع تبرّعات من مسيحيّيها، مكّنته عند عودته إلى القسطنطينيّة من الحصول على فرمان جديد يأمر بحطّ منافسه أغناطيوس الثالث عطيّة على كرسيّه.

ثم عاد البطريرك كيرلس الرابع إلى حلب في ٢٨ آب من السنة عينها ١٦٢٤. لكنّ المطران ملاتيوس رفض أن يستقبله في دار المطرانيّة، متذرّعًا بحجّة أنّ بناءها لم يكتمل بعد. فذهب البطريرك ونزل عند أحد وجهاء الأرمن، ومن هناك طلب من ملاتيوس أن يقدّس معه، فرفض. فتفاقم الشرّ، وانضمّ إلى البطريرك عدد من أخصام المطران ملاتيوس، الحاسدين الناقمين، لا سيّما ممّن كانوا يعارضون ميوله الكاثوليكيّة. فوضع البطريرك يده على الكنيسة وعلى أموالها. وفي ١٤ تشرين الثاني ١٦٢٤ أولم البطريرك مأدبة لأعيان البلد، وللسلطات الدينيّة المسيحيّة فيها، ودعا إليها المطران ملاتيوس وطلب منه مشاركته في القدّاس، فانسحب ملاتيوس من المأدبة محتجًّا بانحراف صحّته. ومنذ اليوم التالي انقطع ملاتيوس عن الذهاب إلى الكنيسة، ما عدا أيام الأسبوع، تاركًا البطريرك يقدّس أيام الآحاد والأعياد، وتاركًا لكهنة الأبرشيّة ملء الحريّة في مشاركة بطريركهم في القدّاس إذا أرادوا.

وكأنّي بالبطريرك المنافس يزداد حقدًا على ملاتيوس كلّما ازداد هذا الأخير تمسّكًا بموقفه، حتّى عمد أخيرًا إلى أساليب الاضطهاد المفتوح. فاتّخذ حلب مركزًا له ورفض أن يغادرها. بل إنّه في عيد الفصح من سنة ١٦٢٥، استدعى إليه أساقفة حماه وحمص وبانياس، فقدّسوا معه في كاتدرائيّة حلب، لكي يُظهروا للشعب تماسكهم مع البطريرك، وشذوذ موقف راعي الأبرشيّة الحلبيّة الذي ما زال يرفض الاعتراف بالبطريرك والاشتراك معه في الأقداس.

وزاد البطريرك على هذا كلّه أنّه بتاريخ ١١ أيار سنة ١٦٢٥ طالب خطيًّا المطران ملاتيوس بمحصول النوريّة البطريركيّة مدة اثني عشر عامًا، أي منذ أن تسلّم ملاتيوس زمام أبرشيّة حلب. وجعل الأساقفة الثلاثة المشار إليهم

وبعض كهنة حلب يوقعون على الصكّ، وقدّمه إلى والي حلب مصطفى باشا، الذي استدعى ملاتيوس وأمر بجلده ثمانين سوطً، حتّى أُغمي عليه، وحُمل إلى السجن حيث أقضى اثني عشر يومًا. ولم يخرج منه حتّى دفع المؤمنون عنه غرامة للوالي قدرها ألفي قرش، وحتّى تعهّد ملاتيوس خطيًّا بالاشتراك بالقدّاس مع البطريرك. لكنّه ما إن خرج من السجن حتّى توارى عن الأعيان، واختبأ في منزل أحد المشايخ بحلب مدّة طويلة، محتملاً كلّ شيء في سبيل المبدأ الذي تبنّاه، ورفض حتّى النهاية الاعتراف بهذا البطريرك الدخيل والاشتراك معه في الأقداس.

فلعاد البطريرك الكرة في ٣١ آذار سنة ١٦٢٦، وجمع لديه مجلسًا ضمّ جميع رؤساء الطوائف المسيحيّة وأعيانها، وطلب مجدّدًا من المطران ملاتيوس الاعتراف به والاشتراك معه في القدّاس. فرفض ملاتيوس مرّة أخرى. وفي اليوم التالي، وكان أحد الشعانين، جاء ملاتيوس على الكنيسة الكاتدرائيّة، بحضور البطريرك والإكليروس، واتّخذ الشعب المسيحيّ حكمًا على موقفه، "وشكا حاله للشعب". وضاق صدره ذرعًا، فاغرورقت عيناه بالدموع، وبكى بكاءً مرًّا أمام البطريرك والإكليروس والشعب، "فبكوا جميعهم". ثمّ خرج من الكنيسة واختبأ لدى أحد كبار موظفيّ الدولة العثمانيّة. وبعد بضعة أيام، أي في العاشر من نيسان سنة ١٦٢٦، سافر إلى القسطنطينيّة. فلحقه البطريرك إليه. وحاكما أمام البطريرك القسطنطينيّ وسينودسه. فخرج المطران ملاتيوس من المحاكمة منتصرًا، وعاد إلى حلب بعد نحو سنة، إي في ٣٠ آذار من السنة التالية ١٦٢٧، مارًّا بقبرص وطرابلس. وفي اليوم التالي، احتفل بعيد الفصح في كاتدرائيّته، وقد غمرت الشعب موجع عاصفة من الفرح.

لكنّ البطريرك كيرلس ما عتّم أن لحق به إلى حلب، حيث وصل في ٣ تشرين الأوّل من السنة عينها ١٦٢٧، مروّدًا بفرمانات جديدة مكّنته من القبض على ملاتيوس وسبعة وعشرين شخصًا من كهنة الطائفة وأعيانها، وزجّهم في السجن المتسلّم، إذ كان الوالي غائبًا في الموصل. لكنّ أصدقاء المطران ملاتيوس دفعوا للمتسلّم غرامة كبيرة وأخرجوا أسقفهم من السجن.

إذ ذاك فقط عدل البطريرك عن طريقه. وإذ شعر بأنّ الجميع في حلب أصبحوا يكرهونه وينقمون عليه، غادر أخيرًا حلب متوجّهًا إلى دمشق. لكن الدمشقيّين أنفسهم ما عادوا يطيقونه. فتوجّه إلى الأمير فخر الدين المعني الثاني، خصمه القديم، مقترحًا عقد مجمع عام يضمّ جميع أساقفة الطائفة

للفصل بينه وبين منافسه البطريرك أغناطيوس الثالث عطيّة. ثمّ ندم على هذا الاقتراح. لكنّ المجمع انعقد فعلاً في قرية رأس بعلبك في الأوّل من حزيران سنة ١٦٢٨.واقتيد البطريرك كيرلس الرابع دباس إليه موثقًا بالسلاسل. وقد اعترف المجمع بالبطريرك أغناطيوس الثالث عطيّة بطريركًا شرعيًّا على الطائفة دون سواء، وحطّ منافسه كيرلس الرابع دباس من منصبه. وبإيعاز من الأمير فخر الدين المعني دبّر بعض الجنود قتل هذا البطريرك المشاغب، ورموه في عين الراهب، قرب مدينة الهرمل.

وهكذا نجا المطران ملاتيوس كرمه من اضطهاد هذا البطريرك، وعاد إلى حلب ليسوس أبرشيّته دون منازع، ويرعاها بالسلام ومخافة الله، فدخلها ليلة عيد التجلّي (٦ آب) سنة ١٦٢٩. ورفع فيها اسم البطريرك الشرعيّ الوحيد إغناطيوس الثالث عطيّة، حتّى كقتل هذا الأخير في نيسان سنة ١٦٣٤ على يد بعض العصاة من الدروز، فدُفن في كنيسة الشويفات، قرب الدامور.

ميوله الكاثوليكيّة وعلاقته بالمرسلين الأجانب وبالكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ

في حلب كان للرهبان الفرنسيسكان مركز منذ سنة ١٥٧١. أمّا الكبرشيّون فقد استقرّوا فيها سنة ١٦٢٥. وفي أواخر شهر تمّوز سنة ١٦٢٥ أيضًا وفد إليها اثنان من المرسلين اليسوعيّين، هما الأبوان كسبار مانيليه (Gaspar Manilier) وجان استلاّ (Jean Stella). لكنّ الرهبان الفرنسيسكان عارضوهما، فأمرهما القاضي بمغادرة البلاد على جناح السرعة. فتوجّها إلى الإسكندرونة، ومنها إلى القسطنطينيّة، حيث حصلا من السلطان على براءة تجهيز لهما المكوث في حلب. فعادا إليها واستقرّا فيها نهائيًّا بتاريخ ٢١ نيسان سنة ١٦٢٧. وفي هذه السنة عينها ١٦٢٧ افتتح الرهبان الكرمليّون لهم في حلب وكالة، استعملوها بمثابة مضافة مؤقّتة لأبناء رهبانيّتهم العاملين في البصرى وبلاد العجم.

وهكذا فإنّ ملاتيوس كرمه في المرحلة الأولى من أسقفيّته لم يتّصل إلاّ بالرهبان الفرنسيسكان في حلب. وإنّ هذه الاتصالات بدت مشبوهة في نظر الكثيرين من المسؤولين في البطريركيّة الأنطاكيّة، وكانت من بين الحجّج التي تذرّع بها البطريرك أثناسيوس الثاني الدباس سنة ١٦١٤ لكي يشكو المطران ملاتيوس إلى البطريرك القسطنطينيّ ويحطّه على كرسيّه. لكنّه لم ينجح، كما رأينا. فعاد المطران ملاتيوس إلى أبرشيّته، وتابع ترجمة الكتب الطقسيّة من اليونانيّة إلى اللغة العربيّة، وقد كان باشر بها منذ توليه منصب الأسقفيّة. ففي

أيلول سنة ١٦١٢ كان قد أنهى ترجمة تيبيكون القدّيس سابا وكتاب اللتيورجيات الثلاث وكتاب الستيشيراريون. وإذ كان ينقصه اللازم لنسخها، والآليّات لطبعها، قرّر أن يستعين برئيس الآباء الفرنسيسكان بحلب، الذي كتب إلى روما سنة ١٦١٧ يمدح استعدادات ملاتيوس الطيّبة ويوصي بمساعدته. وفي سنة ١٦١٩ كتب ملاتيوس نفسه إلى البابا بولس الخامس (١٦٠٥-١٦٢١) يشكو وضع المسيحيين الرازحين تحت نير العثمانيين وعدم توفّر الأساتذة والكتب، ويطلب إرسال اختصاصيّين في اللغتين اليونانيّة والعربيّة لتعليم أبناء طائفته ولمساعدته في نقل الكتب المقدّسة والطقسيّة إلى العربيّة. فأجابه البابا بكتاب مشبع لطفًا وتشجيعًا، اعتبره ملاتيوس وكأنّه "حمامة نوح" جاءت تنبأ بنهاية الجهل والتسلّط الغاشم.

وفي سنة ١٦٢١أوفد إلى رومة، بصحبة رئيس دير الآباء الفرنسيسكان في القدس، أمين سرّه البروتزسنجلوس أبشالوم. فاستقبل بحفاوة وأعطي ثلاث نسخ من قوانين المجامع المسكونيّة باللغة اليونانيّة، وبعض تآليف الآباء القدّيسين اليونان، وخمسين نسخة من كتاب التعليم المسيحيّ الذي كان وضعه الكاردينال بليرمينس باللغة اللاتينيّة، فترجم إلى اللغة العربيّة وعني مجمع انتشر الإيمان بطبعه. كما وعد المجمع بترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغة العربيّة وطبعه.

وإذ رجع الموفد إلى حلب حاملاً هذه الكتب وهذه الوعود، عاد ملاتيوس فكتب إلى مجمع انتشار الإيمان يوضّح خطّته في ترجمة الكتاب المقدّس إلى العربيّة، ويستعجل تنفيذ هذه الخطّة قبل أن تعاجله المنون.

في هذه الأثناء قدم الكبوشيّون واليسوعيّون إلى حلب واستقرّوا فيها. وبتاريخ ١٩ أيار ١٦٢٩ كتب ملاتيوس على البابا أوربانس الثامن يمتدح عمل الآباء الكبوشيّين بحلب، ويظهر رعيّته في السفر على رومة لمشاهدة قداسة البابا والتبرّك منه. ثمّ اتّصل بالآباء اليسوعيّين، وكان واحد منهم، وهو الأب كيروت، قد فتح في كانون الثاني سنة ١٦٢٩ مدرسة في دار مطرانيّة الروم بحلب لتعليم اللغة اليونانيّة. وسرعان ما بلغ عدد التلاميذ الأربعة والثلاثين، وجميعهم من طائفة الروم ما عدا مارونيًّا واحدًا.

ثمّ جاء مجمع رأس بعلبك في الأول من حزيران سنة ١٦٢٨. فاغتنم ملاتيوس هذه الفرصة لكي يقوم بجولة في أدبار لبنان بحثًا عن مخطوطات الكتاب المقدّس باللغة العربيّة. وكتب في ذلك تقريرًا إلى مجمع انتشار الإيمان في رومة بتاريخ ١٢ أيار ١٦٢٩. وكان ملاتيوس في حلب مساعد قويّ في

اتّصالاه بالمرسلين الأجانب ورومة، وتوطيد حركة الإتّحاد، هو الأرشيدياكون ميخائيل بجع، الذي كتب خلال شهر نيسان سنة ١٦٢٩ رسالتين إلى البابا أوربانس الثامن، يمتدح فيها عمل الآباء الكبّوشيّين في حلب ويظهر رغبته في السفر إلى رومة للتبرّك من قداسة البابا، ويطلب تزويده ببعض الكتب العربيّة واليونانيّة. فأجابه مجمع انتشار الإيمان إلى طلبه. كما أنّ ملاتيوس أوصى به في رسالة إلى المجمع المقدّس بتاريخ كانون الأوّل سنة ١٦٢٩.

وفي تشرين الأوّل سنة ١٦٣١ كتب ملاتيوس من جديد إلى مجمع انتشار الإيمان يشكر له إجابة طلبه بتزويده بنسخ من الكتاب المقدّس، ويعلمه بأنّه أنهى ترجمة كتابي الإفخولوجي والأورولوجي، ويطلب طبعهما في رومة. وفي سنة ١٦٣٢ بعث بترجمة جديدة عربيّة للفصول الخمسة الأولى من سفر التكوين. وكان قد ساعده في هذا العمل الأب الكبّوشي أغاثنج ونخبة من الأدباء الحلبيّين. ثمّ تابع ملاتيوس تردّدات المجمع وتحفّظاته في نقل الكتاب المقدّس إلى اللغة العربيّة على الترجمة اللاتينيّة حتّى أواخر عام ١٦٣٣.

وبهذه المراسلات توطّدت حركة الوحدة الكاثوليكيّة بين الروم الملكيّين بحلب، بحيث يمكن اعتبار ملاتيوس كرمه أوّل أسقف روميّ ملكيّ كاثوليكيّ على حلب، وإن كان مقتنعًا بأنّ إعادة الشركة مع الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ لا تنفي مواصلة الشركة مع سائر الكنائس الشرقيّة الأرثوذكسيّة. فهو رائد هذا الموقف المسكونيّ الأصيل الذي يحاول إنعاش الشركة الكنسيّة بين طائفته وسائر الكراسي البطريركيّة في الشرق والغرب معًا. فهو رسول الوحدة المسيحيّة الشاملة، والداعي إلى تجاوز الخلافات المذهبيّة التي تقف عائقًا دون تحقيقها.

ارتقاؤه السدّة البطريركيّة

في شهر نيسان سنة ١٦٣٤ توفّي البطريرك أغناطيوس الثالث عطيّة، مقتولاً على يد بعض المتمرّدين من الدروز، الذين خدعهم زيّ القائد التركيّ الذي كان البطريرك قد تستّر به، ودفن، كما قلنا، في كنيسة الشويفات قرب الدامور.

إذ ذاك اتّجهت الأنظار إلى ملاتيوس مطران حلب لكي يخلفه على السدّة البطريركيّة، بالرغم من ميوله الكاثوليكيّة الواضحة وعلاقاته الطيّبة مع المرسلين الأجانب. فقد كان رجل الله، عاملاً لخير أبناء طائفته، بل لخير جميع المسيحيّين في الشرق العربيّ، فضلاً عن ثقافته العالية وجهده المتواصل لنشر العلوم والفنون بين مواطنيه.

وقد هُرع الدمشقيّون إلى حلب، واصطحبوه إلى دمشق حيث وصل يوم عيد القدّيس جاورجيوس في ٢٣ نيسان ١٦٣٤. ويقول البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيمأنّ الروم الملكيّين بدمشق "فرحوا بقدومه كثيرًا. وشرطنه رؤساء الكهنة بطريركًا في الأوّل من شهر أيار" سنة ١٦٣٤. واتّخذ له في البطريركيّة اسم افتيميوس الثاني. وقد ترك لنا قصّة انتخابه وتنصيبه بقلمه بالذات في منشور بطريركيّ عمّمه فورًا على أبناء الطائفة[٢٩]. وكان ملاتيوس قد قضى في رعاية أبرشيّة حلب اثنتين وعشرين سنة وثلاثة أشهر.

وكما أن ملاتيوس بدأ أسقفيّته في حلب بإرسال أمين سرّه البروتوسنجلوس أبشالوم إلى رومة مع الراهب الفرنسيسكاني توما أوبيشيني، كذلك بدأ بطريركيّته بإرسال وفد إلى رومة، برئاسة البروتوسنجلس باخوميوس، وعضويّة اسحق مطران طرابلس المارونيّ. وقد غادر الوفد دمشق خلال شهر أيار سنة ١٦٣٤. وقد حمل رئيس الوفد البطريركيّ معه، لا رسائل وكتاب الأفخولوجي والأورولوجي فحسب، بل أيضًا خاتم البطريرك الخاصّ لكي يوقع به، باسم البطريركيّة الأنطاكيّة، وثيقة الإتّحاد التي كان المجمع الفلورنتيني. على أنّ الوفد البطريركيّ لم يبلغ رومة إلاّ في أوائل شهر كانون الثاني سنة ١٦٣٥، بينما كان البطريرك أفتيميوس الثاني قد توفّي في اليوم الأوّل من الشهر المذكور عينه. ولكن خبر وفاته لم يبلغ رومة إلاّ بعد الحادث ببضعة أشهر. وفي هذه الأثناء، درس مجمع انتشار الإيمان طلب البطريرك بطبع الكتابين المذكورين. أمّا توقيع الإتّحاد مع الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ، فقد تألّفت لجنة كردياليّة خاصّة لبحثه. وفي الإجتماع الذي عقدته في ٢٦ تمّوز ١٦٣٥، قرّرت أنّ الوفد البطريركيّ لم يكن يحمل رسالة رسميّة بهذا الموضوع، وإنّه لا بدّ من العودة إلى البطريرك أفتيميوس الثاني لكي يسطّر ويوقّع بنفسه وثيقة الإتّحاد. وفي شهر آب ١٦٣٥ رحل رئيس الوفد البطريركيّ من رومة عائدًا إلى الشرق لكي يبلّغ البطريرك قرارات رومة، ولكنّه وجد أنّ البطريرك كان قدّ توفّي منذ ثمانية أشهر.

إنتاجه الأدبي

إنّ ملاتيوس كرمه كان يجيد اللغة العربيّة واليونانيّة والسريانيّة. وقد ركّز نشاطه الأدبي خصوصًا على إعادة ترجمة النصوص الطقسيّة القديمة من

---

[٧] نشره المرحوم المطران لاونديوس كلزي في مجلّة المسرّة، سنة ١٩٣٤، ص ٤٠٨.

اليونانيّة إلى العربيّة. لكن له أيضًا تآليف متعدّد في مواضيع دينيّة وتاريخيّة، كما إنّه نسخ عددًا من المخطوطات القديمة، فأسهم في إيصالها إلينا[٣٠]:

مؤلّفاته ومترجماته:

١) "المختصر في تاريخ مطارنة مدينة حلب": بحث تاريخيّ لا يزال مفقودًا، لكنّ المرحوم الأب بولس سباط ذكره في الجزء الثاني من فهرسه، تحت رقم ١٧٣٣، أنّه وجده في مخطوطتين بحلب، الواحدة عند ورثة رزق الله باسيل، والثانية في مجموعة المرحوم الأب قسطنطين خضري. ولا نزال نبحث عن هذا الكتاب، آملين أن يدلّنا أحد عليه.

٢) مجموعة مواعظ، ذكر الأب بولس سباط كذلك في الجزء الثاني من فهرسه، تحت رقم ١٧٣٤، أنّه وجدها في مخطوطتين بحلب، الواحدة في مجموعة الأب قسطنطين خضري، والثانية في مجموعة الأب رباط.

٣) "ميمر على مريم الخاطئة"، "ميمر على لصّ اليمين" (فرس سباط، ١٧٣٥-١٧٣٦)، "عظة تعزية لأهل حلب في نكبة الطاعون سنة ١٦٣٠" (فهرس سباط، ١٧٣٧، مجموعة سباط ١٥ و٣٨، المخطوطة رقم ١١٩٣ من مجموعة اسكندر عيسى المعلوف). وفي المخطوطة رقم ١٥ من مجموعة مخطوطات المرحوم الأب بولس سباط وجدنا لهذه العظة العنوان التالي (ص ٦٠آ): "ميمر أرسله البطريرك أفتيميوس الأنطاكيّ تعزية للمؤمنين القاطنين بمدينة حلب، التي كان سابقًا فيها كاثوليك، في السنة التي ارتسم فيها بطريركًا على مدينة أنطاكية، لأنّه بعد خروجه منها حدث وباء عظيم، ومات فيه من ملّه الروم نحو خمسمائة نفس في مدّة ثلاثة أشهر" (سنة ١٦٣٤).

٤) "مرج الأزهار"، وهو مجموعة من سير القديسين، مع قصّة نياح العذراء وانتقالها على السماء (فهرس سباط، ١٧٤٣-١٧٤٤).

٥) "تفسير أناجيل الآحاد والأعياد على مدار السنة"، كان قد جمعه عبد الله ابن الفضل الأنطاكيّ عن مواعظ القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم ونقله إلى العربيّة، ثمّ أعاد ملاتيوس كرمه ترجمته، فنسخه جبرائيل بن يعقوب، وأهداه ملتيوس كرمه إلى دير القدّيسة كاترينا في جبل سيناء (مجلّة النعمة، سنة ١٩١١، ص ١١٠).

---

[٣٠] نختصر في هذا الجزء من بحثنا مقالاً قيّمًا للأكسرخوس يوسف نصر الله، نشره باللغة الفرنسيّة في مجلّة "الشرق الأدنى المسيحيّ"، سنة ١٩٥٩، ص ٢٤-٣٠، تحت عنوان:
Euthyme II Karmé (1572-1635), patriarche melchite: son oeuvre littéraire et liturgique.

٦) رسائل مختلفة، نشر بعضًا منها المرحوم الأب قسطنطين الباشا المخلصيّ في "الرسالة المخلصيّة" سنة ١٩٣٥، ص ٣١٢-٣٢٥، بعنوان: "رسائل قديمة مهمّة"، وهي موجّهة إلى الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ وإلى مجمع انتشار الإيمان فيه.
٧) "أسطاتيكون"، وهي الرسالة الراعويّة التي وجّهها ملاتيوس كرمه إلى أساقفة الكرسيّ البطريركيّ الأنطاكيّ لدى ارتقائه السدّة البطريركيّة، وفيها قرّر بعض القوانين لإعادة النظام الكنسيّ وتوطيده. وقد نشرها المرحوم المطران لاونديوس كلزي في مجلّة المسرّة سنة ١٩٣٤، ص ٤٠٨-٤١٣، عن إحدى مخطوطات مكتبة دير الشير.

إعادة ترجمة الكتب الطقسيّة:

١) في سنة ١٦١٢، أي في السنة الأولى من أسقفيّته، كان ملاتيوس كرمه قد أنهى إعادة ترجمة "كتاب اللتيورجيكون"، الذي يتضمّن قدّاس الذهبيّ الفم وباسيليوس الكبير والبروجيازمينا، مع صلاة الغروب والسحر. وقد بلغنا هذا الكتاب بترجمته الجديدة في عشرات المخطوطات، لكثرة الحاجة إليه ولعلّ المخطوطة الأصليّة التي نسخها ملاتيوس كرمه بيده تُحفظ اليوم بين مخطوطات مكتبة القبر المقدّس بالقدس الشريف تحت رقم ٨٤.
٢) وفي السنة عينها أيضًا كان ملاتيوس كرمه قد أنهى إعادة ترجمة "كتاب استشراري الترتيل والتلحين"، الذي بلغنا كذلك في مخطوطات عديدة.
٣) وفي الوقت عينه أعاد ترجمة سنكسارات "الميناون"، ومنها نسخة في المكتبة الفاتيكانيّة تحت رقم ٤٧٢. أمّا سنكسارات زمن التريودي والبندكستاري فهي من عمل أخيه تلجه بن الخوري حوران الحموي.
٤) وفي سنة ١٦١٢ كان ملاتيوس كرمه قد أعاد ترجمة "كتاب تيبيكون الطقوس الكنسيّة"، ومنه نسخ عديدة في مختلف مكاتب العالم.
٥) وقبل سنة ١٦٢٨ كان ملاتيوس كرمه قد أنهى إعادة ترجمة كتاب الأورولوجيون أي السواعي. وعمل منه نسخة رسميّة جميلة بعث بها سنة ١٦٣٤ إلى البابا أوربانوس الثامن مع أمين سرّه الراهب باخوميوس بأمل طبعها في مطابع مجمع انتشار الإيمان. وهي محفوظة على اليوم في مجموعة الكاردينال بورجيا بالفاتيكان تحت رقم ١٧٨، بعنوان "كتاب أورولوجيون الصلوات المفروضة في السبع أوقات"، وهي بخط أخيه تلجه بن الخوري حوران الحموي، تمّ نسخها في ٨ آذار سنة ٧١٤٢ لآدم، أي ١٦٣٤م.

٦) وفي سنة ١٦٣٣ أعاد ملاتيوس كرمه ترجمة "كتاب الأفخولوجيون، الصلوات والطلبات التي يحتاج إليها الكاهن في سائر الأوقات". ومنه نسخة جميلة في المكتبة الفاتيكانيّة تحت رقم ٦١٨، أرسلها البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم سنة ١٦٤٣ بأمل طبعها في مطابع مجمع انتشار الإيمان. وفي مكاتب العالم مئات من النسخ، الكاملة والجزئيّة، من هذا الكتاب الذي لا يستغني عنه كاهن.

ثالثًا- منسوخاته:

في كتابة مؤلّفاته وترجماته الطقسيّة كان ملاتيوس كرمه يستعين بخطّاطين ماهرين. لكنّه كان هو أيضًا خطّاطًا، أو بالأحرى بدأ إنتاجه الأدبيّ بنقل المخطوطات القديمة، منها مخطوطة "كتاب الفردوس العقليّ"، المحفوظة في المكتبة الفاتيكانيّة تحت رقم ٤٠١، وقد نسخها "عبد الكريم ابن الخوري حوران الحموي" (أي ملاتيوس كرمه) إذ كان راهبًا في دير الملاك ميخائيل بالقدس سنة ٧١١٢ للعالم [أي سنة ١٦٠٤]. وإنّنا ننقل الحاشية الختاميّة للمخطوطة المذكورة، ص ١٧٢ب، كما يستطيع القارئ أن يشاهدها في الصورة التي نشرناها في مطلع هذا المقال: "وكان النجاز من هذا الكتاب المبارك نهار الجمعة من سبّة الجبن سابع عشر يوم من شهر شباط سنة سبع آلاف وماية واثنا عشر لأبونا آدم عليه السلام [١٦٠٤]، الموافق سبعة وعشرين يومًا خلت من شهر رمضان المبارك سنة ألف واثنا عشر للهجرة الإسلاميّة. أحسن الله العاقبة إلى خير حميد. وذلك على يد العبد الأثيم والمرء الذميم حاوي الآثام والقبائح، الخالي من كلّ عمل صالح، الذي ليس يستحق أن يُذكر اسمه من كثرة خطاياه ووفور إثمه، عبد الكريم ابن الخوري حوران الحموي، وذلك في مدينة القدس الشريف، في دار مار ميخائيل رئيس الجند السماويّين"...

وفاته

لم يشغل ملاتيوس السدّة البطريركيّة إلاّ ثمانية أشهر، من الأوّل من أيار سنة ١٦٣٤ حتّى الأوّل من كانون الثاني سنة ١٦٣٥.

أمّا علّة وفاته فينسبها البطريرك مكاريوس الحلبيّ إلى "مرض ثقيل". وينسبها ابنه الشمّاس بولس إلى "مرض مائي مشهور"، بينما يقول أحد المعاصرين السريان صراحة بأنّ ملاتيوس قد مات مسمومًا. وكذلك المرسل اليسوعي جان أميو، والمرسل الكبّوشي ميشيل دي رين، الذي يورد أنّ خلف ملاتيوس على الكرسيّ البطريركيّ، أي أفتيميوس الثالث، أفهم المرسلين

الأجانب أنّه لو جاهر بالإيمان الكاثوليكيّ كما فعل سلفه، لناله ما نال سلفه من موت شنيع...

فإذا صحّت هذه الرواية يكون ملاتيوس كرمه أوّل ضحيّة أو أوّل شهيد لقضيّة اتّحاد البطريركيّة الأنطاكيّة الأرثوذكسيّة مع الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ.

على أنّنا نستبعد هذه الرواية التي روّجها المرسلون الأجانب، لا سيّما وأنّ تلجه شقشق المتوقّى، إذ أبلغ روما وفاة أخيه، لم يذكر البتّة حادثة السمّ، بل عرض على مجمع انتشار الإيمان ما دعاه "وصيّة" أخيه البارّ. وتتلخّص هذه الوصيّة بأنّ المرحوم كلّف أخاه تلجه بأن يبلّغ قداسة البابا وفته، ويطلب صلواته. ثمّ يبدي رغبته بإنجاز طبع كتاب الأفخولوجي وكتاب الأورولوجي، وإرسالهما إلى حلب لتوزيعهما على كهنة الطائفة.

كما أنّه إذ شعر بدنوّ وفاته، أوصى الدمشقيّين باختيار تلميذه الراهب ملاتيوس الصاقزي خلفًا له في السدّة البطريركيّة، فنُصّب عليها باسم أفتيموس الثالث (١٦٣٥-١٦٤٧).

كلّ هذا يدلّ على أنّه لم يمت فجأة بالسمّ، بل شعر بالمرض يتغلّب عليه، ولعلّه مرض الاستسقاء أو السرطان، فاحتاط مليًّا بالأمر، وأوصى بما يلزم لتأمين خلافته.

ويقول البطريرك مكاريوس الحلبي عن وفاة هذا البطريرك القدّيس "أن المؤمنين بكوا عليه يوم وفاته بكاءً لا يوصف بدموع غزيرة، ولم يسمحوا بدفن جسده المقدّس إلاّ بالجهد عند غروب الشمس... وللوقت أفاض قبره المقدّس صنوفًا من العجائب وشفاء الأمراض. وهو إلى يومنا هذا يفيض العجائب لكلّ من يقصده بإيمان،

هذا هو ملاتيوس كرمه، أسقف حلب البطريرك الأنطاكيّ: رجل التقى والفضيلة، رجل الخير والصلاح، رائد الحركة الثقافيّة بحلب في مطلع القرن السابع عشر، وبطل اتّحاد الكنائس وإعادة الشركة بين الكرسيّ الأنطاكيّ والكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ.

مصادر البحث

- سيرة البطريرك الأنطاكيّ أفتيميوس كرمه الحموي، بقلم تلميذه البطريرك مكاريوس الحلبيّ. نشرها المطران لاونديوس كلزي في مجلّة المسرّة، سنة ١٩١٣، ص ٤١-٤٧ و٨١-٨٩ و١٣٠-١٤٤.

- أفتيميوس الثالث (كذا) كرمه الحموي، البطريرك الأنطاكي، بقلم اسكندر عيسى المعلوف، في مجلّة النعمة، سنة ١٩١١، ص ٧-٢٢ و٩٩-١١٢.

- أغناطيوس كراتشوفسكي، في مجلّة المشرق سنة ١٩٢٥، ص ٦٨٣ وسنة ١٩٣٦، ص ٣٧٤

Voyage du Patriarche Macaire d'Antioche,dans P.o.t.12.

G.GRAF, Geschichte der christlichen arabischen literatur, 1.3,p.91-94.

C.BACHA, in Chrysostimika, Rome 1908, p. 186 et 408.

C.KOROLEVSKIJ. Hist. Des patriarcats melkites, 1. 3, p. 47-54 ; Dict. Hist. Géogr. Eccl., 3, 640-642.

J.B. DARNLADE, L'Euchologe arabe melkite de Kyr Mélèce Karmi, in p.o.c.,6 (1956), p. 28-37.

J.NASRALLAH, Euthyme II Karmé, in DHGE, t. 16; Euthyme II Karmé, patriarche melchite: son aeuvre littéraire et liturgique, dans P.O.C. 1956, p'24-30

V. RAHED, la conceplion de l'union dans le patriarcat orthodoxe d' Antioche (1622-1672).

Thèse de doctorat à l'Universilé grégorienne de Rome en 1970. Manuscrit.

-5-
ملاتيوس الزعيم
(٢٦ تشرين الأوّل ١٦٣٥- ١١ تشرين الثانيّ ١٦٤٧).

جاء في "المجموع اللطيف" للبطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم، بعد الحديث عن شغور كرسيّ حلب بارتقاء المطران ملاتيوس كرمه السدّة البطريركيّة في الأوّل من أيار سنة ١٦٣٤ باسم أفتيميوس الثانيّ: "وأقام الكرسيّ بحلب ستّة عشر شهرًا بغير مطران. ثمّ انتدبوا كاتبه [أيّ ملاتيوس الزعيم الذي أصبح فيما بعد بطريركًا باسم مكاريوس] مطرانًا على حلب. وأقام هناك ثلاث عشرة سنة، ثمّ صار بطريركًا"[٣١].

نشأته

[31]- مخطوطة مكتبة دير الشير رقم ٦٠٠، صفحة ٢٤٩.

هو حنّا أو يوحنّا، ابن الخوري بولس، ابن الخوري عبد المسيح البروطس[٣٢]، الشهير بابن الزعيم. وُلد في حلب في أواخر القرن السادس عشر. وتزوّج. ثمّ سامه المطران ملاتيوس كرمه شمّاسًا وقسًّا وخوريًّا ومعلم اعتراف. وتوفيت زوجته بعد سنة ١٦٢٧، وله منها ولد رضيع اسمه بولس، تتلمذ على يد الخوري ميخائيل بجع، ولعب دورًا كبيرًا في تاريخ الكرسيّ البطريركيّ الأنطاكيّ. وأنّ والد بولس، الذي أصبح أسقفًا على حلب سنة ١٦٣٥، رسمه في ٨ أيار ١٦٤٢ قارئًا، ثمّ زوّجه في ١٧ شباط ١٦٤٤. وما أن أصبح بطريركًا حتّى رسمه شمّاسًا، بل أرشيديًّا كونًا، أيّ كبير الشمامسة، في ٢١ تشرين الثانيّ ١٦٤٧، على دمشق "وجميع البلاد العربيّة". فرافقه في جميع تنقّلاته، لاسيّما في أسفاره إلى الخارج، كما سنرى، وخلّد ذكره بما دوّنه من تواريخ جعلت والده في عداد أشهر بطاركة الكرسيّ الأنطاكيّ في العصر الحديث.

وكانت له أخت اسمها كاترينا، كما تفيدنا حاشية من الكتابين المخطوطين رقم ١٦ و١٧ من مكتبة القبر المقدّس في القدس الشريف، أوقفهما المطران ملاتيوس الزعيم "عن روح أخته كاترينا بنت الخوري بولس الحلبيّ" في ٢٢ شباط سنة ١٦٤٧.

نشأ حنّا الزعيم إذًا في أسرة كهنوتيّة أصيلة. وتعلّم مهنة الحياكة، ومارسها حتّى رسامته أسقفًا. فقد كتب المرسل اليسوعيّ الأب كيرو Queyrot إلى مجمع انتشار الإيمان بتاريخ ٢٦ كانون الأوّل ١٦٣٩ في حديث له عن سيامة الخوري حنّا الزعيم مطرانًا على حلب، يستغرب تصرّف طائفة الروم، "وهي تنقل كاهنًا من وراء نول الحياكة إلى كرسيّ الأسقفيّة"[٣٣].

إنّ مثل هذا الكلام، وفيه من التحقير ما لا يخفى، يشير إلى أنّ صاحب الترجمة كان عصاميًّا في تحصيل الثقافة، فلم يتتلمذ على أيدي المرسلين الأجانب، ولا مال إليهم ولم يرق لهم. بيد أنّه كان حادّ الذكاء، إداريًّا ماهرًا، مع ولع بالعِلم والثقافة جعله، بعد المطران ملاتيوس كرمه، علمًا من روّاد الحركة الثقافيّة والفنّية بحلب في أواسط القرن السابع عشر. يضاف إلى ذلك كلّه أنّه كان سياسيًّا محنّكًا، إذ عرف أن يحفظ التوازن بين أنصار الاتحاد الكاثوليكيّ وأخصامه، فعاش محايدًا، يرضي الطرفين معًا، ويحرص على متابعة الشركة مع الكنائس الأرثوذكسيّة دون إنكارها على الكنيسة الغربيّة. فعاش ومات

[32]- البروطس كلمة يونانيّة تعني "المتقدّم" أو "الأوّل"، وغالبًا ما تدلّ على كبير المرتّلين في الكنيسة.
[33] SOCG, vol. 195, fol. 599 r.

والناس تتساءَل إلى اليوم هل كان كاثوليكيًّا أم أرثوذكسيًّا[٣٤]. وقد يكون الجواب الأصحّ أنّه كان تارة أرثوذكسيًّا، وتارة كاثوليكيًّا وتارة أرثوذكسيًّا وكاثوليكيًّا معًا. ولا نعني بهذا أنّه كان انتهازيًّا وانتفاعيًّا، بل نعتقد أنّه وقف موقفًا خاصًّا برؤساء الكرسيّ الأنطاكيّ، وبالمسيحيّين العرب عمومًا، هو ذاك الموقف المسكونيّ الصحيح، الذي يرفض أن يقطع الشركة مع إحدى الكنائس المسيحيّة، ويحاول أن يتجاوز الخلافات التقليديّة الموروثة لكي يحافظ على الوحدة المسيحيّة، التي يضعها فوق كلّ اعتبار آخر.

لهذه الصفات وغيرها أحبّه المطران ملاتيوس كرمه، وأوصى به، عند انتقاله إلى الكرسيّ البطريركيّ باسم أفتيميوس الثانيّ، لكي يخلفه على كرسيّ أبرشيّة حلب.

تنصيبه أسقفًا على حلب (١٦٣٥)

يقول الشمّاس بولس الزعيم في "نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبيّ"[٣٥] أنّ أهل حلب، "يوم عيد الصليب" (١٤ أيلول) افتتاح سنة ٧١٤٤ للعالم [١٦٣٥ م]، اجتمعوا في قلاية المطرانيّة، الكهنة والأراخنة والإكليروس المبرور مع باقي المسيحيّين، واستخاروا الخوري يوحنّا والدي المذكور ليكون عليهم مطرانًا، برضى الكهنة والأراخنة والأعيان وباقي المسيحيّين، وكانوا ذوي فرد كلمة، وأرسلوه صحبة القفل إلى الشام، ووجّهوا معه رفقة من كهنة وأعوام. وبعد أن وصل بالصحّة والسلامة، شرطنه الأب السيّد البطرك كير أفتيميوس [الصاقزي] المذكور مطرانًا على حلب لسبعة وعشرين يومًا خلت من شهر تشرين الأوّل [سنة ١٦٣٥]، يوم الأحد. ولكثرة ودّه له، ورعايته لخاطر المرحوم معلّمه ووصيّته له، جعله كاثوليكًا[٣٦] مشرفًا على سائر نوريته، وصيّره اكسرخسًا أيّ وكيلاً وناظرًا على بلاد آمد وما يليها وأنطاكية، التي هي كرسيّ البطركيّة، ونواحيها، وأذن له أيضًا أن يقدّس فيها إذا مضى إليها. ثمّ عاد هو وصحبته إلى حلب بالابتهاج والحبور. وقبله المسيحيّون والتقوه بكلّ فرح ووقار وسرور. وأقام فيها مطرانًا مدّة اثنتي عشرة سنة كاملة، مقتفيًا آثار السادة السالفين أولي السيرة الفاضلة. ورعى المسيحيّين في مراعي الخلاص،

34- إنّ الأب قسطنطين الباشا يدافع بقوّة عن كثلكة صاحب الترجمة، بينما يميل المرحوم حبيب الزيات إلى اعتباره أرثوذكسيًّا. راجع مقاله في مجلّة المشرق، سنة ١٩٣٢، صفحة ٨٨١- ٨٩٢.

35- طبعة الأب قسطنطين الباشا في حريصا سنة ١٩١٣، صفحة ٤٣ وما يليها.

36- أيّ جاثليقًا. والجاثليق هو مَن يفوّضه البطريرك على منطقة برمّتها، مخوّلاً إيّاه جميع الصلاحيّات الكنسيّة.

متممًا كافّة وصايا الله تعالى بغير انتقاص. ودبّرهم بسديد رأيه وسعيد تدبيره. وسار كمَن تقدَّمه، بل أجمل كان مسيره. وازداد بنيان الجماعة واستعمارهم عمّا سلف، لمّا احتضنهم كالنسر الذي عليهم انعكف".

استقبال السلطان مراد الرابع في حلب (١٦٣٩)

"وفي السنة الرابعة من رئاسته، التي هي سنة ٧١٤٧ للعالم [١٦٣٩ م]، وافى السلطان مراد [الرابع] مجيشًا من القسطنطينيّة إلى حلب، ودخلها يوم الخميس ثاني عشر شهر تموز، راغبًا في الذهاب إلى مدينة بغداد [لمحاربة العجم]. وخرجت جميع طوائف النصارى التقوه بأصناف أثواب القماش الثمين، ناشرين ذلك على حقّة الطريق، ومعهم الأب السيّد المطران والكهنة وبقيّة المسيحيّين، مع أرباب الحرف والصنائع، وممتدّين من قرب خان طومان إلى نفس ساحة الميدان. وكان يومًا مشهورًا يُعدُّ من الإعمار، ويُذكر في الأجيال الآتية إلى انتهاء الأدهار". وقد أقام السلطان مراد الرابع في حلب ستّة عشر يومًا.

زيارة أولى للبطريرك أفتيميوس الثالث الصاقزي إلى حلب في عهده (١٦٤٠).

"ثمّ في السنة الخامسة من مطرانيّة الوالد، في ٩ آب [سنة ١٦٤٠ م]، حضر إلى حلب الأب السيّد البطريرك كير أفتيميوس الصاقزلي ومَن معه من الأصحاب. وشرطن بها الخوري يوسف الحلبيّ مطرانًا على عكار ورحبة، وأرسله إلى بلاد المسيحيّين العامرة الرحبة. ولمّا وصل المطران إلى بلد تُدعى بوتيليا، حدّ بلاد المسكوف وقربه، انتقل إلى رحمة الله تعالى وجوار ربّه. وأمّا السيّد البطريرك فإنّه أقام في حلب مئة يوم تمامًا. وبعد أن جبى النورية خرج منها يوم الثلاثاء ١٢ تشرين الثانيّ من العام. وتوجّه معه حضرة الوالد وأنا صحبته، وودّعناه إلى حماه، وعاودنا غانمين بصالح دعواته وبمقبول طلبته"...

وقد وجدنا في المخطوطة رقم ٤١١ من مجموعة مخطوطات المرحوم الأب بولس سباط، المحفوظة في المكتبة الفاتيكانيّة، وصفًا مفصّلاً لهذه الزيارة بقلم الشمّاس القارئ يوسف ابن الحاج ميخائيل ابن الخوري منصور، في الصفحة ١٣٤ ب حتّى الصفحة ١٣٧ آ، فنقتطف منه المقاطع التالية:

"حضر السيّد البطريرك كير أفتيميوس الأنطاكيّ الروميّ... إلى مدينة حلب نهار السبت ٢٢ شهر آب المبارك[٣٧] من شهور سنة ٧١٤٨ لأبينا آدم عليه السلام [١٦٤٠ م]... وكان ذلك في مطرانيّة كير ملاتيوس الحلبيّ ابن الخوري بولس ابن الزعيم. وكان حضور السيّد البطريرك ليلة الأحد الثالث عشر بعد العنصرة... [وأقام قداديس عديدة، منها] سادس عشر قدّاس في ٢٦ أيلول. وسابع عشر قدّاس يوم الأحد من لوقا. وفي ذلك اليوم رسم الخوري يوسف الحلبيّ مطرانًا على مدينة عكار، وسمّاه المطران أرميا. وكان يوم مبارك عظيم. وحضر قنصل الفرانسه، وجاء معه أناس كثير افرنج، وصارت فرحة عظيمة، وكان ذلك في ٢٧ أيلول... القدّاس الرابع والعشرون يوم أحد الغنيّ ولعازر، وكان أوّل تشرين الثاني. وبعد القدّاس وقبل القدّاس جاء مطران السريان ومعه قسوس لابسين بدلاتهم وحاملين شموعًا. وأخذوا السيّد البطريرك إلى كنيستهم، وراح معه الكهنة والشمامسة وأكثر الرعيّة، لأنّ بطركهم كان جاءَهم جديدًا، وعمل لهم في ذلك اليوم مفريانًا على الموصل، وقسًّا وثلاثة شمامسة. وبطركنا يتفرّج عليهم، ومطران حلب ما كان حاضرًا، لأنّ البطرك أرسله إلى كلّز في بعض مصالح يقضيها له... القدّاس الثالث والثلاثون يوم الأحد الثانيّ من صوم الميلاد، وكان ثاني وعشرين من تشرين الثانيّ. وكان هذا آخر القدّاسات التي قدّسها في حلب. وتحدّث في الكنيسة وودّع النصارى وبارك عليهم. وثاني يوم بالليل نهار الإثنين ٢٣ تشرين الثانيّ[٣٨] سافر بالسلامة. وراح معهم مطران حلب، والمطران أرميا، والقسيس ابراهيم، والشمّاس ميخائيل، والشمّاس يعقوب"، فباتوا أوّل ليلة في ضيعة تسمّى الكفر، ثمّ في سرمين، ثمّ في احناك، ثمّ في محرده، ثمّ في حماه. وهناك استودع مطران حلب بطريركه، وانتقل إلى كفربهم، ثمّ إلى أفيون، ثمّ إلى محرده، ثمّ إلى احناك، ثمّ إلى ريحا، ثمّ إلى سرمين، "ثمّ وصلوا إلى حلب يوم الأحد عيد القدّيس نيقولاوس (٦ك١) ١٦٤٠".

حجّ حلبيّ منظّم لزيارة القدس الشريف سنة ١٦٤٢.

"وفي السنة السابعة من مطرانيّة الوالد، التي هي سنة ٧٧٥٠ للعالم [١٦٤٢ م]، مضى لزيارة أورشليم المقدّسة صحبة ستّين نفرًا من الحلبيّة. ويا لها من

---

[37]- بينما يقول الشمّاس بولس في النص الذي أوردناه سابقًا أنّ حضور البطريرك إلى حلب كان في ٩ آب، بدلاً من ٢٢ منه.

[38]- أمّا الشمّاس بولس فيقول أنّ البطريرك غادر حلب في ٢٢ تشرين الثاني، بدلاً من ٢٣ منه.

حسن الزيارة، كانت تُعدّ من الإعمار السنيّة، وتُذكر في الأجيال الآتية شهيّة بهيّة، قضيناها بالفرح والسرور النفسانيّ، وبالتسبيح والتقديس والتهليل والصلوات المتّصلة بالتلحين والترتيل. وكنّا مع المقادسة قافلةً كبيرة عديدة غزيرة، كانوا يتبعونا، ويسيرون إن سرنا، ويقيمون إن أقمنا.

"ومن قارا فارقناهم وتوجّهنا إلى يبرود، وزرنا كنائسها المعظّمة في الوجود، وقلالي القدّيس ماري قونن، أعني به ذلك الذي حبس الشياطين في جرار البستانيّ. وهي نقر في جبل، وبساتينها كثيرة مشهورة، وفواكهها لذيذة غزيرة. كيف لا ومدحها قد جاء في التوراة المقدّسة حيث يقول "وكبساتين بمفيلية"، لأنّ اسمها كان هكذا قديمًا.

"ومنها أتينا إلى سلوكية الشام المسمّاة الآن معلولا. وزرنا كنيسة أولى الشهيدات القدّيسة تقلا، وجسدها المقدّس مخفيّ بها. ودير القدّيس سرجيوس صاحب العجائب الذائعة. ومياه هذه البلدة غزيرة نابعة.

"ومنها أتينا نحو حصن صيدنايا، المقصود لزيارة سيدة البشر وستّ العالم مريم البتول أمّ يسوع المسيح المنتظر. فانتعشت منّا أرواحنا، وزالت عنّا للوقت كافّة أتراحنا.

"ثمّ أتينا إلى محروسة دمشق الشام على طريق منين. واجتمعنا بالأب السيّد البطريرك، والتقانا أهلها مسرورين... وأنزلونا في قلاية البطريركيّة العامرة بكلّ إكرام. وأقمنا عندهم نحو عشرة أيام. وخرجنا منها قاصدين مدينة صهيون... ولمّا وصلناها، كان وصولنا مقرونًا بوصول سيّدها الكريم، أعني به الأب السيّد البطريرك كير ثاوفاني، إذ كان غائبًا عنها منذ سبع سنين لإصلاحها وتشديدها... وكان عيد الفصح المجيد في ١٠ نيسان. وكمّلنا زيارة كافّة الديارة والأراضي المقدّسة وكلّ مكان. وأقمنا في دير القدّيس مار سابا يومين... ويوم الخميس بعد أحد توما خرجنا من أورشليم، وإلى دمشق عدنا. ودخلناها سحر أحد المخلّع غلسًا. وحضرنا في كنيستها المقدّسة القدّاس. وفي الأحد الذي يتلوه المختصّ بالسامريّة، قدّس المعلّم بإذن السيّد البطريرك، وأمره أن يعظ على الرعيّة، فامتثل أمره بالسمع والطاعة... وفي هذا اليوم رسم شمّاسًا انغنسطًا [أيّ قارئًا] المؤرّخ الفقير. وودّعناهم جملة، وخرجنا نحو بلدتنا... ويوم خميس الصعود إلى حلب دخلنا".

وفي أثناء هذا الحجّ الجماعيّ إلى بيت المقدس، تعرّف المطران ملاتيوس الزعيم بجاثليق بلاد الكرج، واسمه مكسيموس، فدعاه المطران ملاتيوس إلى مرافقته في طريق عودته إلى دمشق وحلب. وكان لهذا اللقاء الأثر الكبير في

توطيد العلاقات الكنسيّة بين البطريركيّة الأنطاكيّة وجاثلقيّة الكرج التابعة لها. كما أنّ المطران ملاتيوس، إذ أصبح بطريركًا باسم مكاريوس، استفاد من توطيد هذه العلاقات فزار بلاد الكرج، وعاد منها بالتبرّعات الوافرة لمساعدة كرسيّه البطريركيّ.

ماء السمرمر في حلب (١٦٤٢)

"وفي هذه السنة [١٦٤٢] رسم والي حلب حسين باشا بن نصّوح بأن يُؤتى بماء السمرمر من بلاد العجم... لأجل رفع الجراد... ولمّا عاد المرسلون وجاؤوا به، أصعدوه بوقاية من فوق مقام الشيخ أبي بكر، لأنّ رصده أنّه لا يجوز تحت سقف ولا عتبة. وأمر حينئذ أن يخرج للقائه جميع مَن كان في المدينة، من المسلمين والنصارى واليهود. فتقدّم المسلمون يهلّلون، ثمّ النصارى باللغة اليونانيّة يرتّلون...".

زيارة أخرى للبطريرك أفتيميوس الثالث الصاقزي إلى حلب (١٦٤٤)

"وفي السنة التاسعة من مطرانيّة الوالد [سنة ١٦٤٤]، حضر إلى حلب السيّد البطريرك كير أفتيميوس خطرة ثانية. والتقيناه بحماه بفرح وسرور ورغبة وافية. ويوم أوّل شباط كان دخوله. وتضاعف فرح المسيحيّين به وبوصوله. وألزم حضرة الوالد بزواجي حينئذ. وكللني يوم أحد ابن الشاطر وهو ١٧ شباط، ولي من العمر سبع عشرة سنة. وجمع من الرعيّة نوريته ومضى بسلام وكان خروجه بعد مئة يوم تمامًا. وتوجّه في ١٧ أيار إلى حماه وطرابلس مسارعًا، ثمّ عاد إلى دمشق الشام راجعًا".

ومن حلب اصطحب البطريرك أفتيميوس معه الأب اليسوعيّ جيروم كيروت، وعهد إليه بأن يفتح في دمشق مدرسة مماثلة لتلك التي فتحها سنة ١٦٢٨ في دار المطرانيّة بحلب، لتعليم أبناء طائفة الروم. وعهد إليه في دمشق بوجهٍ خاصّ بتثقيف ابن أخته، الذي كان مزمعًا أن يتبوّأ السدّة البطريركيّة الأنطاكيّة ردحًا من الزمن باسم ناوفيطوس الصاقزي (١٦٧٢- ١٦٨٢)، بعد أن نشأ وتربّى على أيدي الآباء اليسوعيّين.

علاقته بالمرسلين الأجانب

كلّ ما نعلمه عن علاقة المطران ملاتيوس الزعيم بالمرسلين الكاثوليك الأجانب في عهد أسقفيّته بحلب يتلخّص في تلميح عابر جاء في رسالة بعث

بها المرسل اليسوعيّ الأب أميو Amieux إلى رؤسائه سنة ١٦٥٠، وفيها يقول أنّ البطريرك مكاريوس، "وهو البطريرك الحاليّ، رجل صالح ويجيد الوعظ، مع أنّه لم يتعلّم الفلسفة أو اللاهوت. وهو يحبّنا، لأنّه عندما كان مطرانًا على حلب، حصل هناك من آبائنا المرسلين، خلال مرض اعتراه، على العلاج اللازم، وشُفي على أيديهم"[٣٩].

لم يكن المطران ملاتيوس الزعيم تلميذًا للمرسلين الأجانب في حلب، بل تتلمذ على يد سلفه المطران ملاتيوس كرمه ومعاونيه من الإكليروس المحلّي. وقد تجنّب المرسلين الأجانب قدر الإمكان في عهد أسقفيّته بحلب، ولم يقبل بأن يرسل أحد أبناء طائفته إلى مدارس رومة. فإنّ المرسل الفرنسيسكانيّ أنطونيو دي لاكويلا مثلاً، (Antonio de l'Aquila)، في كتاب بعث به إلى مجمع انتشار الإيمان في رومة بتاريخ ١٠ تشرين الثّانيّ سنة ١٦٣٩، يقول عن مطران الروم ملاتيوس الزعيم أنّه لم يكن ميّالاً لمشروع إرسال شبّان من أبناء طائفته إلى مدارس رومة[٤٠].

على أنّ المرسلين الكاثوليك الأجانب كانوا في عهد أسقفيّته يبدون نشاطًا عظيمًا بين المسيحيّين الشرقيّين في حلب دون أن يعارضهم المطران ملاتيوس الزعيم. فامتدَّت الحركة الكاثوليكيّة الوحدويّة بين أبناء طائفته وتأصّلت، بحيث نرى أحد أبناء طائفة الروم الملكيّين بحلب يكتب إلى رومة سنة ١٦٣٧ طالبًا منها تفسيحًا من أحد موانع الزواج التي كانت السلطة الكنسيّة المحلّية آنذاك تمتنع عن إعطائه.

وقد عرض الأب اليسوعيّ جيروم كيروت على مجمع انتشار الإيمان افتتاح معهد إكليريكيّ في حلب[٤١]. وفي سنة ١٦٤٥ عيّنت رومة أسقفًا لاتينيًّا على حلب، لكنّه لم يستطع الإقامة فيها، واستقال بعد خمس سنوات من تعيينه.

ارتقاؤه السدّة البطريركيّة (١٦٤٧).

"وفي بدء السنة الثالثة عشرة من مطرانيّة الوالد [أيّ سنة ١٦٤٧]، دهم السيّد البطريرك أفتيميوس [الثالث الصاقزي] مرض شديد، وكلّهم يئسوا منه. فاجتمعوا في قلاية البطريركيّة، الكهنة والإكليروس، وعملوا له زيتًا مقدّسًا، واستشاروه بأن إذا تنيّح مَن يكون بعده. فأجابهم رحمه الله بمأموله وقصده

[39] RABBATH, op. cit., p. 402
[40] SOCG, vol. 119, fol. 106 r.
[41] SOCG, vol. 195, fol. 599 v.

قائلاً: إن كنتم تريدون إصلاح أموركم وتوفيق أحوالكم، لا تجعلوا غير مطران حلب بطركًا عليكم. وتمّم بهذا الرأي الحميد قول الإنجيل المجيد: حسبُ التلميذ أن يكون مثل معلّمه. وقد صنع هذا كصنع الذي تقدّمه. أعني أنّه كما رسمه ذاك رحمة الله عليه وانتخبه، اختار والدي مطرانًا وانتدبه. فلمّا سمعوا منه ذلك انطربوا. وبسرعة بالصورة الواقعة قد كتبوا. وأعرضوا عليه تلك الكتابة، وعلّم عليها بيده، وهو بتلك الحالة. ووجّهوا بها ساعيًا إلى المطران المذكور، وحثّوه بأن يجدّ بالسير ويسرع بالحضور.

"وإنّ الساعي لمّا وصل إلى حلب ولم يجد المطران، لأنّه كان قد ذهب من حلب لكثرة الجور والحيف الذي بدا من حاكمها قره حسن باشا، إذ إلى العدوان والبلص قد اتّصل، مضى إلى بلاد المعرّة، وإلى كليّس عاد. فلا زال الساعي يسأل عنه مستقصيًا حتّى بلغ المراد. ولمّا التقى به أعطاه ذلك المكتوب. فقرأه، وعرف الأمر المطلوب. فشقّ عليه ذلك الفرض، لاسيّما إذ تحقّق ما شمل البطريرك من ثقل المرض. ولم يشأ عند ذلك الذهاب. وأرسل يستعذر عن الحضور بالجواب. فلمّا بلغ البطريرك أنّه أبى وما طاع، اغتاظ وهو في حال النـزاع. وأمر بمكتوب ثانٍ إليه، أنّه إذا لم يحضر ويجئ سريعًا، يكون مربوطًا ومقطوعًا. وبعد وصول هذه الرسالة ثانيًا، التزم الأمر بردّ الجواب أنّه موافٍ بغير تباطؤ. وهكذا توجّه إلى الشام بالرغم منه، والفقير [أيّ ابنه الشمّاس بولس] صحبته أبدًا لا أنتزح عنه.

"ولمّا أتى مدينة حماه، وجدنا ساعيًا ثالثًا في طلبنا من كهنة دمشق وأعيانها، برسائل ومكاتيب موافقة للرسالات الأولى بأعيانها، وتخبر بوفاة البطريرك [أفتيميوس الثالث الصاقزي] ليلة الحادي عشر من تشرين الأوّل [سنة ١٦٤٧]، وأقسامات لحضرة المطران بأن يأتي ولا يتمهّل، لئلاّ يبقى تحت الوصيّة مقيمًا، والعياذ بالله من هذا الخطر العظيم، ولئلاّ يحدث بالتطاول شرور وفتن ونفاق، ولاسيّما أنّهم حال وفاة المرحوم أخرجوا التحويل والحجج باسم مكاريوس حسب العادة ووصيّة المرحوم أفتيميوس بغاية الاتفاق. وكان في الشام محمد باشا الكوبرلي المحترم. ولئلاّ يختلف أمر الجمهور ويحدث من بعد هذه الأمور أمور، طلبوا أن يُحضر معه مطران حماه المرحوم ملاتيوس، ومطران حمص المتنيّح فيلوثاوس. فأثناهما معنا قد سارا. ووجدنا في صيدنايا كير يواصف مطران قارا. ودخلنا دمشق سحرًا. ففيها كان حاضرًا كير غريغوريوس مطران حوران. فباتفاق الكافّة شرطنوه بطريركًا، وتكرّس،

وعلى النورية البطريركيّة تراقى وترأس، بإلهام حقيق ربّانيّ، في ١٢ تشرين الثانيّ سنة ٧١٥٦ للعالم الفانيّ" [١٦٤٧ م].

وقد اتّخذ له ملاتيوس زعيم في البطريركيّة اسم مكاريوس، وساس البطريركيّة الأنطاكيّة بكلّ جدارة خمسة وعشرين عامًا، من سنة ١٦٤٧ حتّى سنة ١٦٧٢. وفي عهد بطريركيّته قام بسفرتين إلى بلاد الكرج وملدافيا وفلاخيا والمسكوب. الأولى من ٩ تموز سنة ١٦٥٢ إلى أواسط ١٦٥٩، والثانية من سنة ١٦٦٤ إلى سنة ١٦٦٩، حيث توفي ابنه الأرشيدياكون بولس في مدينة تفليس يوم ٢٢ حزيران سنة ١٦٦٩، فعاد وحده إلى دمشق. ثمّ زار حلب من جديد مرّات عديدة كما سنوضّح ذلك في تدوين سيرة خلفائه على أبرشيّة حلب. ومات في دمشق مسمومًا بتاريخ ١٢ حزيران سنة ١٦٧٢، وأنّنا نحجم عن كتابة تاريخ بطريركيّته، إذ أنّنا نقتصر هنا على حوادث أسقفيّته بحلب.

ملاتيوس الزعيم وحركة النهضة الثقافيّة بحلب في أواسط القرن السابع عشر

لم يكن المطران ملاتيوس زعيم عالمًا بالمعنى الحديث، بل كان بالأحرى محبًّا للعِلم ومشجّعًا للعلماء. ففي عهده وتحت إشرافه نشطت الحركة الثقافيّة بين المسيحيّين الحلبيّين ولاسيّما بين أبناء طائفته. فكان يشجّع الشبّان منهم على التعلّم، ويتعاون مع نخبة من المثقّفين في ترجمة الكتب العلميّة من اللغة الروميّة إلى اللغة العربيّة، ويبحث هو نفسه عن الكتب التاريخيّة القديمة، ويُعنى بنسخها وحفظها. ويتذوّق فنَّ رسم الأيقونات، ويهوى الخطّ الجميل، وتزيين المخطوطات بالمنيمنات المشوّقة. وكان يستهويه على الأخصّ ما يتعلّق بتاريخ البطريركيّة الأنطاكيّة، من تعداد الأبرشيّات التابعة لها والبطاركة والأساقفة الذين ساسوها على ممرّ العصور، وسيرة القدّيسين والكتّاب الذين اشتهروا من أبنائها. كما أنّه عني بتدوين ما بلغ إليه من حوادث العصر الذي عاش فيه. لكنّه عني أيضًا بتاريخ بلاده عمومًا، وآثارها المسيحيّة والإسلاميّة. وامتدّ حبّ الاطّلاع عنده إلى كلّ ما اعتقد أنّه مفيد لأبناء قومه من معلومات تاريخيّة وطبيعيّة.

وقد حرص على أن يخلّف للأجيال التالية معرفة ما جرى في زمانه أو على يده، فحمّلَ ابنه الأرشيدياكون بولس الزعيم على كتابة يوميّات أسفاره بتدقيق، وأهمّ حوادث أسقفيّته وبطريركيّته، بحيث يكاد يستطيع المؤرّخ أن يتتبّع سيرة

هذا الرجل العظيم يومًا بعد يوم، بفضل ما خلّفه لنا عنه ابنه ومؤرّخه الأرشيدياكون بولس.

ولو أردنا أن ندرج هنا عناوين جميع الكتب والمقالات التي ألّفها هذا الأسقف والبطريرك العظيم، أو ترجمها، أو عني بنسخها أو تأليفها أو ترجمتها، لاقتضانا هذا الأمر كتابة مجلّد بكامله. وأنّ أغلب ما في ذاك الإنتاج الأدبيّ الضخم مؤلّف من مجموعات متنوّعة المواضيع، كالمجموع اللطيف أو كتاب النحلة أو كتاب تاريخ جداول الأربع بطريركيّات، أو تلك المنوّعات المحفوظة في المخطوط العربيّ المسيحيّ ذي الرقم ٢٨ من المتحف البريطانيّ. وأغلب هذه المجموعات يرجع عهد إنتاجها إلى زمن تسلّمه الكرسيّ البطريركيّ. لذا نقتصر هنا على ذكر ما نسخ أو ألّف أو ترجم من كتب أثناء أسقفيّته في حلب من سنة ١٦٣٥ إلى سنة ١٦٤٧، للدلالة على إسهامه في حركة النهضة الثقافيّة بين المسيحيّين الحلبيّين في أواسط القرن السابع عشر.

أوّلاً- الكتب المترجمة: يخبرنا الأرشيدياكون بولس أنّ والده لم يكن يعرف بدءًا سوى العربيّة، وأنّه تعلّم اليونانيّة أثناء سفره إلى بلاد الفلاخ، وأنّه لم يكن في كلّ حال ينطق بها بسهولة. فلم يستطع إذًا في عهد أسقفيّته بحلب أن ينقل من اليونانيّة إلى العربيّة، بل أشرف فقط على ما قام به بعض تلاميذه ومعاونيه من ترجمات إلى اللغة العربيّة. وكثيرًا ما نسب إلى نفسه ما كان يقوم به غيره من ترجمة أو تأليف تحت إدارته وإشرافه، أو بمجرّد تشجيعه. فمن الكتب التي عني بترجمتها عن اليونانيّة خلال مدّة أسقفيّته بحلب، نورد ما يلي:

١- كتاب السنكسار أو مجموعة سير القدّيسين، نقله إلى العربيّة سنة ١٦٣٨، وقسّمه إلى أربعة أجزاء. وهو محفوظ في مجموعة المخطوطات المسيحيّة العربيّة في المكتبة البدلائيّة بلندن تحت رقم ٩٢ إلى ٩٥. وفي عهد بطريركيّته أكمل عمله هذا بتأليف سنكسار خاصّ بالقدّيسين الذين عاشوا في حدود البطريركيّة الأنطاكيّة، وهو محفوظ في المكتبة الفاتيكانيّة تحت رقم ٦٢٢.

٢- كتاب التاريخ الشامل الذي وضعه باليونانيّة سنة ١٦٣٠ المطران ذوروثاوس متروبوليت مونمباسية. وقد بدأ المطران ملاتيوس الزعيم بترجمة الجزء الثانيّ منه، وهو يمتدّ من عهد قسطنطين الملك حتّى عهد السلطان العثمانيّ مراد الرابع (١٦٢٣- ١٦٤٠) بعنوان "كتاب الدرّ المنظوم في اخبار ملوك الروم". وقد تمّ نقله سنة ١٦٤٨، كما جاء في مقدّمته: "أنا الحقير

ماكاريوس برحمة الله تعالى بطريرك مدينة الله العظمى أنطاكية وسائر المشرق... لمّا كنتُ مطرانًا بمدينة حلب الشهباء... كان دأبي مطالعة أمثاله من التواريخ... فقصدتُ ترجمته بذاتي إلى العربيّة... فصدَّني عن ذلك تواصل الاهتمام بتدبير رعيّة شعب المسيح... ففوضتُ ترجمته لناسخه ومحرّره الكاهن المحبّ المسيح الخوري يوسف كاتبه ومصوّره. فتمَّ باسعاف الله تعالى بغاية الجدّ والنصب، بسعي وامداد ابني الأرشيدياكون بولص بمدينة حلب، وسمّيتُه الدرّ المنظوم في اخبار ملوك الروم، وذلك في عام ١٦٤٨ لتجسّد السيّد المسيح، وهي السنة التي انتُدبتُ فيها بطريركًا بمدينة دمشق الشام على الكرسيّ البطرسيّ الساميّ المقام". ومن المرجّح أن لا يكون المطران ملاتيوس سوى الساعي في ترجمة هذا الكتاب، كما ورد في مقدّمة المخطوط رقم ١٨٧ من مكتبة دير الشير: "سعى باستخراجه من اليونانيّة إلى العربيّة البطريرك ماكاريوس الحلبيّ بواسطة الخوري يوسف المصوِّر والأرشيدياكون بولص". ولهذا الكتاب نسخ عديدة في مكاتب العالم، أجملها نسخة المخطوط رقم ١٩٠ من المتحف الآسيويّ في لينغراد، إذ هي بخطّ الأرشيدياكون بولص بالذات، مع تصاوير بديعة الصنع رسمها الخوري يوسف المصوِّر ناقلاً إيّاها عن الأصل اليونانيّ.

أمّا الجزء الأوّل من هذا الكتاب فقد عني البطريرك ماكاريوس بترجمته بعد وفاة الخوري يوسف المصوِّر. وهو يتضمّن سياق التاريخ العالميّ منذ بدء الخليقة حتّى عهد قسطنطين الكبير، ودعاه "التاريخ الروميّ العجيب المجيد". ومنه نسخ عديدة في مكاتب العالم، أقدمها المخطوط ذو الرقم ١٨٩ من المتحف الآسيويّ في لينغراد، ويرتقي عهده إلى سنة ١٦٩٣.

٣- "كتاب خلاص الخطأة"، الذي كان وضعه باليونانيّة الراهب الكريتيّ أغابيوس لندوس ونشره في البندقيّة سنة ١٦٤١. فسعى المطران ملاتيوس الزعيم في نقله إلى اللغة العربيّة بواسطة الخوري يوسف المصوِّر عينه. وفي مكتباتنا الكنسيّة والرهبانيّة نسخ عديدة منه، كما أنّه توجد أيضًا نسخ عن بعض فصوله في سرّ الاعتراف، اقتطفها الخوري يوسف المصوِّر وجمعها في كتاب على حدة بعنوان "كتاب الفرائد اللطاف في سرّ الاعتراف".

ثانيًا- في مضمار الفنّ: كان المطران ملاتيوس، كما رأينا، صديقًا حميمًا للخوري يوسف المصوِّر، مؤسّس المدرسة الأيقونغرافيّة الحلبيّة. وهذا الأخير، إعرابًا عن صداقته للمطران ملاتيوس، أهدى كنيسة الروم بحلب أولى أيقوناته المعروفة وهي أيقونة القيامة، وسجّل في أسفلها هذه العبارة: "أوقف

هذه الأيقونة المقدّسة على كنيسة السيّدة بحلب العبد الفقير يوسف المصوِّر في رئاسة السيّد الكاثوليك ملاتيوس الحلبيّ في سنة سبعة آلاف ومئة وثلاثة وخمسين لآدم" (أيّ سنة ١٦٤٥م). والأيقونة محفوظة اليوم في مجموعة السيّد هنري فرعون في بيروت. كما أهدى الكنيسة المذكورة أيقونة أخرى تمثّل بيوت المدائح الأربعة والعشرين، وأيقونات أخرى محفوظة اليوم في مجموعة مطرانيّة الروم الكاثوليك بحلب، اكتشفناها سنة ١٩٦٩ في "سقيفة" كنيسة مار جرجس القديمة بحيّ الشارعسوس.

وقد نشأ في حلب في عهد المطران ملاتيوس الزعيم فنّانون آخرون، نذكر من بينهم ميخائيل بن جرجس بن الخوري يوحنّا، "الحموي بلدًا، والأرثوذكسيّ مذهبًا، القاطن يومئذ بمحروسة حلب". وقد أنهى في ٩ شباط سنة ١٦٤٦ نسخ "كتاب برلام ويواصاف"، وهي رواية تقويّة منسوبة خطأ للقدّيس يوحنّا الدمشقيّ، وزيّنها بالرسوم العديدة الجميلة، أطلعنا عليها في مكتبة دير الشير تحت الرقم القديم ١٥/ ٤٧.

ثالثًا- أبرز ممثّلي النهضة الثقافيّة في عهده: نذكر في طليعتهم الأرشيدياكون ميخائيل بجع، تلميذ المطران ملاتيوس كرمه ومعاونه في ترجمة الكتب الطقسيّة، ومعلّم اللغة العربيّة للرهبان المرسلين الأجانب. وقد أقام علاقات طيّبة مع رومة، التي زوّدته بكتب يونانيّة وقواميس. لكنّه لم يعلن جهرًا اتحاده بالكنيسة الكاثوليكيّة إلاّ سنة ١٦٧٤، وذلك من باب الفطنة. وقد تتلمذ على يده أكبر الأدباء المسيحيّين الحلبيّين في القرن الثامن عشر، من أمثال نعمة بن الخوري توما، عبد الله زاخر، نقولا الصائغ، مكرديج الكسيح ومكسيموس حكيم. وقد توفي في مطلع القرن الثامن عشر، قبل سنة ١٧١٦. وما عدا ترجماته الطقسيّة، فإنّ إنتاجه الأدبيّ محصور في الكتب اللاهوتيّة والمواعظ الراعويّة، نذكر أهمّها: "كتاب المعلّم النحرير في تعريف كيفيّة التوبة وفحص الضمير"، "الروض المتنوّع الأمين بأزهار الكرز والتعليم"، "العادات الأدبيّة المرشدة والتعاليم الروحيّة المنقذة".

وخلاصة القول أنّ المطران ملاتيوس الزعيم كان خير خلف لسلفه ومعلّمه المطران ملاتيوس كرمه، لا في إدارة الأبرشيّة الحلبيّة فحسب، بل أيضًا في دفع عجلة الثقافة بين أبناء رعيّته وسائر مواطنيه. وأنّه بفضل مَن عمل تحت يده وبإشرافه، أَنْتَجَ أدبيًّا أكثر ممّا أنتج معلّمه. فكان أوسع أفقًا منه، إذ تناول بالبحث والتأليف والترجمة والنسخ مواضيع تاريخيّة وعلميّة عامّة خرج بها

عن نطاق الطقوس واللاهوت الضيّق، وبرز في ميدان الثقافة الشاملة الواسع. فكان في هذه الأمور كلّها رائدًا وقدوة لجميع معاصريه.

مصادر البحث

* سيرة مخطوطة ذكرها المرحوم الأب بولس سباط في فهرس مخطوطاته تحت الرقم ٢٤٤٦، وقد كتبت سنة ١٦٧٥، ولكنّها لا تزال مفقودة.

* مجلّة النعمة، السنة الرابعة، صفحة ٣٦- ٤١.

* مجلّة المشرق، سنة ١٩٠٩ صفحة ٤٩٤، سنة ١٩٣٦ صفحة ٣٧٦، سنة ١٩٢٥ صفحة ٦٨٢، سنة ١٩٣٣ صفحة ٩١١- ٩٢٠، سنة ١٩٣٢ صفحة ٨٨١- ٨٩٢.

C. KOROLEVSKIJ, dans DHGE, t. III, p. 642 sq.

V. GRUMEL, Macaire, patriarche grec d'Antioche (1647- 1672), dans Echos d'Orient, t. 27 (1928), p. 68- 77.

G. GRAF, Geschichte der christl. Arab. Literatur, t. III, p. 94- 110.

L. CHEIKHO, Cataloque, p. 138 sq. et. P. 241 sq.

-٦-

مطروفانس بشارة

(٢١ تشرين الثانيّ ١٦٤٧- ١٣ أيلول ١٦٥٩)

سيامته الأسقفيّة

ما إن ارتقى المطران ملاتيوس زعيم الكرسيّ البطريركيّ، باسم مكاريوس، في ١٢ تشرين الثانيّ سنة ١٦٤٧ حتّى عيّن الخوري ميخائيل ابن القسّ بشارة الحلبيّ خلفًا له على كرسيّ حلب، ورسمه مطرانًا في ٢١ تشرين الثانيّ سنة ١٦٤٧. فقد جاء في "المجموع اللطيف"[٤٢] أنّ البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم "شرطن على حلب مطروفانس الحلبيّ يوم دخول السيّدة إلى الهيكل [٢١ تشرين الثانيّ] سنة ٧١٥٦ للعالم" [١٦٤٧ م].

ونعلم ممّا كتبه الشمّاس بولس، ابن البطريرك مكاريوس الحلبيّ، أنّ الخوري ميخائيل ابن القسّ بشارة الحلبيّ كان يصحب البطريرك والده عندما توجّه من حلب إلى دمشق لارتقاء السدّة البطريركيّة. وبعد تنصيب والده بطريركًا بتسعة أيام فقط، أيّ في ٢١ تشرين الثانيّ ١٦٤٧، كما ذكرنا، "شرطن الخوري ميخائيل ابن القسّيس بشارة الحلبيّ، الذي كان بصحبته،

[42]- مخطوطة مكتبة دير الشير رقم ٦٠٠، صفحة ٢٤٩.

مطرانًا على حلب، وسمّاه مطروفانس، وإليها أرسله. وشرطن معه الفقير [أيّ ابنه الشمّاس بولس] مؤرّخه أرشيدياكونًا، أيّ رئيس شمامسة، على مدينتي دمشق وحلب وسائر بلاد العرب، وخصّصه بهذه الرتبة وذهب"[٤٣].

كلّ ما نعلمه عن نشأة المطران مطروفانس أنّه كان حلبيًّا، ابنًا للقسّ بشارة، من كهنة حلب، وأنّه كان متزوّجًا، ثمّ ترمّل قبل سيامته كاهنًا، وله ولد، يقول الشمّاس بولس أنّه لعب دورًا هامًّا في سلوك والده المطران[٤٤]. ومن هنا يتبيّن أنّ الحاجة كانت تدعو في ذلك الوقت إلى انتداب كهنة مزوَّجين أرامل إلى رئاسة الكهنوت لقلّة عدد الرهبان ذوي الأهليّة لهذا المنصب.

ونعلم من الشمّاس بولس أنّ أخت المطران مطروفانس كانت متزوّجة من الخوري ابراهيم ابن عمّيش الكلزي، الذي أصبح فيما بعد مطرانًا على حمص (بعد ترمّله)، باسم أثناسيوس، لأنّ الشمّاس بولس يدعو مطران حلب مطروفانس "ابن حمو" أثناسيوس ابن عمّيش مطران حمص[٤٥].

وقد وجدنا ذكرًا آخر لهذا المطران في المخطوطة رقم ٤١١ من مجموعة مخطوطات المرحوم الأب بولس سباط، حيث قرأنا في الصفحة ٦ آ هذه الحاشية: "تمّ هذا الميمر المبارك بالخير نهار السبت الذي هو سبت مرفع اللحم، وفيه كان عيد القدّيس ميلاتيوس بطريرك أنطاكية [١٢ شباط] سنة ٧١٦١ لأبينا آدم عليه أفضل السلام (= ١٦٥٣ م) على يد ... يوسف المكنّى بانغنسط [أيّ القارئ] ابن الحاج ميخائيل ابن الخوري منصور في رئاسة السيّد المطران كير مطروفانس الحلبيّ"...

وفي المخطوطة رقم ٣٠٤١ من خزانة باريس (صفحة ٩٨) نقل الكاتب أسماء مَن تعاقب على كنيسة حلب من أساقفة في العصر الحديث فقال: "اذكر يا ربّ رؤساء الكهنة والكهنة والشمامسة الذين ارتسموا على هذه الكنيسة المقدّسة وخدموها إلى آخر حياتهم، وهم هولاي: الأسقف غريغوريوس [بن فضيل]، الأسقف ماكاريوس [بن خلف الصاجاتي]، الأسقف سيماون [المرمنيثي]، البطريرك أفتيموس [كرمه]، البطريرك ماكاريوس [ابن الزعيم]، المطران مطروفانس" [ابن بشارة].

---

[43]- نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبيّ، بقلم ولده الشمّاس بولس، نشرها الأب قسطنطين الباشا في حريصا سنة ١٩١٢، صفحة ٥٥.

[44]- راجع الكتاب المذكور، صفحة ٧٧.

[45]- راجع الكتاب المذكور، صفحة ٨٢.

سلوكه في حلب

إنّ المصدر الوحيد الذي يمدّنا بالمعلومات عن تصرّف المطران مطروفانس في سياسة أبرشيّة حلب هو ما كتبه عنه الشمّاس بولس بن الزعيم. والحال، إذا صحّ أنّ الشمّاس المذكور يعكس موقف والده البطريرك من هذا المطران، فإنّه يبدو لنا مع ذلك قاسيًا في أحكامه إلى أقصى درجة. لكنّنا مضطرّون إلى إيراد رأيه وحكمه القاسي، ما دام هو المرجع الوحيد الذي بلغ إلينا حتّى الآن.

يقول إذًا الشمّاس بولس[٤٦] عنه أنّه كان محبًّا للشرور والفتن. "فرفع الحلبيّون في حقّه إلى السيّد البطريرك دعاوى وشكايات غير لائقة، وبالتواني في حقّهم وشأنهم، وعدم الائتلاف والموافقة، وقلّة الاحتفاء في تدبير الكنيسة كما تقلّدوا، وأنّه غير طائع لرئيسه، ولأجل ذلك لم يُطعهُ المسيحيّون... ثمّ صعب ذلك على السيّد البطريرك جدًّا، وحصل عنده غيظ لم يكن له حدّ. فأرسل يؤنّبه، وعن المطرانيّة منعه بموجب اصطاتيكون من قبله، قطعه فيه، ثمّ بعد الرباط حرمه حرمًا قاطعًا... ولأجل ذلك صَحيَ الأسقف من سكرته، وفاق من غيّ جهالته. وقام جاء لاقاه إلى حماه [آذار ١٦٤٩]، وهو مريض ممّا كابده وقاساه. ؟؟؟ البطريرك حينئذ كثيرًا، وذمّه وقرّعه وأوقع به من التوبيخ ما ليس بيسير. فأقرّ معترفًا بذنوبه وتاب، وأشرط على نفسه أنّه عن كافّة صنعه رجع وآب، على يد مطران حمص ومطران حماه اللذين كانا دائمًا يشفعان به... فباركه حينئذ البطريرك وحلّه وصفح عنه".

على أنّ المرسل اليسوعيّ نقولا بوارسّون (Nicolas Poiresson) كتب سنة ١٦٥٢ لرئيسه الإقليميّ يمتدح عمومًا أبناء الروم في حلب وأسقفهم مطروفانس، فيقول أنّ الروم بحلب، وإن كانوا في الماضي يناهضون الفرنج أكثر من سواهم، إلاّ أنّهم في الوقت الحاضر تقرّبوا منهم بفضل متروبوليتهم الذي يحبّ المرسلين ولا يتحدّث عن البابا إلاّ باحترام وتوقير، دون أن يعلن مع ذلك جهرًا أنّه كاثوليكيّ[٤٧].

وبتاريخ ١١ حزيران سنة ١٦٥٦ كتب أحد المرسلين الكرمليّين (Joseph de Santa Maria) إلى مجمع انتشار الإيمان المقدّس يقول أنّ متروبوليت الروم مطروفانس وكهنته يلحّون على إبقاء زميله الأب الكرمليّ برونو دي سانت إيفون (Bruno de Saint' Ivone) عندهم في حلب، لكثرة ما تعلّقوا بأقواله

---

[46]- في كتابه المذكور آنفًا، صفحة ٦٣- ٦٤.

[47] RABBATH, op. cit., I, p. 56.

ومواعظه[48]. ويقول الأب المذكور أنّه كان في حلب إذ ذاك أكثر من خمسة عشر ألف نسمة من الروم.

تردّد البطريرك مكاريوس على حلب في عهده

في عهد المطران مطروفانس، كثر تردّد البطريرك مكاريوس ابن الزعيم على حلب، سواء أكان لتهدئة الخواطر، أم لجمع النورية ودفع ديون البطريركيّة، أم لأنّه بقي متعلّقًا بالأبرشيّة التي شغل كرسيّها مدّة اثني عشر عامًا، وأقام ابنه الشمّاس بولس أرشيدياكونًا عليها، بالرغم من وجود راعٍ أصليّ لها. وإنّنا نميل إلى الاعتقاد بأنّ تداخل الأرشيدياكون بولس في أمور حلب قد يكون أصل النـزاع بين مطرانها وبطريركه. والله أعلم.

إنّ أوّل زيارة للبطريرك مكاريوس إلى حلب تمّت في شهر حزيران سنة ١٦٥٠، إذ يقول الشمّاس بولس[49] أنّ والده البطريرك "دخل حلب في أوّل شهر حزيران سنة ٧١٥٨ لأبينا آدم [١٦٥٠ م]، وأقام فيها مدّة [ثمانية أشهر]، إلى أن هدأ الهياج، وخرج منها يوم عيد دخول المسيح للهيكل" (٢ شباط سنة ١٦٥١)، متوجّهًا إلى دمشق.

وفي المرّة الثانية كانت زيارة البطريرك مكاريوس لحلب مجرّد مرور، إذ كان في طريقه "إلى بلاد المسيحيّين" لجمع التبرّعات ودفع ديون البطريركيّة. فبلغ حلب في ٢٠ شباط سنة ١٦٥٢، وعيّد فيها عيد الفصح المجيد، وغادرها عشيّة الخميس ١٩ تموز من السنة عينها، بعد أن بقي فيها خمسة أشهر، وقد دامت رحلته "إلى بلاد المسيحيّين ستّ سنوات وبضعة أشهر". وعاد إلى بطريركيّته بعد عيد الفصح من سنة ١٦٥٩.

ويقول البطريرك مكاريوس أنّه في أثناء هذه الرحلة الأولى "إلى بلاد المسيحيّين" وضع خمسة كتب، "فيها مقدار خمسين خبر قدّيس معدومين من لساننا وبلادنا، من التي جمعها أغابيوس الاقريطشي، ومعها مسائل كثيرة وأجوبتها، وقوانين كثيرة وشرائع تشتمل على المواريث وغير ذلك، وعلى حساب زيجات المسيحيّين، وهي حساب الفصح المجيد" الخ...

والمرّة الثالثة كانت في عشيّة الخميس ٢١ نيسان سنة ١٦٥٩ عند العودة من رحلته هذه الأولى إلى بلاد المسيحيّين. وأنّ الشمّاس بولس يصف بإسهاب هذه

---

[48] SOCG, vol. 167, fol. 149 r- v.

[49]- الكتاب المذكور، صفحة ٦٤.

الزيارة الثالثة، فيقول[50]: "لم يكن لنا نيّة بالمجيء إلى حلب قطعًا، وذلك لأجل كثرة الشرور والنفاقات التي أنشأها مع المسيحيّين عدوّ الله مطروفانس ابن القسّ بشارة مطرانها... وكنتُ أنا الفقير كاتبه قد أرسلتُ للبيت [أيّ لأفراد عائلته في حلب] مع الساعي أوصيتُهم فيه بأن لا يعطوا خبر مجيئنا لأحد. ولكن طلبتُ ولديَّ حنانيا وقسطنطين لأنظرهم وأبلَّ شوقي بهم من بعد زمان هذا مقداره، وهو سبعة سنين إلاّ ثلاثة أشهر تمامًا. فلمّا توجّه عمّي [أيّ حموي] الحاج الياس بأولادي وجاء لعندنا [في كلّز]، شاع الخبر في حلب. فأسرع المحبّون من المسيحيّين ومن الكهنة والشمامسة ومن غير طائفة بالمجيء إلى كلّز لعندنا، يسلّمون علينا ويتوسّلون إلينا بأن نجيء لعندهم. لأنّ قلّة مجيء سيّدنا البطريرك لعندهم شَينٌ عليهم وعيب في بقيّة البلاد إذا سمعوا بقدومه واجتيازه عنهم، وهي بلدته ومدينته". أمّا المطران مطروفانس فاعتذر عن المجيء بمرض أصابه...

"ثمّ قدّسنا يوم الأحد الجديد في كلّز بكلّ ابتهاج وحبور، وأقمنا فيها مقدار خمسة عشر يومًا... وخرجنا من كلّز بحوائج قليلة، والبقيّة أودعناها. ولمّا وصلنا إلى قرب حلب عند قرية بلليرمون، نزلنا لنقيم هناك العشية، وندخل [حلب] سرًّا. فسمع المسيحيّون من سائر الطوائف، فخرجوا بأجمعهم للقائنا... فقمنا وتوجّهنا نحو المدينة. وكانت النساء قد وصلن لقرب الخنّاقية. ولم نقدر أن نشقّ جسر باب القبّة من زحمة الخلائق الملاقين. ولولا الينكجارية واليسقية كانوا قدّامنا ماشين بالعصيّ، ما كنّا نتخلّص. ولمّا أقبلنا على تُرب المسيحيّين من بعيد، نظرنا الفضاء قد امتلأ من الخلائق... ولم نقدر أن نمضي إلى الكنيسة كحسب العادة من الزحمة، ولأجل أنّه كان صار مساء، وكان كهنة الطوائف قد ؟؟؟ ببدلاتهم لكثرة محبّتهم، الله يرضى عليهم"!.. وجاء أيضًا المطران مطروفانس ولاقى بطريركه، لكن بصعوبة بسبب مرضه... "وهكذا دخلنا القلاّية واسترحنا ورمينا همَّ السفر من بالنا... وكان دخولنا إلى مدينة حلب عشيّة الخميس ٢١ نيسان" [١٦٥٩ م]....

"وليلة السبت [التالي] عملنا باعوثًا، الكهنة جميعهم مع الشمامسة في حين الايصودون، كحسب عادة تلك البلاد، لأجل تذكار العظيم في الشهداء مار جرجس في الغد. وهكذا لاقوا سيّدنا البطرك، كلّ كهنة الطوائف، ببدلاتهم، وأدخلوه إلى كنائسهم بكلّ إكرام وتوقير. وفي الغد قدّسنا وعملنا باعوثًا عظيمًا،

[50] الكتاب المذكور، صفحة ٧٥

وتفريق شمع لطلبة الشعب لذلك. واحتفل المسيحيّون- الله يعمّرهم ويبارك فيهم! في إكرام سيّدنا البطرك كثيرًا، وفي غدائه وعشائه. لأنّهم جعلوا تدبيرًا بأن يكون الغداء عند أحد، والعشا عند غيره. وكانوا يتزاحمون على ذلك، حتّى أنّه في بعض الأحيان كان يتّفق اثنان أو ثلاثة على عمل مائدة"...

وفي هذه الأثناء "دخل علينا بعض مسيحيّي حلب بأن نأخذ مطرانهم عنهم [أيّ مطروفانس]. ثمّ عمل سيّدنا البطريرك مجمعًا معهم لأجل الوكلاء، وعزلهم وأقام وكلاء غيرهم. وحسبوا الدين الباقي على كنيسة حلب، فكان سبعة آلاف غرش، وكانت حوائج الكنيسة والبدلات وآلة القدّاس مرهونة عند أرباب الدين... وطلب البطريرك [من المطران] أن يقوم ويروح معه للشام، فلم يردَّ... فتركناه وخرجنا من حلب صحبة الحجّاج يوم الخميس ٢١ حزيران" [سنة ١٦٥٩]. وقد دام مكوث البطريرك في حلب هذه المرّة شهرين كاملين فقط. ولم ينقضِ شهران ونيّف حتّى توفي المطران مطروفانس بشارة...

وفاته

يخبرنا الشمّاس بولس[٥١] عن وفاة المطران مطروفانس بشارة بأسلوب يبدو لنا غريبًا ومستهجنًا، لكنّنا نورده على علاّته أمانة للتاريخ، مع أسفنا لتلك الأحقاد المزمنة التي لا يعرف رجال الدين أحيانًا أن يترفّعوا عنها، فيقول:

"خرج البطريرك لزيارة صيدنايا في أوّل شهر أيلول افتتاح سنة ٧١٦٨ للعالم [١٦٥٩ م]. وأقمتُ أنا الفقير مكانه في الشام. وبعد عيد الصليب [١٤ أيلول] بستّة أيام، مرق علينا ساعٍ من حلب ببشارة عظيمة، يبشّر بموت مطران حلب في يوم ١٣ أيلول، بعد مرضٍ قليل صبَّ في أمعائه، ومات موتًا يُبكى عليه ويُناح. وفرح الجميع بمماته، وافتقد الله شعبه وخلّصهم. وكان مجيء الساعي لعندنا العصر. وبالحال شيّعتُ خيّالاً أولاقًا إلى صيدنايا يبشّر سيّدنا البطريرك بذلك. فوصل إلى عنده بعد العشاء، قبل أن ينام. فازداد سرورًا، لا شماتة بموته، بل لخلاص الحلبيّين من شرّه. وقام للحال وعمل باركليسي شكرًا ومديحًا. وأرسلتُ أبشّر باقي رؤساء كهنة الأبرشيّة بذلك، وكانوا جميعهم مبغضين له".

هذا هو المطران مطروفانس بشارة الحلبيّ، الذي لم تبلغنا عنه ويا للأسف إلاّ صورة شبه كاريكاتوريّة، فيها ولا شكّ الكثير من التحامل، وقد رسمها لا

[51] الكتاب المذكور، صفحة ٩١.

قلم مؤرّخ بل يراع خصم ومناوئ. وما لم يعثر المؤرّخون يومًا على وثائق أخرى أكثر إنصافًا وموضوعيّة، فسوف تبقى هذه الصورة الممسوخة عالقة بالأذهان. ومن المؤسف حقًّا أن لا ينجو هذا المطران، حتّى في مماته، من ضغينة أخصامه ولاذع كلامهم. هذه علّة التاريخ ووهنه عندما ينتقل إلينا من مصدر واحد، وعندما يكون هذا المصدر الوحيد متحيّزًا مشبوهًا...

- ٧ -
البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم
(١٣ أيلول ١٦٥٩- ١٢ حزيران ١٦٧٠)

البطريرك مكاريوس الحلبيّ يسوس أبرشيّة حلب مباشرة

بعد وفاة المطران مطروفانس بشارة في ١٣ أيلول سنة ١٦٥٩، لم يبادر البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم إلى تعيين خلف له على كرسيّ حلب، بل آثر أن يُبقي تلك الأبرشيّة تحت إدارته المباشرة فترة طويلة من الزمن، وذلك رغبة منه في إعادة السلام والوئام إلى أبنائها الذين كانوا قد انقسموا شرّ انقسام في عهد المطران الراحل، ورغبة منه على الأخصّ في الاستئثار بإدارة تلك الأبرشيّة، التي كانت تَعُدُّ وحدها في ذاك الوقت نحو ثلث أبناء البطريركيّة الأنطاكيّة، والإفادة من مواردها، مع ما عرف عنه من تعلّق بمسقط رأسه وبأبرشيّته الأصليّة التي أحبّها وأحبّته.

وقد شاءت الظروف أن يلتقي معًا إذ ذاك في مدينة حلب ثلاثة بطاركة شرقيّين: الرومي الملكيّ وهو مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم، والسريانيّ أندراوس أخيجان، والأرمنيّ ختشادور السيواسيّ. فأصبحت مدينة حلب لمدّة إحدى عشرة سنة على الأقلّ مقرًّا عاديًّا للبطريرك الأنطاكيّ الملكيّ، بدلاً من دمشق، ممّا مهّد الطريق للبطريرك أثناسيوس الثالث دبّاس، الذي اختار مدينة حلب مقرًّا دائمًا له، وأقام فيها طويلاً حتّى وفاته.

محمد باشا الخاصكيّ والي حلب: عهد الاستبداد

في بداية عهد البطريرك مكاريوس في تدبير أبرشيّة حلب، كان واليًا على المدينة محمد باشا الخاصكيّ، المعروف باستبداده وقسوته وحبّه للمال. جاء عنه في "كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب" للشيخ كامل الغزّي ما يلي[٥٢]:

"وفي سنة ١٠٧٠ هـ [أيّ ١٦٦٠ م] وَليَ حلب خصكيّ محمد باشا، وذلك بعد أن حصَّلت الدولة منه سبعمائة كيس من الدراهم كانت في ذمّته من مال بغداد ومصر، وكان وُليَ عليهما. وفي هذه السنة طغى نهر قويق، وهطلت السماء بالماء الغزير، حتّى طافت أكثر المحلاّت المجاورة للنهر، وغرقت البساتين، وتهدّمت عدّة بيوت داخل البلد وخارجها. وفي سنة ١٠٧١ هـ [أيّ ١٦٦١ م] عزل عن حلب خصكيّ محمد باشا، وأشخص إلى استانبول. وسبب عزله أنّه غشَّ سكّة النقود التي كان يضربها بحلب، وسعى في رواجها بين الناس، فتداولتها الأيدي. وفشا الفساد وتعطّلت التجارة واختلّ نظامها. فعرض الصدر الأعظم ذلك على مسامع السلطان، فأمر بعزل الوالي المذكور وإحضاره إلى استانبول. فعُزل وأُحضر. وفي عشرين شوّال منها ضربت عنقه... وفي هذه السنة أيضًا حصل غلاء كبير في حلب بيع فيه رطل الخبز بستّ بارات"...

استشهاد داود الروميّ (٢٨ تموز ١٦٦٠)

قبل توجّه البطريرك مكاريوس إلى حلب بنحو عشرة أشهر، جرى في حلب حادث أليم استشهد على أثره أحد كبار طائفة الروم الملكيّين، المدعو داود الروميّ. ويعتقد البعض أنّه من أسرة بيت جنبرت الشهيرة في حلب. وقد ورد تفصيل الحادث في وثائق معاصرة، اخترنا منها رسالة بعث بها القنصل الفرنسيّ فرنسوا بيكه (François Picquet) من حلب بتاريخ ١٨ آذار سنة ١٦٦١ إلى مجمع انتشار الإيمان[٥٣]، جاء فيها أنّ الحكومة العثمانيّة في ذلك الوقت فرضت على المسيحيّين غرامة باسم "ضريبة العمامة". فدفع داود الفريضة عن طيبة خاطر. ثمّ عادت الحكومة ففرضت استيفاء الضريبة مرّة ثانية، لكي تسدّ عجز الخزينة. فاغتاظ داود لهذا الإجراء التعسّفيّ وتمنّع عن الدفع، محتجًّا بأنّه لا يجوز التمييز بين المسيحيّ والمسلم في تحمّل الضرائب. فانهال عليه الجباة وجنود الباشا ضربًا ورفسًا، وأوسعوه إهانة وشتمًا. فأخذ

---

[52] الجزء الثالث، صفحة ٢٨٧.

[53] - راجعها مع الوثائق الأخرى في كتاب "شهداء حلب" للمرحومين أكاكيوس كوسا وداميانوس شبارخ، والصادر في حريصا سنة ١٩٣٣.

الغضب منه مأخذه، وهاج هائجه، وفقد وعيه، فضرب الأرض بعمامته وقال: "ألِكوني مسيحيًّا تهينوني وتعذّبوني هكذا"؟. فاعتبر العثمانيّون تلك الألفاظ وكأنّها جحود لإيمانه المسيحيّ. فتركوه للفور وانصرفوا عنه معتذرين له بعبارات لطيفة. ثمّ ذهبوا وأخبروا القاضي بما جرى، ومن ثمّ عادوا إليه. ولمّا رفض الانصياع إلى أمرهم بوجوب جحد دينه، جرّوه خارج داره إلى السرايا. فالمتسلّم أيّ نائب الوالي بعد أن استنطقه أسلمه إلى القاضي، والقاضي عاد فأرسله إلى السرايا حيث أمر المتسلّم بأن يكبّلوه بالسلاسل الحديديّة. وبقي على هذه الحال مدى شهرين كاملين: هذه صورة مصغّرة لِما عاناه المسيحيّون من ظلم المستعمر العثمانيّ، خلافًا للحريّة الدينيّة التي شملت جميع المواطنين في العهود العربيّة.

وفي هذا الوقت زاره الأب برونو الكرمليّ[٥٤]، وتقبّل اعترافه. وفي الصباح التالي جاءه بالقربان المقدّس. وبعد خمسة عشر يومًا رجع الوالي محمد باشا الخاصكيّ من رحلة تغيّب خلالها عن حلب. فرفعت إليه زوجة السجين عريضتين، الواحدة تلو الأخرى، متوسّلة إليه أن يعفو عن زوجها ويطلق سراحه. فلم يستجب لطلبها. ثمّ إنّ الأب الكرمليّ برونو المذكور زاره من جديد في سجنه، وجاءه بالقربان المقدّس مرّة ثانية، كما زارته إحدى العجائز من أقربائه وحاولت أن تثني عزمه، فلم تنجح أخيرًا، وبعد ستّين يومًا من السجن، حكم عليه الوالي العثمانيّ بالموت، فقطع الجلاّد رأسه. فنال إكليل الشهادة، وهو في العقد الخامس من عمره، تاركًا أرملة وأولادها الأربعة، وذلك في ٢٨ تموز سنة ١٦٦٠، عند غياب الشمس. وشُيّع جثمانه في اليوم التالي، وواكبه جميع المسيحيّين على اختلاف طوائفهم.

وإنّ أحد أولاده، المدعو وهبه داود، أو وهبة الله، وباليونانيّة ثاوذورس، أوفده المرسلون إلى رومة، فكان أوّل طالب روميّ ملكيّ دخل معهد انتشار الإيمان، بتاريخ ٢٩ كانون الأوّل سنة ١٦٦١. وبعد أن قضى اثني عشر عامًا في رومة، وأنهى فيها دروسه، عاد إلى حلب. فلم تطب له الإقامة فيها. فرجع إلى إيطاليا وانخرط في سلك الرهبانيّة الكرمليّة. وتعيّن قاصدًا رسوليًّا في القسطنطينيّة، ثمّ أسقفًا لاتينيًّا في أزمير، وتوفي في هذا المنصب بتاريخ ١٨

---

[54] - Bruno de Saint- Yves (5 juillet 1661).

نيسان سنة ١٧١٥. وقد حمل، إذ كان قاصدًا رسوليًّا، لقب "رئيس أساقفة قورش الفخريّ"[55].

وإنّ استشهاد داود الروميّ سبقه ببضعة أشهر إعدام غلام مسيحيّ بولونيّ أقدم على قتل سيّده في حلب لكي يتخلّص من ملاحقته له، إذ كان يبغي إشباع نزواته الرديئة منه. وقد تمّ إعدام الشاب البولونيّ خارج المدينة، قرب سرايا الوالي، وكان إذ ذاك اسماعيل باشا، في ١٢ شباط ١٦٦٠. على أنّ العناية الإلهيّة أرادت أن تبقي جثّة هذا الشاب، التي طُرحت للكلاب مدّة عشرة أيام، مصونة من تحرّش الحيوانات، التي نهشت وأبادت جثث رفاقه المعدمين معه. ولمّا أراد أحدهم أن يُثير أحد الكلاب للانقضاض على جثّة الشاب البولونيّ، بطل العفاف والأخلاق، دار الكلب حولها ثلاث مرّات، ثمّ هوى على الأرض ميتًا. فذُهش الجميع، ومجّدوا الله. وأذن الوالي بدفن جثمانه وفقًا للمراسيم الدينيّة المسيحيّة.

وصول البطريرك مكاريوس إلى حلب (٧ أيار ١٦٦١)

يقول الشمّاس بولس، ابن البطريرك مكاريوس الحلبيّ: "وصل [البطريرك مكاريوس] إلى حلب في ٧ أيار [سنة ١٦٦١]... وكان قدومه إلى حلب خيرًا وفرحًا. لأنّه كان في حلب باشا يُقال له الخاصكيّ. وكان ظالمًا غاشمًا بدّع في أهل حلب بالظلم. وكان صار في هذه السنة غلاء عظيم عامّ في أكثر البلاد... وكان سيّدنا البطرك، من خوفه من ظلمه، يضيّع أيامه في حماه وبلادها. فلمّا وصل إلى سرمين عاجل الله الخاصكيّ بالانتقام، لأنّ السلطان- الله ينصره!- والوزير، لمّا بلغهم ظلمه، غضبوا عليه، وأُرسلوا فأخذوه وقتلوه. وفرّج الله حلب وأهلها. فدخل إليها سيّدنا البطرك مطمئنّ البال، وفرحوا بقدومه"[56].

أمّا سبب مجيئه إلى حلب هذه المرّة فكان ولا شكّ، فضلاً عن ضرورة إدارة أبرشيّة حلب الشاغرة، رغبته في تعزية أبنائه الحلبيّين وتشجيعهم على أثر استشهاد داود الروميّ، وفي محنة الغلاء التي عمّت سنة ١٦٦١ جميع المناطق، ولاسيّما مدينة حلب.

---

[55] Cfr. RABBATH, op. cit, t. I, p. 457; l'Unité de l'Église, 81 (1936), p 748- 789; NASRALLAH, Notes et documents, p. 137- 138; G. GOYAU, le rôle religieux du Consul François Picquet dans Alep (1652- 1662), dans Revue d'Hist. des Missions, 12 (1935), p. 161- 198.

[56]- نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبيّ، بقلم ولده الشمّاس بولس، نشرها الأب قسطنطين باشا في حريصا سنة ١٩١٢، صفحة ١٠٧.

تقرّبه في حلب من المرسلين ومن القناصل ومن الكثلكة

أقام البطريرك مكاريوس في حلب خمس سنوات دون انقطاع، من ٧ أيار سنة ١٦٦١ حتّى أواسط سنة ١٦٦٥، حيث توجّه في رحلته الثانية إلى بلاد الكرج والمسكوب[٥٧].

في هذه الفترة من الزمن، تقرّب البطريرك مكاريوس في حلب من المرسلين الأجانب ومن قنصل فرنسا ومن الكثلكة عمومًا. وقد أثّر في نفسه موقف المرسلين الأجانب، وتفانيهم في مساعدة المعوزين، لاسيّما خلال سنة ١٦٦١، التي عُرفت "بسنة الغلاء"، وغيرتهم الرسوليّة التي كانت تحملهم على زيارة السجناء، وقبول اعترافهم، وحمل القربان المقدّس إليهم، وتعليم الشعب مبادئ ديانته، والدفاع عنه تجاه الولاة والعظماء، ممّا حمل البطريرك مكاريوس على امتداح الكثلكة علنًا أمام أبناء طائفته.

ثمّ أنّه دعا القنصل فرنسوا بيكه مع المرسلين لحضور القدّاس في كنيسته، وخطب أمامهم معلنًا أنّ الفرنج هم سائرون على الصراط القويم. ولمّا عَلِم بأنّ القنصل المذكور يتأهّب للسفر إلى رومة وفرنسا، سلّمه رسالة منه إلى البابا ألكسندرس السابع، مؤرّخة في ٣٠ أيلول سنة ١٦٦١، يعترف فيها بالبابا رأسًا للكنيسة الأرثوذكسيّة، ويَعِدُ بأن يبذل جهده لكي يضمّ أمّته إلى الكنيسة الرومانيّة[٥٨]. وقد أرسل معه أيضًا مخطوط الأفخولوجيّ ومخطوط السواعي، وفقًا لترجمة سلفه المطران ملاتيوس كرمه، لكي يصار إلى طبعهما في مطبعة انتشار الإيمان في رومة. على أنّ نصّ هذه الرسالة الموجّهة إلى الحبر الأعظم مازال مفقودًا حتّى الآن، ولا نعلم سوى فحواها من خلال تقرير وضعه موظفو مجمع انتشار الإيمان[٥٩]. على كلّ حال، فقد عرضت هذه الرسالة على آباء المجمع في جلسته المنعقدة بتاريخ ٢٢ أيار سنة ١٦٦٢، فقرّر المجمع أن يطبع هذين الكتابين "بعد تنقيحهما"، وأن يقترح على قداسة البابا أن يجيب البطريرك برسالة مشجّعة، وأن يكلّف الآباء الكرمليّين بحلب متابعة حسن استعداده، حتّى إذا وقّع صورة اعترافه بالمعتقد الكاثوليكيّ أرسلوها فورًا إلى رومة.

---

[57]- لا نعرف حتّى الآن اسم الوكيل الذي عيّنه البطريرك مكاريوس نائبًا عنه أثناء رحلته هذه الثانية إلى "بلاد المسيحيّين"، كما كان يدعوها.

[58] RABBATH, op. cit. p.459; Cfr. G. GOYAU, François Picquet, Consul de Louis XIV en Alep, Paris, 1942.

[59] Acta, vol. 31, fol. 100r- 101r.

وكان البطريرك مكاريوس موقنًا بأنّ الكتابين اللذين بعث بهما سوف يُطبعان في رومة بسهولة وسرعة، فسبق وكتب مقدّمة لكلّ منهما، ذكر فيها أنّهما "طُبعا في رومة، بمطابع مجمع انتشار الإيمان، سنة ١٦٦٢". لكنّ المجمع المقدّس عاد في ١٧ تموز ١٦٦٢ إلى درس اقتراح طبع هذين الكتابين، فعجز عن إعادة تشكيل اللجنة الحبريّة المكلّفة بالنظر في كتاب الأفخولوجيّ، فطوى الموضوع من جديد، وبقي الكتابان إلى اليوم بين مخطوطات الفاتيكان دون طبع.

أمّا البابا ألكسندرس السابع فقد بعث إلى البطريرك بكتاب لطيف مؤرّخ في ٢٢ تموز سنة ١٦٦٢، وفيه يؤكّد للبطريرك انّ الكتابين اللذين بعث بهما إلى رومة سوف يُفحصان، ثمّ يُطبعان بأسرع وقت ممكن. ثمّ يمدح البطريرك على اعترافه بالكنيسة الرومانيّة، أمًّا وزعيمة لجميع الكنائس، وعلى سعيه الحثيث لإعادة الوحدة بين بطريركيّته والكنيسة الرومانيّة. وهذه الرسالة البابويّة ما زالت نسختها موجودة في محفوظات الفاتيكان[٦٠]، وقد نشرها لأوّل مرّة الأب غروميل في مجلّة "أصداء الشرق"[٦١].

تواجد ثلاثة بطاركة في حلب (سنة ١٦٦٢)

غادر القنصل بيكه حلب في تشرين الأوّل سنة ١٦٦٢، وخلفه في منصبه القنصل بارون، الذي جاراه في مساعيه لتثبيت الكثلكة في حلب. وحدث في عهده أن تواجد في حلب البطاركة السوريّون الثلاثة: بطريرك الروم وبطريرك السريان وبطريرك الأرمن. فبطريرك الروم كان مكاريوس الحلبيّ الذي ذكرنا تفاصيل تقرّبه من الكثلكة. أمّا بطريرك الأرمن فكان يُدعى ختشادور السيواسيّ، وكان كاثوليكيًّا. أمّا بطريرك السريان فلم يكن سوى ذيونوسيوس أخيجان الشهير، الذي كان درس في المعهد المارونيّ برومة، ونال السيامة الكهنوتيّة والأسقفيّة من يد البطريرك المارونيّ حنّا السفراويّ (١٦٤٨- ١٦٥٦)، فنُصّب أسقفًا على السريان بحلب في ٩ آب سنة ١٦٥٦. ولمّا توفي بطريرك السريان يعقوب شمعون الطورعبدينيّ، أعلنه السريان الكاثوليك بحلب بطريركًا على الطائفة جمعاء[٦٢].

---

60 Archiv. Vatic; Epist. ad Principes, vol, 64, fol, 224.

61 V. GRUMEL, dans Echos d'Orient, t. 27 (1928), p. 75.

62 RABBATH, op. cit; p. 95- 96 et 453- 465, Cfr. A. HAYEK, Le relazioni della Chiesa Siro-Giacobita colla Santa Sede dal 1143 al 1656 (Thèse de doctorat à l'Inst. Or. de Rome en 1936).

وبهذه المناسبة، جرت يوم الأحد الموافق ٢٠ آب سنة ١٦٦٢ في كنيسة السريان بحلب مظاهرة وحدة مسيحيّة رائعة. فالقنصل بارون دبّر كلّ شيء وأقنع والي حلب بالاعتراف بالبطريرك أخيجان رئيسًا شرعيًّا على طائفة السريان دون سواه. فأمر بطاعته، ودافع عنه ضدّ خصومه، وأحاطه بالجنود والحرّاس، بل أمر البطريرك مكاريوس والبطريرك ختشادور بحضور حفلة تنصيب زميلهما بطريركًا على السريان. فاجتمع الشعب كلّه في كنيسة السريان. وحضر المرسلون الاحتفال، الذي بدأ برسامة أندراوس شقيق البطريرك السريانيّ أسقفًا. وبعد هذه الرسامة التمهيديّة، ذهب إكليروس السريان ببدلاته الطقسيّة الرسميّة إلى عند البطريرك مكاريوس في كنيسته، وكذلك إلى عند البطريرك ختشادور الأرمنيّ في كنيسته- والكنائس الثلاث كلّها مجاورة بعضها لبعض في حيّ الصليبة- وجاؤوا بهما إلى كنيسة السريان. فتعالت الصلوات والتراتيل، وتحمّس الشعب المسيحيّ الحاضر، فحُمل البطركة الثلاثة على كراسيهم، ودار بهم في الكنيسة وهو يهتف: "اليوم حلّ الروح القدس في كنيسة السريان"[٦٣].

وبعد ستّة أيام، أيّ في ٢٦ آب ١٦٦٢، أدب القنصل بارون مأدبة على شرف البطريرك السريانيّ الجديد، دعا إليها، في طليعة مَن دعاهم، البطريرك مكاريوس والبطريرك ختشادور. وفي نهاية المأدبة وقف البطريرك مكاريوس وشرب نخب قداسة البابا قائلاً: "إنّي أشرب نخب قداسة أبينا الحبر الأعظم، رأس الكنيسة، وأطلب إلى الله أن لا يكون فيما بعد سوى رعيّة واحدة وراعٍ واحد". فوافق البطريركان الآخران على هذه الأقوال، مع إكليروسهما، وهما واقفان وحاسران عن رأسيهما[٦٤].

وقد نتج عن هذا الحادث حماس شديد لدى القنصل بارون ولدى المرسلين. على أنّ المجمع المقدّس شجب الوسيلة التي استعملوها لحمل الوالي على الاعتراف بالبطريرك السريانيّ الجديد والأمر بطاعته والإيعاز إلى البطريركين الآخرين بالاشتراك في حفلة تنصيبه. وقال المجمع إنّه لا يجوز استعمال الرشوة ودفع الدراهم للولاة العثمانيّين في سبيل الحصول على اعترافهم بالبطاركة والأساقفة الكاثوليك...

توثّق العلاقات مع الغرب

[63] RABBATH, op. cit; p. 466; Archiv. Propag; Acta, vol. 32, fol 41v- 42r.
[64] RABBATH, op. cit; p. 466- 467; Archiv. Propag; Acta, vol. 32, fol. 42r et fol. 44.

وعلى أثر ذلك ذهب المرسل الكرمليّ Jérôme de Sainte Thérèse في أيلول سنة ١٦٦٢ إلى رومة لكي يحصل من البابا على براءة التثبيت للبطريرك السريانيّ الجديد. وقد اغتنم هذه الفرصة لكي يطلب من البابا للبطريرك ختشادور وللبطريرك مكاريوس هديّة سَنِيّة، هي كأس لإقامة الذبيحة الإلهيّة، واعدًا بأنّ هذين البطريركين هما مستعدّان لأن يرسلا أسقفين من أساقفتهما إلى رومة لكي يقدّما الطاعة بواسطتهما لقداسة البابا. فالمجمع المقدّس، في جلسته المنعقدة بتاريخ ٢ نيسان سنة ١٦٦٣، أمر بأن يرسل لكلّ من البطريركين كأس ثمينة من ذهب، ووافق على فكرة إرسال الموفدين البطريركيّين إلى رومة لتقديم الطاعة. لكنّ فكرة إرسال هذين الأسقفين لم تتحقّق أبدًا، بعكس ما اعتقد بعض المؤرّخين.

على أنّ المرسل الكرمليّ المذكور حمل معه، على ما يبدو، رسائل من البطاركة الثلاثة إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر. ثمّ ألحقوها برسائل أخرى إلى الملك المذكور، حملها معه القنصل بارون، ومنها رسالة بتوقيع البطريرك مكاريوس، وهي مؤرّخة في ١٥ شباط سنة ١٦٦٣. وفيها يكتفي البطريرك بذكر مشقّات المسيحيّين في حكم العثمانيّين، دون أيّ التماس معيّن[٦٥].

وما زالت علاقات البطريرك مكاريوس بالمرسلين الكاثوليك في حلب تتوثّق يومًا بعد يوم حتّى أنّه في شهر حزيران سنة ١٦٦٣ تدخّل للدفاع عنهم لدى البطريرك المارونيّ جرجس السبعليّ (١٦٥٧- ١٦٧٠)، الذي كان قد منع الموارنة بحلب من قبول الأسرار عن يد المرسلين، ومنع المرسلين من دخول كنيسة الموارنة. فكتب إليه البطريرك مكاريوس يستغرب موقفه، "ما دامت طائفة الموارنة منذ زمن طويل شيئًا واحدًا مع الافرنج". وقد حذا حذوه كلّ من البطريرك السريانيّ والبطريرك الأرمنيّ[٦٦]. وأنّ المرسلين الكرمليّين، لكي يعربوا للبطريرك مكاريوس عن شكرهم وامتنانهم لتدخّله الحميد هذا، كتبوا من جديد إلى المجمع المقدّس يطلبون طبع كتاب الأفخولوجيّ الذي كان البطريرك بعث به إلى رومة للطبع[٦٧].

وكان من نتائج هذه العلاقات الطّيبة والتقارب المستمرّ مع المرسلين الأجانب، أن كتب البطريرك مكاريوس عن حلب بتاريخ ١٤ كانون الأوّل سنة ١٦٦٣ رسالة ثانية إلى مجمع انتشار الإيمان، ندرج صورة عنها، مأخوذة عن

---

65 RABBATH, op. cit; p. 468- 476; J. HAJJAR, Les chrétiens uniates du Proche- Orient, Paris 1962, p. 224, 234.

66 Archiv. Prop; Scritture non riferite dal 1622 a tutto il 1707, Maroniti, fol. 122r- 123r.

67 Archiv. Propag; Acta, vol. 32, fol.121r.

محفوظات المجمع المذكور[68]. في هذه الرسالة يعرب البطريرك عن محبّته للكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ، وسعيه ورغبته في الاتحاد، أيّ اتحاد الكنيسة الشرقيّة مع الكنيسة الرومانيّة. ويعلن أنّه سوف يبقى وفيًّا لكلمته واعترافه هذا إلى آخر نسمة من حياته. ويقول أنّه بطيبة خاطر وارتياح يدع الآباء المرسلين يتردّدون على كنيسته وعلى بيوت أبناء طائفته. ويطلب من سيّدنا يسوع المسيح أن يهدم حاجز العداوة الذي أقامه الشيطان بين الكنيستين، ويقول أنّ الكنيسة الرومانيّة هي أمّ جميع الكنائس وجميع المؤمنين، وقد افتتحت لأبناء الروم معهدًا في رومة، وأنّها تُعنى بالمسيحيّين الشرقيّين، وترسل لهم كهنة ومرسلين، وأنّه يتوسّل إلى السيّد المسيح أن يثبّت الكنيسة الرومانيّة، ويحفظ قداسة البابا الذي هو "رأسها ورأسنا جميعًا". ثمّ يذكر الصعوبات المعنويّة والمادّيّة التي يلاقيها، ويسمح لنفسه بأن يطلب من الكنيسة الرومانيّة أن تمدّ يد المساعدة للمسيحيّين في الشرق، "لأنّها قويّة وغنيّة". ثمّ يذكر بعاطفة الشكر والامتنان القنصل بارون الذي خلف القنصل بيكه منذ نهاية عام ١٦٦٢، ويبدي شكره للكأس الذهبيّة التي قُدّمت له، ويعود فيطلب طبع كتابَيْ الأفخولوجيّ والسواعي، ويوقع باليونانيّة.

هذه الرسالة بقيت في حلب حتّى أواخر شهر نيسان سنة ١٦٦٤. وقد اصطحبها معه بعد ذاك إلى رومة نائب المرسلين الكرمليّين في حلب، المدعو François de la Passion مع رسائل أخرى من البطريرك السريانيّ بحلب، والمطران السريانيّ بهنام. ولعلّ هذا التأخير كان مقصودًا من طرف المرسلين، لكي يحملوا البطريرك مكاريوس على توقيع صورة اعتراف رسميّة بالإيمان الكاثوليكيّ. ويبدو في الواقع أنّ البطريرك وقّع مثل هذه الصورة سرًّا، وأرسل عنها نسخة إلى مجمع انتشار الإيمان مع الأب الكرمليّ المذكور[69]. أمّا النسخة الأصليّة فقد حوّلها مجمع انتشار الإيمان إلى مجمع التفتيش بتاريخ ١٩ حزيران سنة ١٦٦٥. وقد حالفنا الحظّ، فاستطعنا أن نجدها بين محفوظات مجمع التفتيش، حيث لا يُسمح إلاّ نادرًا بمراجعة الأوراق القديمة، فاستحصلنا على صورة شمسيّة عنها، ننشرها هنا لأوّل مرّة إلى جانب هذا المقال (راجع الرسم رقم ٣).

السفرة الثانية إلى روسيا وبلاد الكرج (١٦٦٥- ١٦٦٩)

[68] SOCG, vol. 240, fol. 44v- 45r.
[69] Archiv. Propag; Acta, vol. 34, fol.3v; SOCG, vol. 240, fol. 46r.

في أواسط سنة ١٦٦٥، غادر البطريرك مكاريوس حلب متوجّهًا إلى بلاد الكرج وروسيا، بدعوة من القيصر ألكسي، للحكم على نيكون بطريرك موسكو بالحطّ عن منصبه. وكان المدعوّون بطاركة الكنيسة الأرثوذكسيّة في الشرق، أيّ البطريرك الإسكندريّ بائيسيوس، والبطريرك الأنطاكيّ مكاريوس، والبطريرك القسطنطينيّ ذيونيسيوس الثالث الذي آثر أن لا يتغيّب عن كرسيّه، فانتدب البطريرك الأنطاكيّ مكاريوس لكي يمثّله، وكذلك حنانيا رئيس أساقفة جبل سيناء.

لسنا ندري بالتمام حتّى الآن متى غادر البطريرك مكاريوس حلب. لكنّنا نعلم فقط أنّه في غضون سنة ١٦٦٥ مرّ ببلاد الكرج في طريقه إلى روسيا. وفي مروره هذا يُقال أنّه بثَّ بين الكرجيّين روح الاتحاد مع رومة، وعمّد الكثيرين منهم. ولمّا بلغ إلى موسكو طلب من كزمير ملك بولونيا أن يتوسّط لإعادة اتحاد الكنيسة الشرقيّة بالكنيسة الرومانيّة.

وفي سنة ١٦٦٧، إذ كان البطريرك مكاريوس في موسكو، نشر الكاتب الأرثوذكسيّ بنايوتيس Panagiotis في أمستردام كتاب "صورة الإيمان الأرثوذكسيّ" الذي كان قد وضعه الأسقف الأوكرايينيّ موغيلا Moghila . وصدر الكتاب في أمستردام، مؤرّخًا في ١١ آذار سنة ١٦٤٣، وحاملاً تواقيع جميع البطاركة الأرثوذكسيّين، ومن بينها توقيع البطريرك الأنطاكيّ مكاريوس. لكنّه في التاريخ المذكور، أيّ سنة ١٦٤٣، لم يكن مكاريوس قد ارتقى السدّة البطريركيّة. فالتوقيع إذًا مزوّر، ولا عِلم للبطريرك مكاريوس به.

وبعد أن اشترك البطريرك مكاريوس في الحكم على البطريرك الروميّ نيكون سنة ١٦٦٧، عاد ومرّ ببلاد الكرج سنة ١٦٦٩ في طريق عودته إلى حلب. وفي بلاد الكرج كتب بحثه الشهير في "تاريخ اهتداء بلاد الكرج إلى النصرانيّة"، المحفوظ إلى اليوم في المخطوطة العربيّة رقم ٦٨٩ من المكتبة الفاتيكانيّة، وقد نشره العلاّمة لبدف Lebedev في رومة سنة ١٩٠٥.

وفي تفليس، عاصمة بلاد الكرج، توفي ابنه الشمّاس بولس في ٢٢ حزيران سنة ١٦٦٩. وقد اغتاله بعض المجرمين، على ما يبدو، للاستيلاء على الأموال التي شاع أنّه جمعها مع والده البطريرك خلال رحلته. فعاد البطريرك مكاريوس وحده إلى مقرّه، حزينًا جريح الفؤاد.

ولم نعثر حتّى الآن على تفاصيل عودته إلى سوريا، مع ذكر التواريخ والأماكن التي مرّ بها. كلّ ما نعلمه هو أنّه بتاريخ ١٢ حزيران سنة ١٦٧٠، رسم الخوري ملاتيوس الباياسي مطرانًا على حلب. وهكذا تخلّى بهذا التاريخ

عن إدارة أبرشيّة حلب بصفة مباشرة، وعاد إلى دمشق، لكي يعنى بأمور كرسيّه البطريركيّ.

المؤلّفات التي وضعها خلال رحلته الثّانية إلى بلاد الكرج والمسكوب

بقي أن نقول كلمة عن المؤلّفات التي وضعها هذا البطريرك الهمّام إبّان رحلته هذه الثّانية إلى بلاد الكرج والمسكوب، وكأنّي به قد قطع على نفسه عهدًا أن لا يضيّع ساعة من وقته إلاّ ويستعملها لفائدة شعبه. وقد عني هو نفسه بأن يطلعنا على هذه المؤلّفات في ختام كتابه المعنون "التاريخ الروميّ العجيب الجديد الذي من عهد آدم إلى أيام قسطنطين السعيد"، فنورد هنا ما قاله بهذا الصدد، أخذًا عن المخطوطة رقم ١٣٥١ من المكتبة المارونيّة بحلب. قال البطريرك مكاريوس بإنشائه الضعيف الذي يميّزه:

"اعلم يا هذا بأنّي لمّا كنتُ في بلاد الغربة ثاني دفعة (في تاريخه أدناه)، التي لم تكن باختيارنا ولا بإرادتنا، لكن من الضرورة وكثرة الديون والفوائد التي كانت على الكرسيّ الأنطاكيّ، فكنتُ أجتهد حتّى لا أمكث بطّالاً، وأخرج من الكتب الروميّة التي ليست هي موجودة في لغتنا وبلادنا، وأنقلها إلى لساننا لأجل المنفعة الحاصلة منها. وكنتُ أسأل عن معاني الكلام وتفسيره من العارفين بذلك. وعملتُ بحسب مقدرتي، وأخرجتُ عشرة كتب في هذه الغيبة الثانية:

١- فالكتاب الأوّل منها فإنّه مجموع فيه أخبار لطيفة جدًّا من كتب شتّى، ولأجل ذلك دعوته **كتاب النحلة** لمكاريوس البطريرك الأنطاكيّ.

٢- والكتاب الثانيّ فإنّه يشتمل على أخبار السبعة مجامع الكبار المقدّسة المسكونيّة وأسامي سائر رؤساء الكهنة الذين كانوا فيها، وعدتهم وأسامي كراسيهم وتاريخ أوقاتهم، وعلى مَن كانت هذه المجامع من المخالفين، وفي أيّ بلاد كان اجتماعهم، ومَن هم الملوك الذين كانوا حاضرين فيها. وفيه أخبار وأسامي أبرشيّات الدنيا كلّها، وغير ذلك، ودعوته **كتاب أخبار السبعة مجامع المقدّسة المسكونيّة، المشتمل على الاعتقادات المستقيمة البهيّة**.

٣- والثالث ففيه ستّة عشر خبر من أخبار القدّيسين الذين تذكاراتهم في أيام الصيف، ودعوته **كتاب قصص وسير وأخبار بعض الرسل والشهداء القدّيسين الأبرار**.

٤- والكتاب الرابع فقد جمعه واحد كاهن عالم من جماعتنا الروم في تفسير الذبيحة الإلهيّة والقدّاس المجيد وشكل الكنائس وبنائها وتفسير آلة القدّاس

وبدلات الكهنوت. قد جمع الكاهن المذكور ذلك من أقوال آباء قدّيسين كثيرين، ودعوته **كتاب تفسير خدمة القدّاس الإلهيّ**.

٥- والكتاب الخامس في أخبار بطاركة الدنيا الذين صاروا على الأربعة الكراسي البطريركيّة، وهي القسطنطينيّة والإسكندريّة وأنطاكية وأورشليم، من عهد الرسل القدّيسين إلى الآن، وأساميهم وبعض أخبارهم ومدّة إقامة كلّ واحد منهم على الكرسيّ الرسوليّ، ودعوته **كتاب أخبار سائر البطاركة الذين صاروا على الأربعة كراسي الأرثوذكسيّين وأساميهم ومدّة إقامتهم من عهد الرسل الأطهار وإلى هذا الحين.**

٦- والكتاب السادس فهو هذا الكتاب الذي دعوته **كتاب التاريخ الروميّ العجيب الجديد الذي هو من عهد آدم إلى أيام قسطنطين السعيد** [وقد تمّ وضعه سنة ١٦٦٧].

٧- أمّا الكتاب السابع فهو مجموع من كتب كثيرة نافعة للنفس، ودعوته **كتاب مجادلة كاثوليك الحبشة مع أربان اليهوديّ**، وغير ذلك من الأخبار والأقوال النافعة جدًّا.

٨- والكتاب الثامن دعوته **كتاب الكنوز القديم** المشتمل على مقالات نافعة جدًّا في مضمون الأعياد السيّديّة وغير ذلك.

٩- والكتاب التاسع دعوته **كتاب عجائب ستنا الطاهرة السيّدة**، وتراتيب ومسائل وأجوبتها نافعة جيّدة.

١٠- والكتاب العاشر دعوته **كتاب سلوة مَن يريد يلقّب بالكنوز الجديد**" (؟)

سنوه الأخيرة

على أنّ البطريرك مكاريوس عاد من رحلته هذه الثانية إلى روسيا وبلاد الكرج أقلّ اندفاعًا نحو الكثلكة، وأوثق رباطًا بالكنائس الأرثوذكسيّة. مع ذلك فقد تابع علاقاته الطيّبة بالمرسلين الأجانب، كما شهد بذلك المستشرق المعاصر الأب اليسوعيّ نو Nau[70] كما أنّ المرسل الكبّوشيّ Jean-Baptiste de Saint-Aignan كتب سنة ١٦٧٠ إلى مجمع انتشار الإيمان في رومة يمتدح حسن استعدادات البطريرك الروميّ مكاريوس[71] وفي الجلسة التي عقدها مجمع انتشار الإيمان بتاريخ ٣ آب سنة ١٦٧١، تلي تقرير أحد المرسلين

70- راجع كتاب أسد رستم "كنيسة مدينة الله العظمى أنطاكية"، صفحة ٩٨.

71 Acta, vol. 39, fol. 104v

الكرمليّين في حلب المدعوJoseph-Ange di Gesù Maria، جاء فيه أنّ البطريرك مكاريوس قد اعتنق الإيمان الكاثوليكيّ سرًّا.

وفي غضون سنة ١٦٧١ كان البطريرك مكاريوس من جديد في حلب، إذ حضر فيها جنازة المرسل الكبّوشيّ Sylvestre de Saint-Aignan[٧٢]. وكان هذا المرسل صديق البطريرك مكاريوس. ولقد كتب سنة ١٦٦٨ إلى المجمع المقدّس يذكّره بضرورة طبع كتاب الأفخولوجيّ والسواعي[٧٣]. وقد توفي المرسل سنة ١٦٧١. ويقول أحد المعاصرين أنّه "تواجد في جنازته، من باب الصدفة، أو بالأحرى بتدبير من العناية الربّانيّة، ثلاثة بطاركة، لم يكونوا منذ أمد بعيد قد اجتمعوا في نفس المكان. واشترك أيضًا في تشييع جثمانه ثمانية أساقفة، وسبعون كاهنًا، مع عدد كبير من الشعب من مختلف الطوائف"[٧٤].

ولمّا انتشرت الدعوة البروتستنتيّة في بلاد سوريا، أدلى البطريرك مكاريوس بشهادتين ضدّ البدعة الكلوينيّة، الواحدة بتاريخ ٢٠ تشرين الأوّل سنة ١٦٧١، والثانية بتاريخ ١٥ تشرين الثانيّ من السنة عينها[٧٥]. ويقول المؤرّخ Le Quien[76] أنّ هناك شهادة ثالثة بتاريخ ١٩ كانون الأوّل سنة ١٦٧١[٧٧].

وتتفاقم الدعوة البروتستنتيّة بين أبناء البطريركيّات الشرقيّة الأرثوذكسيّة. فيدعو البطريرك الأورشليميّ ذوسيثاوس زميله البطريرك الأنطاكيّ مكاريوس وغيره إلى عقد سينودس في القدس لدحض البدعة الغربيّة الجديدة. وعقد المجمع فعلاً في مدينة القدس في ٢٠ آذار سنة ١٦٧٢، ونشر قانون الإيمان الأرثوذكسيّ ضدّ البدعة البروتستنتيّة[٧٨]، لكنّ البطريرك مكاريوس الأنطاكيّ لم يحضر هذا المجمع، ولا أوفد إليه مَن يمثّله، لأسبابٍ نجهلها.

وقد توفي البطريرك مكاريوس الحلبيّ في دمشق بتاريخ ٢٢/١٢ حزيران سنة ١٦٧٢، مسمومًا. وقال بعضهم أنّ أحد أخصّائه دسّ له السمّ في الطعام بسبب ميوله الكاثوليكيّة. وقال آخرون إنّما دُسَّ له السمّ للاستيلاء على الأموال التي كان قد جاء بها من الخارج. والله أعلم.

---

72 Acta, vol. 41, fol. 28

73 SOCG, Vol. 240, Fol. 196r.

74 M. FEBVRE, Théâtre de la Turquie, Paris 1682, p. 454- 455.

75- نشر هاتين الشهادتين المرحوم أسد رستم في كتابه المذكور عن تاريخ مدينة الله العظمى أنطاكية، صفحة ٧٣-٧٤.

76 Oriens Christianus, t.II, col. 773

77- راجع مجلة المشرق، سنة ١٩٠٧، صفحة ٧٦٦ و٧٩٥.

78- راجعه في كتاب أسد رستم المذكور، صفحة ٧٥- ٩٦.

ويبقى البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم واحدًا من أكبر أعلام الرؤساء الذين ساسوا الكرسيّ الأنطاكيّ في العصر الحديث[79]، وأبرشيّة حلب بنوعٍ خاصّ.

-٨-
ملاتيوس البایاسي
(١٢ حزيران ١٦٧٠- ١٦٨٥)

جاء في "المجموع اللطيف"[80] أنّ البطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم "شرطن الخوري موسى البایاسي مطرانًا على حلب يوم الأحد ١٢ حزيران، ودعا اسمه ملاتيوس الثالث، في سنة ٧١٧٨ للعالم" [أيّ ١٦٧٠ م].

فإذا كان المطران مطروفانس بشارة قد توفي في ١٣ أيلول سنة ١٦٥٩، ولم يرتسم خلفه على كرسيّ حلب، المطران ملاتيوس البایاسيّ، إلاّ في ١٢ حزيران سنة ١٦٧٠، تكون الأبرشيّة الحلبيّة قد عانت شغورًا طويلاً امتدّ نحو أحد عشر عامًا، خضعت فيه لإدارة البطريرك المباشرة. فالبطريرك مكاريوس الحلبيّ ابن الزعيم أراد أن يحتفظ لنفسه في هذه الفترة بسياسة الأبرشيّة الحلبيّة، كما رأينا، فأقام فيها زهاء أربع سنوات يديرها بنفسه، ثمّ عيّن فيها مَن يقوم مقامه ورحل في سفرة ثانية إلى "بلاد المسيحيّين"، ولم يُنصَّب عليها ملاتيوس البایاسيّ أسقفًا أصيلاً إلاّ عند عودته من تلك السفرة، وذلك في ١٢ حزيران ١٦٧٠، أيّ قبل وفاته بسنتين.

نشأته

إنّ كلّ ما نعرفه عن الخوري موسى البایاسيّ هذا، الذي أصبح مطرانًا على حلب في ١٢ حزيران سنة ١٦٧٠ باسم ملاتيوس الثالث، هو أنّه كان مرافقًا للبطريرك مكاريوس الحلبيّ في رحلته الأولى "إلى بلاد المسيحيّين"، التي دامت نحو سبع سنوات، من سنة ١٦٥٢ حتّى سنة ١٦٥٩. وقد أورد المورحوم الخوري قسطنطين الباشا، نقلاً عن حاشية وجدها في إحدى مخطوطات كتاب الأفخولوجيّ المحفوظة عنده[81]، أنّ الوفد المرافق للبطريرك

---

[79] J. NASRALLAH, L'oeuvre historique du Patriarche d'Antioche Macaire III Za'im, dans B.E.O. 25 (1972), p. 191- 202

[80]- مخطوطة مكتبة دير الشير رقم ٦٠٠، صفحة ٢٤٩.

[81]- راجع حاشية الصفحة ٧٠ من كتابه "نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبيّ"

مكاريوس في رحلته الأولى هذه كان يتألّف من "ابنه الأرشيدياكون بولس الزعيم، والخوري سابا رئيس دير البلمند، والخوري موسى البياسيّ، والشمّاس غريغوريوس، وعازار، والحاج نقولا، وبطرس".

حوادث عهده الأسقفيّة

دامت أسقفيّة المطران ملاتيوس البياسيّ في حلب نحو خمسة عشر عامًا. وقد بذلنا قصارى جهدنا في البحث عن أهمّ ما حدث خلال هذه الفترة في طائفة الروم بحلب، فلم نتوقّق إلاّ للنـزر القليل منها. والباقي ما زال مدفونًا في قلب المخطوطات.

وجدنا مثلاً أنّه بتاريخ ٢٣ نيسان سنة ١٦٧٤ أرسل الخوري ميخائيل بجع، العلاّمة الشهير، صورة اعترافه الكاثوليكيّ إلى رومة[٨٢].

ووجدنا أيضًا أنّه حوالي سنة ١٦٨٠ أُلقيت في كنيسة الروم بحلب مواعظ دينيّة، عددها ٣٦، حفظتها لنا بعض مخطوطات من مجموعة المرحوم الأب بولس سباط، وموضوعها الحقائق العظمى والأسرار والوصايا[٨٣].

على أنّ الحدث الأكبر هو ما جرى للبطريركيّة الأنطاكيّة بعد وفاة البطريرك مكاريوس الحلبيّ بتاريخ ١٢ حزيران سنة ١٦٧٢. فقد سعى الشمّاس حنانيا، الابن الأكبر للأرشيدياكون بولس، أن تعقد البطريركيّة لأخيه الأصغر الخوري قسطنطين، وكان جدّه البطريرك مكاريوس الحلبيّ يرشّحه لهذا المنصب. وكان حنانيا قد أضحى، بعد وفاة والده الأرشيدياكون بولس في مدينة تفليس في ٢٢ حزيران سنة ١٦٦٩، قهرمان القلاّية البطريركيّة والقيّم المطلق على أموالها. وبفضل ما كان له من نفوذ، وبفضل ما بذل في هذا السبيل من مال إلى والي دمشق والقاضي وذوي الشأن فيها، فقد تكلّل سعيه بالنجاح، وارتسم الخوري قسطنطين بطريركًا باسم كيرلّس الخامس الزعيم في ٢ تموز سنة ١٦٧٢ في كاتدرائيّة بيروت. وعاد البطريرك الجديد إلى دمشق واستوى على العرش البطريركيّ ولمّا يتجاوز حينئذ العشرين من عمره.

على أنّ فريقًا آخر من أهل دمشق، أكثر عددًا وأقوى نفوذًا، كان يؤيّد ويرشّح للبطريركيّة مطران حماه ناوفيطوس الصاقزيّ، الذي كان قد تربّى في القلاّية البطريركيّة من عهد خاله البطريرك أفتيميوس كرمه، ثمّ صار وكيلاً

[82] RABBATH, op. cit; p. 87.

[83]- راجع كتاب الأب غراف الألمانيّ عن تاريخ الأدب المسيحيّ العربيّ، الجزء الثالث، صفحة ١٧٠، ومجموعة مخطوطات الأب بولس سباط، المخطوط رقم ٦٦٥.

في دمشق عن البطريرك مكاريوس الحلبيّ عندما قام بسفرته الثّانية إلى بلاد الكرج وروسيا سنة ١٦٦٥. فكان ولا ريب أفضل المطارنة عِلمًا وخبرة بأمور البطريركيّة. وإذ أحسّوا بميل والي دمشق إلى حفيد البطريرك الراحل، اجتمعوا هم أيضًا في بيروت لكي يكونوا بعيدين عن والي دمشق ورجاله، وعن الشمّاس حنانيا وأصحابه. لكنّ الوالي إذ علم بذلك تبعهم إلى بيروت، وهدّدهم وأمرهم بالخضوع للخوري قسطنطين الذي سيم بطريركًا في بيروت عينها باسم كيرلّس الخامس.

على أنّ البطريرك الأورشليميّ دوسيتاوس مرّ إذ ذاك بدمشق وحماه، وأطلع على هذا الخلاف. وإذ بلغ القسطنطينيّة، سعى لدى بطريركها ذيونيسيوس الرابع والصدر الأعظم للاعتراف بناوفيطوس الصاقزيّ مطران حماه بطريركًا على أنطاكية، وحطّ منافسه كيرلّس الخامس عن منصبه، بحجّة حداثة سنّه وجهله... فعقد البطريرك ذيونيسيوس المذكور مجمعًا في شهر تشرين الثّانيّ سنة ١٦٧٢، وحكم فيه مع الحاضرين بحطّ كيرلّس عن البطريركيّة، وتعيين ناوفيطوس بدلاً منه.

إذ ذاك انقسمت البطريركيّة الأنطاكيّة من جديد. ودامت المنافسة بين البطريركين عشر سنوات، أيّ حتّى سنة ١٦٨٢.

ونحن نتساءل: ماذا كان موقف أبرشيّة حلب ومطرانها من هذا الصراع بين البطريركين؟ يبدو أنّ حلب كانت تميل إلى البطريرك كيرلّس، لا لشيء إلاّ لكونه حلبيًّا... فعندما نجح ناوفيطوس الصاقزيّ سنة ١٦٧٤ في الحصول على اعتراف الحكومة العثمانيّة به بطريركًا أنطاكيًّا دون سواه، عاد إلى دمشق، واستولى على البطريركيّة، "واضطرّ كيرلّس أن يخرج من دمشق. وجعل يطوف أبرشيّات المطارنة أصحابه، ولاسيّما حلب وطنه، التي كان فيها عدد النصارى الروم يوازي نصف سائر الأبرشيّات الأنطاكيّة. وهم أكثر غنى بتجارتهم الواسعة شرقًا وغربًا. وكان لبعض التجار منهم شأن في القسطنطينيّة لا يستهان به. فلاذ بهم كيرلّس، وأصلح حاله هناك، وعاد إلى دمشق، واستولى على البطريركيّة بموجب البراءة السلطانيّة من جديد"[٨٤]. ولعلّ هذا الأمر تكرّر أكثر من مرّة بين سنة ١٦٧٤ وسنة ١٦٨٢، وفيها انهار ناوفيطوس الصاقزيّ ماليًّا وصحّيًّا، فتنازل للبطريرك كيرلّس الخامس ابن الزعيم عن منصبه، لقاء تعيينه أسقفًا على اللاذقيّة، فشغل كرسيّها أربع سنوات ومات، فارتاح بال

---

[84]- راجع تاريخ طائفة الروم الملكيّة والرهبانيّة المخلّصيّة، بقلم الخوري قسطنطين الباشا المخلّصيّ، طبعة سنة ١٩٣٨، القسم الأوّل، صفحة ٧٧.

كيرلّس الخامس فترة من الزمن، إلى أن قام له منافس آخر بشخص أثناسيوس الثالث دبّاس، كما سنرى.

ويستفاد من ترجمة حياة القنصل الفرنسيّ فرنسوا بيكه[٨٥] أنّه في مروره بحلب بين أواخر سنة ١٦٧٩ وأوائل سنة ١٦٨١، وجد النـزاع مستعرًا فيها بين ناوفيطوس وكيرلّس ومشايعيهما بقوّة البراءات السلطانيّة التي كان كلّ منهما حائزًا على واحدة منها بيده. ويذكر القنصل بيكه أنّ كيرلّس ذهب إلى بلاد الكرج، على مثال جدّه البطريرك مكاريوس، لكي يطلب الإعانة من أهلها، وأنّ ناوفيطوس اغتنم فرصة غياب كيرلّس عن حلب، فحضر إليها، وكان له من أهلها حزب لا بأس به، وأنّه عاون والي حلب على تغريم حزب كيرلّس بمبلغ ألف غرش. وكان أبناء طائفة الروم بحلب يعدّون إذ ذاك بنحو عشرين ألفًا في أقلّ تقدير.

وكأنّي بهذه الحوادث الجسام والخلافات المستعصية طغت على شخصيّة مطران حلب، فلم نجد له فيها ذكرًا يخلّد اسمه. فهل كان المطران ملاتيوس الباياسيّ شخصيّة باهتة، أم أنّ التاريخ مقصّر بحقّه لا لشيء إلاّ لانعدام الوثائق المعاصرة التي، فيما لو اكتشفناها، لأماطت اللثام عن دوره في تلك الحقبة المضطربة من تاريخ البطريركيّة الأنطاكيّة؟

تاريخ وفاة المطران ملاتيوس البياسيّ

لم نعثر حتّى الآن على وثيقة معاصرة تحدّد بالضبط تاريخ وفاة المطران ملاتيوس البياسيّ. إلاّ أنّنا نستطيع أن نستدلّ على ذلك ممّا أورده المؤرّخ البيروتيّ المجهول، الذي كتب ملحقًا لتاريخ بطاركة أنطاكية الذي كان وضعه الخوري مخائيل بريك الدمشقيّ، والذي طبعه سليم قبعين في مصر سنة ١٩٠٢، فقال[٨٦]: "وكان بعد وفاة البطريرك ناوفيطوس في اللاذقيّة واستقلال كيرلّس بالبطريركيّة من غير منازع، إن وفدت جماعة من وجهاء حلب لزيارة أورشليم، ثمّ توجّهوا لزيارة دير القدّيس سابا، فوجدوا هناك راهبًا دمشقيًّا يُقال له أثناسيوس مليح الصفات. وكان **مطران حلب قد توفي من عهد قريب**. فأحبّوا أن يجعلوه مطرانًا عليهم. وجاؤوا به إلى دمشق... وفي اليوم الثّانيّ توجّهوا، وأثناسيوس في صحبتهم، حتّى وصلوا إلى حلب... ومن هناك كتبوا

---

[85] G. GOYAU, François Picquet, Paris 1942, p. 241- 242.

[86]- ننقل هذا النصّ من "تاريخ طائفة الروم الملكيّة" للمرحوم الخوري قسطنطين الباشا المخلّصيّ، القسم الأوّل، صيدا ١٩٣٨، صفحة ١٣٥.

إلى القسطنطينيّة، واستحصلوا له على براءة شاهانيّة تعترف له بالبطريركيّة"، فسيم بطريركًا على كرسيّ أنطاكية في دمشق سنة ١٦٨٥، كما سوف نرى، وأقام في حلب.

فإذا كان وفد وجهاء حلب قد زار دير القدّيس سابا "بعد وفاة البطريرك ناوفيطوس باللاذقيّة"، أيّ سنة ١٦٨٥، وإذا كان البطريرك أثناسيوس قد سيم بطريركًا سنة ١٦٨٥ خلفًا لمطران حلب الذي "كان قد توفي من عهد قريب"، لن نبتعد عن الحقيقة إذا افترضنا أنّ سلفه المطران ملاتيوس الباياسيّ توفي في غضون سنة ١٦٨٥.

مَن الذي خلف ملاتيوس البياسيّ على كرسيّ حلب؟

إلاّ أنّ المرحوم الأب كيرلّس كرلفسكيّ، المؤرّخ الشهير، ادّعى في مقاله عن "حلب"، المنشور في معجم التاريخ والجغرافيا الكنسيّة[٨٧]، أنّه قام، بعد ملاتيوس البياسيّ، أسقف ملكيّ على حلب اسمه غريغوريوس، حول سنة ١٦٩٨. ويستند الأب كرلفسكيّ في ذلك إلى ما ورد في محضر جلسة مجمع انتشار الإيمان المنعقدة في ٢٨ تموز سنة ١٦٩٨، وقد ذكر فيه أنّ مكاريوس مطران طرابلس، الذي اهتدى إلى الإيمان الكاثوليكيّ على يد المرسل الكبّوشيّ الأب Yves de Tréguier قد أرسل صورة اعترافه الكاثوليكيّ موقعة بخطّ يده. "وهكذا فعل غريغوريوس"، الذي اعتقد الأب كرلفسكيّ أنّه كان أسقفًا لحلب[٨٨]. وقد نقل صديقنا الاكسرخوس يوسف نصرالله عن الأب كرلفسكيّ اعتقاده هذا دون مراجعة[٨٩].

على أنّ هذا الاعتقاد قد اعتلن لنا مغلوطًا، عندما استحصلنا من محفوظات مجمع انتشار الإيمان على نسخة مصوّرة من محضر جلسة مجمع انتشار الإيمان المنعقدة في ٢٨ تموز سنة ١٦٩٨، وفيها تبيّن لنا بوضوح أنّ الذي أرسل إلى رومة صورة اعترافه الكاثوليكيّ مع مكاريوس مطران طرابلس، إنّما هو غريغوريوس "أسقف هيرابوليس" فإنّ هيرابوليس هذه ليست مدينة حلب، وإن كانت معروفة في ذاك الحين لدى المرسلين بهذا الاسم خطأ[٩٠].

---

[87] DHGE, t. II, col. 113.

[88] Index des documents concernant l'histoire des Patriarcats melkites renfermés dans l'Archive de la S. Congr. De la Prop; vol. I, Atti e Scritture originali (1622- 1892), Pro manuscripto, p. 8.

[89] J. NASRALLAH, Notes et Documents…, Jérusalem 1965, p. 143.

[90] V.g. dans MANSI, t. 46, col. 170, 198…

ونحن نجزم بأنّ غريغوريوس المذكور ما هو إلاّ غريغوريوس **مطران بعلبك**، فإنّ مدينة بعلبك معروفة باللغات الإفرنجيّة باسم هليوبوليس، فكتب مسجّل المجمع المقدّس "هيرابوليس" خطأً بدلاً من "هليوبوليس". وحجّتنا في ذلك أنّ غريغوريوس مطران بعلبك ومكاريوس مطران طرابلس كانا من الأساقفة الداعين للكثلكة. وقد وقّعا، مع سلفستروس مطران بيروت وأغناطيوس مطران اللاذقيّة، رسالة كتبت حول سنة ١٦٩٦، وبعثا بها إلى المطران أفتيميوس صيفيّ، رئيس أساقفة صور وصيدا، المعروف بغيرته على الكثلكة، يستحلفانه فيها بأن يقبل البطريركيّة، بدلاً من كيرلّس الزعيم وأثناسيوس دباس، اللذين استنفدا إمكانات أبناء الطائفة بمنافستهما العقيمة. وقد نشر هذه الرسالة المرحوم الخوري قسطنطين الباشا[٩١]، مع تواقيع كاتبيها في ذيلها.

وهناك دليل آخر نستخلصه من كون الأسقفين المذكورين، أيّ مكاريوس وغريغوريوس، قد اهتديا إلى الإيمان الكاثوليكيّ على يد المرسل الكبّوشيّ إيف المذكور الذي كان يعمل في طرابلس، علمًا بأنّ بعلبك قريبة من طرابلس، ولا يستبعد أن يمتدّ إليها نشاط المرسل المقيم في طرابلس، بينما لا يعقل أن يمتدّ نشاطه إلى حلب...

ونحن نعتقد أنّ كلّ تردّد في إثبات رأينا يزول ولا محالة فيما لو أتيح لنا أن نتصفّح الوثيقة الأصليّة، أيّ صورة اعتراف المطران غريغوريوس المذكور، باللغة العربيّة. على أنّ هذه الوثيقة قد حوّلها مجمع انتشار الإيمان إلى مجمع التفتيش. ومن المعلوم أنّ محفوظات مجمع التفتيش لا تزال إلى اليوم موصدة في وجه الباحثين.

نستخلص ممّا تقدّم أنّ المطران ملاتيوس البياسيّ توفي في غضون سنة ١٦٨٥، وأنّ خلفه المباشر على كرسيّ حلب لم يكن سوى البطريرك أثناسيوس الثالث دبّاس بالذات.

-٩-
البطريرك أثناسيوس الثالث دبّاس
(٢٥ حزيران ١٦٨٥- ٢٤ تموز ١٧٢٤)

[91]- تاريخ طائفة الروم الملكيّة، صفحة ١٤٤- ١٤٥.

ممّا لا شكّ فيه أنّ البطريرك أثناسيوس الثالث دبّاس الدمشقيّ يحتلّ مكان الصدارة، بعلمه ونفوذه ونشاطه، بين أساقفة الروم الملكيّين بحلب في العصر الحديث. فقد بقي يرعى هذه الأبرشيّة لا أقلّ من تسع وثلاثين سنة. وفي عهده أصبحت أبرشيّة حلب مقرًّا مؤقتًا، بدلاً من دمشق، للبطريرك الأنطاكيّ، فعاشت حقبة تاريخيّة هامّة، من حيث النشاط الثقافيّ، ومن حيث تقدّم الحركة الوحدويّة الكاثوليكيّة بين أبنائها.

وأنّنا نستطيع أن نقسم هذا العهد الطويل إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوّل، من سنة ١٦٨٥ إلى سنة ١٦٩٤، وفيه يدير أثناسيوس الثالث دبّاس أبرشيّة حلب بصفته بطريركًا أنطاكيًّا منافسًا للبطريرك كيرلّس الخامس الحلبيّ الزعيم. والقسم الثانيّ، من سنة ١٦٩٤ إلى سنة ١٧٢١، وفيه يدير البطريرك المذكور أبرشيّة حلب بصفته "بطريرك أنطاكية سابقًا"، إذ تخلّى سنة ١٦٩٤ لمنافسه البطريرك كيرلّس الخامس عن السلطة البطريركيّة الفعليّة، واحتفظ لنفسه بلقب "بطريرك سابق"، وراعٍ لأبرشيّة حلب. والقسم الثالث، من سنة ١٧٢١ إلى سنة ١٧٢٤، وفيه يدير البطريرك المذكور أبرشيّة حلب بالتعاون مع أسقف رسمه شكلاً عليها، هو المطران جراسيموس سمان، لكنّه سرعان ما أبعده عنها، واحتفظ لنفسه بإدارتها فعلاً.

نشأته

هو بولس بن الخوري فضل الله الدبّاس. وُلد في دمشق سنة ١٦٤٧. وكان والده الخوري فضل الله بن بولس الدبّاس من عداد الكهنة الذين كانوا يمارسون الخدمة الكهنوتيّة في دمشق، حينما دخلها البطريرك مكاريوس الحلبيّ بن الزعيم وتبوّأ فيها السدّة البطريركيّة في ١٢ تشرين الثانيّ سنة ١٦٤٧.

وقد تتلمذ في دمشق للآباء اليسوعيّين، واعتنق عن يدهم الإيمان الكاثوليكيّ منذ سني حداثته. ومع الدراسة كان يمارس مهنة الخياطة. وكان جميل الطلعة، حادّ الذكاء. فاستهوته الحياة الرهبانيّة، وفي سبيل اعتناقها رحل من دمشق إلى القدس، حيث دخل دير القدّيس سابا، ودُعي بائيسيوس (وقيل بروكوبيوس)، وتمكّن هناك من تعلّم اللغة الروميّة فأتقنها، بعد أن كان قد درس مبادءَها على الآباء اليسوعيّين في دمشق. ثمّ سيم قسًّا، وأُقيم رئيسًا على دير الروم في بيت لحم، وتعرّف هناك على رهبان القدّيس فرنسيس. ومن معاشرته إيّاهم ونظره

إلى أمثالهم الصالحة تقوّى فيه الميل إلى الكثلكة. ثمّ عاد إلى دير القدّيس سابا، وكان له بمثابة مركز دائم ونقطة انطلاق في تجوّله حول المدينة المقدّسة[٩٢].

اختياره لأبرشيّة حلب وسيامته بطريركًا

وفي تلك الأثناء وفدت جماعة من وجهاء حلب لزيارة أورشليم، ثمّ توجّهوا لزيارة دير القدّيس سابا. فوجدوا هناك ذاك الراهب الدمشقيّ بائيسيوس، مليح الصفات، عالمًا وميّالاً للكثلكة التي كانت سوقها قد راجت كثيرًا في مدينتهم حلب. وكان مطران حلب قد توفي من عهد قريب، وهو ملاتيوس الباياسيّ. فأحبّوا أن يجعلوا بائيسيوس هذا مطرانًا عليهم. وجاؤوا به إلى دمشق، وكلّموا البطريرك كيرلّس الخامس الحلبيّ ابن الزعيم لكي يقيمه عليهم أسقفًا. فلم يرضَ. فخرجوا لساعتهم من عنده وقد أضمروا له الكيد. وفي اليوم الثّانيّ توجّهوا وإيّاه إلى حلب. ومن هناك سعوا له ببراءة شاهانيّة تقيمه، لا أسقفًا لحلب فحسب، بل بطريركًا أنطاكيًّا بدلاً من كيرلّس الخامس الذي طلبوا عزله.

هذه رواية المؤرّخ البيروتيّ المجهول في الملحق الذي ذيّل به كتاب تاريخ بطاركة أنطاكية للخوري ميخائيل بريك الدّمشقيّ"[٩٣]. أمّا الخوري ميخائيل بريك نفسه، في كتابه المذكور، فيورد الأمر على شكل آخر، فيقول أنّ بائيسيوس (ويدعوه بروكوبيوس) جاء من القدس إلى دمشق في حاجة له. "فدعاه إليه البطريرك كيرلّس [الخامس الحلبيّ] وعرض عليه أن يقيمه مطرانًا على حلب، فرضي الراهب بذلك. وشعر بذلك قوم من ذوي المآرب، فراجعوا رأي البطريرك فيه وغيّروا عزمه. وكان للراهب المذكور خال يُقال له ميخائيل شابذيم [أيّ الخيّاط] من ذوي الوجاهة. فلمّا بلغه ذلك طيّب قلبه. وكان في ذلك الوقت على أهبَّة السفر إلى القسطنطينيّة في صحبة أحد الآغاوات. فلمّا وصل إلى القسطنطينيّة أخرج لابن أخته براءَة سلطانيّة ببطريركيّة أنطاكية. ولمّا رجع إلى دمشق سجّل البراءَة المذكورة بأمر الحاكم والقاضي. وكان كيرلّس إذ ذاك يطوف في الأبرشيّة [البطريركيّة]. وأنّ [بائيسيوس] أرسل فأحضر لاونديوس مطران صيدنايا، ويواصف مطران نابلس، ومطران حوران. فأقاموه بطريركًا على أنطاكية وسمّوه أثناسيوس...

---

[92] هذه التفاصيل مستقاة في أغلبها من النبذة التاريخيّة القصيرة التي خصّه بها معاصره المطران جرمانوس فرحات في كتابه المعروف بديوان البدع. ومنه نسخة في المكتبة المارونيّة بحلب، تحت رقم ٢٥٩، استفدنا من مطالعتها في كتابه هذا الفصل.

[93]- راجع "تاريخ طائفة الروم الملكيّة" للمرحوم الخوري قسطنطين الباشا، صفحة ١٣٥.

فلمّا بلغ ذلك كيرلّس أُرسل فاستحضر براءَة سلطانيّة من القسطنطينيّة ودخل دمشق. فانتشبت الفتنة في الرعيّة، وثارت الخصومات. وعاد البطريرك أثناسيوس فاستحضر براءَةً أخرى. وكذلك فعل كيرلّس. وكان كلّ منهما يحرم الآخر وأتباعه. وانشقّت الرعيّة إلى حزبين، أحدهما سُمّيَ بالناموسيّ، أيّ الشرعيّ، وهو حزب كيرلّس، والآخر بالبرغشيّ وهو حزب أثناسيوس. ووقعت على الفريقين مظالم ومغارم لا تحصى"[٩٤].

ويبدو أنّ تنصيب أثناسيوس بطريركًا تمّ في دمشق يوم ٢٥ حزيران ٥/ تموز سنة ١٦٨٥[٩٥]. ولكي يقوّي أثناسيوس مركزه، اتصل فورًا بممثّلي الحركة الكاثوليكيّة في الشرق وبالكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ. وهكذا فعل منافسه البطريرك كيرلّس أيضًا، بحيث أنّ المنافسة بينهما على البطريركيّة استندت إلى السلطات العثمانيّة ورشوتها من جهة، وإلى تأييد رومة والفئة الكاثوليكيّة من جهة أخرى.

وقد كان لخاله ميخائيل الخيّاط دور لا ينكر في استحصال البراءَة السلطانيّة بالبطريركيّة لابن أخته، لكنّ الدور الأكبر قد لعبه- فيما نظنّ- الوجهاء الحلبيّون أنفسهم، ومن ورائهم الآباء الفرنسيسكان في دمشق الذي كانوا يعرفونه كاثوليكيًّا منذ نعومة أظفاره، وقناصل الدول الأجنبيّة الذين ساعدوه لدى الباب العالي.

أمّا تسمية حزبه "بالبرغشيّ" فهو من باب التحقير. على أنّ الاسم الحقيقيّ الذي كان جديرًا بأن يُطلق عليه فهو اسم الحزب "الكاثوليكيّ". وكان أنصاره عديدين في حلب ودمشق، بحيث أنّهم استطاعوا مرّات عديدة إبعاد البطريرك كيرلّس عن كرسيّه وتنصيب أثناسيوس بدلاً عنه.

"ومَن يعلم شدّة تعصّب الحلبيّين لأبناء وطنهم يدرك جيّدًا قدر عدد الكاثوليك وعزّة شأنهم في حلب، وشدّة تمسّكهم بالمذهب الكاثوليكيّ، حتّى اختاروا بالاتفاق التامّ أثناسيوس مطرانًا لهم وبطريركًا ضدّ كيرلّس ابن وطنهم، مع أنّه دمشقيّ... وما سبب ذلك إلاّ لكون أثناسيوس كاثوليكيًّا، ولكون الروم من أهل حلب موافقين له"[٩٦].

---

[94]- الكتاب المذكور، صفحة ١٣٣- ١٣٤.

[95] KOROLEVSKIJ, Hist. des Patriarcats Melkites, t. III, p. 55; G. LEVENQ, s.v; DHGE, t. IV, col. 1369-1374.

[96]- عن كتاب الأب قسطنطين الباشا المذكور سابقًا، صفحة ١٤٢- ١٤٣.

(5 bis) RABBATH, t. II, p. 106- 107.

وهكذا أصبح أثناسيوس في الوقت عينه بطريركًا أنطاكيًّا وراعيًا لأبرشيّة حلب.

البطريرك أثناسيوس يتّصل بروما

على أنّه ما كاد يستتبّ أمر أثناسيوس في حلب حتّى أُرسل إلى رومة عن يد المرسلين، بتاريخ ٤ تموز سنة ١٦٨٦، صورة اعترافه بالإيمان الكاثوليكيّ. ثمّ أرسل منها نسخة إلى سفير فرنسا في القسطنطينيّة، وأرفقها بكتاب له مؤرّخ في ١٠ نيسان سنة ١٦٨٧ (5 bis)، جاء فيه: "إنّي أحبّ من كلّ قلبي أن أكون معروفًا من الله تعالى ومن جميع الناس بأنّي كاثوليكيّ حقيقيّ على إيمان وتعليم الكنيسة الرومانيّة التي أريد أن أعيش وأموت في شركتها. وبعد هذا يسوغ لي يا سيّدي، كما أرجو من جنابكم، أن أكون بظلّ حماية ملك فرنسا الظافر، وأن أستمدّها في وقت الضرورة، وأن أحصل على مفعولها حينما أبادر إليكم بذلك لكونكم وزيره وسفيره الأكرم. والنعمة التي ألتمسها الآن من جنابكم هي أن تراقبوا أخصامي الذين هم أخصام الكنيسة الرومانيّة، وتمنعوهم عن ضرري وهلاكي لدى الباب العاليّ"...

وأنّ البابا إينوشنسيوس الحادي عشر أجاب أثناسيوس برسالة وجّهها إليه بتاريخ ١٠ آب سنة ١٦٨٧[٩٧]، وفيها يعلن قبول أثناسيوس في حضن الكنيسة الكاثوليكيّة ويتمنّى له الثبات على عزمه ونجاح عمله بإرجاع رعيّته وإخوته المطارنة إلى حضن الكنيسة الكاثوليكيّة، دون الإدلاء صراحة بتثبيته في البطريركيّة. فكان لهذه الرسالة البابويّة صداها الحسن في الشرق، إذ ضمنت لأثناسيوس مساعدة جميع الكاثوليك من أبناء البطريركيّة، ونصرة المرسلين، وحماية القناصل وتجار الإفرنج، ممّا أتاح له أن يفوز على خصمه كيرلّس مرّتين وثلاثًا على الأقلّ، ويتفرّد بالبطريركيّة، بالرغم من جهود منافسه ونفوذه في دمشق ووفرة غناه وصيت جدّه البطريرك مكاريوس.

الصلح مع منافسه (سنة ١٦٩٤)

على أنّ أثناسيوس في نهاية الأمر رزح تحت الديون والفوائد الباهظة، وشعر بأنّ منافسه أقوى منه، فمال إلى الصلح، مؤثرًا البقاء في حلب، والتخلّي لمنافسه عن السلطة البطريركيّة على دمشق وسائر أبرشيّات البطريركيّة الأنطاكيّة.

---

[97] Cfr. MANSI, t. 46, col. 116, nota 1-

وقد تمّ هذا الصلح بين البطريركين في غضون شهر تشرين الأوّل سنة ١٦٩٤ في حلب، بحضور أكابر أعيان المدينة من مسلمين ونصارى ويهود. ويقول القسّ ساروفيم طاناس، في تقرير بعث به إلى مجمع انتشار الإيمان[٩٨]، أنّ أثناسيوس في نهاية الأمر غادر المقرّ البطريركيّ بدمشق، على أثر تغلّب منافسه عليه، وتوجّه إلى حلب. "وبعد أن قضى فيها نحو ثلاثة أشهر، توسّط أعيان المسيحيّين في تلك المدينة لكي يرموا الصلح بين كيرلّس وأثناسيوس. فاستدعوا كيرلّس من دمشق إلى حلب لكي يتفاهم مع أثناسيوس. ونتيجة لذلك وقّع الطرفان وثيقة الصلح، وفيها يصرّح الجميع بأنّ البطريرك الأنطاكيّ الحقيقيّ إنّما هو كيرلّس، وأنّ أثناسيوس دخيل عليه بغير حقّ، ويطلب السماح منه ومن الجميع عن ذنبه، ويقرّ بأنّه يعتزل البطريركيّة تمامًا، مع مراعاة الشروط السبعة التالية:

١- يلتزم كيرلّس بوفاء جميع الديون التي استدانها أثناسيوس باسم البطريركيّة الأنطاكيّة، ومقدارها نحو ثلاثة عشر ألف غرش.

٢- يترك كيرلّس لأثناسيوس أبرشيّة حلب ليكون دخلها معاشًا له.

٣- ليس لأثناسيوس حقّ بأن يكون بطريركًا على أنطاكية ما دام كيرلّس حيًّا.

٤- على أثناسيوس أن يسلّم كيرلّس جميع الفرامانات السلطانيّة التي بيده.

٥- إذا أثار أحدهما فتنة على الآخر، ينـزع ما يكون في يده ويوضع في السجن المؤبّد إلى آخر حياته.

٦- إذا توفّى الله كيرلّس قبل أثناسيوس، لا يخلفه في البطريركيّة سوى أثناسيوس.

٧- ليس لأثناسيوس أيّ سلطة على سائر أبرشيّات الكرسيّ الأنطاكيّ، بل يكتفي بهذا التوقيع: "أثناسيوس البطريرك الأنطاكيّ سابقًا"، وتمتدّ ولايته على حلب فقط.

ويقول المطران جرمانوس فرحات أنّ الرجلين "اصطلحا أخيرًا في مدينة حلب على يد رجل يهوديّ اسمه سلمون، كانت له اليد الطولى عند ولاة حلب"[٩٩].

على أنّ خبر هذا الصلح لم يبلغ آذان المسؤولين في مجمع انتشار الإيمان برومة إلاّ في أوائل سنة ١٦٩٨. فعقدوا جلسة في ١٧ شباط ١٦٩٨، وفحصوا

---

[98] MANSI, t. 46, col. 122

[99]- "كتاب ديوان البدع"، للمطران جرمانوس فرحات، في المخطوطة رقم ٢٥٩ من المكتبة المارونيّة بحلب.

القضيّة، واعتبروا تنازل أثناسيوس عن كرسيّه لصالح كيرلّس تخاذلاً وشبه خيانة للكثلكة. فبعث أثناسيوس إلى المجمع برسالة بعد هذا التاريخ بقليل يحاول فيها تبرير موقفه، ننشر هنا صورة شمسيّة عنها[100]. وممّا جاء فيها قول أثناسيوس: "سلَّمتُ الكرسيّ الرسوليّ قهرًا بغير إرادتي بيد عدوّي، وضبطتُ القليل، لرجائنا بالباري تعالى بواسطة صلواتكم المقدّسة بالرجوع إلى كرسيّنا. لأنّي إن أبيتُ كما ذكرنا يروح القليل والكثير... ولكنّ ضميرنا دائمًا يوبّخنا لكوننا تركنا البعض من الرعيّة في يد الغير قهرًا. فلهذا أرسلنا نحو قداستكم المكرّمة هذه الرسالة ليصير لنا تعزية ما".

لكنّ البابا إينوشنسيوس الثاني عشر (١٦٩١- ١٧٠٠) أبطل هذا الاتفاق، وأعلن أسفه لكون أثناسيوس تخاذل ورجع عن حقّه، وبعث يحثّه على السعي لاسترداد البطريركيّة، وإقصاء خصمه. لكنّ أثناسيوس كان قد كلّ من الكفاح، فآثر الصمت، والتخلّي عن البطريركيّة، والحفاظ على أبرشيّته الحلبيّة العزيزة، حيث كان محبوبًا للغاية.

ويقول المطران جرمانوس فرحات في النبذة التي خصّه بها في كتاب "ديوان البدع": "لمّا هدأ بال أثناسيوس مستقرًّا في حلب رعيّته، أخذ يدبّر رعاياه أحسن تدبير، فمنع عنها ما لا يجوز، وأثبت فيها ما يجب إثباته، من قطع أسباب الشرّ وإثبات أسباب الخير. وصار له شأن عظيم عند ملل النصارى في حلب، فأحبّوه جدًّا ومالوا إليه كلّ الميل، لأنّه كان ذا عقل حزوم وإفراز حكيم. ولأجل حسن سلوكه أخذ يداري وقته ويجتذب قلوب الناس إليه. وفي زمانه عرفت روم حلب الإيمان الرومانيّ، وتمسّك به الكثيرون. وكان أثناسيوس يرى دخول هذا الإيمان المقدّس في رعيّته وهو يتغاضى عن ذلك. ورسم كهنة كاثوليكيّين كثيرين. وبواسطة رسامتهم انتشر الإيمان المقدّس أكثر فأكثر، لأنّهم كانوا يعلّمون الإيمان سرًّا وجهرًا. وركنت الروم إليهم أكثر من ركونهم للغرباء، لأنّهم من ملّتهم". وإنّ كلمة "غرباء" تشير هنا إلى الإكليروس اليونانيّ. فإنّ حركة الاتحاد مع رومة ارتكزت في البداية، لا على اعتبارات عقائديّة أو راعويّة فحسب، بل أيضًا وخصوصًا على نزعة تحرّريّة بين أبناء الطائفة العرب من سيطرة الإكليروس اليونانيّ، الذي يدعمه البطريرك القسطنطينيّ اليونانيّ.

هذا وأنّه حول سنة ١٦٩٧ نرى الشمّاس جرجس بن سفرشاه الدربيّ ينقل في حلب عن أحد الكهنة صفحاتٍ ذكر فيها ما دعاه المرحوم حبيب الزيّات

---

[100] Archives Propagande, SOCG, vol. 523, No. 215.

"خطايا الملكيّين في حلب"[١٠١] ومنها السُكر وشرب العرق، وأكل الأفيون والكلس، والتشبّه بغير المسيحيّين ككتابة الحروز والطلاسم وتلاوة الأدعية لاستخراج الجنّ، والضرب بالطنبور والفيق، وأكل لحم الخنـزير المقتول خنقًا، ولبس الأزرق والأسود على الميت، وقصُّ اللحية وشرب الدخان، إلى غير ذلك من الأمور الطفيفة التي لا يعتبرها حرامًا إلاّ المتزمّت المتعصّب... نورد هذا للدلالة على سهر أثناسيوس على حسن سلوك أبناء رعيّته في حلب، وتمسّكه بالأخلاق الحميدة إلى أقصى حدّ.

وممّا لا شكّ فيه أنّ أثناسيوس تمسّك طيلة هذه المدّة بأبرشيّة حلب، ولم يرسم أسقفًا عليها حتّى أواخر سنة ١٧٢١. ونجزم بأنّ العلاّمة كورلفسكيّ هو على غير حقّ عندما يقرّر، استنادًا إلى مصدر يونانيّ غير موثوق به، قيام أسقفٍ روميّ ملكيّ على حلب باسم جنّاديوس حول سنة ١٧٠٠[١٠٢]. فمثل هذا الأسقف لا وجود له أصلاً في علمنا.

سفره إلى بلاد الفلاخ (١٧٠٠- ١٧٠٥)

على أنّ وضع أثناسيوس في حلب ساء كثيرًا بعد إبرامه هذا الصلح مع منافسه كيرلّس وتخاذله أمامه. فقد تخلّى عنه أصدقاؤه القدامى وأوجبوا عليه التنازل عن البطريركيّة. فتباعد عنه المرسلون والقناصل. وزاد الطين بلّة ما انتاب الحلبيّين في تلك الأيام من ضيق شديد وغلاء في المعيشة وانحباس الأمطار.

تجاه هذا الواقع قرّر أثناسيوس في آذار سنة ١٧٠٠ أن يبتعد عن حلب في سفرة إلى القسطنطينيّة. ومنها قصد بوخارست عاصمة بلاد الفلاخ، بعهد أميرها المسيحيّ الشهم يوحنّا قسطنطين باصارابا ويُوضا، فنـزل ضيفًا مكرَّمًا عليه. وقد اعتقد البعض أنّ أثناسيوس كان في الماضي أبًا روحيًّا له وواعظًا.

وبتاريخ ١٢/ ٢٣ أيار من السنة ١٧٠٠ عينها بارك أثناسيوس إكليل كريمة الأمير المدعوّة صافتا.

ثمّ حصل من كرم الأمير الرومانيّ على ما عجز أسلافه أن يحصلوا عليه من مجمع انتشار الإيمان في رومة. فطبع في بوخارست على نفقة الأمير عددًا من الكتب الدينيّة والطقسيّة باللغة العربيّة. وهكذا صدرت عن المطبعة الأميريّة في بوخارست الكتب التالية تباعًا:

---

[101] -راجع مجلة المشرق، المجلّد ٣٦ سنة ١٩٣٨، صفحة ٣٢- ٤٠.

[102] C. KOROLEVSKIJ, Hist, des Patriarcats Melkites, t. III, p. 237.

١- الكتاب المقدّس بكامله سنة ١٧٠٠، على نحو ما قال بعضهم[١٠٣].
٢- كتاب القدّاسات الثلاثة الإلهيّة، سنة ١٧٠١.
٣- كتاب الأورولوجيون المعروف بالسواعي، سنة ١٧٠٢.

وقد ناظر أثناسيوس بذاته طبع هذه الكتب، بمعاونة الكاهن الراهب أنثيموس الكرجيّ، الذي كان يجيد اليونانيّة والسلافيّة والتركيّة علاوة على لغته الكرجيّة.

وفي حزيران سنة ١٧٠٢ أهدى الأمير المذكور تاريخًا للبطاركة الأنطاكيّين، كتبه باليونانيّة الحديثة، نقلاً عن المؤرّخين الروم الملكيّين الذين سبقوه. وهذا التاريخ محفوظ إلى اليوم في نسخة وحيدة في المكتبة الوطنيّة في فيينّا برقم "يونانيّ ٨٥".

وبتاريخ ١١ تموز سنة ١٧٠٣ كان أثناسيوس لا يزال في بوخارست، إذ حضر فيها تنصيب أولياء نعمته من الأمراء ملوكًا على بلاد الفلاخ. وهناك مَن يعتقد أنّ البطريرك القسطنطينيّ جبرائيل الثالث قد عيّنه سنة ١٧٠٥ رئيسًا لأساقفة قبرص، خلفًا لرئيس أساقفتها جرمانوس المتوفّي. والله أعلم. في كلّ حال، عاد أثناسيوس إلى حلب في غضون عام ١٧٠٥، مصطحبًا معه، فضلاً عن الكتب التي طبعها في بوخارست، مطبعة عربيّة كاملة، هي أوّل مطبعة عربيّة في الوطن العربيّ، وضعها في مطرانيّته بحلب.

المطبعة العربيّة الأولى في مطرانيّة الروم بحلب

بفضل البطريرك أثناسيوس الرابع، حظيت حلب بأوّل مطبعة عربيّة في بلاد المشرق، جلبها معه من بوخارست في غضون عام ١٧٠٥، هديّة كريمة من أمير بلاد الفلاخ يوحنّا قسطنطين بصارابا ويُوضا. ووضعها في مطرانيّة الروم بحلب.

وكان أثناسيوس قد تمرّن على تشغيلها في بوخارست، إذ ناظر فيها طبع عدد من الكتب العربيّة على نحو ما ذكرنا. ولمّا وصل إلى حلب، اختار شبّانًا أذكياء لكي يتعلّموا فنّ الطباعة، منهم الشمّاس عبد الله زاخر وأخوه نعمه، وبالتعاون معهم وتحت إشرافه، أصدرت المطبعة "كتاب الإنجيل الشريف الطاهر والمصباح المنير الظاهر" سنة ١٧٠٦، و"كتاب الزبور الإلهيّ" سنة ١٧٠٦ أيضًا، وكتاب "الدرّ المنتخب من مقالات القدّيس يوحنّا فم الذهب" سنة ١٧٠٧. وفي سنة ١٧٠٧ أُصدرت طبعة جديدة للإنجيل ثمّ "كتاب النبوات

---

[103] VIGOUROUX, Dict. De la Bible, t, I, col. 851.

الشريف وكتاب الرسائل. وفي سنة ١٧٠٩ أعادت طبع كتاب المزامير. وسنة ١٧١١ كتاب "مواعظ البطريرك أثناسيوس الأورشليميّ"، وكتاب الباركليتيكيّ أيّ المعزّي، ثمّ رسالة وجيزة في سرّ التوبة والاعتراف القويم. ونعتقد أنّها بعد هذا التاريخ قد توقفت عن العمل[١٠٤].

ويلاحظ أنّ حروف مطبعة حلب هي غير حروف مطبعة بوخارست. فاختلف المؤرّخون في تعليل ذلك. والرأي الأرجح عندنا هو أنّ الشمّاس عبد الله زاخر حفر في حلب عينها أحرفًا جديدة للمطبعة التي أتى بها البطريرك أثناسيوس من بوخارست. فقد ورد في ترجمة سيرة الشمّاس عبدالله زاخر بقلم تلميذه الخوري يواكيم مطران ما يلي: "إنّ زاخر قد اصطنع مطبعة في مدينة حلب، بمساعدة أخيه نعمه، وعملا أبّهاتها وأمّهاتها وأحرفها وجميع آلاتها، وطبعا بها جملة كتب... وإذ اضطهد لاستقامة الإيمان الكاثوليكيّ وحمايته، والتزم الخروج من مدينة حلب، وأتى إلى جبل كسرون... ابتدأ يعمل مطبعة أخرى متقنة للغاية"[١٠٥].

وهكذا يكون للبطريرك أثناسيوس دبّاس وللشمّاس عبدالله زاخر الفضل العميم في إدخال أوّل مطبعة عربيّة في بلاد المشرق، جُهّزت في مطرانيّة الروم بحلب سنة ١٧٠٥، وبدأت تنتج سنة ١٧٠٦. ولعلّها توقفت عن العمل سنة ١٧١١ أو ما بعدها بقليل، بسبب ابتعاد مديرها الشمّاس عبدالله زاخر عن حلب.

على أنّ الخوري أغسطينوس مقصود، الذي دخل الرهبانيّة الشويريّة سنة ١٧٨٦ وكان مطّلعًا على أمور مطبعة عبدالله زاخر أكثر من سواه، يقول في رسالة بعث بها إلى البطريرك مكسيموس مظلوم سنة ١٨٤١ أنّ البطريرك سلفستروس القبرصيّ، لمّا حضر إلى حلب في أواخر سنة ١٧٢٥، أمر بتشغيل مطبعة سلفه البطريرك أثناسيوس الدبّاس، وطبع عليها كتاب "القنداق" بالعربيّة. ولمّا لم يستطع الإقامة في حلب، بعث فنقل المطبعة إلى بيروت، وفي تلك المدينة طبع عليها كتاب الزبور ومختصر كتاب السواعيّة. فكانت مطبعة الدبّاس المنقولة إلى العاصمة اللبنانيّة نواة مطبعة مار جرجس الأرثوذكسيّة في بيروت. ثمّ انطمرت في أنطوش بيروت الأرثوذكسيّ، أثناء سقوط كنيسة

104- الاكسرخوس يوسف نصرالله في مجلّة المسرّة سنة ١٩٤٨، صفحة ٤٣٨- ٤٤٠.
J. NASRALLAH, L’imprimerie au Liban, Harissa 1944.
راجع كذلك مجلّة المشرق سنة ١٩٠٠، صفحة ٣٥٦ وما يليها.

105- راجع كتاب الأب أثناسيوس الحاج "الرهبانيّة الباسيليّة الشويريّة في تاريخ الكنيسة والبلاد" الجزء الأوّل، سنة ١٩٧٣، صفحة ٥٤٠ وما يليها حتّى ٥٥٢.

الروم الأرثوذكس في بيروت في ٢٦ شباط سنة ١٧٦٦. "والآن حديثًا، أعني في سنة ١٨٤٠، وُجدت ونبشوها من الدار، وهم مباشرون في تصليح ما انعدم منها، وقصدهم تدويرها لأجل تعكيس مطبعة دير مار يوحنّا".

الحركة الفنّية

في عهد البطريرك أثناسيوس الدبّاس نشطت أيضًا الحركة الفنّية بين أبناء الروم الملكيّين في حلب. ففي حقل رسم الأيقونات مثلاً نرى القسّ نعمة الله بن الخوري يوسف المصوّر يرسم سنة ١٦٨٦ أيقونة ميلاد السيّد المسيح المحفوظة في كاتدرائيّة الروم الأرثوذكس بحماه. ويرسم سنة ١٦٩٤ أكبر لوحاته الدينيّة حجمًا، ألا وهي صورة الدينونة العامّة، التي كانت إلى زمن قريب محفوظة في دير البلمند قرب طرابلس. ويرسم سنة ١٦٩٨ أيقونتين محفوظتين أيضًا في دير البلمند، الواحدة تمثّل "ملك الملوك ورئيس الكهنة"، والثانية تمثّل "العذراء الهادية". ويرسم سنة ١٦٩٩ أيقونة رائعة، محفوظة كذلك في دير البلمند، تمثّل القدّيس سمعان العموديّ وزميله القدّيس سمعان الذي نسك في "الجبل العجيب". ويرسم سنة ١٧٠١ أيقونتين لدير البلمند، الواحدة للقدّيس جاورجيوس، والثانية للأربعين شهيدًا. وفي سنة ١٧٠٨، يتعاون مع ابنه الشمّاس حنانيا ليرسم نسخة من أيقونة الدينونة العامّة، محفوظة إلى اليوم في كنيسة الأربعين شهيدًا للأرمن الغريغوريّين في حلب. وأنّ آخر أيقونة عثرنا عليها لهذا الفنّان العبقريّ تحمل تاريخ سنة ١٧٢٢، وتمثّل "العذراء الهادية"، وهي محفوظة في دير يوحنّا الصايغ بالخنشارة.

وأنّ ابنه الشمّاس حنانيا بدأ يمارس فنّ أبيه، فتعاون معه بادئ بدء، ثمّ رسم الأيقونات وحده بدءًا من سنة ١٧١٤، وما زال يعمل حتّى سنة ١٧٤٠.

وفي عهد البطريرك أثناسيوس نشط فنّانون آخرون، نذكر منهم موسى بن اصطفان الذي تفرَّد حول سنة ١٦٩٩ بالرسم على الخزف الصينيّ.

كما أنّه اشتهر في فنّ النسخ وتزيين المخطوطات جبرائيل بن ميخائيل لباد الحلبيّ، الذي ترك لنا "كتاب الليتورجيّات الإلهيّة"، المحفوظة حاليًّا في مكتبة المقرّ البطريركيّ بعين تراز، وهو تحفة من الخطّ الجميل والرسوم التزيينيّة البديعة، وقد تمّ نسخه في حلب سنة ١٧١٥.

كما اشتهر فنّانون آخرون في رسم الأيقونات، منهم شكرالله بن يواكيم بن زلعوم، وغيره كثيرون، ممّا يدلّنا على أنّ عهد البطريرك أثناسيوس بحلب

كان عهد النهضة الذهبيّ بين المسيحيّين الحلبيّين في الأدب والفنون والصناعة.

في خدمة الفقراء والكنيسة

كان البطريرك أثناسيوس عالمًا ماهرًا وإداريًّا محنَّكًا. وكان يحبّ الفقراء. ومن آثار رعايته الخيريّة التي بلغتنا ما جاء في "كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب" للمرحوم الشيخ كامل الغزّي أنّه في سنة ١٧١٣ أوقف مسقفات لفقراء النصارى[١٠٦].

وفي ٥ آذار ١٧١٩، كتب أثناسيوس البطريرك ما يلي: "إنّنا أوقفنا جميع الخمس دور من ملكنا على أيتام فقراء طائفتنا الروم بحلب... بعد إظهار إثبات الوقفيّة للدور الخمسة، وباقي ريعهم يُؤخذ منه في كلّ سنة سبعون غرشًا، يدفع منها عشرون غرشًا إلى شقيقتي أوستين المتوطّنة في مدينة صيدا، والخمسون إلى أختي فوتين الكائنة في مدينة حلب مدّة حياتها"...[١٠٧]

وفي ٢٥ تموز سنة ١٧٢٠ حرّر البطريرك أثناسيوس صكًّا يميّز فيها خصوصيّات كنيسة حلب عن خصوصيّات مطرانها[١٠٨].

وله أوامر مشدّدة في منع بعض تجاوزات أخلاقيّة واقتصاديّة كانت تحدث في مناسبة الأعراس، نشرها الخوري بولس قرألي في المجلّة السوريّة سنة ١٩٢٨، صفحة ٦ وما بعدها.

تأسيس الرهبانيّة الشويريّة

في عهد البطريرك أثناسيوس الثالث دبّاس تأسّست الرهبانيّة الشويريّة، التي قيّض الله لها أن تلعب دورًا كبيرًا في تاريخ أبرشيّة حلب، وفي توطيد ونشر الاتحاد الكاثوليكيّ في قرى لبنان الشماليّ والبقاع وسوريا الوسطى.

فمنذ سنة ١٦٩٧ تألّفت في دير البلمند نواة من الرهبان الميّالين إلى الوحدة الكاثوليكيّة، وإلى إنعاش النظام الرهبانيّ الصحيح. وفي أواخر سنة ١٧٠٤ عقد خمسة من رهبان ذاك الدير النيّة على الهجرة إلى رومة لمزاولة العيشة الرهبانيّة الشرقيّة فيها، وكتبوا بذلك إلى مجمع انتشار الإيمان وإلى الحبر

106- الجزء الثانيّ، صفحة ٦٠٧

107- الأب فردينان توتل، وثائق تاريخيّة عن مدينة حلب، الجزء الأوّل، صفحة ٥٠.

108- كتاب الأب توتل المذكور سابقًا، الجزء الأوّل، صفحة ٥٠- ٥١، نقلاً عن كتاب نعمة بن الخوري توما "عجالة راكب الطريق لِمَن رضي بتقليد التلفيق".

الأعظم بالذات. وكان من بينهم الكاهن جرجس سمّان، الذي سيمَ فيما بعد أسقفًا على حلب سنة ١٧٢١ باسم جراسيموس.

ولمّا فشل هذا المشروع، حوّل المؤسّسون أنظارهم إلى إنشاء دير رهبانيّ في لبنان نفسه. وفي هذه الأثناء قدِم إليهم شابّان حلبيّان يطلبان الرهبنة، هما نصرالله (نيكيفورس) بن الخوري عازار كرمه، وميخائيل بن بولس بن رزق الله تتنجي حكيم، الذي سيم فيما بعد أسقفًا على حلب باسم مكسيموس حكيم، وتوفي بطريركًا للطائفة سنة ١٧٦١. ومع أنّ دير البلمند بقي جلّ رهبانه كاثوليكيّ المعتقد حتّى ما بعد سنة ١٧٧٥، إلاّ أنّ أصحاب الفكرة أرسلوا اثنين منهم، هما الخوري جرجس سمّان الحلبيّ والخوري سليمان كسري الحلبيّ، إلى طرابلس حيث واجها البطريرك كيرلّس الخامس الزعيم، وأعربا له عن قصدهما، وقدّما له قانونًا رهبانيًّا مختصرًا من خمسة عشر بابًا، فبارك البطريرك مسعاهما، وحرّضهما على السعي نحو إيجاد دير يستقلاّن فيه مع زملائهما بالعيشة الرهبانيّة الشرقيّة الكاثوليكيّة. فذهبا وابتاعا دير القدّيس يوحنّا الصابغ في قرية الشوير، وانتقل الجميع إليه سنة ١٧١٠.

وقد رئس الجماعة الرهبانيّة الناشئة في أوّل عهدها الخوري سليمان كسري (حتّى شهر أيلول سنة ١٧١١)، ثمّ ترك وعاد إلى البلمند، فخلفه الخوري جرجس سمّان (أيلول ١٧١١- ١٧١٢)، الذي يئس هو أيضًا من نجاح مشروعه، فغادر الدير وذهب إلى حلب، فخدم فيها تحت يد البطريرك أثناسيوس دبّاس، ثمّ اختلف معه، وعاد إلى دير يوحنّا الصابغ، ومنه إلى طرابلس، ثمّ إلى دير البلمند من جديد.

وفي هذه الأثناء تسلّم رئاسة الرهبانيّة الناشئة الخوري نيكيفورس عازار كرمه (تشرين الثانيّ ١٧١٣)، فعني ببناء وتوسيع دير القدّيس يوحنّا الصابغ. وفي زمن رئاسته، عقدت الرهبانيّة مجمعها العامّ الأوّل في غضون شهر حزيران سنة ١٧٢٠.

التأرجح بين الكثلكة والأرثوذكسيّة

في هذه الأثناء كانت الحركة الكاثوليكيّة تنمو وتزدهر، لا في حلب فحسب، بل أيضًا في سائر أبرشيّات البطريركيّة الأنطاكيّة. وكانت رومة أمينة على موقفها القديم في اعتبار أثناسيوس البطريرك الكاثوليكيّ الشرعيّ الوحيد على الكرسيّ الأنطاكيّ، دون منافسه كيرلّس الخامس. فبتاريخ ١٠ أيلول سنة ١٧١٣، كتب إليه البابا إكليمنضوس الحادي عشر يشجّعه في موقفه ويمدحه

على ثباته في المعتقد الكاثوليكيّ[١٠٩]. ولم يكن هذا الموقف خاليًا من المجازفة والخطر. ففي سنة ١٧١٦ مثلاً، حصلت للمسيحيّين ملاحقة في حلب بسبب حضورهم الصلاة المقامة لراحة نفس الملك لويس الرابع عشر في معبد القنصليّة الفرنسيّة. وأنّ البطريرك أثناسيوس وغيره من الأساقفة اضطرّوا، لكي يتخلّصوا من ضغط السلطات العثمانيّة، إلى إعلان الحرم في كنائسهم على كلّ مَن يجرؤ من أبناء رعيّتهم على قبول مرسل في بيته[١١٠]. إنّ هذا التصرّف من قبل البطريرك أثناسيوس جعل المرسلين يشكّون في حقيقة انتمائه إلى الكثلكة، فضلاً عن أسفاره إلى القسطنطينيّة وعلاقاته بالأمراء الأرثوذكسيّين ومَن حذا حذوهم. وهكذا انتشرت في أوساط المرسلين والقناصل رغبة في الإعراض عن أثناسيوس، والتوجّه إلى خصمه كيرلّس، ظنًّا بأنّ هذا الأخير قد لا يقلّ عنه إخلاصًا للكثلكة...

وقد جاءت المبادرة من رومة مباشرة. فبتاريخ ٩ كانون الثانيّ سنة ١٧١٦، كتب البابا إكليمنضوس الحادي عشر إلى البطريرك كيرلّس الخامس رسالة ودّية دعاه فيها إلى الاتحاد مع رومة[١١١]، وأرسلها إليه مع الخوري ساروفيم طاناس. فقبلها البطريرك بسرور. وبفضل نفوذ القنصل الفرنسيّ في صيدا عليه، واسمه Poullard، وكان من عهد طويل يحثّه على اعتناق الكثلكة، فقد أجاب البابا برسالة جميلة اللهجة، مؤرّخة في ٨ أيلول ١٧١٦[١١٢]، أظهر فيها حسن استعداده، بل وقع جهرًا صورة اعترافه الكاثوليكيّ، كما طلب إليه. وقد كلّف هو أيضًا الخوري ساروفيم طاناس بحمل هذه الرسالة إلى قداسة البابا، وبعث معه إليه بعكازه الرعائيّ، إشارة إلى قبوله بالاتحاد مع الكنيسة الرومانيّة[١١٣].

وما زال أثناسيوس يتعامل مع الشمّاس عبدالله زاخر وسائر زعماء الحركة الكاثوليكيّة، ويأمر بإجراء بعض اختصارات في طقس القدّاس الإلهيّ، تمشّيًا مع رغبة الفئة المناصرة للاتحاد مع رومة. فقد حفظ لنا مخطوطان (رقم ٨٥٣ و٨٥٤) من مكتبة دير الشير نصّ "رسالة في الطقوس والرسوم الجاري حذفها من الذبيحة الإلهيّة"، مصدّرة باسم البطريرك أثناسيوس، ومكتوبة سنة

[109] MANSI, t, 46, col. 117, nota 1.
[110] RABBATH, t. II, p. 33.
[111] MANSI, t. 46, col. 109- 112.
[112] MANSI, t. 46, col. 113- 114
[113]- تجد النصّ العربيّ الكامل لهذه الرسالة في تاريخ الطائفة للأب قسطنطين الباشا، القسم الأوّل صفحة ٢٩٨ وما يليها.

١٧١٩ بإنشاء وخطّ الشمّاس عبدالله زاخر، ممّا يؤكّد اتجاه أثناسيوس في ذاك العهد نحو التيّار الكاثوليكيّ.

إذ ذاك وجدت رومة نفسها في مأزق حرج، بين بطريركين أنطاكيّين يدّعي كلّ منهما أنّه كاثوليكيّ: أثناسيوس الذي سبقت واعترفت به بطريركًا كاثوليكيًّا شرعيًّا، وكيرلّس الذي وقّع صورة معتقده الكاثوليكيّ وطلب الشركة مع الكرسيّ الرومانيّ. فما العمل إذًا؟...

بتاريخ ١٧ آب ١٧١٧ كتب المجمع المقدّس إلى البطريرك أثناسيوس طالبًا منه التنازل رسميًّا، بالطريقة القانونيّة، عن كرسيّه الأنطاكيّ لصالح البطريرك كيرلّس. فأجاب أثناسيوس بتاريخ ٢٣ تشرين الأوّل من السنة عينها، نازلاً عند رغبة المجمع المقدّس، في سبيل تبسيط الأمور وحلّ العقد المستعصية، ومشترطًا في الوقت عينه أن يسري مفعول تنازله هذا ما دام كيرلّس مثابرًا في إيمانه الكاثوليكيّ، وما دام محترمًا للاتفاق المبرم سابقًا بينهما (سنة ١٦٨٤)، والقاضي بأن يبقى كلّ منهما مسلّطًا على أبرشيّته دون أن يخضع للآخر، وأن لا يقدم كيرلّس على تعيين خلف له، بل أن يرضى بأن يخلفه أثناسيوس في حال وفاته قبله[١١٤].

فقبل المجمع المقدّس هذه الشروط وهنّأه على روحه الطيّبة هذه في رسالة مؤرّخة في ٢٩ أيار ١٧١٨[١١٥]، واقترح على قداسة البابا أن يعترف بالبطريرك كيرلّس. فوجّه إليه قداسة البابا إكليمنضوس الحادي عشر كتابًا بتاريخ ٢١ أيار سنة ١٧١٨ يعترف فيه بطريركًا أنطاكيًّا كاثوليكيًّا دون غيره[١١٦]، ويرسل إليه بدوره بعض الهدايا. وفي الوقت عينه، أجاب مجمع التفتيش بتاريخ ٢ حزيران سنة ١٧١٨ على بعض سوألات كان البطريرك طرحها على رومة، وزوّده أيضًا بتعليمات مسهبة حول رعاية شعبه[١١٧].

إنّ مثل هذا التصرّف قلّما أفاد البطريرك كيرلّس، لأنّ المنيّة عاجلته، فتوفي في ١٦/٥ كانون الثّانيّ سنة ١٧٢٠[١١٨]، أيّ بعد نحو سنة ونصف السنة من اعتراف رومة به، بينما أدّى هذا التصرّف إلى إبعاد أثناسيوس عن رومة نهائيًّا، وتثبيته في التمسّك بالأرثوذكسيّة، بل في معاداة الكثلكة. وقد خلا له الجوّ بوفاة منافسه، فاستأثر بالبطريركيّة الأنطاكيّة دون منازع حتّى وفاته.

---

[114]MANSI, t. 46, col. 121- 124.
[115]MANSI, t. 46, col 133.
[116]MANSI, t. 46, col. 123- 124.
[117]MANSI, t. 46, col. 123- 130.
[118]MANSI, t. 46, col. 129- 130.

وقد حاول بعض أنصار أفتيموس صيفيّ، مطران صيدا الكاثوليكيّ، أن يعقدوا له لواء البطريركيّة، فمانعتهم رومة، وحافظت على مواعيدها، فساندت أثناسيوس واعترفت به بطريركًا أنطاكيًّا دون سواه. لكنّ هذا الإخلاص للمواعيد جاء متأخّرًا. فقد كان أثناسيوس مال نهائيًّا نحو الأرثوذكسيّة...

ويقول المطران جرمانوس فرحات عنه في كتاب "ديوان البدع": "أنّه كان يحبّ الكرامة والمدحة من الناس. وكانت المراءاة ديدنه. فيريد أن يرضي الفريقين ليحوز الكرامة من الفئتين... وطفق يتقزّز من الكاثوليكيّين، ويهضم من جانب الرومانيّين، ويذمّ المرسلين، ويمنع شعبه عن أنواع العبادات وشركة الأخويّات، وعن كثرة الاعترافات... واستخرج من الروميّ إلى العربيّ كتاب غبريل الفيلادلفيّ المشاق المشحون سمًّا وقذفًا في حقّ الإيمان الرومانيّ، وأضرّ به المؤمنين جدًّا".

الابتعاد عن الكاثوليك ومحاربتهم

عندما توفي البطريرك كيرلّس الخامس في ١٦/٥ كانون الثانيّ سنة ١٧٢٠، كان أثناسيوس في إحدى رحلاته العديدة إلى بلاد الفلاخ. فكتب له مريدوه يستحثّونه على العودة سريعًا، فلبّى الدعوة، وعاد إلى سوريا، عن طريق طرابلس، حيث نجده في صيف سنة ١٧٢٠. وفي طرابلس لقي الخوري وهبه اللدّي، الراهب الشويريّ، فأرسله أمامه وكيلاً عنه إلى حلب.

ومن طرابلس توجّه إلى بيروت، ومنها صعد إلى جبل لبنان، حيث زار دير مار الياس المحيدثة في ٢١ آب. وفي اليوم التالي ٢٢ آب حضر إلى دير مار يوحنّا الشوير، "ومعه قسوسه كالينيكوس وسلفستروس ولاونديوس ابن أخت مطران حماه"[١١٩]. وسُرّ البطريرك بالدير، وشاء أن يتناول الطعام على مائدة الرهبان. ثمّ أقام القدّاس الإلهيّ في كنيسة الدير الجديدة، المبنيّة على اسم القدّيس نقولاوس. وإذ كانت بغير تبييض وعد بأن يرسل من دمشق قنّبًا لبياضها. وهكذا فعل. ومنح الرهبان مئتي غرشًا إحسانًا، وثبَّت لهم قانونهم الرهبانيّ.

وانتقل من هناك إلى قرية الفرزل. ثمّ تابع سيره إلى دمشق، حيث "مكث مدّة أحد عشر شهرًا [أيّ حتّى شهر حزيران ١٧٢١]، وهو بغاية الضيق، لأنّه لم يلذّ له المقام فيها، وذلك لبغض أهلها له القديم". ثمّ غادرها بعد أن أقام وكيلاً

[119]- إنّ ما نورده في هذه الفقرة من تفصيل بين معكوفين هو مأخوذ حرفيًّا عن "حوليّات الرهبانيّة الشويريّة"

عنه فيها الخوري جرجس سمّان، الذي كان مزمعًا أن يرسمه فيما بعد أسققًا على حلب.

ومن دمشق توجّه أثناسيوس إلى حلب، فبلغها في عيد الرسل (٢٩ حزيران) سنة ١٧٢١. وحال وصوله طلب منه الحلبيّون أن يرسم لهم مطرانًا على أبرشيّتهم. فوقع اختياره على الخوري جراسيموس سمّان، وكيله في دمشق، فرسمه ثاني يوم عيد الميلاد ليلاً (٢٦ كانون الأوّل) سنة ١٧٢١. ولكنّه اشترط عليه أن يعود إلى دمشق كوكيل له على الأبرشيّة الدمشقيّة، ويبقى هو في حلب. على أنّ جراسيموس بعد رسامته، تمنَّع عن العودة إلى دمشق، لأنّ الشعب أنكر عليه ذلك، فبقي في حلب. ثمّ ما لبث أن أذعن لضغط البطريرك وغادر حلب، كما سنرى. فبقي البطريرك فيها وحده، يدير شؤونها كما لو كان أسقفها الخاصّ. وغادر حلب في الوقت عينه الخوري وهبه (ثاوذورس) اللدّي، الذي كان أثناسيوس أرسله وكيلاً عنه إليها.

حينئذ خلا الجوّ لأثناسيوس، فتخلّص من زعماء الحركة الكاثوليكيّة في صفوف إكليروسه، وبدأ يتقرّب أكثر فأكثر من رؤساء الكنائس الأرثوذكسيّة، ويظهر معارضته للكثلكة، ويدأب في ترجمة المؤلّفات اليونانيّة المعادية لها، وأهمّها "كتاب صخرة الشكّ" لواضعه الياس منياتس، مطران البيلوبونيس (١٥٦٩- ١٧١٤)، وهو تاريخ محرّف للانشقاق بين الكنيسة الشرقيّة والكنيسة الغربيّة، وعرضٌ مغرض للخلافات الخمس الأكثر أهمّية بين الكنيستين. وقد صدرت الطبعة اليونانيّة الأولى منه في مدينة ليبزيغ سنة ١٧١٨. فنقلها أثناسيوس إلى العربيّة سنة ١٧٢١، وطُبعت في لندن بهمّة المبشّرين البروتستانت، تحت العنوان التالي: "كتاب يُدعى صخرة شكّ، أعني بيان بدء الانشقاق بين الكنيستين الشرقيّة والغربيّة، وفي أنّ سبب هذا التشويش العظيم صار حرص الأساقفة الرومانيّين لأجل توسيع رئاستهم، ثمّ تنبيه لجميع عبيد الربّ على الزؤان الذي يزرعه عبيد العدوّ في هذه الكنائس الشرقيّة. تمّ ذلك وبرز باللغة العربيّة في مدينة حلب المحميّة بهمّة الأب المكرّم أثناسيوس البطريرك الأنطاكيّ في سنة ١٧٢١".

إنّ طبع هذا الكتاب ونشره بين أبناء طائفة الروم أثارا على أثناسيوس، ولاسيّما في حلب، عاصفة هوجاء. فتخلّى عنه أقرب مقرّبيه وأخلص أعوانه. وقد نظم الخوري نقولا الصائغ سنة ١٧٢١ قصيدة شهيرة عرض فيها بتلوّن وتقلّب أثناسيوس في دينه ومعتقده، نذكر منها مطلعها:

كَثُرَ العِثارُ بعثرةِ الرؤساءِ وغوى الصغارُ بغرَّةِ الكبراءِ

لمّا رأيتُ الرأسَ وهو مُهَشَّمٌ أيقنتُ منه تهشّمَ الأعضاءِ
إلى أن يقول عنه:
أضحى زعيمُ القومِ في عُلاّتهِ مُتلوِّنًا كتلوّنِ الحرباءِ

وفي طليعة مَن غادروه وارتدّوا عنه يجب ذكر الشمّاس عبدالله الزاخر، الذي رفض متابعة العمل تحت إشرافه في المطبعة، فتوجّه إلى لبنان، إلى جوار ابن عمّه الخوري نقولا الصائغ، فوصل إلى دير القدّيس يوحنّا الصابغ بالخنشارة في ٢١ تشرين الثّانيّ سنة ١٧٢٢.

على أثر ذلك توجّه أثناسيوس إلى القسطنطينيّة لكي يحصل فيها على مساعدة وعون من بقيّة البطاركة الأرثوذكسيّين. ونحن نعلم أنّ البطريرك القسطنطينيّ إرميا كان قد وجَّه في بداية عام ١٧٢٠ رسالة إلى أبناء البطريركيّة الأنطاكيّة يحثّهم فيها على الطاعة لبطريركهم أثناسيوس. فلمّا بلغ أثناسيوس القسطنطينيّة في أواخر سنة ١٧٢٢، اشترك في مجمع حضره أيضًا إرميا البطريرك القسطنطينيّ، وكريزنس البطريرك الأورشليميّ، واثنا عشر أسقفًا. وفيه تقرّرت الموافقة على كتاب كريزنس البطريرك الأورشليميّ ضدّ بدعة الكنيسة الغربيّة وأتباعها، كما تقرّر نقله إلى اللغة العربيّة وتوزيعه على المسيحيّين في البطريركيّة الأنطاكيّة، في شبه رسالة مجمعيّة غايتها تحذير المؤمنين العرب من أضاليل الكنيسة الغربيّة الكاثوليكيّة[120].

واستحصل آباء المجمع، فضلاً عن ذلك، على أمر شاهاني بتاريخ ١٤ أيلول سنة ١٧٢٢ موجّه ضدّ المرسلين الافرنج ومَن يتبعهم من الكاثوليك[121].

فحمل أثناسيوس الأوامر المجمعيّة والفرمانات السلطانيّة وجاء بها إلى سوريا، ووزّع نسخًا منها للعمل بموجبها في أبرشيّاته. ومن حلب كتب بتاريخ ١٤ كانون الأوّل سنة ١٧٢٢ إلى لاونديوس القبرصيّ مطران حماه، الذي كان أرسله وكيلاً عنه إلى دمشق[122]، يربط أربعة من الكهنة الكاثوليكيّين، ويجهر بتمسّكه بإيمان الكنيسة الشرقيّة الأرثوذكسيّة.

لكنّ الشمّاس عبدالله زاخر، ما أن اطّلع على قرارات المجمع القسطنطينيّ، حتّى دحضها في مؤلّفه الشهير المعروف "بكتاب التفنيد للمجمع العنيد"، والذي وضعه في دير القدّيس يوحنّا الصابغ في النصف الأوّل من سنة ١٧٢٣، قبل أن ينتقل في ٢٠ تموز من السنة المذكورة إلى زوق مكايل خوفًا

120- الأصل اليونانيّ محفوظ في مكتبة القبر المقدّس في القدس الشريف في المخطوطة رقم ٢٣٩. وقد نشر عنها في مجموعة المجامع المقدّسة للعلاّمه مانسي، المجلّد ٣٧، الحقل ١٢٧ وما يليه.

121 RABBATH, t. II, p. 546.

122- تاريخ الطائفة للأب قسطنطين الباشا، القسم الثّانيّ، صفحة ١٢- ١٣.

من إلحاق الضرر بالرهبانيّة الشويريّة فيما إذا ثابر على الإقامة في ديرها الرئيسيّ، لأنّ البطريرك أثناسيوس كان في شهر آذار سنة ١٧٢٣ استصدر أوامر إلى والي الشام بنفي وسجن شخصين كاثوليكيّين من زعماء الروم الملكيّين في حيفا، والمطران أفتيميوس صيفيّ أسقف صيدا الكاثوليكيّ، وابن أخته ساروفيم طاناس، مع كاهن وعلمانيّ من عكا، والكاهن جبرائيل من صيدنايا والمطران جراسيموس من دير البلمند، والشمّاس عبدالله زاخر من حلب[١٢٣]. وفعلاً فقد قُبض على المطران أفتيموس صيفيّ واعتُقل ثمانية وتسعين يومًا في قلعة صيدا، ولم يخرج منها إلاّ بوساطة صديقه الوزير عثمان باشا أبو الطوق والي صيدا. وعلى أثر ذلك توفي في ٢٧ تشرين الثانيّ سنة ١٧٢٣، وقد ناهز الثمانين من عمره.

وإنّ اعتقال المطران أفتيموس صيفيّ ووفاته بعد ذلك بقليل هزّت مشاعر المؤمنين وحرّكتها ضدّ أثناسيوس، محمّلة إيّاه مسؤوليّة اضطهاد أنصار الحركة الكاثوليكيّة، علمًا بأنّهم لم يكونوا في بطريركيّته قلّة يستهان بها. فلكي يسترضي خاطرهم، وفقًا لسياسته المتلوّنة، كتب إلى البادريّ منصور الكبّوجيّ، معتمد الكرسيّ الرومانيّ في صيدا، يطلب منه أن يختار له كاهنًا كاثوليكيًّا لكي يرسمه خلفًا للمطران أفتيميوس على صيدا... فوقع الاختيار على الخوري أغناطيوس البيروتيّ، أحد كهنة المطران أفتيميوس، فأمر أثناسيوس برسامته في حلب في شهر تموز سنة ١٧٢٤ مطرانًا على صيدا. وارتسم معه أغناطيوس بن الخوري سليمان الحلبيّ مطرانًا على حمص، ومكاريوس البياسيّ مطرانًا على بعلبك. ولمّا كان البطريرك أثناسيوس عليلاً، فوَّض أمر الرسامة إلى كلّ من ناوفيطوس مطران بيروت، وناوفيطوس نصري مطران صيدنايا. وبهذه الرسامات، عاد أثناسيوس فاستمال خاطر أنصار الكثلكة في بطريركيّته.

لكنّه في شهر نيسان سنة ١٧٢٤، أضاف إلى رسالة المجمع القسطنطينيّ تحذيرًا منه شديد اللهجة ضدّ أضاليل اللاتين. وبهذا أرضى أخصام الكثلكة...

ثمّ عاد في أوائل شهر تموز سنة ١٧٢٤ فساير أنصار الكثلكة، إذ عقد مجمعًا أنطاكيًّا، أصدر على أثره مرسومًا يقضي باختصار صوم الرسل وجعله اثني عشر يومًا لا غير، كما كان يدعو إلى ذلك أفتيميوس صيفي وغيره من زعماء التجدّد الطقسيّ[١٢٤].

[123] MANSI, t. 46, col. 150.
[124] MANSI, t. 46 col, 153-156.

على أنّه في أوائل تموز سنة ١٧٢٤، إذ احتفل أثناسيوس بقدّاس حبريّ، انتهز هذه الفرصة لكي يحرم كتاب الشمّاس عبدالله الزاخر دون التصريح باسم مؤلّفه علنًا، فقال: "إنّ بعضًا ألّفوا كتابًا ضدّ مجمعنا. فليكونوا محرومين، هم ومَن يقرأ في كتابهم". ولم يكد ينهي القدّاس حتّى شعر بوجع شديد، وخارت قواه. فحملوه إلى داره، ولازم الفراش.

فاغتنم الحلبيّون فرصة مرضه الأخير هذا، واستلطفوه من أجل جراسيموس سمّان أسقفهم، الذي أبعده عن حلب ونفاه وربطه، فصفا خاطره عليه، وحلّه من رباطه، وأرسل خلفه إلى بعلبك، فأسرع إلى حلب، لكنّه لم يبلغها إلاّ بعد وفاة أثناسيوس بستّة أيام.

وفاته

هذا كلّه وما زال المرسلون الأجانب بحلب منقسمين في الحكم على معتقد أثناسيوس. فمنهم مَن كان يعتقد أنّه كاثوليكيّ في القلب، أرثوذكسيّ في الظاهر. ومنهم مَن كان يرى فيه زعيمًا أرثوذكسيًّا وخصمًا للكثلكة.

على كلّ كان الحلبيّون يقدّرونه ويحبّونه، حتّى أنّهم آثروه على منافسه البطريرك كيرلّس الخامس ابن وطنهم. وسوف نرى أنّهم بسبب تعلّقهم به وانصياعهم لتوجيهاته، قبلوا بترشيح تلميذه سلفستروس القبرصيّ لكي يخلفه على الكرسيّ البطريركيّ من بعده. فقد جاء في حوليّات الرهبانيّة الشويريّة ما ننقله هنا حرفيًّا:

"وإذ دخل أوجه الشعب على أثناسيوس طالبين منه الصفح عن جراسيموس، فأخذ يشير عليهم وهو مريض أن ينتخبوا سلفستروس. وضمّن شوره الشرط مضمرًا، فكأنّه يقول: إن أردتم أن أصفح عن جراسيموس ليكون لكم مطرانًا في حلب، انتخبوا أنتم سلفستروس بطريركًا، بما أنّه كان أوّلاً يريده أن يكون مطرانًا في حلب، ولم يمكّنوه من ذلك... ولفرط رغبة الشعب في جراسيموس تراضوا معه بأمر سلفستروس. فأعطاهم منشورًا بحلّ جراسيموس. وبعد خروجهم أحضر أقنوم القيامة وكتب رسائل إلى القسطنطينيّة بخلافة سلفستروس بطركًا بعده. أمّا سلفستروس المذكور فإنّه كان يومئذ في جبل أثوس. لأنّه لمّا مضى أثناسيوس إلى القسطنطينيّة أخذه معه. وبعد عمل المجمع الخبيث واضطهاد الكاثوليكيّين، إذ أزمع أن يعود إلى حلب، أرسل سلفستروس إلى الجبل المقدّس، بعد أن كان ربط معه القول ومع البطاركة بأنّه يكون هو خليفته في كرسيّه. وإذ وصل إلى حلب أخذ يغري

البعض من أهل حلب بأنّ هذا تربّى عندكم، ويسلك معكم مثلي، خيرٌ لكم من أولاد الروم. وكان هذا خترًا منه وغشًّا، إلى أن أقنع البعض وأرسل وراءه. ثمّ توفي في داء المثانة، مصرًّا على شقاقه، في اليوم ٢٤ من تموز/ ٥ آب سنة ١٧٢٤. وصار له جنّاز حافل، ولحد في جرن في الكنيسة كان قد أعدّه في حياته".

يقول المطران جرمانوس فرحات، الذي كانت تربطه بأثناسيوس صلات وثيقة، أنّ البادريّ اليسوعيّ بطرس فروماج عاده في مرضه الأخير، ونصحه بالاعتراف، "فأبى أن يعترف عنده. وقال له إنّي اعترفتُ عن قرب. حقًّا أنّه اعترف عن قرب، لكن عند كاهن قبرصيّ مشاقّ جدًّا اسمه الخوري بطرس الأشقر، كان رئيس دير الحميرا. فقال له اليسوعيّ: هذا الاعتراف لا يفيدك، لأنّك ملتزم بأن تعترف عند كاهن كاثوليكيّ، وتكذّب حالك أمام الجمهور في كلّ شيء قلته وكتبته وعملته ضدّ الإيمان المقدّس. فأبى عن ذلك من كلّ جهده... فتركه المرسل المذكور قائلاً لذويه مستشهدًا قول النبيّ: عالجنا سامرة فلم تتب، فلنتركها. فمات أخيرًا مشاقًّا بغير توبة ولا اعتراف".

على أنّ جبرائيل حوّا، مطران قبرص المارونيّ، كتب في ١٨ آب ١٧٢٤ إلى المجمع المقدّس يقول أنّه عاده في اليوم الأخير من مرضه، ومنحه الحلّ عن كلّ حرم وعقوبة ورباط، وأوعز إلى معرّفه، الخوري سليمان، بأن يحمل إليه القربان المقدّس لكي يتناوله[١٢٥]. ويدّعي كذلك المرسل الكبّوشيّ الأب Joseph de Reuilly، أنّه زار البطريرك أثناسيوس أسبوعًا قبل وفاته، وأنّ البطريرك أعلن له عن رفضه للمجمع القسطنطينيّ المنعقد مؤخّرًا بحضوره، وعن رغبته في الثبات في إيمان الكنيسة الرومانيّة، وطلب منه أن يكتب إلى مجمع انتشار الإيمان أنّه يموت على المعتقد الكاثوليكيّ ما عدا عوائد الطقس التي لا تمسّ الإيمان. وقال أنّه يقبل جميع المجامع المسكونيّة، ولاسيّما المجمع الفلورنتينيّ، وأنّه يسامح الشمّاس عبدالله زاخر ويرفع عنه الحرم الخ...[١٢٦].

والله وحده يعلم على أيّ مذهب أنهى البطريرك أثناسيوس دبّاس حياته. ولعلّه كان واثقًا بأنّه من الممكن التوفيق بين الانتماء الكاثوليكيّ والانتماء الأرثوذكسيّ في آن واحد.

مؤلّفاته

---

[125]- رسالة المطران جبرائيل حوّا في مجموعة مانسي المجلّد ٤٦، العامودان ١٥٧- ١٥٨.

[126] Père HILAIRE DE BARENTON, La France catholique en Orient, p. 179.

١- تاريخ البطاركة الأنطاكيّين، وضعه باللغة اليونانيّة الحديثة، وقدّمه إلى أمير بلاد الفلاخ يوحنّا قسطنطين باصارابا. وهو لا يزال مخطوطًا. ومعظمه منقول عن مؤلّفات البطريرك مكاريوس الحلبيّ.

٢- مواعظ يوحنّا فم الذهب، وعددها ٣٤ ميمرًا أو موعظة، نقلها إلى العربيّة قبل سنة ١٧٠٠، ثمّ طبعها في حلب سنة ١٧٠٧، تحت العنوان التالي: "كتاب الدرّ المنتخب من مقالات القدّيس يوحنّا فم الذهب". وقد جدّد طبعها في حلب عدّة مرّات. ومنها نسخ عديدة في أغلب مكاتب العالم، تصفّحنا منها المخطوطات رقم ٣١٨ و٤٥٩ و٦٧٣ من مجموعة المرحوم الأب بولس سباط في المكتبة الفاتيكانيّة.

٣- أعمال المجامع المسكونيّة الأربعة الأولى (مع مجمع سرديقه)، مترجمة عن اللاتينيّة واليونانيّة أخذًا عن مجموعة العلاّمة Philippe Labbé. ولعلّ الخوري جبرائيل فرحات قد ساعده في تنقيح عبارتها. ومنها نسخة كاملة في المكتبة الفاتيكانيّة تحت رقم ٦٢٦ اطّلعنا عليها.

٤- كتاب صلاح الحكيم وفساد العالم الذميم، نقله عن اليونانيّة سنة ١٧٠٥، ونقّح عبارته الخوري جبرائيل فرحات. والكتاب منسوب خطأً للقدّيس باسيليوس الكبير. ومنه نسخة في المكتبة الفاتيكانيّة تحت رقم ٣٣٧ من مجموعة الأب بولس سباط، اطّلعنا عليها.

٥- رسالة وجيزة في التوبة والاعتراف، بعنوان "سلك الدرّ النظيم في سرّ التوبة والاعتراف القويم"، طبعت في حلب سنة ١٧١١.

٦- ترجمة جديدة لكتاب التريوديّ، قام بها بمعاونة الخوري جبرائيل فرحات، ثمّ إعادة النظر في نصّ الأناجيل الأربعة قبل طبعها، وكذلك إعادة النظر في ترجمة كتاب الباركليتيكيّ أيّ المعزّي قبل طبعه في حلب سنة ١٧١١.

٧- مواعظ آحاد وأعياد السنة (فهرس الأب سباط رقم ١٤٠٠).

٨- توجيهات راعويّة حول الكهنوت والزواج والعماد والجنّازات، أصدرها بمنشور أسقفيّ في غضون شهر تموز سنة ١٧١٦، وقد وجدنا عنها نسخة في مجموعة الأب سباط تحت رقم ١٥١، ونشرها الأب بولس قرألي في المجلّة السوريّة، سنة ١٩٢٨، صفحة ٦- ٨ و٧٧. وقد عاد المطران مكسيموس حكيم فعمّمها سنة ١٧٣٣، ومن بعده المطران أغناطيوس جبربوع سنة ١٧٦٢.

٩- منهاج الكهنوت لخدّام اللاهوت، ترجمهُ سنة ١٧١٦ عن المؤلّف اليونانيّ نقولا بلغاريس. ومنه في مجموعة الأب سباط نسخ ثلاث تحت الأرقام ٢١٩، ٢٣٤، ٤٥٥.

١٠- صُنعة الفصاحة، ترجمهُ سنة ١٧١٨ عن أصل يونانيّ غير معروف حتّى الآن.

١١- كتاب صخرة الشكّ، ترجمهُ عن المؤلّف اليونانيّ الياس منياتس مطران البيلوبونيس، وطبعه في لندن سنة ١٧٢١. وقد تحدّثنا عنه سابقًا.

١٢- رسالة المجمع القسطنطينيّ المنعقد سنة ١٧٢٢، موجّهة إلى أبناء البطريركيّة الأنطاكيّة ضدّ الدعاية اللاتينيّة، وقد وقّعها البطريرك القسطنطينيّ سلفستروس، والأنطاكيّ أثناسيوس، والأورشليميّ كريزنثوس. منها نسخ في مجموعة الأب سباط تحت الأرقام ٣٤- ٦٤٢- ٥٨٦- ٩٧٥، وفي المكتبة الفاتيكانيّة العربيّة تحت رقم ١٦١. والمعلوم أنّ الشمّاس عبدالله الزاخر أجاب على هذه الرسالة في مؤلّفه الشهير المعنون "كتاب التفنيد للمجمع العنيد".

١٣- كتاب منهاج الصلاح لبغية النجاح، وضعه سنة ١٧٢٣، ومنه نسخة في مجموعة الأب سباط تحت رقم ٦٣٠[١٢٧].

-١٠-
جراسيموس سمّان
(٢٦ كانون الأوّل ١٧٢١- ٤ أيار ١٧٣٢)

نشأته

هو جرجس سمّان الحلبيّ، وقد اتّخذ له في المطرانيّة اسم جراسيموس. ويُقال له أيضًا البلمنديّ، باسم الدير الذي ترعرع فيه. ويُطلق عليه سجلّ إكليروس الروم الكاثوليك بحلب، في عبارة مكتوبة بيد غريبة، لقب "عرجان" بدلاً من "سمّان". لكنّنا نعتقد أنّ هذا خطأ، لأنّ جميع المصادر التي طالعناها تثبت أنّ لقبه الحقيقيّ هو "سمّان".

وُلد في حلب حول سنة ١٦٧٠. ويقول في كتاب له وجّهه إلى البابا إكليمنضوس الثانيّ عشر[١٢٨] عند عودته من المنفى، وفيه يسرد سياق حياته،

127- استعنّا في جمع مؤلّفات البطريرك أثناسيوس الدبّاس بكتاب الاكسرخوس يوسف نصرالله:
Histoire du mouvement littéraire dans l'Eglise melechite du Ve- au XXe siècle, Vol. IV, t. I, Paris- Louvain 1979, p. 132- 146.

128 MANSI, t. 46, col. 193- 198.

أنّه نشأ في المعتقد الكاثوليكيّ منذ نعومة أظفاره، وأنّه كان يبشّر به وهو في العالم.

ثمّ يقول أنّه دخل بعد ذلك دير البلمند، قرب طرابلس، حيث قضى عشرين سنة من شبابه. وتعيّن فيه مرشدًا وأبًا روحيًّا للرهبان. وكان لا يخرج منه إلاّ لإلقاء المواعظ في طرابلس وأمكنة أخرى من لبنان. وقد رأينا سابقًا أنّه منذ سنة ١٦٩٧ كانت قد تألّفت في دير البلمند نواة من الرهبان الميّالين إلى الوحدة الكاثوليكيّة وإلى إنعاش النظام الرهبانيّ الصحيح، حتّى أنّه في أواخر سنة ١٧٠٤ عقد خمسة منهم النيّة على الهجرة إلى رومة لممارسة الحياة الرهبانيّة الشرقيّة فيها. وكان من بينهم الخوري جرجس سمّان نفسه. ولمّا خاب أملهم في تحقيق هذه الفكرة، أرسلوا اثنين منهم، وهما الخوري جرجس سمّان المذكور والخوري سليمان كسري الحلبيّ، إلى طرابلس لنيل موافقة البطريرك كيرلّس الخامس الحلبيّ على مشروعهم. ومن ثمّ انطلق الراهبان المذكوران إلى جبل لبنان، وابتاعا دير القدّيس يوحنّا الصابغ في قرية الشوير.

وهكذا انتقل الخوري جرجس سمّان إلى الدير المذكور سنة ١٧١٠ مع تلميذه موسى العفصديقي. وعيّن رئيسًا ثانيًا عليه من أيلول ١٧١١ حتّى تشرين الثانيّ ١٧١٢. لكنّه بسبب الصعوبات التي لقيها عيل صبره، فترك الدير متوجّهًا إلى حلب، فأقام فيها حتّى سنة ١٧١٧، حيث أغضب البطريرك أثناسيوس دبّاس بمواقفه الكاثوليكيّة الجريئة. فأمره البطريرك بمغادرة حلب، فعاد إلى دير الصابغ سنة ١٧١٧، ومكث فيه طيلة فصل الشتاء. ثمّ مضى إلى دير البلمند فأقام فيه حتّى سنة ١٧٢١، إذ استدعاه البطريرك أثناسيوس وأقامه وكيلاً عنه في دمشق.

على أنّ الوثائق المعاصرة توحي إلينا أنّ أهل دمشق لم يستطيبوا تعيين الخوري جرجس سمّان وكيلاً بطريركيًّا عليهم، لأنّه كان يمثّل في نظرهم البطريرك أثناسيوس دبّاس الذي كانوا يكرهونه، وإن كان دمشقيّ الأصل. ولعلّ الخوري جرجس زاد في هذه الكراهية بما ترتّب على طبعه الصعب وتشبّثه بآرائه في إدارة الرعيّة.

مع ذلك فقد فكّر أثناسيوس جدّيًّا منذ ذاك الحين برسامة مطران على حلب، وحرّر بتاريخ ٢٥ تموز سنة ١٧٢٠ مرسومًا ميّز فيه "خصوصيّات كنيسة حلب الشهباء عن خصوصيّات مطرانها"[١٢٩].

---

[129]- نشره الخوري قسطنطين الباشا في الجزء الثانيّ من تاريخ الطائفة، صفحة ٤١- ٤٣، نقلاً عن "عجالة راكب الطريق"، لمؤلّفها نعمة بن الخوري توما، أمين سرّ البطريرك أثناسيوس.

انتخابه للأسقفيّة (٢٦ كانون الأوّل ١٧٢١)

وممّا لا شكّ فيه أنّ الحلبيّين كانوا يحبّون البطريرك أثناسيوس الدبّاس ويؤثرونه على ابن وطنهم البطريرك كيرلّس الخامس الحلبيّ. لكنّه لمّا توفي هذا الأخير، وتفرّد أثناسيوس بالبطريركيّة، خَشِيَ الحلبيّون أن تسري عليهم نهائيًّا هذه القاعدة بضمّ مدينتهم إلى الأبرشيّة البطريركيّة، وحرمانهم من أسقف خاصّ بهم يرعى مصالحهم. ومن جهة أخرى فقد شعروا في الآونة الأخيرة بأنّ البطريرك أثناسيوس أخذ يميل إلى الأرثوذكسيّة، ويعارض الكثلكة يومًا بعد يوم أكثر فأكثر، وأنّ الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ سبق فاعترف بالبطريرك كيرلّس الخامس بطريركًا كاثوليكيًّا شرعيًّا، ممّا وضع البطريرك أثناسيوس في موقف مشبوه تجاه الكثلكة، التي كانوا يؤثرونها على كلّ شيء. كلّ هذا يوضح لنا لماذا طالب الحلبيّون بغتة بطريركهم أثناسيوس بإقامة أسقف على أبرشيّتهم حالما عاد إلى حلب في ٢٩ حزيران سنة ١٧٢١.

وإنّنا ننقل تفاصيل هذه الوقائع عن حوليّات الرهبانيّة الشويريّة بأمانة دون تحوير إخلاصًا للحقيقة التاريخيّة فنقول:

حال وصول البطريرك أثناسيوس دبّاس إلى حلب، في غضون شهر حزيران سنة ١٧٢١، "طلبت منه الطائفة أن يقيم لهم مطرانًا عليهم. فغثّ ذلك عليه جدًّا لأنّه كان يهوى المقام في حلب، ويخشى من أنّه إذا أقيم لهم مطران يلتزم الخروج منها. فمن ثمّ أخذ يماطلهم ويعدهم. فألحّوا عليه كثيرًا، إذ ظهر لهم منه أنّه يريد أن يقيم لهم سلفستروس القسّ القبرصيّ الذي كان عنده. أمّا هو فكان يخفي ذلك لعلمه بأنّهم لا يرضون به. أمّا هم فطلبوا الخوري ثاوذروس (أيّ الخوري وهبه اللدّي، الراهب الشويريّ، الذي كان أرسله أثناسيوس وكيلاً عنه إلى حلب). ولكنّ المذكور أبى ولم يقبل. وكذلك أثناسيوس لم يرده، لأنّه كان يضاده بأمور الإيمان الكاثوليكيّ. ولذلك حنق عليه وآثر إخراجه من حلب. ولمّا لم يمكن أن يقام المذكور، طلبوا أن يقام لهم مطران من أبنائهم (أيّ من الحلبيّين). ولشدّة إبرامهم أذن لهم، بحيث يرمون القرعة لواحد من ثلاثة، وهم الخوري جرجس الشدوديّ من حلب، والخوري جراسيموس (سمّان) الذي أقامه وكيلاً في الشام، والخوري نقولاوس (الصائغ) أحد إخوتنا، لكون الطائفة طلبته. وإذ رموا القرعة بالنوع الذي أراده هو، ورأى الأكثرين مائلين إلى أبينا الخوري نقولاوس، فأفسدها وأبطلها، وأقنعهم بالخوري جراسيموس الذي كان في الشام. فأجمع رأيهم بأن يرسلوا وراءَه.

فلمّا استدعوه حضر حالاً، لأنّه كان متمرمرًا من أهل الشام، وذلك لوجه بغضهم لمعلّمه أثناسيوس، ومحاماته عنه. ولمّا اتّفقوا على إقامة المذكور، أشرط أثناسيوس عليه بأن يرسمه مطرانًا على حلب ويرسله إلى الشام وكيلاً مطلقًا يتصرّف بالأبرشيّة كلّها، ويكون أثناسيوس في حلب. ثمّ رسمه ثاني يوم عيد الميلاد (٢٦ كانون الأوّل) غاية سنة ١٧٢١. وبعد ذلك أمره بالرجوع إلى الشام فلم يرجع، لأنّ الشعب أنكر ذلك عليه. وفيما هم كذلك إذ وردت مكاتيب من الشام بأنّهم لا يريدون المطران جراسيموس..."، فبقي جراسيموس مؤقتًا في حلب نحو عشرة أشهر، حتّى أوائل تشرين الثانيّ سنة ١٧٢٢[١٣٠].

الأسقف المُبعَد عن أبرشيّته (أوائل تشرين الثانيّ ١٧٢٢- ٣٠ تموز ١٧٢٤)

على أنّ البطريرك أثناسيوس في نهاية الأمر أرغم جراسيموس على مغادرة حلب، رغبة منه في التفرّد بإدارتها، وأيضًا لكي يرضي بذلك أخصام الحركة الكاثوليكيّة.

فغادر المطران جراسيموس حلب، وعاد إلى دير البلمند، وكان دخوله إليه في ٨ تشرين الثانيّ سنة ١٧٢٢. وكأنّي به خجل من العودة إلى دير يوحنّا الصابغ بالشوير، فذهب إلى ديره القديم في البلمند. وقد رافقه في هذا الابتعاد أناس آخرون ممّن نقم عليهم البطريرك أثناسيوس، الذي كان يطوّر يومًا بعد يوم نقمته على الكاثوليك.

ويقول تاريخ الرهبانيّة الشويريّة: "في ذاك الزمان خرج من حلب المطران جراسيموس، ومعه الشمّاس جرمانوس، وكذلك الشمّاس عبدالله زاخر. أمّا المطران فإنّه مضى إلى دير البلمند مع شمّاسه. وأمّا الشمّاس عبدالله زاخر فقد أتى إلى دير ماري يوحنّا. وكان وصوله في ٢١ تشرين الثانيّ سنة ١٧٢٢. وكان سبب خروجهم الخوف من شرّ أثناسيوس، لأنّه أرسل يقول لجراسيموس: انتقل إلى البلمند لأنّ أولاد الروم مغرضون عليك، ومتى همدت نارهم أرجعك إلى حلب". وبقي جراسيموس في دير البلمند زهاء سنة حتّى خريف سنة ١٧٢٣.

"وإذ دنا خريف عام ١٧٢٣... ورد المطران كير جراسيموس من طرابلس إلى دير مار يوحنّا، بعد أن أصعده والي طرابلس إلى القلعة وجرّمه جرمًا

---

[130]- راجع مرسوم انتخاب جراسيموس سمّان مطرانًا على حلب في تاريخ الطائفة للخوري قسطنطين الباشا، الجزء الثانيّ، صفحة ٤٣- ٤٤.

كبيرًا من أجل أنّه كاثوليكيّ". وأنّ جراسيموس في رسالته إلى البابا إكليمنضوس الثانيّ عشر يوافينا ببعض التفاصيل عمّا احتمله في قلعة طرابلس فيقول: "كنتُ في البلمند. وفجأة في إحدى الليالي، اقتحم الدير بعض عساكر الأتراك، بناء على طلب المشاقين فقيّدوني بالسلاسل وقادوني إلى طرابلس، ووضعوني في القلعة... حيث بقيت ستّة أشهر، ولم أخرج منها إلاّ بعد أن دفعتُ غرامةً قدرها ثمانمئة غرش، وأصبتُ بمرضٍ عضال".

"ومن ماري يوحنّا ذهب جراسيموس إلى بعلبك. والسبب في ذلك هو أنّ أثناسيوس، إذ كان لا يشاء أن يسكن إلاّ في حلب، وامتنع على جراسيموس أن يقطن فيها، أرسل يقول له بأن يختار إحدى المدينتين، إمّا بعلبك وإمّا حمص، ليثبّته مطرانًا عليها. فأبى أن يكون مطرانًا مستقرًّا. ومن ثمّ ذهب إلى بعلبك على جهة النقلة، لا التأييد، ثمّ مضى إلى قرية رأس بعلبك..."

بقيَ جراسيموس في المنفى بين بعلبك ورأس بعلبك نحو عشرة أشهر، أيّ من خريف ١٧٢٣ حتّى أواسط تموز ١٧٢٤. ففي ذاك الوقت، مرض أثناسيوس مرضه الأخير. فدخل عليه الحلبيّون، "وما زالوا يتلطّفون بخاطره من أجل جراسيموس مطران حلب، إلى أن صفا عليه، وحلّه من الرباط الباطل بموجب منشور من يده[١٣١]، وأرسلوا وراء المذكور إلى بعلبك، فأتى إلى حلب بعد موت أثناسيوس بستّة أيام"، أيّ في ٣٠ تموز ١٧٢٤. وأنّ الشماس نعمة بن الخوري توما، أمين سرّ البطريرك أثناسيوس، بعث في الوقت عينه إلى جراسيموس برسالة خاصّة، مؤرّخة في ١٥ تموز ١٧٢٤، يستحثّه فيها على الإسراع بالعودة إلى حلب، وقد حفظها لنا في مجموعة رسائله التي سمّاها "عجالة راكب الطريق لِمَن رضي بتقليد التلفيق"[١٣٢].

انقسام الطائفة (سنة ١٧٢٤)

بوفاة البطريرك أثناسيوس دبّاس في ٢٤ تموز سنة ١٧٢٤، انقسمت طائفة الروم الملكيّين نهائيًّا إلى فئتين: فئة الموالين للكثلكة بقيادة البطريرك كيرلّس السادس طاناس، وفئة الموالين للأرثوذكسيّة بقيادة البطريرك سلفستروس القبرصيّ.

---

[131]- تجد نصّه في تاريخ الطائفة للخوري قسطنطين الباشا، الجزء الثانيّ، صفحة ٤٦- ٤٧.

[132]- هذا المخطوط موجود في المكتبة الشرقيّة ببيروت، وعنه نقل هذا الخبر الأب فرديناند توتل في الجزء الأوّل من وثائقه، صفحة ٥٢.

فمن المعلوم أنّه ما أن قام الخوري ساروفيم طاناس بطريركًا أنطاكيًّا في ٢٠ أيلول سنة ١٧٢٤ بمؤازرة الأساقفة والعلمانيّين الموالين للكثلكة، ودعي كيرلّس السادس، حتّى قرّرت الفئة المنافسة، بمؤازرة البطريركيّة القسطنطينيّة، أن تنصّب عليها القسّ سلفستروس القبرصيّ بطريركًا. فأرسلوا وأحضروه من جبل آثس، ورسموه بطريركًا في القسطنطينيّة بعد سيامة كيرلّس طاناس بأسبوع واحد، أيّ في ٢٧ أيلول سنة ١٧٢٤. وهذا البطريرك من مواليد قبرص لعام ١٦٩٦، أيّ أنّه لمّا نصّب بطريركًا لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره. إلاّ أنّه ساس البطريركيّة الأنطاكيّة الأرثوذكسيّة مدى اثنين وأربعين عامًا، إذ توفي في ١٣ آذار سنة ١٧٦٦. وهكذا انقسمت بطريركيّة الروم الملكيّة الأنطاكيّة إلى بطريركيّة أرثوذكسيّة وبطريركيّة كاثوليكيّة حتّى يومنا هذا.

يقول لوكيان في كتابه الشهير عن "الشرق المسيحيّ"[١٣٣] أنّ والد سلفستروس كان روميًّا، أمّا والدته فكانت مارونيّة من قبرص[١٣٤]. وقد كان التلميذ المحبّب والرفيق المقرّب للبطريرك الراحل أثناسيوس دبّاس، الذي أوصى الحلبيّين به خلفًا له على الكرسيّ البطريركيّ. وكان يتقن اليونانيّة والعربيّة والتركيّة، على أنّ ميله الأكبر كان إلى رسم الأيقونات المقدّسة. فقد خلف في كثير من الكنائس والديورة الأرثوذكسيّة آثارًا رائعة من فنّه الأيقونغرافيّ، منها على سبيل المثل أيقونات السيّد والسيّدة ويوحنّا المعمدان في دير القدّيسة تقلا في معلولا. وله بعض المؤلفات أو الترجمات، منها مجموعة قوانين كنسيّة، وكتاب طُبع في مدينة جاسي من أعمال رومانيا سنة ١٧٣٤ بعنوان "قضاء الحقّ ونقل الصدق". وله كذلك إخراج جديد لكتاب القدّيس يوحنّا الدمشقيّ المعروف "بالإيمان الأرثوذكسيّ".

أمّا سيرته وتصرّفه الشخصيّ فيختلف فيهما المؤرّخون من معاصريه وفقًا لانتمائهم المذهبيّ. فالأرثوذكسيّون منهم يعتبرونه من أكابر بطاركة الكرسيّ الأنطاكيّ، بل قدّيسًا ومجترحًا للعجائب، بينما ينتقده الكاثوليك انتقادًا مرًّا بسبب ما أثاره عليهم، شخصيًّا أو بواسطة ممثّليه، من ملاحقة بلغت أحيانًا حدود الاضطهاد السافر.

وإنّنا نورد هنا مجرى الأحداث نقلاً عن "تاريخ الرهبانيّة الشويريّة"، وهو يعكس بالطبع وجهة نظر الفئة الكاثوليكيّة. على أنّنا فضّلنا هذا المصدر على

[133] LE QUIEN, Oriens christianus, t. II, col. 776.

[134] وبعكس ذلك يقول مؤرّخ الرهبانيّة الشويريّة أنّ أباه كان مارونيًّا وأمّه روميّة.

غيره لأنّه يقدّم لنا صورة حيّة عن موقف الروم الحلبيّين، متحاشين مع ذلك ما قد ورد غالبًا في المصدر المذكور من عبارات متحيّزة. وإنّنا لا نوردها، إذا أوردناها، إلاّ من باب الأمانة للوثائق التاريخيّة، معربين عن أسفنا الشديد لانقسام الطائفة في ذاك العهد إلى فئتين متنافرتين، استسلمت كلّ واحدة منهما إلى الطعن بأبناء الفئة الأخرى وتجريحهم وحثّ السلطات العثمانيّة على اضطهادهم. والحاكم العثمانيّ كان يفرح ويهلّل لهذه الانقسامات، التي كانت تدرّ عليه الأموال الطائلة... ومن المعلوم، كما جاء في المثل العاميّ، "إنّ بطن العثمانيّ لا يشبع أبدًا".

وإذ كنّا نسرد هذه الوقائع المؤلمة بشيء من التفصيل، فإنّنا نريد أن نؤكّد للجميع احترامنا العميق للكنيسة الأرثوذكسيّة الشقيقة، آسفين لِما حدث في الماضي من سوء تفاهم، وعازمين على العمل الصادق في سبيل تقارب الطائفتين الشقيقتين وإعادة الوحدة بينهما في الوقت وبالسبل التي يعرفها الربّ. لكن للتاريخ قواعد لا يجوز لنا تخطّيها. فنرجو المعذرة ونتابع بحثنا بكلّ أمانة وإخلاص.

في قلب العاصفة: البطريرك سلفستروس يحمل على الكاثوليك وينفي المطران جراسيموس

يقول مؤرّخ الرهبانيّة الشويريّة[١٣٥]: "أمّا الروم في القسطنطينيّة، فإذ وصلتهم أوراق أثناسيوس (البطريرك الراحل) والبعض من حلب، فقد أرسلوا وأحضروا سلفستروس من جبل آثس، وكان أثناسيوس قد أوصى به، ورسموه. وكان ارتسامه بعد ارتسام كيرلّس (البطريرك الكاثوليكيّ) بأسبوع واحد (أيّ في ٢٧ أيلول سنة ١٧٢٤). وأمّا أهل حلب، فلخوفهم من أولاد الروم، فقد ارتضوا به، حسبما أشار عليهم معلّمه (البطريرك الراحل أثناسيوس)، وعملوا له صورة انتخاب، وأرسلوا له صورة رضاهم به. أمّا هو فكان قد ارتسم..."

وزوّده البطريرك القسطنطينيّ إرميا بمنشور إلى أبناء البطريركيّة الأنطاكيّة، مؤرّخ في تشرين الثانيّ سنة ١٧٢٤، وفيه يحرم البطريرك الكاثوليكيّ كيرلّس السادس طاناس وزعماء الحركة الكاثوليكيّة في سوريا ولبنان[١٣٦].

---

[135]- كلّ ما ورد في نصّنا بين معكوفين دون ذكر مصدر خاصّ فهو منقول عن "تاريخ الرهبانيّة الشويريّة"، كما طالعناه في أقدم نسخة عنه، وهي محفوظة اليوم في المكتبة المارونيّة بحلب تحت رقم ١٤٥٥.

[136]- تجد نصّ هذا المنشور في تاريخ الطائفة للخوري قسطنطين الباشا، الجزء الثانيّ، صفحة ١٠٨- ١١٢.

"وأخرج سلفستروس فرمانات بضبط الأبرشيّة ومسك البطرك كيرلّس، ومعه جراسيموس مطران حلب... وقد استقام في إسلامبول، وأرسل فوكل مطران حماه (تيموثاوس) على حلب. وأرسل فرمانات الضبط فسجّلها. وسجّل فرمانات أُخر تتضمّن اضطهاد أولاد الإيمان، وضبط أموال الكنيسة وغير ذلك من أنواع التسلّط الأمميّ. فأبدع في أهل حلب فنونًا من الاضطهاد، وسلّم البعض للحكّام، وجرّمهم جرائم كثيرة، وربط الكهنة الكاثوليكيّين، وأرعب الأعيان والكهنة بالوعيد، حتّى أنّه لم يوجد أحد في ذلك الحين يرفع جناحًا ضدّه. والأكثرون وافقوه، وهم الأكثر حرصًا على المال وغير الراسخين في الإيمان. أمّا الذين هم كاثوليكيّون حقًّا فلم يشاركوه في الصلاة ولا وافقوه. فأفرغ فيهم كنانة سهامه بالاضطهاد، ولم يدع من جهده شيئًا إلاّ ما لم تصل إليه يده..." كلّ هذا جرى والبطريرك سلفستروس ما زال في إسلامبول، يوجّه حملته على الكاثوليك بواسطة عملائه: تيموثاوس مطران حماه، ورجل علمانيّ اسمه ابن ديب. ومن القسطنطينيّة أرسل إلى وكيله تيموثاوس صورة إيمان معادية للكثلكة، فأمر هذا بقراءتها في الكنيسة. فهجم بعض الكاثوليكيّين على القارئ ومزّقوا الورقة، وتشكّوا على الوكيل إلى معلّمه سلفستروس، فأرسل يطيّب خاطرهم، فبعثوا إليه بمزيد من الدراهم..."

وفي طليعة المضطهَدين كان بالطبع المطران جراسيموس، الذي حاول بادئ بدء أن يهرب إلى دمشق. لكنّه وقع في أيدي الجند المبعوثين لتوقيفه. فاعتقلوه وقيّدوه بالسلاسل، وأعادوه إلى حلب، وزجّوه في سجن القلعة، وضيّقوا عليه إلى أقصى حدّ، بانتظار سوقه إلى المنفى. وقد حاول بعضهم إغراء منفّذ أمر السلطان بقتل جراسيموس في السجن. لكنّه أبى. وإذ قبض رشوةً لا بأس بها، وعد بأن يعامل المطران بقسوة وغلاظة في طريقه إلى المنفى، بحيث يلفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يبلغه. وعلى هذا الوعد الجائر غادر جراسيموس سجن حلب إلى المنفى، يرافقه منفّذ أمر السلطان، ورجل عامّيّ يمثّل البطريرك سلفستروس، وثمانية عشر من الجنود الأتراك. فأسرعوا في السير، وتجاوزوا المحطّات دون استراحة، وأذاقوا جراسيموس ألوان العذاب حتّى الموت، لكنّه لم يمت. وعند وصولهم إلى أبواب إسلامبول، جاء مَن يعرض على منفّذ أمر السلطان أن يزجّ جراسيموس في اصطبله مع الدوابّ. ثمّ عرضوا على جراسيموس أن يطلقوا سراحه فورًا إن هو قَبِلَ أن يوقّع صورة إيمان مناوئة للكثلكة. وإذ أبى، تابع العسكر سيرهم، فقادوه إلى قلعة ليميا، فارتقى درجاتها التي تنيف على الألف، وهو مقيّد بالسلاسل، وزُجّ في

سجنها الداخليّ. وبعد فترة من الزمن، أشفق عليه الأتراك، فنقلوه إلى جبل آثس، حيث وُضع في أحد الأديار، لكنّه مُنع من الاتصال بأيّ شخص، فقضى في منفى جبل آثس خمس سنوات كاملة.

ويتابع مؤرّخ الرهبانيّة الشويريّة فيقول: "ثمّ إنّ سلفستروس البطريرك، من بعد أن رتّب أموره في إسلامبول وصنع كما أراد بإخراج الفرمانات بحقّ الكاثوليكيّين، توجّه من هناك قاصدًا مدينة حلب، وكان ذلك (في أواخر) سنة ١٧٢٥. وأرسل وهو في الطريق إلى مطارنة الأبرشيّة لكيما يلاقوه إلى أنطاكية، لكي يجمع معهم مجمعًا، ويشدّد على اضطهاد الكاثوليكيّين. فأسرعت المطارنة المدعوّون إلى أنطاكية... وكذلك خرج من حلب ناوفيطوس مطران بيروت، ومكاريوس مطران بعلبك... فاجتمعوا جميعًا في أنطاكية. فأراهم سلفستروس ما لديه من البطش والكمش والفرمانات القاطعة... فسجد له الجميع... ثمّ ختموا مجمعهم بحرم السيّد البطريرك كيرلّس (طاناس) وجماعته ومطارينه..."

"وأمّا سلفستروس فإنّه دخل حلب بسطوةٍ مرجفة للقلوب في اليوم الخامس من شهر تشرين الثانيّ سنة ١٧٢٥". وقد نقل المرحوم غطّاس قندلفت عن بعض المؤرّخين اليونان تفاصيل مثيرة عن وصول البطريرك سلفستروس إلى حلب، فقال[١٣٧] إنّ أعيان الروم خرجوا لاستقباله إلى مسافة بعيدة عن المدينة، وأعدّوا له وليمة غداء فاخر في مكان جميل من ضواحي حلب يُقال له عين داره. وكان في ما أعدّوه لذلك وجبة سمك، إذ كان ذاك النهار يوم قطاعة. فلمّا أبصر البطريرك سلفستروس السمك أمامه رفس المائدة بغضب شديد، وحرم السمك وجميع الذين يأكلون منه أيام الصوم والقطاعة، مع أنّ الأعيان أوضحوا له بلطف وتواضع بأنّه قد جرت العادة بأكله أيام القطاعة في حلب من عهد البطريرك أثناسيوس دبّاس معلّمه. لكنّ كلامهم كان يذهب سدًى، بل كان يزيده غضبًا. ومن ثمّ أدرك الحلبيّون أنّ الرجل متشدّد متعصّب تعصّبًا أعمى في حفظ عوائد الروم القديمة. وكثيرون منهم عضّوا أناملهم ندمًا على رضاهم باختياره بطريركًا، وأدركوا منذ ذاك اليوم جسامة المشقّات التي سوف يلاقونها معه.

وفي الأحد التالي أقام قدّاسًا احتفاليًّا، رشق خلاله بالحرم خمسين شخصًا من الكهنة وأعيان الشعب من أهل حلب بأسمائهم بحجّة أنّهم إفرنج... ومع أنّ

[137]ـ نُشرت هذه التفاصيل في جريدة النهار البيروتيّة، السنة الأولى ١٨٩٩، صفحة ٣٠٣، وقد أوردها الخوري قسطنطين الباشا في تاريخ الطائفة، الجزء الثانيّ، صفحة ١٣٩.

الحلبيّين كانوا سبقوا فأرسلوا له، بناء على طلبه وقبل خروجه من إسلامبول، مبلغ ستّة آلاف غرش، "لعلّهم يأمنون شرّه"، إلاّ أنّ ذلك لم يغنهم شيئًا، بل أنّه حالما بلغ حلب أخذ يرشق أعيانهم وكهنتهم بسهامه المتواترة.

"وألّف إيمانًا جديدًا... ليقرأ الناس (صورة هذا الإيمان) جميعًا. وهي تتضمّن إنكار القضايا الخمس (التي درج الكاثوليك على اعتبارها مميّزة لمذهبهم عن مذهب الأرثوذكس)، وفاعليّة الكلام الربّانيّ في الأسرار، والاعتراف بقداسة يوحنّا الصوّام (وغريغوريوس) بالاماس. وألزم الناس بقراءة هذا الإيمان"[١٣٨].

"وحينئذ إذ وصلت الشمّاس عبدالله (زاخر) بعض نسخ من هذا الإيمان، وكان يومئذ قاطنًا دير مار يوسف عينطورا وزوق مكايل، فألّف كتابًا بذلك ودعاه "البرهان اليقين على فساد إيمان المشاقين". ثمّ أرسل نسخًا منه إلى حلب، مع مكاتيب شديدة إلى بعض أوجه الشعب الكاثوليكيّين يلومهم بها على ارتخائهم وتساهلهم بقبولهم بالظاهر هذا الإيمان..."

وإنّ البطريرك سلفستروس "كان يسند ضرر كلّ مَن يريد أن يضرّه على قوله أنّ هذا إفرنجيّ. ولأنّ الدولة العثمانيّة لا ترضى بهذا، فكان كلّ شيء يريده من الأضرار ينجح به، لاسيّما وأنّ الدولة أخذت لها بهذا الوجه سبيلاً لسلب أموال المسيحيّين... ورسم كهنة من حلب مشتهرين بالرداءة... وحرم الكهنة العباد أهل التُقى. وسلب أموالاً لا تُحصى. وهدم هيكل ماري يوسف وأبطله، لأنّ الكنيسة الرومانيّة والكاثوليكيّين يكرمونه. وأحدر أيقونته التي كانت تعلو هيكله... وأبطل عيد القدّيس مار الياس، لأنّ كنيسة الموارنة مبنيّة على اسمه. وأوصى بأن لا يُسمّي أحدٌ ولدًا باسم يوسف أو الياس. وضبط خزنة الكنيسة، وسلب منها كلّ ثمين. وإذا دار ليجمع النورية ألزم أعيان الملّة أن تطوف معه كأنّهم أسراه وعبيده..."

"وقد أتى إلى دير مار يوحنّا (بالخنشارة) بعض من الكهنة والرهبان. فكنتَ تراهُ مفعمًا من الهاربين..."

انتفاضة الحلبيّين: البطريرك سلفستروس يضطرّ إلى مغادرة حلب

على أنّه في أواسط سنة ١٧٢٦، أيّ بعد قضائه عشرة أشهر في حلب، يحمل على الكاثوليك ويغرّمهم ويزجّهم في السجون، "ابتدأ الله ينكّس أعلام

---

[138]- تجد صورة هذا الإيمان في مجموعة مانسيّ، المجلّد ٤٦، العواميد ١٧٥- ١٧٨، وكذلك في تاريخ الطائفة للخوري قسطنطين الباشا، الجزء الثانيّ، صفحة ٢٥٣- ٢٥٤.

سلفستروس. فنفرت واشمأزّت منه قلوب الناس وكرهته... فاتفقوا جميعًا عليه".

"فمن ذلك أنّه سلبهم أموالهم بالافتراء عليهم للدولة بأنّهم إفرنج خوارج. وقد أثبتوا بالبيّنة الجليّة أنّهم من رعيّة السلطان، أهل ذمّة من الروم في حلب عن آباء وجدود، بشهادة إشراف المسلمين من أهلها، وأنّهم يدفعون كلّ عام مال السلطان بالتمام، بموجب وصولات رسميّة في يدهم من جناب المحصّل العامّ. ثمّ أثبتوا عليه أنّه سلب مال كنيستهم وقلاّية مطرانهم، وأنّه أخذ ما فيها من البدلات والأواني النحاسيّة والفضّيّة والذهبيّة وغيرها، وأنّه ليس له حقّ الإقامة في حلب، وأنّ مقرّ كرسيّ البطريركيّة الأنطاكيّة هو في دمشق لا في حلب. ولدى الكشف على ما في الكنيسة والقلاّية بواسطة عمدة من قبل الوالي والقاضي، وبإقرار المطران ووكيله، تحقّقوا أنّه أرسلها إلى دار شرمل التاجر الإنكليزيّ، وقد وجدوها عنده في عدّة صناديق، فأُرجعت إلى مكانها. وكتب القاضي بذلك حجّة شرعيّة تامّة الشروط بإمضائه وإمضاء الوالي وإمضاوات إشراف المسلمين، وأرسلوها إلى الوزارة العظمى في الأستانة صحبة عمدة "شكوجيّة" (مؤلّفة من شكري البيطار وعازار العجوريّ ونصرالله الكوسا)، مع عرض حال شكوى عليه من قبل جميع الروم بأختامهم وخطوط أيديهم. ثمّ أصحبوهم برسائل التوصية بهم إلى كبار التجّار وأصحاب الشأن من أهل حلب الذين كانوا مقيمين في الأستانة ليساعدوهم وينصروهم هناك"[١٣٩].

وتشاء التقادير أن يصطدم البطريرك سلفستروس بالقنصل الإفرنسيّ في حلب، وكان رجلاً تقيًّا يُدعى Péleran. يقول مؤرّخ الرهبانيّة الشويريّة: "إذ كان عيد الجسد عند الرومانيّين (أيّ اللاتين)، اجتمع المسيحيّون في كنيسة الشيانيّ المختصّة برهبان مار فرنسيس. فترصّد سلفستروس هذا اليوم، وأرسل من قبله واحدًا مشاقًّا وهو ابن الزيّات أرميا، ومعه شاويشه الذي كان يلازمه من قبل الدولة. فمضيا إلى مكان قرب الكنيسة، ودخل ابن الزيّات ليرى مَن يوجد فيها، فيخبر الشاويش ويمسكهم. فعظم هذا الأمر على القنصل... فأرسل واشتكى على سلفستروس عند والي حلب، بأنّه كبس كنيستنا وشتم سلطاننا. وأثبتوا عليه ذلك. فأمر عليه بالرفع إلى القلعة. ولكنّه أرشى بالدراهم لئلاّ يرفع إلى القلعة. فحُبس يومًا وأطلقوه. أمّا شاويشه فرُفع إلى القلعة... وبعد هذا، إذ انهضم شأنه، دخلت عليه الرعيّة من الذين كان ألزمهم

---

[139]- تاريخ الطائفة للخوري قسطنطين الباشا، الجزء الثانيّ، صفحة ١٤٨- ١٤٩.

بختم قراءة كفره، وجحدوها ظاهرًا في وجهه، واتفقوا على مقارعته وطلب حقّهم منه، وأن يسلموه إلى الحاكم..."

إذ ذاك خاف سلفستروس، وقرّر الهرب من حلب. فخرج إلى بستان في ضواحي المدينة مع حاشيته بحجّة النـزهة. ومن هناك هرب إلى اللاذقيّة على خيل أعدّها له شرمل المذكور. "وكانت مدّة استمراره في حلب قدر عشرة أشهر. وخرج منها هاربًا في أواخر آب سنة ١٧٢٦... فمضى إلى اللاذقيّة، ونزل في البحر ليمضي إلى طرابلس. فلقيه مركب من القرصان المالطيّين. فجعل يتدلّس عليهم ويتدخّل إلى أن أطلقوه... فجاء إلى طرابلس. وكان يومئذ محافظ طرابلس ابن العظم، وأولاد صدقه مقبولين لديه جدًّا. فرموا عنده قضيّة المذكور بخمسة أكياس دراهم ليصمت عنه ولا يقبل عليه دعوى أهل حلب. فأقام في طرابلس أيامًا يحرم ويجرّم ويضطهد بني الإيمان... وكان ورود سلفستروس إلى طرابلس في أيلول سنة ١٧٢٦".

وأقام في البدء مدّة متخفّيًا في دار قنصل الإنكليز، وكان في ما أخذه منه القرصان الفرمانات والبراءات السلطانيّة والدراهم التي جمعها من أهل حلب.

إلاّ أنّ سلفستروس أبقى في حلب وكيله تيموثاوس، ومعه فرمان بنفي ثلاثة زعماء من الكاثوليك. إلاّ أنّ الطائفة كلّها وقفت في وجهه في ديوان الباشا بحضور القاضي والمفتي وأعيان المسلمين، وتغلّبوا عليه، بل حبسوه مع بعض الكهنة الذين كان سلفستروس قد رسمهم، وتسلّموا الكنيسة من جديد. وقد حصلوا على كلّ ذلك بدفع الأموال غزيرة دون حساب، في سبيل الدفاع عن إيمانهم.

"أمّا سلفستروس فلم يستمرَّ كثيرًا في طرابلس، بل أنّه طُلب إلى إسلامبول، لأنّ رعيّة حلب اشتكوا عليه إلى الباب الأعلى بما سلبه من الدراهم. ووجّهوا بذلك الخواجه شكرالله ابن بيطار، وعازار بن عطاالله العجوريّ، ونصرالله بن يوسف كوسا فأشكوه إلى الباب الأعلى، ورفعوا يده عن حلب، وأخذوا فرمانًا بأنّه أينما وجد في حكم آل عثمان يقبض عليه ويؤدّى إلى حلب ليحاكم. فرجع عازار ونصرالله ومعهم جاويش من الدولة ليقبض عليه. فإذ بلغه ذهاب أولئك ليشتكوا عليه، أرسل إلى أصدقائه في إسلامبول لكي يحضر إلى إسلامبول سرًّا ويدبّر أمره. فترامى على حضرة سليمان ابن العظم محافظ طرابلس يومئذ، ودفع له مبلغًا، فأرسله مع جماعة من قبله متنكّرًا كأحد عسكره. فمضى على هذه الحال، ولم يُعرَف في الطريق ممّن كانوا آتين ليقبضوا عليه. وإذ وصل إلى إسلامبول اختفى. وأخذ بطرك إسلامبول وبطرك القدس وغيرهم

يسعون له بأن يصلحوه مع الحلبيّين، فلم يمكن، بل سجّلوا عليه ٤٥ كيسًا من الدراهم. ثمّ بوقوعه وإبانته العجز قسَّطوها عليه، كلّ عام ثلاثة أكياس تُؤخذ من نوريّة الأبرشيّة".

إخراج حلب من سلطة سلفستروس وإخضاعها للبطريرك القسطنطينيّ

ونجحت مساعي الوفد الحلبيّ في القسطنطينيّة، "فخرجت مدينة حلب من حوزة سلفستروس بواسطة فائيسيوس بطرك إسلامبول. وأراد بطرك إسلامبول بهذه الفرصة أن تكون حلب له. فاستمرّت حلب بغير مطران ولا بطرك مدّة. ثمّ أقنع فائيسيوس ابن بيطار (وكيل الحلبيّين) بأن يرسل لهم مطرانًا على حسب خاطرهم، وهو غريغوريوس مطران إيراكليه... الذي كان يشاء أن يسلك على خاطر أولاد حلب طمعًا بالإقامة فيها".

ويقول الشمّاس نعمة بن الخوري توما[١٤٠] أنّه "في ١٦ حزيران سنة ١٧٢٧ قدِم إلى حلب من قِبل بطريرك القسطنطينيّة المطران غريغوريوس. ولم يتظاهر بشيء ضدّ الإيمان الكاثوليكيّ. ولم يذكر اسم البطريرك في القدّاس. فأذن لنا المرسلون الموقرون، وحضرة المطران جرمانوس (فرحات) مطران الموارنة بمشاركته. وصار علينا إلى البطريرك القسطنطينيّ المذكور مبلغ مقطوع سنويّ ندفعه له أجرة سكوت. فتكلّفنا عشرة آلاف غرش. واستمرّينا على هذا الحال نحو سنتين. وإذ لاح منه بعض تلاميح الانشقاق أقنعناه بالرشوة وغيرها أن يمكث في القلاّية، ونحن نتصرّف في الكنيسة من غير ذكر اسمه ولا اسم بطرك استنبول. فاستقام هكذا ثمانية أشهر. ثمّ حرّر في حقّنا إلى الباشا. فأرسل الباشا وقبض على ثمانية عشر نفر من كهنة وعوام، ووضعهم في حبس ضيّق جدًّا، مغلولين بالقيود والزناجير على بعضهم، يعذّبونهم ليلاً نهارًا من قبل الخدّام أولاد الروم الذين كانوا عند الباشا، والبعض منهم ماتوا بالعذاب".

ويتابع مؤرّخ الرهبانيّة الشويريّة فيقول أنّ البطريرك القسطنطينيّ فائيسيوس زوّد نائبه المطران غريغوريوس بصورة إيمان أرثوذكسيّ "طلب منه إلزام توقيعها من قبل كهنة حلب وأعيانها... فلمّا طلب توقيعها، قامت الرعيّة عليه وعلى ابن البيطار (الذي كان رافقه إلى حلب). ثمّ اشتكوا إلى والي حلب أحمد باشا العارفيّ الذي كان عزل سلفستروس. فأرسل ومنعه عن

---

[140]- راجع هذا النصّ في وثائق الأب فردينان توتل، المجلّد الأوّل، صفحة ٥٧- ٥٨. وكذلك في تاريخ الطائفة للخوري قسطنطين الباشا، الجزء الثانيّ، صفحة ١٧٩.

متابعة التوقيع. لكنّه عاد فتهدّد الكاثوليك وضايقهم. فلجؤوا إلى المطران جرمانوس فرحات المارونيّ الذي أشار عليهم بأن يوقعوا بهذه العبارة: هذا هو إيمان الكنيسة الشرقيّة"... لكنّ الرهبان الكبّوشيّين واليسوعيّين لم يرتضوا بهذه الحيلة، بينما ارتضى بها المرسلون الفرنسيسكان والكرمليّون[١٤١]. وأرسل مجمع انتشار الإيمان المقدّس في رومة فوبّخ المطران جرمانوس فرحات، وألزمه بأن يتراجع عن موقفه، ففعل بكلّ تواضع[١٤٢].

"إذ ذاك تنادى الكاثوليك واتّحدوا، وألّفوا أخويّة لنصرة الإيمان: رؤساء ومتقدّمين ورؤساء عشرات، منهم عشرة أنفار رؤوس على الجميع[١٤٣]. وجاء قرار مجمع انتشار الإيمان (في تشرين الأوّل سنة ١٧٢٩) يمنع الاشتراك مع المشاقين مطلقًا في الأقداس. فتعصّبت الأخويّة على عزل المطران (غريغوريوس). فأخرج فرمانًا كان أتاه من إسلامبول بنفي بعض الكهنة والعوام لأنّهم إفرنج مفسدون. وسلّم هذا الفرمان بيد مصطفى باشا والي حلب، فقبض على البعض وحبسهم ثمانية أيام، ثمّ أخرجهم بغرامة ثمانية أكياس".

"أمّا سلفستروس، فبعد سفره إلى إسلامبول، توجّه إلى بلاد الفلاخ والبغضان، مدّعيًا أنّه مضطهد مطرود عن كرسيّه، مجاهد في سبيل إيمان الروم. فجمع مالاً وعاد به إلى إسلامبول خفية، وصرف منه بكثرة ليظفر بمناصرة الدولة العثمانيّة، واسترداد حلب إلى طاعته، ونفي عدد من زعماء الحركة الكاثوليكيّة في حلب أو اعتقالهم. فنجح في مسعاه. لكنّه حدث إذ ذاك تغيير في الدولة، وعزل السلطان أحمد، وخلفه السلطان محمود، وقتل الوزير. فأمر السلطان الجديد بفتح السجون وإطلاق المعتقلين. وقد تمّ ذلك سنة ١٧٣٠. فاستفاد من هذا العفو جميع المساجين من أبناء الروم الكاثوليك، فأطلق سراحهم". "فلمّا بلغ ذلك أهل حلب، تقوّوا وتشجّعوا، وابتعدوا عن شركة المطران الأرثوذكسيّ غريغوريوس. فمكث في القلاّية ثمانية أشهر دون أن يدخل الكنيسة لخشيته من سطوة الحلبيّين الكاثوليك".

ثمّ إذ لم يطق أولاد الروم أن يمكث غريغوريوس في القلاّية وأن تبقى الكنيسة تحت تصرّف الكاثوليك، أرسلوا فطلبوه إلى القسطنطينيّة، فخرج من حلب في ١٣ نيسان ١٧٣٠، فيكون قد استمرّ فيها نحو سنتين وثمانية أشهر.

---

[141] MANSI, t. 46, col. 67

[142] MANSI, t. 46, col. 227.

[143]- هذه الأخويّة، التي لعبت دورًا كبيرًا في الدفاع عن الإيمان الكاثوليكيّ، أسّسها في حلب حول سنة ١٧٢٦ الخوري بولس عبد المسيح.

محاولة لإيجاد حلّ وسط: اقتراح تعيين مكسيموس حكيم مطرانًا على حلب

"وفي تلك الأيام كان في القسطنطينيّة شكرالله بيطار وجبرائيل قبرصيّ ومنصور الطبيب. وكان هذا مقبولاً عند الدولة لأجل صناعة الطب. والطائفة أوصت شكرالله بيطار بأن يبذل جهده لإطلاق المطران جراسيموس من المنفى فلم ينجح. ففي خريف سنة ١٧٣٠ تداول الثلاثة في إيجاد حلّ لمشكلة أهل حلب مع مطرانهم غريغوريوس. وحاول منصور أن يستلطف سلفستروس لإطلاق سراح جراسيموس، فسفّهه، وتخاصما. وتدارسوا ثلاثتهم الأمر من جديد. فعرض منصور أنّ جراسيموس لن يستطيع الخروج من منفاه، وإذا خرج منه سوف يُعاد إليه. ولكن إن أراد أهل حلب أن يكون أخوه مكسيموس (حكيم) مطرانًا عليهم، فهو يسعى له ويخرج له خطًّا شريفًا ويفرز حلب من الأبرشيّة البطريركيّة. ولمّا بلع الخبر أهل حلب أعجبهم، لكي يخلصوا من أولاد الروم، ثمّ لكفاءة مكسيموس بذاته، فهو كاثوليكيّ وراهب ورع، ثمّ لقسوة أخيه منصور. لكنّهم اشترطوا أن يكون ذلك برضى جراسيموس. وكتبوا إلى مكسيموس، فورد الساعي إلى الزوق، ثمّ توجّه إلى دير مار الياس حيث التقى بالأب العامّ مكسيموس (حكيم). فقرأ هذا الأخير الرسائل الواردة من حلب، واصطحب معه الأب نقولاوس الصائغ وذهب إلى الزوق عند الشمّاس عبدالله زاخر. ورضي مكسيموس على أربعة شروط: ١) استنقاذ جراسيموس من منفاه. ٢) أن يكون ذلك برضاه. ٣) إفراز حلب بخطّ شريف. ٤) أن تكون رسامته من البطريرك كيرلّس طاناس. وهذا كلّه تمّ في أوائل صوم الميلاد سنة ١٧٣٠".

"وفي هذه الأثناء، وقبل أن يصلهم جواب الأب مكسيموس حكيم، ورد عليهم من القسطنطينيّة جبرائيل قبرصيّ يحثّهم على الاستفادة من فكرة المعلّم منصور. فذهبوا إلى حاكم الشريعة، وأخرجوا أوّلاً عرضًا من الحكّام في حسن حال المطران جراسيموس المنفيّ واستماحة إطلاقه. ثانيًا شكوى الرعيّة من سلفسترس وأولاد الروم وأنّهم أولاد عرب، وأنّ بلدهم منذ أربعين سنة ونيّف مفروزة مع البطريرك أثناسيوس. وإذا عاد سلفسترس علينا نهرب من المدينة. فنطلب فرز حلب، وتكون قائمة بذاتها كما كانت على عهد البطريرك أثناسيوس، ولا يكون لبطرك الشام ولا لغيره تعلّق بها وأن يكون لنا مطران من أبناء بلدتنا، وهو مكسيموس ابن بولس الراهب الحلبيّ".

عودة المطران جراسيموس من المنفى

"هذان العرضان أرسلهما الحلبيّون إلى شكرالله بيطار ومنصور الطبيب. ونجح منصور الطبيب في تقديم العرض الأوّل، واستحصل على فرمان بإطلاق سراح جراسيموس من المنفى، أيّ من جبل آثوس. وجاء مع رسول الدولة إلى إسلامبول، ودخل مختفيًا واستتر في بيت آلجيّ (أيّ سفير) فرنسا. وقد صرف على فكه ١٢٠٠ غرشًا. وأفهموه أنّه لن يستطيع العودة إلى حلب وأنّه من الأوفق له أنّه يترك المجال لمكسيموس ويلجأ إلى أحد أديار الرهبانيّة في لبنان، فلم يوافق ولم يعارض، بل قال أنّه من الصعب عليهم أن يخرجوا الحلبيّين تمامًا من طاعة أبناء الروم... وقصد المضي إلى رومة. ولكنّه بذلك خلق مشكلة، إذ أنّه لم يعد يتنازل عن كرسيّه، وهذا شرط من شروط مكسيموس. فضغط عليه الحلبيّون بالمراسلة حتّى يعود إلى حلب. فقبل وعاد إليها مع شكرالله بيطار. الذي كان متغلّبًا بخصوص العرض الثّانيّ أيّ فرز حلب وتعيين مكسيموس عليها. ويبدو أنّه تواطأ مع سلفستروس، على أن يعيده إلى حلب ويصالحه مع الحلبيّين ويكون جراسيموس مطرانًا مقيمًا عليهم. فاستاء الحلبيّون لمّا وصلهم هذا الخبر، وطلبوا منه أن يسلّم العرض الثّانيّ للمعلّم منصور. وكتبوا بذلك أيضًا إلى آلجيّ فرنسا الذي صار شكرالله ترجمانًا عنده. ؟؟؟ الآلجيّ وأمره بأن يقضي مصالح الكاثوليكيّين، فوعد بأن يفعل، ووضع العرض عند منصور وتوجّه إلى حلب بصحبة جراسيموس، دون أن يعطي المعلّم منصور الدراهم للتصرّف بها. فكتب سفير فرنسا بذلك إلى قنصل فرنسا بحلب". "لكنّه في هذه الأثناء (أيّ في أوائل تموز سنة ١٧٣١)، وصلت صورة براءة سلفستروس التي أُدخل بها حلب (من جديد) في التزامه ليد الياس فخر الطرابلسيّ ترجمان الإنكليز. فرشى الكاثوليك القاضي بسبعمئة غرش، ولم يسجّل البراءة وردّها إلى الياس فخر. ثمّ أرسلوا دراهم إلى منصور الطبيب. ثمّ بعد أيام قلائل وصل إلى حلب جراسيموس صحبة شكرالله بيطار، فأنزلوه سرًّا في بيت الرهبان السكلنت[١٤٤]، وسجّلوا فرمان إطلاقه في الشريعة، وأرضوا خاطر القاضي برشوة. حينئذ ظهر المطران واستقبلته الرعيّة بكلّ حفاوة".

"أمّا شكرالله بيطار فإنّه جعل يتكلّم كلامًا يشير إلى الصلح مع سلفستروس: فيبقى جراسيموس في حلب، ويرفع اسم سلفستروس فقط، ويعطيه النوريّة كالمعتاد، ولا يضيّع الحلبيّون أموالهم سدًى، لأنّ أولاد الروم عنيدون. ويبدو

---

[144]- هم الفرنسيسكان حارسو الأراضي المقدّسة. ويرى البعض أنّ هذه الكلمة تحريف للكلمة الإيطاليّة Soccolenti، أيّ الودعاء، التي كان يعرف بها هؤلاء الرهبان.

أنّ المطران جراسيموس شاطره هذا الرأي أيضًا. لكنّ الرعيّة أنكرت عليه ذلك، وطالبت بالخضوع لأوامر المجمع بالامتناع عن مشاركة المشاقين. وكان جراسيموس يماطل في الاستقالة، ويطلب قبل ذلك إفراز مدينة حلب وإقامة مكسيموس، فإذا نجح هذا المشروع استقال، وإلاّ بقي في منصبه".

استقالة المطران جراسيموس عن منصبه

"ثمّ نجح المعلّم منصور واستحصل على براءة بعزل سلفستروس وإفراز مدينة حلب وجعلها قائمة بذاتها، وتنصيب مكسيموس مطرانًا لها، ومنع الروم من مقارشة الحلبيّين. وأرسل المعلّم منصور صورة البراءة إلى حلب فسجّلوها في الشريعة، وأخذوا بموجبها بيراولضيّ من حاكم المدينة الذي كان يومئذ محمد باشا، الوزير السابق. وأقاموا الخوري يوسف الصبّاغ وكيلاً عن مكسيموس".

"ثمّ أخذوا يتلطّفون جراسيموس لكي يتنازل طوعًا. فأخذ يماطل ويتقلّب. ثمّ عرض أن لا يستقيل، بل أن يرتسم مكسيموس على كرسيّ آخر ويكون له مساعدًا في حلب..."

"وما زالت الرعيّة تتلاطفه حتّى نالت صكًّا باستقالته، موقعًا بيده. واشترط عليهم أوّلاً أن يقيم في حلب ولا يلزمه أحد بالخروج منها. ثانيًا يُعطى بيتًا ليسكنه. ثالثًا يُدفع له كلّ سنة ثلاثمائة غرش لينفقها على معيشته. رابعًا إذا صارت عليه مضرّة من قبل المشاقين يدفعونها عنه".

وتتعقّد الأمور، وترد رسالة من البطريرك كيرلّس السادس طاناس إلى المطران جراسيموس بأن لا يتنازل عن كرسيّه. ويبدو أنّ تدخّل البطريرك كان بدافع من رهبان السكلنت في حلب، من باب المشاكسة لليسوعيّين الذين كانت تسترشدهم الطائفة في كلّ أمورها. فكتب الحلبيّون إلى الأب منصور الكبّوشيّ، الذي كان وقتئذ وكيلاً من قبل رومة على البطريرك كيرلّس، وأعرضوا عليه مشكلتهم. وقد تمّ هذا في أواخر كانون الثانيّ سنة ١٧٣٢. وكان الخوري مكسيموس إذ ذاك معتلاً في صيدا. فلمّا قرأ المكاتيب أجاب الحلبيّين بأنّه مستعدّ لخدمة مطرانهم وخدمتهم بكلّ ما يمكنه ما عدا الرسامة. وعلى كلّ حال فإنّه لا يقبل أن يرتسم ما لم يتنازل له جراسيموس قلبيًّا وإراديًّا. فسعى الحلبيّون من جديد لدى جراسيموس. وبهذه المناسبة ألّف البادريّ فرنسيس سافيريوس اليسوعيّ رسالة تتضمّن جواز التفرّغ، ضدّ مَن كانوا

ينكرون ذلك. وكتب الحلبيّون رسائل أخرى إلى البطريرك وزعماء الرهبانيّة، فوصلت إلى الدير ليلة سبت لعازار سنة ١٧٣٢.

فوجد الموفدون الأب مكسيموس في دير مار يوحنّا، ودفعوا إليه تفرّغ جراسيموس وكان هذه المرّة نظاميًّا، وفيه يستدعيه لكي يرتسم بدلاً منه لخير الشعب. ثمّ ذهبوا إلى دير المخلّص قرب صيدا (بعد عيد الفصح) عند البطريرك. فقبل تنازل جراسيموس لكنّه أرسل الخوري يوسف بابيلا، أمين سرّه، معهم لكي يتحقّق من صحّة التنازل، ثمّ عاد المرسلون إلى حلب ومعهم المطران مكسيموس والخوري يوسف بابيلا، فوصلوا إليها يوم الأربعاء نصف الخمسين. "وفي تلك الليلة نفسها (٤ أيار سنة ١٧٣٢) راءت الطائفة أن يرتسم، ولا يظهر إلاّ مطرانًا. أمّا جراسيموس فإنّه طلب إمهال الرسامة إلى بعد ذلك. ولكنّ الشعب، لخوفه من تقلّبات الحكّام الأمميّين، لم يرتضوا بأمر الإمهال. ومن ثمّ تراموا عليه واستعطفوه كثيرًا. وحينئذ تفرّغ تجاه وكيل البطريرك... فأذن حينئذ وكيل البطريرك بالرسامة. فرسمه جراسيموس وأغناتيوس مطران حمص، وصار فرح عظيم في الشعب. ثمّ ركع جراسيموس إلى مكسيموس وناوله العكّاز قائلاً: ها قد سلّمتك هذه الرعيّة التي قد تسلّمتها من المسيح وابتعتها بدمي، وسأطلبها منك أمام المسيح، وأطالبه بكرامتي الواجبة"[١٤٥].

وأنّ المطران مكسيموس سلّمه رسالة بتاريخ ٩ تشرين الثانيّ سنة ١٧٣٢ يؤكّد له فيها التزامه بالشروط الموضوعة عليه، وقد حفظها لنا نعمة بن الخوري توما في كتابه "عجالة الطريق"[١٤٦].

تحسّر وتردّد

منذ أن استقال المطران جراسيموس عن منصبه في ٤ أيار ١٧٣٢، لصالح المطران مكسيموس حكيم، وبالرغم من كلّ ما بذله هذا الأخير للحفاظ على كرامته والإيفاء بالعهود التي قطعها له الحلبيّون، ما فتأ المطران جراسيموس يأسف لاستقالته ويطمح في العودة إلى منصبه. وحجّته في ذلك أنّه لو بقي مطرانًا على حلب لما قامت على الفئة الكاثوليكيّة جميع هذه المضايضات، ولاستطاع أن يرضي البطريرك سلفستروس الأرثوذكسيّ والبطريرك كيرلّس

[145] CF. PAUL BACEL, Les troubles d'Alep et l'élection de Maximos Hakim, dans Echos d'Orient, t. IX (1906), p. 32- 37.

[146]- أوردها بكاملها الأب فردينان توتل في الجزء الأوّل من وثائقه، صفحة ٦٠- ٦١.

طاناس الكاثوليكيّ في الوقت عينه... وقد غذّى هذا الطموح في نفسه بعض المرسلين من رهبان الأرض المقدّسة...

وتفيدنا حوليّات الرهبانيّة الشويريّة بأنّه في أواخر سنة ١٧٣٣ "صار سَجَسٌ بين أهل حلب، لأنّ المطران جراسيموس تقلّب وندم على استقالته، وقال أنّه لمّا رسم مكسيموس لم يكن يعرف ماذا فعل، لأنّه كان مشوّش الفكر، ولأنّه شرب ماء قبل القدّاس الخ... فاجتمع عليه رؤساء رهبانيّات المرسلين الأربعة، وثبّتوا صحّة رسامة مكسيموس".

وفي سنة ١٧٣٥، إذ كان المطران مكسيموس حكيم في أديرة إخوانه الرهبان الشويريّين، بعيدًا عن أبرشيّته الحلبيّة، تواجد في حلب كلّ من المطران جراسيموس والمطران أغناطيوس بن الخوري سليمان أسقف حمص، المُبعد عن أبرشيّته. واتفق في هذه الأثناء أنّ المطران أغناطيوس اشترى دارًا في حلب وعمّرها. فوشى به بعض أخصامه للحاكم أنّه وجد فيها خبايا من المال لم يعلن عنها. فجرّمه الحاكم مبلغًا كبيرًا من الدراهم. فنسب هذه الوشاية إلى كهنة حلب، الذين لم يكونوا يريدون أن يقيم عندهم. فذهب إلى دير المخلّص في لبنان وشكاهم للبطريرك كيرلّس طاناس، كما شكى أيضًا المطران مكسيموس حكيم بالذات. لكنّ البطريرك لم يسمع دعواه، بل ؟؟؟. فعاد إلى دير يوحنّا الصابغ بالخنشارة مستاء من البطريرك ومن المطران مكسيموس. ثمّ عاد إلى حلب وأشاع فيها أنّ رسامة المطران مكسيموس لم تكن صحيحة، مع أنّه اشترك فيها بذاته...

اعتزاله في الديورة ووفاته (١٧٣٥- ١٧٥٤).

في مثل هذا الجوّ، المشحون بالمناقضات، لم تعد الإقامة في حلب تناسب المطران جراسيموس. فقرّر أن يبتعد عنها ويعتزل في ديورة الرهبانيّة التي أسهم في تأسيسها، إذا لم ينجح قصده في التوجّه إلى رومة.

ففي تشرين الثانيّ سنة ١٧٣٥، تقول حوليّات الرهبانيّة الشويريّة "أنّ المطران جراسيموس حضر من حلب إلى دير مار أشعيا، صحبة القسّ إسطفان ابن أخت المنسنيور السمعانيّ، آتيًا من حلب، بناء على أن يمضي برفقته إلى رومة".

وبعد نحو شهرين من إقامته في دير النبيّ أشعيا، أيّ في أواخر كانون الأوّل سنة ١٧٣٥، "ذهب المطران جراسيموس إلى دير الملاك ميخائيل بالزوق". وهناك استقام حتّى وفاته، أيّ مدى ١٩ سنة.

وفي بداية مكوثه في دير الملاك ميخائيل، حدث له اصطدام مع البطريرك كيرلّس طاناس، إذ تقول حوليّات الرهبانيّة الشويريّة: "ولأنّه كان يقدّس من غير إذن صريح من البطريرك فأرسل له منعًا ثمّ صرفه"! وأنّ المؤرّخ يستغرب مثل هذا التصرّف بحقّ أسقف بارّ، بطل الإيمان الكاثوليكيّ، يناله عقاب من بطريركه، وإن قصير المدى، لأنّه تجاسر وقدّس في أحد الديورة بدون إذنه الصريح...

ثمّ يسدل الستار على سيرة هذا الأسقف المسكين. فيقضي السنوات التسع عشرة الأخيرة من حياته (١٧٣٥- ١٧٥٤) في دير الملاك ميخائيل بالزوق.

وتقول حوليّات الرهبانيّة الشويريّة: "في سنة ١٧٥٤، آخر أيلول، ليلة الأحد، إذ كان الرهبان في صلاة الغروب بدير مار ميخائيل، والمطران جراسيموس جالس على كرسيّ داخل الهيكل، وقع حالاً وعدم النفس. وكان كير أثناسيوس [دهّان، متروبوليت بيروت] واقفًا في كرسيّه بالخورص. فحين سمع وقوعه دخل والآباء معه. فأشاروا بأن يحضر الرهبان ماء سخنًا ويوضعوا رجليه فيه لعلّه يفيق. فذهبوا للمطبخ وجاؤوا بالماء السخن. ولعدم وعيهم لم يجسّوا سخونة الماء، بل حالاً أنزلوا رجليه، فانسلقتا من شدّة حرارة الماء. أمّا هو ففاق على حريق رجليه. فحينئذ أحضروا له جرائحيًّا فداواه، واستقام مقدار ثلاثة أشهر، وتنيّح بالربّ... ودُفن في كنيسة القدّيس ميخائيل بالزوق"، يوم ١٧ كانون الأوّل سنة ١٧٥٤.

وكأنّي بهذا الأسقف البارّ، الذي احتمل من العذابات أقساها في سبيل إيمانه، كان بحاجة في آخر أيامه إلى مزيد من العذاب لكي يلاقي ربّه!...

-١١-

مكسيموس حكيم
(٤ أيار ١٧٣٢- ١٣ تموز ١٧٦٠)

نشأته

هو ميخائيل بن بولس بن رزق الله تتنجيّ الملقَّب بالحكيم، لِما اشتُهرَت به أسرتهُ من صناعة الطبّ، ولاسيّما أخوه منصور، الذي كان طبيب السلطان في القسطنطينيّة.

وُلد في حلب حول سنة ١٦٨٩، ودرس فيها الصرف والنحو وعِلم البيان على أساتذة اللغة المشاهير إذ ذاك في حلب، مع رفقائه نقولا الصائغ وعبدالله

زاخر وجبرائيل فرحات ومكرديج الكسيح. وفي نحو العشرين من عمره، أيّ سنة ١٧١٠، جاء دير البلمند، قرب طرابلس، كي يترهّب، بينما كان الخوري جرجس (جراسيموس) سمّان والخوري سليمان كسري ورفاقهما الكاثوليك يتأهّبون لمغادرته، بغية تأسيس دير القدّيس يوحنّا الصابغ في الخنشارة، وهو نواة الرهبانيّة الباسيليّة الحنّاويّة، فأسهم معهم في تأسيسه. وقد دخل الابتداء في دير الصابغ في ٢٥ آذار سنة ١٧١٢، وأبرز النذور الرهبانيّة في ٢٣ نيسان سنة ١٧١٣. ثمّ سامه سلفستروس دهّان مطران بيروت شمّاسًا إنجيليًّا في ١٣ تشرين الثانيّ سنة ١٧١٣. وبعد سنة، أيّ في ١٣ تشرين الثانيّ سنة ١٧١٤، نال السيامة الكهنوتيّة بوضع يد مطران بيروت الجديد ناوفيطوس نعمه الحلبيّ. وما إن سيم كاهنًا حتّى سافر إلى مصر، ومن هناك صعد إلى طور سيناء، وأتى من هناك بصورة الإسكيم الرهبانيّ المقدّس.

وفي غضون سنة ١٧١٦ مضى إلى دير الحميرة، وحضر عيد الفصح فيه، لكي يتعلّم فنّ البصلتيكا (أيّ الترتيل الكنسيّ البيزنطيّ)، وأمضى فيه بضعة أشهر. وسنة ١٧١٧ ذهب إلى مصر من جديد ليستجدي إحسانًا من أجل بناء دير القدّيس يوحنّا الصابغ. ومن مصر توجّه إلى فلسطين لزيارة الأماكن المقدّسة فيها. ثمّ انتقل إلى صيدا عليلاً. وإذا لم ينجع في علاجه الطبّ، عاد إلى دمياط وفقًا لشور الطبيب وأقام في دمياط يتداوى عدّة أشهر. ثمّ عوفي وعاد إلى الدير في شهر أيلول سنة ١٧١٩، بعد غياب دام عامين ونيّفًا.

وفي المجمع العامّ الذي انعقد في دير القدّيس يوحنّا في ٢٩ حزيران سنة ١٧٢٠، انتخب الخوري ميخائيل حكيم مدبّرًا أوّلاً. ونراه سنة ١٧٢١ يكرز بالإيمان الكاثوليكيّ في قرية رأس بعلبك، ثمّ في حمص وقراها، ثمّ في مدينة بعلبك نفسها. وفي ١٠ أيار سنة ١٧٢٣، استلمت الرهبانيّة دير النبيّ أشعيا في برمانا، وتعيّن الخوري ميخائيل رئيسًا عليه، حيث بقي يديره سنتين كاملتين. وفي ٣ أيار سنة ١٧٢٤ انتخب مدبّرًا ثالثًا في الرهبانيّة، وتعيّن رئيسًا لدير ماري يوحنّا الصابغ. ثمّ استقال عن هذه الوظيفة في ٥ تشرين الثانيّ سنة ١٧٢٤، لكي ينصرف إلى الوعظ والإرشاد في حمص وقراها. لكنّه اضطرّ إلى مغادرة المنطقة والعودة إلى دير رأس بعلبك، مع مطرانها كير أغناطيوس الحلبيّ، بسبب ملاحقة الأرثوذكس لهُ. على أنّ لاونديوس مطران بانياس ووكيل البطريرك سلفستروس تتبّعه حتّى في عقر ديره، فأرسل أحد الآغاوات لكي يقبض عليه. لكنّ أهالي البلدة أنقذوه من أيدي رجاله بالقوّة. فأخذ ينتقل من مخبأ إلى مخبأ، حتّى قيض الله له ولإخوته الرهبان أن يعودوا إلى دير مار

يوحنّا الصابغ. ثمّ استطاع أن يذهب من جديد إلى دير رأس بعلبك بفضل الأمير اسماعيل الحرفوش، حاكم بلاد بعلبك، وكان قد عالج له أحد أولاده وشفاه. وقد رشّحه الأمير لمطرانيّة بعلبك، فرفض، وآثر أن يبقى راهبًا بسيطًا.

على أنّه في المجمع العامّ المنعقد في دير النبيّ أشعيا في ٢٦ تشرين الثّانيّ سنة ١٧٢٩، انتخب رئيسًا عامًّا. لكنّ أبناء حلب ما عتّموا أن رشّحوه مطرانًا على مدينتهم، كما ورد تفصيل ذلك في سيرة سلفه المطران جراسيموس سمّان. فاستعفى عن وظيفة الرئاسة العامّة سنة ١٧٣١، محققًا بذلك رغبته المستمرّة في التواضع والانحجاب.

سيامته الأسقفيّة

سيم المطران مكسيموس حكيم أسقفًا على حلب في ٤ أيار سنة ١٧٣٢. وأنّنا نورد هنا ما جاء عن ذلك في "تاريخ إكليروس كنيسة الروم الملكيّة الكاثوليكيّة بمدينة حلب"، المحفوظ في مطرانيّتنا، إذ يقول الكاتب، وهو أمين سرّ المطران مكسيموس المذكور: "في اليوم الثالث من شهر أيار سنة ١٧٣٢ وصل الأب الخوري مكسيموس (حكيم) صحبة الشمّاس جرمانوس المذكور آنفًا إلى مدينة حلب بغتة. وفي اليوم الثّانيّ، أعني اليوم الرابع من أيار، حضر في الكنيسة حضرة المطران كير جراسيموس المذكور، وحضرة المطران أغناتيوس مطران حمص المحترمَيْن. واثناهما قدّسا مشاركين جمهور الكهنة الكاثوليكيّين باحتفال كامل ظاهرًا. ورسماه على كرسيّ مطرانيّة هذه المدينة العامرة، بحضور الشعب الذي ابتهج بذلك جدًّا. وهكذا قلّد الله تعالى بعنايته الخصوصيّة ورحمته السابغة هذا الأب المفضّل رعاية هذه الكنيسة المقدّسة. وحالاً جدّد مواثيق عهود اتحادها بأمّها الكنيسة الرومانيّة الجامعة، وردّ إليها حرّيتها الأصليّة سالمة مصانة، وأعاد إليها جمالها الأوّل كاملاً، بل زاده بهجة وبهاء بما زيّنها به من الأعياد الحافلة والزيّاحات المنتظمة الجليلة الفاخرة"...

الأشهر التسعة الأولى من أسقفيّته بحلب (٤ أيار ١٧٣٢- ٢٠ شباط ١٧٣٣)

إنّ أوّل ما افتتح به مكسيموس حكيم عهد أسقفيّته كان إعادة الوحدة إلى أبناء الطائفة، الذين مزّقتهم الخلافات، وتهديدات الحكّام، ومحاولات البطريرك سلفستروس وممثّليه في حمل الفئة الكاثوليكيّة على توقيع صيغة الإيمان الأرثوذكسيّ، فوقّعها بعضهم خوفًا أو خجلاً. وأنّ مكسيموس فتح قلبهُ للجميع،

فقبل في شركته مَن أقدم من كهنة الأبرشيّة على توقيع الإيمان الأرثوذكسيّ، وعاد فثبّتهم في وظائفهم.

واستلم الكنيسة الكاتدرائيّة، وأخذ يرتّب فيها الحفلات الدينيّة وقبول الأسرار. وفتح سجلاً للمعموديّات، دعاه "سفر الأحياء"، أمر بأن يذكر فيه شهرًا بعد شهر اسم المعتمِد ولقبه، واسم والديه وعرّابه وعرّابته، واسم الكاهن المعمِّد. وهذا السجلّ الثمين محفوظ إلى الآن في أرشيف مطرانيّة الروم الكاثوليك بحلب. ولا تخفى قيمته التاريخيّة على أحد، إذ أنّه يحتوي أسماء جميع مَن اعتمدوا من أبناء الروم بحلب بين سنة ١٧٣٤ وسنة ١٧٥٧، علمًا بأنّ الطائفة كانت إذ ذاك موحّدة تحت سلطة المطران مكسيموس حكيم، فهو إذًا أثمن مرجع لكلّ بحث إحصائيّ عن طائفة الروم بحلب في أواسط القرن الثامن عشر، وعن أصل العائلات الحلبيّة من طائفة الروم. كما أنّ ذكر اسم العرّاب والعرّابة، وهما بالطبع أكبر سنًّا بكثير من المعتمد، ينقل الباحث إلى أواخر القرن السابع عشر. والسجلّ المذكور يتضمّن أيضًا "تاريخ إكليروس حلب"، بدأه المطران مكسيموس حكيم، وتابعه خلفاؤه حتّى المطران كيرلّس جحا. فهو بذلك مصدر وثيق لمعرفة أسماء الكهنة الذين تعاقبوا في خدمة أبرشيّة الروم بحلب حتّى أواخر القرن التاسع عشر.

في أوائل سنة ١٧٣٣ اجتاح حلب وباءُ الطاعون. فمات منه كثيرون من المسيحيّين. فاجتمع إكليروس الطائفة الملكيّة حول مطرانهم، وقاموا مع الشعب بزيّاح القربان الأقدس بعبادة كلّية. ونذروا أن يجدّدوا هذا التطواف كلّ عام. فارتفع الطاعون عن البلد. "ومن ذلك الوقت صرنا نعيّد عيد الجسد الإلهيّ".

في هذه الأثناء، لم يحتمل البطريرك سلفستروس ما آلت إليه أحواله، من إبعاده عن سوريا، وإقامته ؟؟؟ في القسطنطينيّة، وانتزاع حلب من سلطته وضمّها إلى البطريركيّة القسطنطينيّة، وتنصيب المطران مكسيموس حكيم أسقفًا كاثوليكيًّا عليها، فتوجَّه إلى بلاد الفلاخ، ولجأ فيها إلى صديقه القديم الأمير سكلتاتغلو (Scaltatoglou)، وهو ابن أوّل تراجمة السلطان مفروكرداتو (Mavrocordato)، وحصل بواسطته من السلطان محمود الأوّل على فرمان يبطل مفعول كلّ ما اتّخذ سابقًا من إجراءات بحقّه، ويعيد له سلطته على حلب، ويخوّله الحقّ في تعيين أسقف عليها تابع له، وفي استيفاء أموال النوريّة التي لم تصله من أبناء بطريركيّته منذ أن اضطرّ إلى مغادرة سوريا قبل سبع سنوات والعيش خارجًا عنها في شبه منفى[١٤٧].

[147] Cfr. C. CHARON. Echos d'Orient, t. V (1901- 1902), p. 20- 21.

وإذ تزوّد سلفستروس بالفرمانات اللازمة، توجّه في أوائل سنة ١٧٣٣ إلى طرابلس، ثمّ غادرها إلى حمص، واضطهد مَن وجد فيها من كاثوليك. ومن هناك انتقل إلى دمشق، فاضطهد فيها الكاثوليك، وخسّرهم ما ينيف عن خمسين كيسًا، وخسر هو أيضًا ما يقاربها، لأنّ الحكّام العثمانيّين كانوا يهلّلون لهذه الانقسامات بين المسيحيّين، إذ أنّها كانت تتيح لهم فرصة ذهبيّة لاستبزاز أموال الطرفين...

أمّا مكسيموس فقد اضطرّ لمغادرة حلب في ٢٠ شباط سنة ١٧٣٣، لا تحت تأثير ضغوط البطريرك سلفستروس، بل بسبب حادث عائليّ خاصّ حالَ دون بقائه في أبرشيّته. ذاك أنّه بعد تنصيبه مطرانًا على حلب بتسعة أشهر، انتقل أخوه المعلّم منصور الطبيب إلى الدين الإسلاميّ في القسطنطينيّة، وأخرج أمرًا إلى النقيب وإلى محافظ حلب بأن يتسلّما أولاده الثلاثة، لكي يتربّوا على الإسلام. ثمّ سار في البحر إلى الحجاز، قاصدًا الحجّ، ومنها عاد إلى دمشق فحلب...

وبالطبع أراد والي حلب أن يغرّم مكسيموس بهذه القضيّة أيضًا. فدفعت الطائفة عنه ثلاثة آلاف غرش. ورأى مكسيموس أنّ الإقامة في حلب، بعد ما جرى لأخيه، أصبح صعبًا عليه، وأنّ أخصامه كانوا مزمعين ولا شكّ أن يستغلّوا هذا الحادث ضدّه، فآثر أن يغادر حلب، وتوجّه إلى الأديرة في لبنان يوم العشرين من شباط سنة ١٧٣٣، وبقي فيها متغيّبًا عن حلب نحو ثلاث سنوات.

التغيّب الأوّل عن حلب مدى ثلاث سنوات (٢٠ شباط ١٧٣٣- ١٦ نيسان ١٧٣٦)

جاء في "تاريخ إكليروس حلب" بقلم أمين سرّ المطران مكسيموس، الصفحة ٥، ما يلي: "اعلم أنّه في هذا الزمن (أيّ في أوائل شباط سنة ١٧٣٣) ورد على المطران كير مكسيموس المذكور خبر محزن هائل، فاضطرّ لأجله أن يتحوّل عن كرسيّه مدّة ما، حكمةً وسياسة. ولذلك سافر إلى جبل كسروان، متردّدًا في تلك الديورة العامرة ما بين إخوته الرهبان الأتقياء القانونيّين. وفي هذه الغيبة ألّف وأرسل إلى الإكليروس والشعب رسائله الشهيرة، التي كان يعزّيهم بها، ويشدّدهم على احتمال الاضطهادات الشاقة التي أوردها عليهم الرؤساء المشاقون. وفيها ألّف كتابهُ المعروف بمنهاج التوبة. ومدّة غيبته هذه

كانت نيفًا عن ثلاث سنين. لأنّ ذهابهُ كان في اليوم العشرين من شهر شباط سنة ١٧٣٣، وإيابه كان في اليوم السادس عشر من شهر نيسان سنة ١٧٣٦".

في لبنان توجّه المطران مكسيموس بادئ بدء إلى دير الملاك ميخائيل بالزوق، حيث وصل "في الجمعة الخامسة من الصوم، قبل عيد الأربعين شهيدًا، سنة ١٧٣٣، ومن هناك انتقل إلى دير النبيّ أشعيا"[١٤٨]، وإلى غيره من الأديار الرهبانيّة.

وتقول حوليّات الرهبانيّة الشويريّة أنّه "في هذه الفسحة لم يكن يكفّ عن تأليف الرسائل المبرهنة حقائق الإيمان الكاثوليكيّ... ويواصل إرسالها بعضًا إلى الكهنة، وبعضًا إلى الأخويّة، وبعضًا إلى جملة العامّة. ومنها كتاب التحديدات. وألّف أيضًا في هذه الفترة كتاب منهاج التوبة... وفي هذه الفترة أيضًا ابتدأ بنظم خدمة عيد الجسد الإلهيّ". وهذه الخدمة، التي اشترك فيها أيضًا الخوري نقولا الصائغ، تعتبر مثلاً رائعًا في طريقة إدخال أعياد جديدة على الطقس البيزنطيّ، مع مراعاة أحكامه وأصوله كاملة[١٤٩].

من بين هذه الرسائل الراعويّة ما كتبه المطران مكسيموس بتاريخ ١٤ آب سنة ١٧٣٣ من قرية المحيدثة وقد نشرت مجلّة المشرق[١٥٠] هذه الرسالة التي جاء فيها: "قد بلغني ما أظهرتموه من الشجاعة المقدّسة والغيرة المسيحيّة اللائقة بأبناء الكنيسة الحقيقيّين، الذين يحمون عرض أمّتهم، أعني حريّة الإيمان الكاثوليكيّ المستقيم. وهذا من الواجب أن يفضَّل على خيرات العالم بأسرها، حتّى وعلى هذه الحياة أيضًا. وقد سرّني هذا الاضطهاد الجديد الذي نقدّم به لله مجدًا وإكرامًا، وللكنيسة شرفًا وبهاء، وللقدّيسين سرورًا وابتهاجًا، وللمؤمنين تمكينًا، وللشياطين خزيًا وعذابًا، وللأعداء توبيخًا وعارًا... سلّموا على كلّ أخ بالمسيح من الكهنة والعوام شركاء إيماننا المستقيم. يسلّم عليكم أخونا الخوري نيقولاوس (صائغ) الرئيس، مع ولدنا الشمّاس عبدالله (زاخر)".

ومنه أيضًا، بتاريخ سنة ١٧٣٥، رسالة إلى الرعيّة الحلبيّة حول أخويّة ثوب الكرمل اللاحقة بالكاتدرائيّة[١٥١].

148- عن حوليّات الرهبانيّة الشويريّة.

149- جاء في الصفحة ٢٦١ من المخطوط رقم ١٥١ من مخطوطات مكتبة دير الشير: "وقد كان الفراغ من تأليف هذه الخدمة المباركة بدير ماري الياس المحيدثة في جبل الدروز سنة ١٧٣٣ بيد... مكسيموس مطران حلب". يلي ذلك نبذة من المطران مكسيموس عن أصل عيد الجسد. وأنّ المخطوط رقم ١٧٠ من المكتبة المذكورة يعلّمنا في الصفحة ٤٣٥ أنّ الفراغ من تأليف الخدمة كان بوجه التدقيق في آب سنة ١٧٣٣.

150- المجلّد ١٦، صفحة ٣٤٨.

151 G. GRAF, op. cit; t. III, p. 189.

في هذه الأثناء، حاول البطريرك سلفستروس أن يضطهد الفئة الكاثوليكيّة من طائفة الروم بحلب، في غياب راعيهم. على أنّه كان يخشى نفوذهم وعنادهم وتصميمهم على الدفاع عن أنفسهم. فلم يشأ أن يذهب إليهم. بل آثر أن يسجّل فرماناته بواسطة موفديه. وتخبرنا حوليّات الرهبانيّة الشويريّة أنّه "في ١٩ تموز سنة ١٧٣٣ (أيّ بعد خمسة أشهر من تغيّب مكسيموس عن مدينته) وصل فرمان سلفستروس إلى حلب مع وكيل له راهب يُقال له حبيب الأعور البایاسيّ، وصحبة قاصد من السلطنة. وكانت الطائفة مخبّأة من أجل الطاعون. فأراد تسجيل الفرمان. فتصدّى لمنعه وكيل الطائفة جبرائيل بن قبيرصيّ. فنجح في منع تسجيله. ثمّ كتبوا عرضًا (وقّعه نحو ستمئة شخص من أبناء الطائفة) لتجديد براءة مكسيموس، وأرسلوه على يد قاضي حلب" إلى القسطنطينيّة.

وقد نجح الحلبيّون في مسعاهم. وتقول حوليّات الرهبانيّة الشويريّة أنّهم "أرسلوا يطلبون المطران مكسيموس ليعود إلى كرسيّه بحلب". لكنّه كان يتردّد، وكأنّ نفسه قد تعقّدت ممّا جرى لأسرته. "فألزمه السيّد البطريرك أن يذهب. وأراد أن يصطحب معه الأب نقولاوس الصائغ (لكي يتشجّع بحضوره)، لكنّه لم يستطع أن يذهب معه. فأخّر مكسيموس ذهابه أيضًا..."

"وفي ٢٦ آذار سنة ١٧٣٦ حضر المطران مكسيموس، وكان لم يزل بعدُ متردّدًا بين الديورة في لبنان، المجمع الذي عقده البطريرك كيرلّس (طاناس) في دير المخلّص (قرب صيدا). والغاية من هذا المجمع كانت السعي لتوحيد الرهبان (الشويريّين والمخلصين) وشركتهم[١٥٢]. وبعد ختام هذا المجمع توجّه المطران مكسيموس حالاً إلى دير مار يوحنّا، ومنه مضى إلى حلب، ودخلها ليلة أحد الشعانين" (١٦ نيسان سنة ١٧٣٦)، مذعنًا لأوامر البطريرك وتشجيعه.

ولا بدّ من التذكير هنا بأنّ المطران جراسيموس سمّان المستقيل، وكان قد بقي في حلب، بينما غاب عنها المطران مكسيموس راعيها، عاودته التحسّرات والهواجس، إذ شاهد محاولات البطريرك سلفستروس للضغط على أصحاب المعتقد الكاثوليكيّ بحلب، فظنّ أنّه لو بقي مطرانًا على حلب ولم يقدّم استقالته لصالح المطران مكسيموس، لكانت الطائفة تجنّبت غائلة الاضطهاد. ولعلّ بعضهم دسّ إليه أنّ استقالته لم تأتِ بالفائدة المرتجاة، ما دام الأسقف الذي استقال لصالحه قد هرب من حلب، ولعلّه ما عاد يفكّر بالعودة إليها... فأخذ

---
152 MANSI, t. 46, col. 266- 268.

جراسيموس يشيع أنّ استقالته لم تكن بملء خاطره، وأنّ رسامة مكسيموس لم تكن صحيحة الخ... ممّا جعل الحلبيّين يشمئزّون منه، وممّا حمل رؤساء المرسلين على توقيع بيان يدحضون فيه مزاعمه، ويثبتون صحّة رسامة مكسيموس للأسقفيّة. إذ ذاك شعر جراسيموس بأنّه لم يعد له محلّ في حلب، فغادرها في تشرين الثانيّ سنة ١٧٣٥ متوجّهًا إلى الأديار، حيث قضى البقيّة الباقية من عمره. فلمّا عاد المطران مكسيموس إلى حلب في ١٦ نيسان سنة ١٧٣٦، وجد الجوّ صافيًا، والطائفة قويّة وموحّدة وملتفّة حول شخصه المحبوب.

استئناف العمل في حلب مدى عشر سنوات (١٦ نيسان ١٧٣٦- ١٥ شباط ١٧٤٦).

في بداية هذه الفترة، أيّ في سنة ١٧٣٧، شهدت مدينة حلب معجزة خارقة أمر المطران مكسيموس بنقش تفاصيلها على أيقونة محفوظة اليوم في دير القدّيس يوحنّا الصابغ بالشوير، تمثّل السيّد المسيح مع القدّيس يوحنّا المعمدان. وبينهما وضع المطران مكسيموس "شعاعًا" من الفضّة يتضمّن "حملاً"، أيّ جزءًا مربّعًا من القربان المقدّس، ثبت لدى المطران وسواه أنّه نزف دمًا، فكتب المطران حولهُ ما يلي: "المجد لله دائمًا! إنّ طفلة من رعيّتنا اعتلّت ؟؟؟. فوضعت أمّها عليها هذا الحمل تبرّكًا. ولمّا توفيت رفعته عنها، فوجدته انعوج وانكسر. فقوّمت كسره. وحينئذ خرج من الكسر دمٌ حيٌّ قليل. فلمّا جاء كاهنان ليجنّزا الطفلة، فأرتهما إيّاه أمّها. فإذا علامة الدم ظاهرة به، كما تراه الآن عيانًا. فخبراني عنه. فاستحضرته ورأيته كما قيل عنه حقًّا. فعملت له هذه الأيقونة لحفظه ومجد إلاهنا. الحقير مكسيموس مطران حلب سنة ١٧٣٧ للتجسّد"[١٥٣].

وفي حزيران سنة ١٧٣٦، أيّ بعد أربعة أشهر من عودة المطران مكسيموس إلى حلب، نرى الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ يعطيه سلطة منح "الغفران الكامل" في قدّاسه الحبريّ[١٥٤]، ممّا يدلّ على ترسّخ العادات اللاتينيّة في الأبرشيّة الحلبيّة منذ أوائل عهد الاتحاد بروما.

وفي هذه الأثناء أيضًا عرف المطران مكسيموس تجاوزات المرسلين اللاتين وتدخّلهم في أمور رعيّته، فقاومهم، ولاسيّما في موضوع سماع

153- راجع كتاب "أيقونات ملكيّة"، بيروت ١٩٦٩، صفحة ١٦٨، الأيقونة رقم ٢٨.

154- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١٣، عدد ١٤.

الاعترافات دون إذن منه، كما يستدلّ على ذلك من مقال معاكس كتبه أحد المرسلين في أوائل كانون الثانيّ سنة ١٧٣٨[١٥٥].

وفي هذه الفترة الطويلة من الزمن، أسهم المطران مكسيموس حكيم أيضًا في حلّ مشكلة العابدات الحلبيّات وبناء ديرهنّ في كسروان، المعروف بدير البشارة في قرية زوق مكايل. فمنذ أوائل سنة ١٧٣٠ عقدت عشر عابدات حلبيّات النيّة، برئاسة ماريا القارئ، على تأسيس دير لهنّ في زوق مكايل، بين دير عينطورة الذي كان يقطنه الآباء اليسوعيّون، ودير الملاك ميخائيل الذي كان يقطنه الرهبان الباسيليّون الحناويّون. وعلى هذا الأساس شيّد لهنّ الرهبان الشويريّون دير البشارة، الذي انتهى بناؤه سنة ١٧٣٧، ودخلته المرشّحات للرهبانيّة يوم عيد الصليب (١٤ أيلول) من السنة المذكورة. لكنّ خلافًا جسيمًا نشأ بين الرهبان الحناويّين والمرسلين اليسوعيّين، إذ كان كلّ فريق يسعى لاستمالة الراهبات إلى طرفه، وإخضاعهنّ لسلطته. ثمّ تداخل المطران مكسيموس حكيم، ووكيل الراهبات في حلب القسّ جبرائيل أرقش، وبدأت المشكلة تنحلّ رويدًا رويدًا، إلى أن تدخّلت رومة بالأمر فأصدر البابا بندكتوس الرابع عشر في ٢٤ كانون الأوّل سنة ١٧٤٣ براءَته الشهيرة التي مطلعها Demandatam، وقرّر، فيها أنّ دير البشارة تابع لطائفة الروم الملكيّين الكاثوليك، وأنّ إدارة الدير والراهبات من اختصاص الرهبان الحناويّين دون سواهم، وأنّ تلك الرهبانيّة الناشئة خاضعة لأسقف بيروت، وبواسطته للسيّد البطريرك. أمّا بخصوص القانون الرهبانيّ فقد أمر البابا بحفظ قانون القدّيس باسيليوس الكبير، مع السماح للراهبات بإضافة فرائض أخرى خاصّة بهنّ، شرطَ أن لا تتعارض والعادات الشرقيّة.

وخلال هذه الفترة أيضًا، استشهد بحلب في ١٧ شباط ١٧٤٢ إبراهيم الدلال. فكتب المطران مكسيموس حكيم سيرته[١٥٦]، يتّضح منها أنّ هذا الشاب الروميّ الكاثوليكيّ استولى عليه الوهم يومًا، فتصوّر أنّ والديه دسّا له السمّ في الطعام قصد التخلّص منه. فاضطرب لهذا الظنّ، وذهب إلى القاضي التركيّ وجحد إيمانه في ٣ شباط ١٧٤٢. ولمّا عاد إلى بيته في حيّ الآلمجيّ، لم يقبله والده في البيت، فتاهَ في المدينة... ثمّ أفاق من هوسه، وشرع يصيح: أنا مسيحيّ. فأخذ الحاضرون يضربونه بالعصيّ، وقادوه إلى المحكمة أمام القاضي، فسأله عن سبب ارتداده، فأجاب: "أنا مسيحيّ أرثوذكسيّ معمّد، مسيحيّ ابن

155- محفوظات مطرانيّتنا بحلب، سجلّ ٢٢، عدد ١٦.

156- راجعها في كتاب "شهداء حلب" للأبوين أكاكيوس كوسا ودميانوس شبارخ، حريصا ١٩٣٣، صفحة ٤٠- ٤٢.

مسيحيّ، اسم والدي ديمتري واسم والدتي هيلانة، ولا أريد أن أموت إلاّ على دين المسيح. حينئذ أرسله القاضي إلى السجن، حيث مكث نهارين وليلة، بينما كان المسيحيّون يصلّون من أجله... ثمّ أنّه بعد أن ذاق أنواع الضرب والتعذيب، وبعد أن أُودع السجن من جديد، حُكم عليه بالإعدام. "فاستاقوه إلى منقع العذاب تحت القلعة، وكان هو مسرعًا أمام الجلاّد، فرحًا مسرورًا يردّد اسم يسوع بفمه، ويقول مع المرتّل: الربّ نوري وخلاصي فمّمن أخاف؟ يا يسوع في يديك أستودع روحي. ولمّا وصل إلى المكان المعيّن جثا على الأرض من تلقاء ذاته، وحتّى رأسه على صدره. فقطع السيّاف رأسه نحو الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، وذلك في اليوم السابع من شهر شباط سنة ١٧٤٢، الواقع في أحد الفرّيسيّ والعشّار". وبقي جسمه مطروحًا على الأرض إحدى وثلاثين ساعة. ثمّ دُفن في قبر جديد في مقبرة المسيحيّين. "وأنّ كثيرين أخذوا من دم الشهيد، ومن التراب المغموس بدمه والحصى الملوّثة أيضًا ومن أثوابه. وهذه الذخائر قد شفت أمراضًا عديدة". وقد رثاه الخوري نقولا الصائغ بقصيدة عامرة مطلعها:

أيُنعى قتيلٌ قد قضى مستشهدا أيُبكى شهيدٌ صار للحقّ مشهدا

وفي نهاية هذه الفترة نرى المطران مكسيموس يطلب من رومة السماح له ولكهنته بإقامة عدّة قداديس أيام الآحاد والأعياد، خلافًا للتقليد البيزنطيّ، وذلك بسبب ضيق الكنيسة التي لم تكن تتّسع لحشودهم المتزايدة. فأجابه البابا بندكتوس الرابع عشر بتاريخ ١٠ آذار سنة ١٧٤٦ آذنًا بذلك، شرط أن تتعدّد القداديس على المذابح الجانبيّة، لا على المذبح الرئيسيّ[١٥٧]. على أنّ جواب البابا لم يبلغ المطران مكسيموس إلاّ بعد مغادرته حلب في ١٥ شباط ١٧٤٦، في تغيّبه الثاني كما سنرى.

التغيّب الثانيّ عن حلب مدى تسع سنوات (١٥ شباط ١٧٤٦- ١٥ تشرين الأوّل ١٧٥٤)

جاء في "تاريخ إكليروس حلب" (صفحة ٨): "اعلم أنّه في هذا الزمان (أيّ في بداية سنة ١٧٤٦)، نهض سلفستروس البطريرك (الأنطاكيّ) وأدخل مدينة حلب في التزامه، ورسم مطرانًا دخيلاً يُسمّى جناديوس، وأرسله إلى حلب. فالتزم المطران كير مكسيموس مطران كنيسة هذه المدينة الحقيقيّ أن يتحوّل عن كرسيّه وكنيسته مدّة ما عن وجه الدّخيل، فطنةً وتدبيرًا. فلذلك سافر أيضًا

[157] MANSI, t. 46, col. 433- 438.

إلى جبل كسروان، وتردّد في تلك الديورة العامرة، ما بين إخوته الرهبان الأتقياء الباسيليّين. وكان ذلك في اليوم الخامس عشر من شهر شباط سنة ١٧٤٦. واستقام في هذه الغيبة نحو ثمان سنين وثمانية أشهر. وفي هذه المدّة المذكورة صابر الحلبيّون أتعابًا شاقة واضطهادات متنوّعة، ومنافي وحبوسًا وكلفًا زايدة من قبل الرؤساء الدّخيلين، إلى أن أنعم الله عليهم ببراءة سلطانيّة شريفة استردّوا بها إفراز كرسيّهم المقدّس من تسلّط الرؤساء الغرباء. وأرسلوا استدعوا رئيسهم الحقيقيّ الذي هو المطران كير مكسيموس المذكور سابقًا أن يحضر إلى كرسيّه وخدمة رعيّته التي كانت متضايقة جدًّا لأجل طولة غيبته. فحضر، وكان حضوره في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الأوّل سنة ١٧٥٤".

هذا التغيّب الثاني عن حلب نتج إذًا عن نجاح مساعي البطريرك سلفسترس في إعادة تلك المدينة إلى طاعته. فعيّن عليها المطران جناديوس، الذي وصل إلى حلب في رابع العنصرة سنة ١٧٤٦. لكنّ مكسيموس حكيم كان قد سبقه بالخروج من المدينة واللجوء إلى أديرة الرهبانيّة في لبنان. وانقطع الكاثوليك عن الكنيسة، واستولى عليها المطران جناديوس وأنصاره من الفئة الأرثوذكسيّة. ففي شهر نيسان من السنة المذكورة ١٧٤٦، يُذكر في سجلّ عمادات حلب أنّه "أتى جناديوس مطرانًا من القسطنطينيّة، ولم نعُد ندخل الكنيسة ولا نكتب أسامي" (في سجلّ العمادات).

مع ذلك لم يستسلم الكاثوليك بسهولة للأمر الواقع، بل حاولوا مرّات عديدة وضع اليد من جديد على الكنيسة، فكانوا تارة ينجحون وتارة يخفقون. واضطرّ جناديوس إلى الهرب من حلب بحيلة.

وفي سنة ١٧٤٩ يذكر نعمة بن الخوري توما[١٥٨] أنّ البطريرك سلفسترس أرسل إلى حلب وكالة إلى ابن ديب، ومعها فرمان بنفي ثلاثة أنفار من كهنة الروم الكاثوليك وثلاثة من العوام إلى قلعة أدنا. وتسلّم رجال الوكالة الكنيسة، وأدخلوا فيها الكهنة غير الكاثوليك. ووقعت بينهم وبين الكاثوليك مشاغبة آلَ أمرها كالمعتاد إلى دفع غرائم جسيمة إلى الباشا.

ثمّ إنّ الكاثوليك نجحوا في استخراج براءة سلطانيّة بتجديد إفراز مطرانيّة حلب على المطران مكسيموس. ووصلت البراءة السلطانيّة إلى حلب في ٩ تشرين الأوّل سنة ١٧٤٩، وتسجّلت في السرايا وفي المحكمة. وبموجبها عاد

158- كما أورد ذلك الأب توتل في الجزء الأوّل من وثائقه، صفحة ٤١.

الكاثوليك فتسلّموا الكنيسة. ثمّ أطلق سراح المنفيّين إلى قلعة أدنا، فعادوا إلى حلب.

وقد بلغتنا تفاصيل هذه الغرائم الفادحة التي تحمّلها الكاثوليك بهذه المناسبة في رسالة مؤرّخة في ٧ أيار سنة ١٧٥٠، حرّرها وكلاء طائفة الروم بحلب إلى قداسة البابا. وقد حفظها لنا نعمة بن الخوري توما[١٥٩]، وفيها يقول وكلاء الطائفة: "منذ أربع سنوات كانت الكنيسة بيدنا. وفي سنة ١٧٥٠ عاد سلفستروس فأخذ الكنيسة من أيدينا، وردّ المطرانيّة إلى التزامه، وأثار الاضطهاد علينا. لكنّنا قدرنا عليه، وأخذنا الكنيسة منه من مقدار سبعة أشهر بعد أن وزّعنا أموالاً كثيرة. إلاّ أنّه رجع وأخذها من يدنا. ثمّ إنّ الذين كان لهم قوّة أن يُعطوا المال ليساعدونا على مقاومة المغتصب صاروا تراجمين لكي يخلصوا من الخسائر والجرائم، وقد فاتهم أنّ الترجمة لا تحمي ذمّتهم من الواجب عليهم في حماية الإيمان الكاثوليكيّ المقدّس... وأنّ جملة ما وزنّاه من ابتداء سلفستروس إلى تاريخه ٣٢٢٧٥٠ غرشًا". وأنّنا ندرك اليوم بصعوبة جسامة هذه الغرائم. فإذا عدّلنا الغرش بعشر ليرات سورية فقط من عملة اليوم، علمًا بأنّ الصانع الماهر لم يكن يتقاضى إذ ذاك أكثر من غرش واحد في اليوم، استنتجنا أنّ الكاثوليك في حلب صرفوا للدفاع عن إيمانهم، منذ قيام سلفستروس حتّى شهر أيار سنة ١٧٥٠، أكثر من ثلاثة ملايين ليرة سورية. هذا مع عدا الغرامات الشخصيّة والسجون والضرب والنفي وما شاكل.

ويتغيّب جناديوس عن حلب. ويحلّ محلّه صفرونيوس مطران عكا. فيصل إلى حلب في ٢٧/١٦ تشرين الثانيّ سنة ١٧٥٠. وتبدأ المشاجرات بينه وبين الكاثوليك. وقد ساعدنا الحظّ فوضعنا يدنا على وصف حيّ لتلك المآسي دوّنه يومًا بعد يوم أحد أبناء الطائفة المارونيّة بحلب، في المخطوطة رقم ١٣٧٨ من المكتبة المارونيّة بحلب، نورده هنا على علاّته، أمانة للحقيقة التاريخيّة، معتذرين مرّة أخرى عن بعض التعابير الواردة فيه والتي لا تتّفق مع روح المحبّة المسيحيّة. قال الكاتب المارونيّ:

"في شهر ذي الحجة سنة ١١٦١هـ (١٧٤٩ م) أخذ الروم (الكاثوليك) الكنيسة من يد (الأرثوذكس)، بعدما ضربوهم علقًا، ووضعوهم بالجنازير، وحطّوا جرمًا... وفي ٢٢ تشرين الأوّل سنة ١٧٤٩ تسلّمت طائفة الروم الكاثوليك الكنيسة من (الأرثوذكس) بموجب فرامين، وكان نهار أربعاء... وفي

---

[159]- راجع بعض المقاطع منها في وثائق الأب توتل، الجزء الأوّل، صفحة ٦٩- ٧٠.

اليوم ١٧ من تموز سنة ١٧٥٠ صار عند الروم بندوق. ومن أجله هرب الكهنة، وبطلوا الصلاة اثني عشر يومًا. لكنّ القندلفت كان يجيء يفتح، ويستقيم ساعة من الزمن، ويسكّر ويروح. وبعد الاثني عشر يومًا قطعوا الجرم ثمانية أكياس على الروم والأرمن والسريان، ثمّ صلّوا...".

"وفي اليوم ٢٧ تشرين الثانيّ[١٦٠] سنة ١٧٥٠ جاء للروم صفرونيوس مطران (أرثوذكسيّ) وتسلّم الكنيسة منهم... في اليوم ٢٣ من نيسان سنة ١٧٥١ انحبس كهنة الروم من قبل صفرونيوس... وفي اليوم ١٦ من أيار سنة ١٧٥١ أخذوا مطران الموارنة للسرايا، وانحبس يومين ثمّ طلع. وخسرت الطائفة ثمانية أكياس، وكان ذلك من قبل الروم... وفي اليوم ١٩ من أيار سنة ١٧٥١ طلع كهنة الروم من الجنـزير بعد أن استقاموا فيه ٢٧ يومًا، وتعذّبوا كثيرًا، وخسرت الطائفة ٣٥ كيسًا، وصلّوا بالتبعيّة... في اليوم ٥ من تشرين الأوّل سنة ١٧٥١ قام الروم الكاثوليكيّة على صفرونيوس، واشتكوا عليه، وأثبتوا عنده ثلاثين كيسًا وحبسوه، وأيضًا على أربعة قسوس ضربوهم عصيًا مع حنّا الشمّاع، وحبسوا القسوس مع المطران وتسلّم الكاثوليك الكنيسة... وفي اليوم ٧ من تشرين الأوّل سنة ١٧٥١ رمى الروم الأرثوذكس مسودّة على مطران الموارنة. فأتى للمحكمة. فأمر بحبسه في باب قنسرين. فاستمرّ ثلاثة أيام وأربع ليالي، ومن بعده خرج من غير ضرر بالكلية ولا كلفة دراهم، وارتفع الإيمان الكاثوليكيّ... وفي اليوم ١٢ من تشرين الثانيّ سنة ١٧٥١ أمسك المتسلّم سعدالدين ثلاثة كهنة من الروم الكاثوليكيّة، والوكيل ابن عيروط ضربه علقة، لأنّهم ما أخبروه في تزربق سطح الكنيسة، وكان ذلك بإذن القاضي، وأخذ من الطائفة ألف غرش وأخرجهم... وفي اليوم ١٣ كانون الأوّل سنة ١٧٥١ طلع قسوس الأرثوذكس من باب قنسرين، وأخذوا عليهم حججًا بأنّه في أيّ يوم يستعملون الكهنوت يكون عند كلّ واحد منهم خمسة أكياس للمجامع، وخمسة أكياس لمطبخ الباشا الذي يكون بحلب".

يقول الشمّاس نعمة بن الخوري توما[١٦١]: في ١٢ نيسان سنة ١٧٥٢، أرسل صفرونيوس أحد أعوانه. فوشى إلى والي حلب بجميع الكهنة الكاثوليك: "فأرسل حضرة الباشا فقبض على الكهنة والشمامسة الإنجيليّة عمومًا، وحبسهم في سجن ضنك جدًّا، وبدّع في تعاذيبهم بأنواع مختلفة، لكثرة وشايات

---

[160]- جميع تواريخ الكاتب المارونيّ مسجّلة وفقًا للحساب الغربيّ. فالسابع والعشرون من تشرين الثانيّ الغربيّ هو السادس عشر من تشرين الثانيّ الشرقيّ.

[161]- ورد هذا النصّ في تاريخ الطائفة للخوري قسطنطين الباشا، الجزء الثانيّ، صفحة ١٨٥- ١٨٦.

توابع صفرونيوس، حتّى أنّ خدّام حضرة الباشا المباشرين تعذيبهم كانوا يدخّنون عليهم في ذلك الحبس الضيّق بس التبن المحروق من غير التهاب، وبدخان الخرق المفرّكة بالأدهان والزيوت وغيرها من الروائح الكريهة. وطورًا كانوا يشنقونهم بحيث لا يموتون، لأنّهم كانوا يضمّون الحبال في الجنازير المغلّلة بأعناقهم، ويجمعونهم على بعضهم، ولا يزالون يسحبون الحبال إلى سقف الحبس بجذب عنيف حتّى ترتفع أقدامهم من على الأرض وتكاد الجنازير تخنقهم. وأمثال هذه التعاذيب المبرّحة بكرة ومساء، عدا التهديد بسفك الدم قتلاً. وفي كلّ هذه الأحوال كان يحلف صفرونيوس ويحرم ذاته أنّ المواقع المذكورة بغير سعيه ولا إذنه. وما زال الكهنة في هذا العذاب على هذا المنوال وهذه الحالة، حتّى أنّه بعد رجوات عدّة قطعوا الجرم بخمسة عشر ألف غرش، ونالوا الإذن من حضرة الباشا أنّ صفرونيوس وكهنته يصلّون في هياكل تخصّهم بمفردهم، وكهنتنا تصلّي في هياكل أخرى بمفردهم، من غير مشاركة بعضهم بعضًا. واستمرّ الحال هكذا إلى أن استغلق الحاكم الجرم المرقوم، فطرد كهنتنا من الكنيسة، وضبطها صفرونيوس برمّتها كما كان".

لكنّ الكاثوليك اغتنموا فرصة تغيّب الباشا عن حلب، واشتكوا إلى قاضي القضاة في المحكمة الشرعيّة، فأرسل وحبس صفرونيوس في القلاّية، وحبس قسوسه في الحبس العامّ في باب قنسرين، ودفع الكاثوليك في هذه القضيّة سبعة آلاف وخمسمئة غرش، لكنّهم عادوا فتسلّموا الكنيسة في ٢٤ أيلول سنة ١٧٥٢.

وخاف صفرونيوس بطش الكاثوليك، فخرج من حلب في ١٨ كانون الثّاني سنة ١٧٥٣. وفي حزيران ١٧٥٣ عاد الكاثوليك فاستولوا على الكنيسة...

في هذه العاصفة الهوجاء، عرف الروم الكاثوليك بحلب أن يوحّدوا كلمتهم وينظّموا صفوفهم ويبذلوا من أموالهم بسخاء في سبيل الدفاع عن كيانهم ومعتقدهم. وقد حفظ لنا نعمة بن الخوري توما شبه نظام داخليّ وضعه بتاريخ ١٥ حزيران سنة ١٧٥٣ كهنتهم ووجهاؤهم "لحفظ نظامهم ونظام الرعيّة"[١٦٢] هذه أهمّ نقاطه:

١) أن يكون الأب الخوري يوسف (صباغ) الوكيل المكرَّم من الآن فصاعدًا ملازمًا الكنيسة المقدّسة صباحًا ومساء لحفظ طقوسها وضبط تراتيبها.

[162]- نشرة الأب توتل في وثائقه، الجزء الأوّل، صفحة ٧١- ٧٢.

٢) أن يمكث كلّ يوم في القلاّية باكرًا مقدار ساعتين لتفقد أحوال الطائفة. وليكن له من آبائنا الكهنة المحترمين أربعة أنفار لكي يساعدوه.
٣) هؤلاء يتّخذون لهم أربعة أنفار من العوام يعتمدون عليهم ويتشاورون معهم.
٤) يكون هؤلاء جميعًا مع باقي الكهنة متّحدين برأي واحد.
٥) يجب تأديب المذنبين بغير تباطؤ.
٦) يجب المحافظة على المساواة بين أبناء الطائفة، ولاسيّما في تحمّل الغرامات.
٧) لا يجوز التساهل مع مَن يؤدّبهم الأب الوكيل ومعاونوه.
٨) يجب صيانة التضامن بين الجميع لكي تكون الطائفة كلّها يدًا واحدة.

ودامت الحال على هذا المنوال، تدور مرّة لصالح الكاثوليك ومرّات لصالح الأرثوذكس، إلى أن نجح الحلبيّون الكاثوليك في أواسط سنة ١٧٥٤ في استخراج براءة سلطانيّة جديدة وصلت إلى حلب في ٨ تموز ١٧٥٤، استردّوا بها إفراز مدينتهم عن طاعة البطريرك سلفستروس، والاعتراف بمكسيموس مطرانًا شرعيًّا وحيدًا على حلب، وكان وصوله إليها في ٢٦/١٥ تشرين الأوّل سنة ١٧٥٤. ويقول الكاتب المارونيّ: "وكان نهار سبت، وقت الظهر"، بعد غياب دام ثمان سنين وثمانية أشهر.

وفي أثناء إقامته بلبنان، حضر مكسيموس في ٢٤ نيسان سنة ١٧٥١ المجمع الذي انعقد في دير المخلّص[١٦٣] لتعميم أوامر الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ بخصوص الحفاظ على الطقوس الشرقيّة.

وتقول حوليّات الرهبانيّة الشويريّة أنّه في سنة ١٧٥٣ اشترت الرهبانيّة في حلب دارًا في حيّ الصليبة من الوجيه جرجس عائدة بثمن ٢٠٢٣ غرشًا، وذلك لإقامة أبنائها الرهبان.

استئناف العمل في حلب مدى سنتين (من ١٥ تشرين الأوّل ١٧٥٤ إلى ٨ تشرين الثانيّ ١٧٥٦).

في ٢٩ أيار سنة ١٧٥٦، قال بعضهم أنّ مكسيموس حضر مجمعًا طائفيًّا آخر انعقد في دير المخلّص قرب صيدا. وقال آخرون- ويبدو لنا أنّ رأيهم هو الأصحّ- أنّ المطران مكسيموس لم يحضر هذا المجمع، بل أرسل وكيلاً عنه

163- راجع مجلة المشرق، السنة التاسعة ١٩٠٦، صفحة ١١٧- ١٢٠ وأيضًا
MANSI, t. 46, col. 450

الخوري أغناطيوس جربوع، الرئيس العامّ للرهبان الحناويّين[١٦٤]. على أنّ اسمه وردَ، مع أسماء بقيّة المصفّ الأسقفيّ، في المنشور الرعائيّ الذي أصدره البطريرك كيرلّس طاناس لكي يعمّم به على الشعب قرارات هذا المجمع[١٦٥].

التغيّب الثالث عن حلب خمسة شهور في قلعة أدنا (من ٨ تشرين الثاني ١٧٥٦ إلى ١١ نيسان ١٧٥٧)

جاء في "تاريخ إكليروس حلب" (صفحة ١٠ وما يليها) "اعلم أنّه في سنة ١٧٥٦، في ولاية حضرة راغب باشا على مدينة حلب، وجد عنده حكيم قسطنطينيّ الأصل روميّ، وكان مقبولاً عنده. فهذا اتّفق مع الياس فخر الطرابلسيّ، وتآمر على أذيّة المطران مكسيموس بغضًا للإيمان الكاثوليكيّ. وهكذا جرى الأمر، وهو أنّ محصّل البلد اتّفق مع الباشا في عمل عرض للدولة، شكاية على التراجمين والقوشيات والحمايات. فوجد لهما حينئذ فرصة، أعني الحكيم الروميّ والياس فخر، واتّفقا مع المحصّل بأن يُدخل المطران بينهم، بأنّه متذهّب بمذهب الإفرنج، ومفسد للرعايا، وأنّ الرعيّة لا تريده، بل تطلب صفرونيوس أن يكون مطرانًا عليهم وختم هذا العرض كلّ من الباشا والقاضي، وأرسلوه للدولة العليا. وهكذا عمل الياس فخر والحكيم (الروميّ) عرضًا على لسان الرعيّة من غير عِلم أحد من الرعيّة بالكلية، وأرسلاه إلى بطريرك إسلامبول بهذا المطلوب، أعني بعزل مكسيموس وتنصيب صفرونيوس. وهناك أيّ في الدولة العليا، بعرض بطريرك إسلامبول، عزلوا مكسيموس[١٦٦] وأخرجوا فرمانًا بنفيه إلى قلعة أدنا. فجاء الخبر للسيّد المطران كير مكسيموس قبل أيام وشاع بين الناس. وكثيرون ألحّوا عليه بأن يختفي، فلم يقبل قائلاً: "أنّي إن اختفيتُ تقع الكهنة في بلاء عظيم، كما جرى ذلك مرّات، وأمّا إذا كنتُ واقفًا فإنّ البلاء يلحق بي أنا وحدي. وأنا مستعدّ لاحتمال ذلك". وهكذا صار، لأنّه بعد أيام جاء من طرف الدولة ؟؟؟ حضرة الوزير الأعظم بهذه الخدمة، وأخذ السيّد المطران كير مكسيموس إلى قلعة أدنا، وهو مكان

---

[164]MANSI, t. 46, col. 456.

[165]MANSI, t. 46, col. 460

[166]- هذه البراءة الجديدة لصالح صفرونيوس وصلت إلى حلب "في ٢٩ تشرين الأوّل سنة ١٧٥٦. وكان ورودها في ولاية حضرة راغب محمد باشا الوزير. ولأنّ صفرونيوس لم يحضر مع البراءة، فأقام له حضرة الباشا وكيلاً عاميًّا مارونيًّا، كان وكيل أربع طوائف النصارى، وهو حنّا بن العسيلي"... (راجع تقرير الشمّاس نعمة بن الخوري توما في تاريخ الطائفة للخوري قسطنطين الباشا، الجزء الثانيّ، صفحة ١٨٧).

منفاه حسب فرمان السلطان. وكان ذلك في اليوم الثامن من شهر تشرين الثّانيّ (سنة ١٧٥٦). ولا تسأل عن الحزن الذي حصلت عليه الرعيّة بهذا اليوم، بل كلّ زمان غيبته عنها. ولكن حين خروجه من حلب خرج بصحبته ألوف من رجال ونساء وصبيان ببكاء ونحيب يفتّت الأكباد، حتّى تعجّب الخارجون عنّا. وقال وهو راكب الطريق هذه الآية الرسوليّة وهي: قد صرنا مشهدًا للملائكة والناس. وهكذا اختطفته أيدي أعدائه من كرسيّه إلى المنفى بمثل هذه الاحتيالات والشكايات الباطلة. إلاّ أنّ الله- جلّت عنايته- سمح بذلك لأمور يعرفها- تعالت حكمته- واستقام في المنفى إلى اليوم الثلاثين من شهر آذار، الذي فيه كان عيد الفصح المجيد، وفيه صار خروجه من منفاه بطريقة كأنّها عجيبة مذهلة، دبّرها الله بقوّته الفائقة لكي يعزّي شعبه برؤياه سالمًا. وكان دخوله مدينة حلب في اليوم الحادي عشر من شهر نيسان سنة ١٧٥٧. وسكن في بيته حسب نصّ الفرمان السلطانيّ. وكان مرافقًا له وخادمًا القسّ ديمتريوس قيومجيّ الدّمشقيّ".

وقد بلغتنا أصداء هذه الحوادث في رسالة كتبها في حلب بتاريخ ٧ أيار سنة ١٧٥٧ الشمّاس زخريا الروميّ الكاثوليكيّ، من أعضاء أخويّة البشارة، إلى الأب ذيونيسيوس حجّار في رومة، جاء فيها: "إنّ الياس فخر، عميل قنصل الإنكليز، عمل عرضًا إلى الباشا عن لسان طائفة الروم، بأنّهم لا يرضون بالمطران مكسيموس حكيم أسقفًا عليهم، بل قصدهم أن يكون صفرونيوس مطرانًا عليهم". وبهذه المكيدة عُزل مكسيموس ونُفي إلى أدنا. واستمرّ في المنفى مقدار خمسة أشهر. إلاّ أنّ حزب صفرونيوس تخلّى عنه. فالتزم الباشا أن يوكل عوضًا عنه الوكيل المقام على الأربع طوائف المسيحيّين، وهو مارونيّ اسمه الخواجا حنّا عسيلي، وأخوه كان حكيم باشي عند السلطان. وبفضل هذه الوكالة استمرّت كنيسة الروم في يد الكاثوليكيّين. وقد قاصص الله ابن فخر عن فعله، لأنّه سمح بأن يصدر منه ذنب يضادّ الإنكليز، فنفوه إلى طرابلس[١٦٧].

ولا نستغربنّ من نفوذ الروم الكاثوليك وقوّتهم بحلب في هذه المرحلة. فإنّ الطبيب اليونانيّ هيبسيلانتس (Hypsilantis) يقول أنّه في زمانه، أيّ في سنة ١٧٥٦، كان من الروم الكاثوليك بحلب لا أقلّ من خمسة آلاف عائلة[١٦٨]. فإذا

---

[167]- عن نعمة بن الخوري توما، أورده الأب توتل في الجزء الأوّل من وثائقه، صفحة ٧٤. راجع أيضًا المجلّة البطريركيّة (المارونيّة)، سنة ١٩٣٢، صفحة ١٥ و١٦.

[168] Cité par C.KOROLEVSKIJ, Hist. des Patr. Melkites, t. III, p. 301- 302.

حسبنا لكلّ عائلة خمسة أفراد، وهذا أقلّ ما يؤخذ به في تلك الآونة، يكون عدد الروم الكاثوليك بحلب، في عهد المطران مكسيموس حكيم، خمسة وعشرين ألف شخص.

متابعة العمل في حلب مدى ستّة أشهر (من ١١ نيسان ١٧٥٧ حتّى ١ تشرين الثانيّ منه).

يقول الشمّاس نعمة بن الخوري توما[١٦٩]: "في هذه المدّة أرسلنا طلبنا للمطران مكسيموس من الدولة العلية فرمان إطلاق (سراحه من المنفى). فتكلّف إطلاقه ١٥٠٠ غرشًا. وجاء إلى حلب في ١١ نيسان سنة ١٧٥٧. وكنّا مع فرمان الإطلاق أرسلنا طلبنا براءةً بتجديد إفراز المطرانيّة على سيّدنا كير مكسيموس، وصرنا في انتظارها. لكن من الطولة والخوف الذي اعترى سيّدنا مكسيموس المذكور فرّ إلى الجبل من أوّل تشرين الثانيّ سنة ١٧٥٧. وفي ذلك اليوم جاءت براءة الإفراز الجديد التي كنّا في انتظارها... فأرسلنا دعونا سيّدنا المطران المومى إليه ليعاود من خان تومان. فلخوفه لم يرجع والحمد لله على ذلك، لأنّه بعد كم يوم ورد حضرة ؟؟؟ (أيّ آغا الانكشاريّة) عبدالله باشا (الشتجيّ) مارًّا بطريق حلب. وطلب الطائفة ليسألهم بأيّ سند هم ضابطون الكنيسة. فتكلّفنا لجنابه وللمحكمة ٤٠٠٠ غرش".

وتقول حوليّات الرهبانيّة الشويريّة أنّه "في سنة ١٧٥٧ صار غلاء شديد في أكثر المواضع ما صار مثله قط. وقد تزايد في حلب. وكان عدد المتوفين بهذا الغلاء ٨٧٠٠٠، فمن الإسلام ٧٠٠٠٠، ومن النصارى ١٢٠٠٠، ومن اليهود ٥٠٠٠، عدا الذين هربوا من الجوع. وكان حينئذ الباشا الموجود بها الجكجيّ الظالم".

التغيّب الرابع والنهائيّ عن حلب (في ١ تشرين الثانيّ ١٧٥٧)

جاء في تاريخ إكليروس حلب (صفحة ١١): "واستقام سيّدنا كير مكسيموس ماكثًا في بيته، كلّ يوم يذهب للكنيسة يقدّس بماري يوسف ويرجع إلى بيته، إلى حين تغيّر المنصب عن أسعد باشا (العظم) مدّة خمسة أشهر، فجاء المنصب إلى عبدالله باشا الشتجيّ، وأسعد باشا أعطوه منصب ؟؟؟. فحالما تغيّر المنصب عن أسعد باشا تغيّرت أحوال البلدة جميعها، وتسلّطت الشلطاق

---

[169]- في المرجع المذكور، صفحة ١٨٨.

والفقراء على المطران مكسيموس، فلم يعُد يرتضي المكوث بحلب، مع أنّه كان مستبشرًا بخروج براءة سلطانيّة ورجوع كرسيّه إليه. ولكنّه خاف جدًّا من عبدالله الشتجيّ. فمن ثمّ اختفى بضعة أيام إلى أن توجّه وسافر من حلب يوم السبت أوّل شهر تشرين الثاني سنة ١٧٥٧، برفقة الأبوين القسّ يواكيم والقسّ لفرنديوس راهبي ماري يوحنّا (الشوير)، متوجّهين إلى الديورة المقدّسة. وكان وصولهم إلى دير ماري يوحنّا. وأيضًا يوم السبت الذي فيه خرج المطران مكسيموس من حلب، فيه دخل عبدالله الشتجيّ لحلب بعد أن مكث مدّة شهر ونيّف بالميدان. ثمّ ركب على جبل الأكراد وفتك بهم. وبهذا اليوم نفسه وصلت البراءة السلطانيّة برجوع كرسيّ كنيسة حلب للمطران مكسيموس من السلطان عثمان بواسطة مصطفى أفنديّ ابن عسيلي فذهبتُ أنا الفقير القسّ ديمتريوس (قيّومجيّ)[١٧٠] محرّر هذه الأحرف، بشور الخواجا جرجس عايده باش ترجمان طائفة الإنكليز، إلى خان طومان لكي أبشّر المطران مكسيموس بحضور البراءة السلطانيّة، وأن يرجع ولا يسافر إلى الديورة، فوصلتُ لعنده بعد غروب الشمس بساعة ونصف، برفقة مراد تابع الخواجا جرجس، وبشّرته بحضور البراءة، وبلّغته طلبة الخواجا جرجس بأن يرجع إلى كرسيّه، فلم يطابق على الرجوع كلّيًّا، بل استمرّ متوجّهًا إلى الديورة، كأنّ الله ألهمه وأرشده إلى ذلك، لأنّه بعد بضعة أيام تحرّك الشتجيّ وحبس الخوري يوسف صباغ وكيل المطران مكسيموس، مدّعيًا بأنّه ضبط الكنيسة بغير أمر السلطان، وحبسه وأخذ منه جرمًا وأطلقه، وما أظهروا أمر البراءة. وبعد مدّة وجيزة توفي السلطان عثمان، وجلس السلطان مصطفى. ومصطفى أفنديّ ابن عسيلي نُفي إلى ليميا. وهنا حصلت الفرصة للأضداد. وتقدّم حكيم الوزير، وعزل مكسيموس من كرسيّه، ورسموا مطرانًا جديدًا على حلب اسمه فيليمون. واستمرّت الكنيسة بيدنا إلى خمسة من شهر أيار سنة ١٧٥٨، الذي فيه وصل الدّخيل فيليمون مطرانًا على حلب، وتسلّم الكنيسة، وحصلت الطائفة في غمّ جسيم وتقهقر عظيم".

ويقول الشمّاس نعمة بن الخوري توما[١٧١]: "وفي آخر تموز سنة ١٧٥٨ أرسل المطران فيليمون فختم بيوت الكهنة إلى اليوم الثامن عشر من شهر آب.

---

[170]- راهب دمشقيّ من الرهبانيّة الشويريّة، خدم بإخلاص المطران مكسيموس حكيم معلّمه. ومن بعد وفاته، أرسله البطريرك ثاوضوسيوس دهّان إلى رومة لطلب التثبيت، سنة ١٧٦١. وعاد منها سنة ١٧٦٤. ثمّ رسمه مطرانًا على جبيل في غضون شهر تشرين الثانيّ سنة ١٧٦٨ (وفقًا لتاريخ الرهبانيّة الشويريّة، وتوفي فيها سنة ١٧٧٩.

[171]- في المرجع المذكور، صفحة ٨٨- ١٨٩.

ولم يزل الكهنة مختبئين إلى الآن، وهو متصرّف في الكنيسة والقلاّية والرعيّة على هواه. ورسم كهنة مشاقين على خاطره... ثمّ إنّ المطران فيليمون المرقوم أعلاه استقام بمدينة حلب اثني عشرة سنة، وتوجّه إلى القسطنطينيّة، وارتسم بطريركًا على أنطاكية. وفي عودته إلى حلب رسم المطران ناوفيطوس عليها يوم أحد الشعانين في اليوم الأوّل من شهر نيسان سنة ١٧٦٧".

هذا وأنّ لقوى الإنسان حدودًا يصعب عليه تجاوزها مهما كان بطلاً كالمطران مكسيموس. جاهد وصابر، وبذل واحتمل، فلم تعُد فيه قدرة على الجهاد، فرمى سلاحه، وعاد إلى رهبانيّته المحبوبة، التي كان يودّ ألاّ يغادرها بتاتًا. فلجأ من جديد إلى الديورة في لبنان، ولم يعُد إلى حلب. لكنّ العناية الإلهيّة عادت فزجّته، لا في مشاكل حلب، بل في خضمّ مشاكل البطريركيّة الأنطاكيّة والطائفة الملكيّة بوجه عامّ، ممّا يتوجّب علينا سردُه الآن.

في خضمّ مشاكل البطريركيّة والطائفة الملكيّة

كان البطريرك كيرلّس طاناس قد بلغ سنّ الشيخوخة، فاشرأبّت الأعناق وحامت الأطماع حول مَن يخلفه على الكرسيّ البطريركيّ. أمّا هو فقد قرّ رأيهُ على اختيار ابن أخته القسّ أغناطيوس جوهر الراهب المخلّصيّ لهذا المنصب والتمهيد لانتخابه. وهنا تبدأ سلسلة المصاعب والاختلافات، نوردها استنادًا إلى الوثائق الأصليّة التي نشرها العلاّمة مانسيّ في مجموعة المجامع، وقد كرّس المجلّد السادس والأربعين منها لمجامع الطائفة الملكيّة، فنقول:

في ١٤ نيسان سنة ١٧٥٩ وقّع البطريرك كيرلّس طاناس، مع أساقفة الطائفة، ومن بينهم المطران مكسيموس حكيم، وثيقة تتضمّن كيف يجب التصرّف في حال فروغ الكرسيّ البطريركيّ[١٧٢].

بالرغم من ذلك، فقد وضع المصفّ الأسقفيّ أمام الأمر الواقع، إذ وقّع في ٣٠/١٩ تموز من السنة عينها ١٧٥٩ وثيقة يتنازل بموجبها عن البطريركيّة لصالح ابن أخته الراهب المخلّصيّ القسّ أغناطيوس جوهر، البالغ من العمر إذ ذاك ٢٧ سنة[١٧٣]. فوافق أنصار البطريرك على هذا الإجراء، وينتخبون في اليوم عينه أغناطيوس جوهر بطريركًا أنطاكيًّا باسم أثناسيوس، ويمنحونه الرسامة الأسقفيّة. ويكتبون بذلك إلى المجمع المقدّس بتاريخ ١/ ١٢ أيلول

172- مانسيّ ٤٦/ ٤٦٧- ٤٦٨.

173- مانسيّ ٤٦/ ٤٦٩- ٤٧٠.

١٧٥٩[١٧٤]. ويكتب كيرلّس طاناس نفسه إلى المجمع المقدّس بتاريخ ٣٠ أيلول/ ١١ تشرين الأوّل ١٧٥٩[١٧٥].

لكنّ أربعة من مطارين الطائفة عارضوا هذه الإجراءات، وفي طليعتهم المطران مكسيموس حكيم، الذي وجّه إلى البطريرك كيرلّس طاناس رسالة شديدة اللهجة، ويرفعون أمرهم إلى الكرسيّ الرسوليّ، ويبعثون إلى رومة وكيلاً عنهم هم الأب سمعان صباغ.

ويتوفّى البطريرك كيرلّس طاناس في ٣٠ كانون الأوّل/ ١٠ كانون الثّانيّ سنة ١٧٦٠. وفي ٢٠ تموز ١٧٦٠، يعمد البابا إكليمنضوس الثالث عشر إلى إبطال انتخاب البطريرك أثناسيوس جوهر. وإذ يعتبر أنّه من بعد هذه الاستغاثة وهذا التدخّل، أصبح أمر انتخاب البطريرك الأنطاكيّ من اختصاص الكرسيّ الرسوليّ، فيعيّن المطران مكسيموس حكيم بطريركًا. ويكلّف الأب دومنيك لانزا بتنفيذ هذا القرار. فالموفد الرسوليّ هذا يتوجّه من الموصل إلى مقاطعة كسروان. لكنّه يجد مكسيموس حكيم مريضًا وخائر القوى من جرّاء كلّ ما احتمله في أبرشيّته من اضطهادات. فيحجم عن إذاعة قرار الكرسيّ الرسوليّ. بل يحصل من مكسيموس على وثيقة تنازل عن البطريركيّة، يحفظها سرًّا لديه، بغية حمل الفئتين المتعارضتين على التفاهم. ثمّ يتوجّه إلى عند أثناسيوس جوهر، الذي يتمسّك بالبطريركيّة، ولا يريد أن يفاتحه أحد بالتنازل عنها. إذ ذاك يتجرّأ الموفد الرسوليّ فيحرم أثناسيوس جوهر، ويعلن أمام الملأ قرار رومة بتعيين مكسيموس حكيم بطريركًا.

ارتقاؤه البطريركيّة ووفاته

وأنّ مكسيموس حكيم، إذ لاقى بعض المعارضة من قبل أتباع أثناسيوس جوهر، عرض من جديد أن يتنازل عن البطريركيّة حبًّا بالسلام وتسهيلاً للأمور. لكنّ الموفد البابويّ رفض هذا العرض، وذهب إليه في دير القدّيس يوحنّا الصابغ، ونصّبهُ بطريركًا في ١٣ تموز سنة ١٧٦١، في كنيسة الدير.

ويوم الأحد ٢٢ تموز ١٧٦١، قام البطريرك الجديد فرسم الخوري أغناطيوس جربوع، الرئيس العامّ للرهبانيّة الشويريّة، مطرانًا على حلب بدلاً منه، وذلك في كنيسة الدير نفسها، واتّخذ له المطران أثناسيوس دهّان، متروبوليت بيروت، معاونًا بطريركيًّا. ومكث في الدير عينه. ثمّ ما لبث أن

174- مانسيّ ٤٦/ ٤٧١- ٤٧٢.

175- مانسيّ ٤٦/ ٤٧١- ٤٨٠.

توفي فيه في ٢٨ تشرين الثانيّ من السنة عينها ١٧٦١ ودُفن في كنيسة الدير القديمة، حيث دُفن قبله الشمّاس عبدالله زاخر. وكان له من العمر اثنتان وسبعون سنة. وقد تسلّم البطريركيّة خمسة أشهر فقط.

مؤلّفاته

١) "خدمة لعيد الجسد الإلهيّ"، نشرها لأوّل مرّة شاكر البتلونيّ في "مجموع بعض فروض كنسيّة"، بيروت ١٨٨٦، صفحة ٢٨- ٧٨، ثمّ أُعيد طبعها في كتاب "البندكستاريون"، بيروت ١٩٠٠، صفحة ٢٧٤- ٣١٣. والمعلوم أنّ نصّ فرض تقدمة العيد هو مَن وضع الخوري نقولا الصائغ، بينما ألّف مكسيموس حكيم نصّ خدمة يوم العيد وخدمة الأيام التابعة له، وذلك أثناء تغيّبه الأوّل عن حلب، في الفترة الواقعة بين سنة ١٧٣٣ وسنة ١٧٣٦.

٢) "رسالة في أخصّ التحديدات الكاثوليكيّة"، أنهى تأليفها في دير مار يوحنّا الطبشه في ٢ حزيران ١٧٣٣.

٣) "كتاب إيضاحات يقينيّة في كيفيّة انشقاق الروم عن الكنيسة الكاثوليكيّة". منها مخطوطة في مكتبة باريس تحت الرقم ٤٧٠٧ وفي فهرس سباط تحت الرقم ١٣٥٤.

٤) "منهاج التوبة"، كتبه في الفترة عينها. منه مخطوطة في مكتبة دير الشير تحت رقم ٧١٨.

٥) عظة، طُبعت في حلب سنة ١٨٧٨، منها مخطوطة في مكتبة دير الشير تحت رقم ٧١٨.

٦) قصيدة في أسرار الورديّة الخمسة عشر، وضعها سنة ١٧٣٤، منها نسخة في مجموعة سباط تحت رقم ٤/٤٠٢، وفي فهرس سباط تحت رقم ١٣٥٩، وفي مكتبة دير الشير تحت رقم ٧٥ (صفحة ٢٩٣).

٧) مجموعة من اثنتي عشرة رسالة راعويّة، كتبها بين سنة ١٧٣٣ وسنة ١٧٣٨، منها "روضة الآداب المسيحيّة"، ورسائل تعزية وتشجيع لأبناء أبرشيّته المضطهدة، ورسالة في ثوب سيّدة الكرمل...

٨) مراسلات مع الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ، لاسيّما في ما يخصّ استشهاد إبراهيم الدلال.

٩) "سبعة تأمّلات تختصّ بافتقاد قوى الإنسان الباطنة وانتقادها وتهذيبها"، وردت في المخطوط رقم ٦٧١ من مكتبة دير الشير، مع هذه العبارة: "تأليف مكسيموس (حكيم) حين كان خوريًّا، الراهب القانونيّ الحلبيّ".

١٠- خمسة أبيات لزياح أيقونة سيّدة الكرمل، منها مخطوطة في مكتبة دير الشير تحت رقم ٢٧٠.

-١٢-
أغناطيوس جربوع
(٢٢ تموز ١٧٦١- ١ كانون الأوّل ١٧٧٦).

نشأته

هو عبد النور بن قسطنطين جربوع. وُلد في حلب سنة ١٧١٤، وقال غيرهم سنة ١٧١٧[١٧٦]، من أسرة روميّة ملكيّة كاثوليكيّة شهيرة، نذكر من أعضائها ميخائيل بن قسطنطين جربوع الحلبيّ، الذي نسخ سنة ١٧٢٨ كتاب الشمّاس عبدالله زاخر المعروف "بالبرهان اليقين على فساد إيمان المشاقين"[١٧٧]، والقسّ ميخائيل جربوع الذي استكتب بماله لنفسه سنة ١٧٣٦ كتاب "الدرّ المنثور في تفسير الزبور"، بيد زخريّا بن سليمان من طائفة الروم بحلب[١٧٨]. وإلى عائلة جربوع هذه ينتسب اليوم آل بيت الخوري الكرام في حلب.

دخل عبد النور الرهبانيّة الحنّاويّة سنة ١٧٣٧، إذ تقول حوليّات الرهبانيّة أنّه "في يوم عيد الصليب المقدّس (١٤ أيلول) سنة ١٧٣٧ وردت خمس من البنات (الحلبيّات إلى دير البشارة في زوق مكايل للترهّب)، وهنّ ماريّا قاري وهيلانه عبدو ومرتا قصير الديل وأفروسين بنت الخوري نعمه وفوتيني جربوع، ومعها أخوها عبد النور، قاصدًا الرهبنة". ولبس ثوب الابتداء من يد الخوري نقولا الصائغ في ٢ تشرين الأوّل ١٧٣٧، ونذر النذور الرهبانيّة في دير مار يوحنّا الصابغ في ٢١ أيلول سنة ١٧٣٩ على يد أثناسيوس دهّان مطران بيروت الذي عاد فرسمه شمّاسًا إنجيليًّا في ٢٥ آذار ١٧٤٠ في الدير المذكور.

وحالاً، أيّ في ربيع سنة ١٧٤٠، عُيِّن مرشدًا للمبتدئين وهو لم يزل شمّاسًا، ممّا يدلّ على ثقة الرؤساء فيه، تلك الثقة التي أتاحت له أن يذهب إلى البطريرك كيرلّس السادس طاناس ويقنعه بزيارة دير مار الياس شويّا ودير الملاك ميخائيل ودير سيّدة البشارة، سعيًا لإصلاح ذات البين بين الراهبات من

---

[176] G. GRAF, G C A L, t. III, p. 314

[177]- مجموعة الأب سباط، رقم ٤٤٢.

[178]- مجموعة الأب سباط، رقم ٩٨١.

جهة والمطران أثناسيوس دهّان والرهبانيّة الحنّاويّة من جهة أخرى. وقد كافأه البطريرك على ذلك إذ رسمه بيده كاهنًا في ٧ حزيران سنة ١٧٤٠ في دير مار يوحنّا. وكان قد اتّخذ له في الرهبانيّة اسم أغناطيوس بديلاً عن اسمه العلمانيّ "عبد النور. والقدّيس أغناطيوس معروف في التقليد الكنسيّ باسم "أغناطيوس النورانيّ"، وهو أقرب ما يكون لاسم "عبد النور".

وفي منتصف تشرين الأوّل من السنة عينها ١٧٤٠ أُقيم الأب أغناطيوس مرشدًا لفئة الراهبات اللواتي غادرن دير البشارة واتّخذن لهنّ مقامًا في "المزرعة" قرب دير مار يوحنّا. وفي سنة ١٧٤٤ ذهب إلى مصر وجمع فيها تبرّعات للرهبانيّة. وكان قد استلم منذ سنة ١٧٤٢ مسك حساباتها تحت نظر الرئيس العامّ. وبقي في هذه المهمّة حتّى إذ تعيَّن سنة ١٧٥٠ مدبّرًا ونائبًا عامًّا. كما أنّه كتب بخطّ يده جزءًا من تاريخ الرهبانيّة يشمل الفترة بين شهر أيلول ١٧٣٩ وشهر آب ١٧٤٢[١٧٩]، ونسخ مخطوطات عديدة حُفظت أغلبيّتها إلى اليوم في مكتبة دير الشير العامرة.

ولمّا توفي الرئيس العامّ الخوري نقولا الصائغ في ١٧ كانون الأوّل سنة ١٧٥٦، أثناء انعقاد المجمع العامّ في دير الملاك ميخائيل بالزوق، انتخب القسّ أغناطيوس جربوع رئيسًا عامًّا على الرهبانيّة بدلاً منه، وهو رابع رئيس عامّ يقام على الرهبانيّة منذ تأسيسها. فسعى في توسيع دير القدّيس يوحنّا الصابغ، وترميم سائر الديورة، وإنعاش الحياة الرهبانيّة فيها[١٨٠]. كما سعى في إنشاء أنطوش جديد وكنيسة للرهبانيّة في بيروت، وهي كنيسة النبيّ الياس الحيّ، التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا بملاصقة الكنيسة الكاتدرائيّة التي شُيّدت خلال القرن التاسع عشر. وفي عهد رئاسته تثبّتت الفرائض الرهبانيّة من قبل الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ (١١ حزيران سنة ١٧٥٧).

وفي المجمع المنعقد في تشرين الثانيّ سنة ١٧٥٩ تجدّدت له الرئاسة العامّة، وبقي في هذا المنصب حتّى سنة ١٧٦١، حيث سيم أسقفًا على حلب.

رسامته أسقفًا

في ١٣ تموز سنة ١٧٦١، نُصِّب مطران حلب مكسيموس حكيم بطريركًا أنطاكيًّا على الروم الملكيّين الكاثوليك، وذلك في كنيسة دير القدّيس يوحنّا

179- راجع تاريخ الرهبانيّة الشويريّة، نسخة المطرانيّة المارونيّة بحلب، صفحة ٢٨٣- ٣٢٨.

180 PAUL BACEL, Ignace Jarbouh, Supérieur Général des Chouérites (1756- 1761), dans Echos d'Orient, XII (1909), p. 288- 292.

الصابغ بالخنشارة، بحضور الموفد البابويّ الأب Dominique de Lanceis، أو بالإيطاليّة Domenico Lanza، قادمًا من الموصل.

فسارع البطريرك الجديد، ورسم يوم الأحد ٢٢ تموز ١٧٦١ مطرانًا على حلب، في الكنيسة المذكورة عينها، القسّ أغناطيوس جربوع، الرئيس العامّ على الرهبانيّة الشويريّة، والحلبيّ الأصل. كما رسم القسّ فيلبس المدبّر مطرانًا على بعلبك، والقسّ يوسف سَفَر، رئيس دير النبيّ أشعيا، مطرانًا على قارا، ومنها انتقل إلى حمص[١٨١].

وقد حافظ المطران الجديد في رسامته الأسقفيّة على اسمه الرهبانيّ أغناطيوس، إنّما أضاف إليه اسم "كربس"، تيمُّنًا بشفاعة القدّيس كربس، أحد تلاميذ المسيح الأوّلين، الذي يعزو إليه التقليد المحلّيّ تأسيس الكنيسة في حلب[١٨٢]. وقال بعضهم أنّ كلمة "كربس" إنْ هي إلاّ تحريف لاتينيّ لكلمة "جربوع"، فاستعاض بها المطران أغناطيوس عن كنيته الأصليّة، التي لا تخلو في الإصطلاح المحلّيّ من بعض الامتهان...

مكوثه بالديورة في لبنان

قضى المطران أغناطيوس جربوع معظم أيام أسقفيّته في لبنان، متردّدًا بين ديورة الرهبانيّة الحنّاويّة الشويريّة، بسبب الاضطهاد الحاصل على طائفة الروم الكاثوليك بحلب. فلم يستطع الإقامة في حلب، على ما تخبرنا حوليّات الرهبانيّة الشويريّة[١٨٣]، إلاّ "ثلاث سنين وسبعة أشهر"، بينما دامت فترة أسقفيّته على أبرشيّة حلب "خمس عشرة سنة وأربعة أشهر".

ومن الديورة، حيث كان مقيمًا بوجه عامّ، اشترك في المجمع المنعقد في دير النبيّ أشعيا بتاريخ ٣١ تموز ١٧٦١ ضدّ أثناسيوس جوهر المغتصب للبطريركيّة[١٨٤]. وفي ٥ آب من السنة عينها ١٧٦١ كتب إلى مجمع انتشار الإيمان يطلعه على رسامته أسقفًا على حلب[١٨٥]. وفي رسالة مؤرّخة عن دير النبيّ أشعيا في ١٣ كانون الأوّل سنة ١٧٦١، كتب مع أعضاء السينودس المقدّس عن انتخاب مكسيموس حكيم بطريركًا على الطائفة[١٨٦]. لكنّه في ٣١

---

[181] - راجع مقال الأب تيموثاوس جقّ في مجلّة المشرق سنة ١٩٠٦، صفحة ٨٩٥ وما يليها. ومقالة الأب إسحق أرملة في مجلّة المشرق أيضًا، سنة ١٩٣٦، صفحة ٣٨١.

[182] MANSI, t. 46, col. 518, note 2.

[183] - في معرض الكلام عن وفاته سنة ١٧٧٦.

[184] MANSI, t. 46, col. 518.

[185] Archives Propagande, Greci Melchiti, Scritture riferite, t, 7.

[186] MANSI, t. 46, col. 522.

كانون الأوّل عينه سنة ١٧٦١ وقَّع على كتاب إلى المجمع المقدّس يخبره فيه، مع إخوته الأساقفة، بوفاة البطريرك مكسيموس حكيم في ٢٨ تشرين الثّانيّ سنة ١٧٦١، وانتخاب خلفه البطريرك ثاوضوسيوس السادس دهّان[١٨٧].

وفي ١٣ كانون الأوّل سنة ١٧٦٣ نراه يحضر مجمع دير القمر، المنعقد برئاسة الأب دومنيك لانزا، الموفد البابويّ، لتثبيت انتخاب البطريرك ثاوضوسيوس السادس دهّان ضدّ منافسه أغناطيوس جوهر[١٨٨]. كما حضر المجمع المنعقد في دير الملاك ميخائيل بالزوق للغاية نفسها، والذي أدَّى إلى حمل البابا إكليمنضوس الثالث عشر، في ١١ أيلول سنة ١٧٦٤، على حرم أغناطيوس جوهر، وربطه عن ممارسة وظيفته الأسقفيّة.

ونراه أيضًا في الأديرة سنة ١٧٦٧ يلعب دور الوساطة بين البطريرك والخوري ميخائيل عرَّاج المخلّصيّ، الذي عدل عن معاضدة أغناطيوس جوهر الطامح في البطريركيّة، فقد "كاتبَ البطريرك (ثاوضوسيوس السادس دهّان) عن يد السيّد كير أغناطيوس جربوع، والسيّد كير باسيليوس جلفاف المحترمين، طالبًا الحلّ. فأبى قدسه (أيّ البطريرك ثاوضوسيوس) أن يرسله له. بل دعاه ليحضر إلى عكّا. فلم يقدر على الحضور. بل اعتذر وأورد حججًا تعفيه عن الحضور. فقبلها قدسه، وأرسل فوكّل السيّد كير أغناطيوس مطران حلب ليمنحه الحلّ. فحينئذ قبل الحلّ من السيّد المذكور في ديرنا مار جرجس بركة الشوير. وقد سلَّمه السيّد المذكور الحلّ بتاريخ أوّل تموز سنة ١٧٦٧[١٨٩].

وفي ١ كانون الثّانيّ سنة ١٧٦٨ نراه في دير الشير يُكمل تأليف خدمة القدّيس يوسف، كما جاء في المخطوط رقم ١٣١ من مكتبة الدير المذكور، حيث نقرأ في الصفحة ٢٩١ منه: "كمل تأليف هذه الخدمة ونظامها من الحقير أغناطيوس كيربس إذ كان غائبًا عن رعيّته وهو منفرد في دير القدّيس جاورجيوس (الشير) ١ كانون الثّانيّ ١٧٦٨".

وقد بقيت العلاقات جدّ ودّية بين المطران أغناطيوس جربوع وبطريركه ثاوضوسيوس السادس دهّان، الذي أراد أن يكافئ صديقه مطران حلب، فأنعم عليه بتاريخ ٥ آب ١٧٦٨ بامتيازات تبدو لنا اليوم بسيطة جدًّا، ولكنّها كان لها بعض القيمة في زمن منحها. فيقول له البطريرك (محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١٣ عدد ٩): "فنحن إذًا بسلطاننا الرسوليّ نخصّص حضرتكم، وكلّ الذين

---

187 MANSI, t. 46, col. 522.
188 MANSI, t. 46, col. 545.

189- عن حوليّات الرهبانيّة الشويريّة لعام ١٧٦٧.

سيتخلّفون عنكم تخلّفًا قانونيًّا في الكرسيّ الحلبيّ، بهذا الإنعام والتخصيص، وهو أن تتزيّنوا بالمترا الكبيرة [أيّ التاجّ الحبريّ]، وتهبوا البركة الرسوليّة بالديكاريّ مع التريكاريّ [وهما شمعدانان، أحدهما بشمعتين والآخر بثلاث شموع] حسبما طلب منّا ولدنا العزيز القسّ جرمانوس آدم أحد إكليروسنا، نيابة عنكم... وخصوصًا بما أنّ الكرسيّ الحلبيّ قد تخصّص منذ أزمنة متعدّدة باسم الاكسارخوس المكرَّم في أبرشيّتنا الأنطاكيّة، كما هو واضح للعيان"...

تردُّدُهُ على حلب

استطاع المطران أغناطيوس جربوع، كما رأينا سابقًا، أن يقيم في حلب ثلاث سنين وسبعة أشهر، بينما دامت أسقفيّته عليها خمس عشرة سنة وأربعة أشهر. ولعلّه قدِم ثلاث مرّات أو أربعًا إلى حلب، وفيها توفي.

ففي المرّة الأولى نراه في حلب في أوائل سنة ١٧٦٢، أيّ بعد أشهر قلائل من رسامته الأسقفيّة. فقد وجدنا في "دفتر أخويّة عزبان الأرمن"، الذي نشره الأب فردينان توتل، ما يلي[190]: "في ٢٢ كانون الثانيّ سنة ١٩٧٢، توفي مطران الموارنة (جبرائيل حوشب، وصار له جنّاز حافل بحضور مطران الروم أغناطيوس جربوع". ولا ندري كم دامت هذه الإقامة الأولى في حلب.

أمّا الإقامة الثانية فقد دامت نحو سنة، على ما أخبرتنا حوليّات الرهبانيّة الشويريّة لعام ١٧٦٤، إذ قالت: "في سنة ١٧٦٤ توجّه المطران أغناطيوس جربوع ليفتقد رعيّته في حلب. فاستقام فيها سنة ثمّ رجع إلى الأديرة". وكان لا يزال في حلب في أواخر تموز سنة ١٧٦٥، حيث ألّف فيها بالتاريخ المذكور كتاب "البتوليّة منذ ابتداء الكنيسة"، المحفوظ في المخطوط رقم ٦٩٧ من مكتبة دير الشير.

ولعلّه نزل إلى حلب مرّة ثالثة في حوالي شهر حزيران سنة ١٧٧٣، إذ نرى مطران السريان الكاثوليك، يوسف القدسيّ، يكتب له من دير مار افرام (لبنان) بتاريخ ٢٥ أيار سنة ١٧٧٣ يكلّفه بتفقّد كهنته السريان بحلب، بصفة نائب عنه (محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١٣ عدد ٥). لكنّ المطران يوسف

[190]- صفحة ٥٢. مع ذلك فإنّنا نشكّ في صحّة هذا النصّ وغيره، أو على الأقلّ في أمانة نقله. لأنّ المطران أغناطيوس جربوع في رسالة وجّهها إلى شعبه الحلبيّ بتاريخ ٢٦ آذار ١٧٦٩ (محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١٣ عدد ١٣) يقول لهم: "أنّه إذا كان الله، لأحكامه غير المبحوث عنها، وحسب إرادته المسجود لها، لم يتح لحقارتنا حتّى الآن أن نحظى بمشاهدة الخراف التي اؤتمنّا عليها برحمته قبل هذا الأوان، وهي أنتم أيّها الأبناء المباركون".

القدسيّ يشير في كتابه إلى أنّ المطران أغناطيوس جربوع لم يصل بعد إلى حلب، بل تأخّر في حمص. ولعلّه لم يستطع دخول حلب تلك المرّة.

ويعود المطران يوسف القدسيّ في ١٦ آذار سنة ١٧٧٥ فيكتب إلى المطران أغناطيوس جربوع على عنوانه في حلب (محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١٣ عدد ٦). وهذه هي الإقامة الرابعة والأخيرة التي أقامها المطران أغناطيوس جربوع بحلب والتي انتهت بوفاته في كرسيّه بحلب في ١ كانون الأوّل سنة ١٧٧٦ كما سنرى.

على أنّ المطران أغناطيوس عُني بإقامة وكيل عنه خوَّله صلاحيّات واسعة. فكان وكيله الأوّل الخوري أنطون صباغ، الذي كان من قبله وكيل المطران مكسيموس حكيم. ثمّ الخوري زخريا، ثمّ الخوري ميخائيل جربوع، الذي عيّنه بتاريخ ١ أيلول سنة ١٧٧٠، فكتب له بذلك من دير مار يوحنّا الشوير. وأنّ نسخة صكّ تعيينه لهذه الوظيفة موجودة في محفوظات مطرانيّتنا (سجلّ ١٣ عدد ١ وعدد ٤).

تردُّد النساء المسيحيّات إلى كنائس المرسلين الإفرنج في الأسواق القديمة

إنّ من أهمّ الأمور التي اضطرَّ المطران أغناطيوس جربوع أن يعالجها من بعيد لصالح أبرشيّته الحلبيّة كانت ولا شكّ مسألة تردُّد النساء المسيحيّات من حيّ الصليبة والجديدة إلى كنائس المرسلين الإفرنج في أسواق المدينة القديمة داخل السور. وقد وجدنا تفاصيل هذه المشكلة في رسالة جماعيّة وجّهها إليه بتاريخ ٢٦ تموز/ ٦ آب سنة ١٧٦٨ كلّ من مطران الموارنة بحلب أرسانيوس شكري، ونائبه على الروم الكاثوليك الخوري زخريا، ونائب البطريرك ميخائيل جروه على السريان الكاثوليك بحلب القسّ جبرائيل، والقسّ حنّا بن بطرس وكيل المطران غريغوريوس شكر الله على الأرمن الكاثوليك بحلب. والرسالة المذكورة موجودة في محفوظات مطرانيّتنا بحلب، سجلّ ١٣ عدد ١٠. وأنّنا نقتطف منها المقاطع التالية، لِما فيها من نكهة وفائدة تاريخيّة. يقول محرّرو الرسالة:

إنّ إبليس "قد اخترع منذ زمن ليس بيسير طريقة قد بذل باتقانها كلّ جهد حِيَلِه، حتّى جعلها عسرة التمييز حتّى من الفهماء، فضلاً عن السدَّج. وأوقع خطرًا على النساء المسيحيّات... مجلّلاً بصورة خير وهميّ... وهذا الأمر المضرّ... هو تردُّد النساء، أجواقًا أجواقًا، إلى المدينة، مارّين على القهاوي، حوانيت إبليس، وفي الأسواق المملوءة من الرجال الأمميّين، وعلى الدكاكين

الحاوية جمعيّات فاسدة ومفسدة، وذلك في أيام مواسم الغفرانات في كنائس الآباء المرسلين... وبما أنّ الكنائس المذكورة هي داخل خانات كبيرة، ولها آغاوات يجلسون في أبوابها مع جوخداريه وغيرهم ويزدحمون بكثرة في الأبواب ومعابر الخانات، وتجتاز النساء في تلك الزحمة بحالة منكرة، فما يصدر من الشرّ في تلك الازدحامات يقبح ذكره. وكنيسة الكرمليه في خان الجمرك، وكنيسة الكبّوشيّه في خان القصّابيه جمرك الحرير..."

ثمّ يسرد محررو الرسالة بعض ما وقع للنساء المسيحيّات من ضرر في هذا التردّد لكنائس المرسلين في الأسواق القديمة. وبنتيجة ذلك احتجّ مطران الموارنة ووكلاء الطوائف الشرقيّة وقرَّروا منع النساء من الذهاب إلى كنائس المرسلين في الأسواق. بل اعتبروا ذلك خطيئة كبيرة احتفظوا لأنفسهم بحقّ الحلّ منها. لكنّ المرسلين قاوموا هذا المنع، ودحضوا رأي الطوائف الشرقيّة، وكتبوا إلى مجمع انتشار الإيمان المقدّس، مدَّعين أنّ رؤساء الطوائف الشرقيّة بحلب إنّما اتّخذوا موقفهم المتزمّت، لا حرصًا على الأخلاق، بل غيرة من إعراض المؤمنات عن كنائسهم، وإلتفافهنّ حول المرسلين. فجاء الجواب من رومة، كما كان منتظرًا، لصالح المرسلين، وبقيت النساء يتردَّدن إلى كنائس المرسلين الإفرنج في أسواق المدينة القديمة.

تجديد الطقوس البيعيّة والآداب الكهنوتيّة.

من المعروف عن المطران أغناطيوس جربوع أنّه بادر منذ سنة ١٧٦٩ إلى إدخال عيد القدّيس يوسف، في ١٩ آذار من كلّ سنة، على الطقس البيزنطيّ المعمول به عند الروم الملكيّين الكاثوليك، أسوة بما سبقه إليه المطران مكسيموس حكيم بإدخاله عيد القربان المقدّس. وقد وضع المطران أغناطيوس جربوع لهذا العيد المحدث خدمةً طقسيّة كاملة، ألّفها في دير الشير في غضون كانون الأوّل سنة ١٧٦٨. لكنّ بادرته هذه لم يكتب لها النجاح طويلاً، فعادت أبرشيّة حلب للتعييد للقدّيس يوسف في الأحد الذي يلي عيد الميلاد.

لم يكن المطران أغناطيوس جربوع لاهوتيًّا ضليعًا ولا كاتبًا ملهمًا. مع ذلك فقد بذل قصارى جهده في تنظيم سلوك كهنته ومراقبة تصرُّفهم بحزم وشيء من التزمّت. فكان يُخضع المرشّحين للكهنوت لفحصٍ علميّ دقيق في أصول اللاهوت العقائديّ والأدبيّ. ولهذه الغاية وضع لهم "كتاب البحث الراهن في فحص الكاهن"، أنهى تأليفه في ٢٤ تشرين الأوّل سنة ١٧٧١. وبقيت لنا منه

نسخ عديدة، منها المخطوطة رقم ٤٤٩ من مجموعة الأب سباط في المكتبة الفاتيكانيّة، والمخطوطات رقم ٦٩٨ و٦٩٩ و٧٠٠ من مكتبة دير الشير.

وكان المطران أغناطيوس، كما قلنا، حريصًا جدًّا على سلوك كهنته. ففي رسالة وجّهها إليهم من دير الملاك ميخائيل بالزوق بتاريخ ١ تشرين الثّانيّ سنة ١٧٦٨ (في محفوظات مطرانيّتنا سجلّ ١٣ عدد ٧) يذكّرهم بضرورة الامتناع عن التردُّد إلى البساتين والنوم فيها، أو الجلوس إلى مائدة الطعام بحضور النساء...

كما أنّه كان يذكّر أعيان الطائفة ("مصافّ التراجمين الأكرمين مع لفيف الارخندس") "وكامل الشعب المسيحيّ" بضرورة إيفاء العشر، أيّ "النوريّة" للبطريرك ولرئيس الكهنة لكي يقوما بواجباتهما نحو الدولة في تأمين دفع الجزية. (يراجع كتابه بتاريخ ١ أيار سنة ١٧٧٢ عن دير الملاك ميخائيل، في محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١٣ عدد ٨).

منع بعض التجاوزات الأخلاقيّة والماليّة

كما أنّ للمطران أغناطيوس جربوع أوامر مشدَّدة في منع بعض التجاوزات الأخلاقيّة والماليّة التي كانت تحدث خصوصًا في مناسبة الأعراس، نشرها الخوري بولس قرألي في المجلّة السوريّة[١٩١]، ومنها نسخة في محفوظات مطرانيّتنا (سجلّ ١٣ عدد ٢) بتاريخ ١ تموز سنة ١٧٧٤، حيث يقول أنّه يجدّد بأوامره هذه وصايا سلفائه المنقوشة على الألواح الحجريّة في الكنيسة، مشيرًا بذلك إلى ما قام به البطريرك أثناسيوس الثالث دبّاس، كما أوردنا في سيرة حياته.

وهذه الوصايا تتلخّص بما يلي:

١) "أن تكون الأعراس مسيحيّة، وأفراحها مزيّنة بخوف الله... ولا يدخل إليها إحدى النساء الشقيّات، آلات إبليس، اللواتي يستعملن الرقص ودقّ المعازف كارًا لهنّ. ولذلك مجيء العرايس لا يكون إلاّ برفقة أربع نساء أو ستّ على الكثير من أخصّ الأقرباء المهذّبات، وذلك قرب الصبح. ولا يستعمل الشرب في بيت العروس أصلاً، بل القهوة فقط".

٢) "فلترتفع الجلاّيات المخترعة جديدًا من عدوّ الخير، ولا ترتدي بها العروسة أو إحدى اللواتي يرافقنها، بل أنّنا نبطلها... بما أنّها توجب العثرة

191- سنة ١٩٢٨، صفحة ٧٧ وما يليها.

للضعفاء ولا تليق بالمؤمنين... أمّا الجلاّيات الموجودة فلا نأذن لأحد في بيعها أو في حفظها في الصندوق، بل فلتنقض خياطتها، وتتحوَّل إلى حوائج أخرى مهذَّبة".

٣) "فليُبطل نقوط المواليد مطلقًا، لأنّه ينشئ مغايرات وأثقالاً كثيرة".

٤) "فلتُبطل تلك العادة الذميمة باحتفالات حمّام العرايس والوالدات، تلك التي تلحق بالمؤمنين تبديد الدراهم، وتوجب للغير أرباحًا حائدة، وتقترن بها شرور أخرى".

وفي هذا الإطار من التقشّف، بل من القسوة، نرى المطران أغناطيوس جربوع يمنع "لعب الورق تحت رهن خسارة أو ربح دراهم"، ولاسيّما في "الليالي الشتويّة"، ويعتبر هذا العمل خطيئة ثقيلة يُحفظ الحلّ منها لسلطانه الخاصّ (راجع منشوره المؤرّخ في تشرين الثانيّ سنة ١٧٧٣، من محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١٣ عدد ١٢. وأنّنا ننشر صورة عنه في الصفحة التالية).

مع الطائفة السريانيّة الشقيقة

وتخبرنا حوليّات الرهبانيّة الشويريّة، في سياق حديثها عمّا جرى سنة ١٧٧١، بأنّه "حينما كانت طائفة السريان الأرثوذكسيّة في حلب متضايقة من كثرة الديون المتراكمة عليها مع الفوائد إلى بعض الغرباء ومحصّل حلب، حتّى أنّهم كانوا يحبسونهم ويطالبونهم بكلّ مضايقة، فحينئذ اجتمعت رؤوس الطائفة مع الأحد عشر قسًّا من كهنتهم، وتفاوضوا في أنّهم لا يمكنهم وفاء هذه الديون الوافرة جدًّا، ولئن باعوا أولادهم في سوق السلطان. أخيرًا تكلّموا بما قد ألهمهم الله به، وهو أنّه يصيرون جميعهم كاثوليكيّين، ويلتجئون إلى الله وإسعاف أولاد الإيمان الكاثوليكيّ، وبهذه الطريقة يخلصون نفسًا وجسدًا. فاعلموا بذلك الروم الكاثوليك الذين في حلب. فلمّا سمعوا بذلك وتحقّقوا ثبات عزمهم، فرحوا بهم ودفعوا لهم المبلغ المطلوب منهم. فالسريان المذكورون قبلوا ذلك جميعه، وقرأوا صورة الإيمان المستقيم، كهنة وعوامًا، رجالاً ونساء، وصار فرح عظيم في حلب، وصارت كلّ الطوائف تصلّي عندهم".

إنّنا نلمس في الحادث المذكور- وقد يكون كاتب الحوليّات الشويريّة قد ضخّمه إلى حدّ ما- غيرة أبناء طائفة الروم الكاثوليك بحلب على نشر الإيمان الكاثوليكيّ، واستعدادهم للدفاع عنه، والبذل من نفسهم ومن مالهم بسخاء في سبيل توطيده، حتّى ما بين الطوائف الشقيقة، غير ناسين أيضًا فضلها عليهم في ساعات المحنة والاضطهاد. ولعلّهم أقدموا على ذلك بدافع آخر هو رغبتهم

في الحصول على كنيسة تأويهم وتتيح لهم الصلاة فيها بكامل حرّيتهم، بعد أن استولت الفئة الأرثوذكسيّة نهائيًّا على كنيستهم في أواخر عهد المطران مكسيموس حكيم.

وبإقدامهم على هذه المبادرة الأخويّة الطيّبة، قد يكون الروم الكاثوليك اعتقدوا أنّه أصبح لهم شبه حقّ معنويّ على استعمال كنيسة السريان بحلب ما داموا قد أسهموا في استردادها. فسوف نرى في سياق التاريخ أنّه عندما أراد بعض المسؤولين في طائفة السريان فيما بعد، أن يصدّوهم عن إقامة قداديسهم فيها، احتجَّ الروم الكاثوليك لدى رومة، واعتبروا تصرّف زعماء السريان وكأنّه نسيان للماضي ونكران بالجميل... مع أنّ السريان الكاثوليك ما كانوا يكنّون لإخوانهم الروم الكاثوليك إلاّ كلّ تقدير ومحبّة، لكنّهم كانوا هم أيضًا يخافون على كنيستهم أن تضيع مرّة أخرى من أيديهم إذا ما سمحوا لكهنة الروم الكاثوليك المضطهدين باستعمالها.

ولعلّه كان للمطران أغناطيوس جربوع فضل في انضمام ميخائيل جروه، أوّل بطاركة السريان الكاثوليك إلى المذهب الكاثوليكيّ. فإنّ المطران يوسف القدسيّ كتب إلى المطران أغناطيوس جربوع بتاريخ ١٥ آذار سنة ١٧٧٦ (محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١٣ عدد ٦): "سرَّنا جدًّا اتّحاد أخينا المطران ميخائيل جروه معنا بالإيمان الكاثوليكيّ. ربُّنا يثبّته بنعمته ويؤاجركم عن أتعابكم في ملكوته السماويّ بعد عمر طويل. ونرغب من محبّتكم أن تلاحظوه بحكمتكم الوافرة، لأنّه من المفهوم عند أخوَّتكم أنّ النصبة الجديدة تحتاج إلى البستانيّ لكي يداريها أكثر من غيرها".

حوادث أخرى

واستمرَّ النشاط العلميّ في طائفة الروم. ففي سنة ١٧٧٢ نرى الخوري أنطون صباغ، الذي كان وكيلاً للمطران أغناطيوس جربوع على حلب، كما كان وكيلاً فيها لسلفه المطران مكسيموس حكيم، ينقل إلى العربيّة كتاب لاهوت العلاَّمة تورنلّي في سرَّي المعموديّة والتثبيت[١٩٢].

وفي سنة ١٧٧٣، في عهد المطران أغناطيوس جربوع، أُلغيت الرهبانيّة اليسوعيّة بأمر البابا إكليمنضوس الثالث عشر. فغادر الآباء اليسوعيّون ديرهم بحلب، وسلّموه للآباء اللعازريّين.

---

[192] G. GRAF, op. cit; t. III, p. 246.

ومن سنة ١٧٧٢ أو سنة ١٧٧٣ لدينا رسالة من أبناء طائفة الروم الأرثوذكس بحلب في عهد مطرانهم ناوفيطوس، إلى البطريرك القسطنطينيّ صموئيل (محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١٧ عدد ٢٩)، يعرضون فيها جسامة الضرائب والغرامات الإضافيّة التي يكلّفون بها ما عدا ضريبة الجزية التقليديّة، فيقولون: "كنّا في الأزمنة السالفة لسنا ملتزمين بأداء شيء آخر سوى الجزية السلطانيّة فقط. ثمّ تركّبت علينا منذ ثلاثين سنة ونيّف مظالم كثيرة، تحت اسم الأموال الميريّة التي ترتّبت من محصّلي الوقف. وأضيفت إليها كثرة الجرائم التي لا تطاق من قبل الحكّام العرفيّين. ومن هذه الجهة، فجميع الميسورين منّا والذين يمكنهم العطاء لجأوا إلى الحمايات بأنواع مختلفة، ولم يبقَ في الوسط إلاّ الذين ليس لهم حماية لضعفهم وفقرهم. وفي هذه الحال، حضرة وليّ النعم، والي حلب، في قدومه إلى بلدتنا نادى بأنّ المسيحيّين جميعهم يجب أن يلبسوا قلابق. فبعد الطاعة لمرسومه وتتميم أمره الذي اقتضى تكاليف زائدة، جرَّمنا أيضًا مقدار أربعة آلاف (غرش) ذهب. وهذا شيء لم يسمع مثله...".

ثمّ يقول محرّرو الرسالة أنّهم وجدوا "في خزانة الكنيسة خطًّا شريفًا يتضمّن أمرًا قاطعًا بأنّ مسيحيّي حلب يعفون من جميع المظالم ولا يلتزمون إلاّ بإعطاء الجزية لا غير". لكنّ هذا الأمر الشاهانيّ أصبح قديمًا، ولا تجوز إعادة العمل بها إلاّ إذا تمّ تجديده من قِبل الباب العاليّ. لذا يناشدون البطريرك القسطنطينيّ ويلحُّون عليه أن يعمل على تجديد هذا الأمر. ويضيفون أنّ "أناسًا كثيرين من أبناء جنسنا قد فرُّوا الآن، وأنّه عن قريب سيفرُّ الجميع ويعدم جنسنا من هذه المدينة، سيّما إذا صار التجريم لأجل هذه المادّة طريقًا سالكًا كلّما أتى وزير (إلى حلب) كما هي عادة العثمنليّ". ويضيفون أيضًا قائلين: "ما عدا الأربعة آلاف ذهب التي دخلت إلى خزينة وليّ النعم المشار إليه، أنّه لا يكفينا تكاليف ومداهك وخِدَم ومصاريف وفوائد ربّما تبلغ مقدارها".

هذه لوحة قاتمة، وإنْ جزئيّة، عمّا عاناه المسيحيّون في عهد الدولة العثمانيّة. فلولا عناية الله، لَما بقي مسيحيّ في هذا البلد...

وفاته

تقول حوليّات الرهبانيّة الشويريّة: "في الأوّل من شهر كانون الأوّل من هذه السنة ١٧٧٦، انتقل إلى رحمة الله السيّد المطران كير أغناطيوس جربوع، مطران مدينة حلب، وذلك في أبرشيّته، بعد أن استقام ساكنًا فيها ثلاث سنين

وسبعة أشهر. وجملة ارتسامه عليها خمس عشرة سنة وأربعة أشهر. وقد كان بارعًا في العلوم اللازمة لدرجة الأسقفيّة التي تاجر بها، وقدَّم إلى الله نفوسًا بوعظه وتعليمه ومثله الصالح. وقد فاق أهل عصره في عِلم البصلتيكا الشريف. وفي وفاته قد شمل الحزن أهل حلب وعموم الرهبنة. فليكن ذكره مؤبّدًا".

مؤلّفاته

1ً) "البحث الراهن في فحص الكاهن"، أتمَّه في تشرين الأوّل سنة ١٧٧١.

2ً) "خدمة عيد القدّيس يوسف"، وضعها في دير الشير في غضون شهر كانون الثانيّ سنة ١٧٦٨، ونشرها شاكر البتلونيّ في "مجموع بعض فروض كنسيّة"، بيروت ١٨٨٦، صفحة ١٠٦- ١٢٠.

3ً) مجموعة مواعظ بثمانية مجلّدات (منها نسخة في المكتبة الشرقيّة ببيروت، وفي فهرس الأب سباط تحت رقم ١١٩٩).

4ً) "الفرائض الإرشاديّة لبنات الروم الملكيّة"، منها نسخة يذكرها الأب سباط في فهرسه تحت رقم ١٢٠٤.

5ً) رسالة راعويّة بتاريخ سنة ١٧٦٦، موجّهة إلى الرجال والسيّدات، نشرها الأب قرألي في المجلّة السوريّة، سنة ١٩٢٨ صفحة ٧٨ وما يليها.

6ً) "برهان هندسيّ على إيمان كنيسة المسيح الحقيقيّة"، منه نسخة في مجموعة الأب سباط تحت رقم ١/٤٤٩ و٨٣٧، وفي فهرسه تحت رقم ١٢٠٢.

7ً) دحض ادّعاء الذين يقولون أنّ الكنائس المتّحدة بروما قد أعرضت عن تعاليم الآباء القدّيسين، منه نسخة في مجموعة سباط تحت رقم ٢/٤٤٩.

8ً) رسالة في الطبيعتين والمشيئتين في يسوع المسيح، مقسّمة إلى ٧ فصول، منها نسخة في المكتبة الشرقيّة ببيروت تحت رقم ٧٧٧، صفحة ٣٣- ٥٠.

9ً) سيرة القدّيس أنطونيوس المصريّ، مستقاة من سيرته المعروفة التي وضعها القدّيس أثناسيوس الإسكندريّ، ومن "بستان الرهبان". منها نسخة في مجموعة سباط تحت رقم ١/٤٣٩، وفي فهرسه تحت رقم ١٢٠١.

10ً) مديح الحياة الرهبانيّة، منسوب للقدّيس باسيليوس الكبير خطأ. منه نسخة في مجموعة الأب سباط تحت رقم ٢/٣٤٩، وفي فهرسه تحت رقم ١٢٠٥.

11ً) قدّاس فم الذهب وباسيليوس، مع بعض تأمّلات روحيّة، ونبذة مختصرة في غايات القدّاس، وصلوات الشكر بعد القدّاس، وبعض رسائل وأناجيل. منه نسخة في مكتبة دير الشير تحت رقم ٤٥، كتبها القسّ أغناطيوس جربوع سنة ١٧٥٥.
12ً) "البتوليّة منذ ابتداء الكنيسة"، للمطران أغناطيوس كربوس. ورد في المخطوط رقم ٦٩٧ من مكتبة دير الشير، مع هذه العبارة: "حُرّر في حلب في أواخر تموز ١٧٦٥".

-١٣-
جرمانوس آدم
(١٧ نيسان ١٧٧٧- ١٠ تشرين الأوّل ١٨٠٩)

إنّ المطران جرمانوس آدم، الذي ساس الأبرشيّة الحلبيّة فترة طويلة لا تقلّ عن اثنتين وثلاثين سنة، قد كان ليحتلّ بعلمه ونفوذه وشهرته المقام الأوّل بين أساقفة الروم الملكيّين بحلب في العصر الحديث، لولا ما شاب إدارته من مشاكل محلّية ألّبت عليه الأخصام، وما وُصم به تعليمه من تطرُّف عقائديّ، فبات موضوع شكّ وارتياب، وأصبح حجر عثرة للكثيرين، ممّا سنفصّله بشيء من الإسهاب في هذه النبذة التاريخيّة.

نشأته

وُلد جرمانوس آدم في حلب حول سنة ١٧٢٥، في جوّ الاضطرابات والاضطهادات الطائفيّة التي تحدّثنا عنها. وكان اسمه في العماد ميخائيل. ومنذ نعومة أظفاره نشأ وترعرع في دار المطرانيّة، وتربّى وتثقّف على يد المطران مكسيموس حكيم بالذات، ومعاونيه من الكهنة والعلمانيّين. وقد توسَّم فيه المطران مكسيموس حكيم النباهة والنبوغ، فأرسله إلى رومة للدراسة حول سنة ١٧٣٦، ولمّا يبلغ الفتى من العمر اثنتي عشرة سنة. فدرس في معهد انتشار الإيمان زهاء خمس عشرة سنة، أيّ من سنة ١٧٣٦ حتّى سنة ١٧٥١. فتعلّم، فضلاً عن الفلسفة واللاهوت والقانون الكنسيّ، اللغة اللاتينيّة واليونانيّة والفرنسيّة والإيطاليّة.

كاهن في حلب (١٧٥١- ١٧٧٤)

نال جرمانوس آدم الرسامة الكهنوتيّة حول سنة ١٧٥١، في كنيسة "مدرسة اليونان" برومة. ثمّ عاد توًّا إلى حلب. فكلّفه المطران مكسيموس حكيم بإدارة "أخويّة الدفاع عن الإيمان المقدّس". فرافق جميع مراحل الاضطهاد ضدّ الكاثوليك في حلب، ومارس رسالته الكهنوتيّة بحماس ونزاهة وإخلاص.

ولكن ما إنْ خفَّتْ حدَّة الاضطهادات ضدّ الكاثوليك حتّى نشأت بينهم المنازعات الداخليّة. فعند وفاة البطريرك مكسيموس حكيم في ٢٦ تشرين الثانيّ/ ٧ كانون الأوّل ١٧٦١، بادر أساقفة الطائفة فانتخبوا خلفًا له مطران بيروت أثناسيوس دهّان، ونصّبوه بطريركًا في ١٣/ ٢٤ كانون الأوّل ١٧٦١ باسم ثاوضوسيوس السادس. لكنّ منافسه أثناسيوس جوهر، الذي كان الكرسيّ الرسوليّ نحّاه عن البطريركيّة، سافر إلى رومة سنة ١٧٦٢ للاحتجاج. وفي ٢٥ أيلول سنة ١٧٦٣ عقد مجمع انتشار الإيمان جلسة عامّة بحضور قداسة الحبر الأعظم لدراسة هذه القضيّة. وعلى أثرها أعلن البابا من جديد بطلان انتخاب أثناسيوس جوهر للبطريركيّة، وثبّت ثاوضوسيوس دهّان في وظيفته، وكلّف النائب الرسوليّ في حلب المطران Arnauld Bossu، بتدبير الأمور بالتي هي أحسن. وفي هذه الأثناء كان القسّ جرمانوس آدم قد نشر في حلب سنة ١٧٦٣ كرّاسًا ضدّ مطامع أثناسيوس جوهر في البطريركيّة.

وأنّ النائب الرسوليّ المذكور دعا أساقفة الطائفة إلى مجمع عامّ عقد في دير القمر في ١٣ تشرين الثانيّ سنة ١٧٦٣، وفيه ثُبّت البطريرك ثاوضوسيوس السادس دهّان في وظيفته، وأُعطي أثناسيوس جوهر، حفاظًا لكرامته، كرسيّ صيدا، لكنّه كان في ذاك الحين متغيّبًا في رومة. على أنّ أتباعه من الأساقفة المخلّصيّين، إذ عادوا إلى دير المخلّص بعد اختتام المجمع بيومين، انتخبوا ورسموا ثلاثة أساقفة جدد، فاضطرّ البطريرك ثاوضوسيوس السادس دهّان مع سينودس أساقفته إلى إبطال هذا الانتخاب.

وفي ٩ تموز ١٧٦٤ مَنَحَ البابا درع التثبيت للبطريرك ثاوضوسيوس، فغادر أثناسيوس جوهر رومة، بعد أن وقّع وثيقة اعتراف ببطريركه الشرعيّ، وتسلّم أبرشيّة صيدا. لكنّه ما زال يحاول الوصول إلى البطريركيّة، فيجمع أنصاره ويحملهم على انتخابه مرّة ثانية للكرسيّ البطريركيّ، فيضطرّ البطريرك ثاوضوسيوس إلى رشقه ورشق أنصاره بالحرم. ويوافق البابا إكليمنضوس الثالث عشر على هذا الإجراء، بل يزيده صرامة في ١٨ أيلول ١٧٦٥. ويتجرّأ البطريرك ثاوضوسيوس، فيُقدم يوم خميس الأسرار سنة ١٧٦٦ في كاتدرائيّة عكّا، على إعلان الأوامر الرسوليّة المشدَّدة بحقّ

أثناسيوس جوهر، الذي يتخلّى عنه أنصارهُ واحدًا واحدًا. فيحاول فترة من الزمن أن يخلف البطريرك سلفستروس القبرصيّ الأرثوذكسيّ نفسه...
ويحاول الأمير علي جنبلاط سنة ١٧٦٧ أن يصلح ذات البين، فلا يوفَّق. أمّا في سنة ١٧٦٨، فيحتلّ أثناسيوس جوهر دير المخلّص عنوة بقوّة الجند، ويقيم فيه قدّاس عيد الفصح، ويطرد منه أخصامهُ. فيثور عليه الجميع، ويضطرّونه في نهاية الأمر إلى طلب الصفح من بطريركه. فيذهب مع أربعة أساقفة من أنصاره، فيقدّم الطاعة للبطريرك. وهذا الأخير يحلّهم من الحرم الذي كان قد رشقهم به، فيتمّ الصلح في الطائفة، وذلك في ٢٨ أيار ١٧٦٨.
في هذه السنة عينها ١٧٦٨ يؤلّف جرمانوس آدم في حلب رسالة يوجّهها إلى الرهبان المخلّصيّين، يضمّنها "دحض ادّعاءات أنصار جوهر"[١٩٣]. وفي نهايتها يقول أنّه أنهى في السنة السابقة (سنة ١٧٦٧) كتابه الشهير: "إيضاح اعتقاد الآباء القدّيسين ضدّ إلحاد المشاقين"[١٩٤]، وفيه دفاع قويّ عن المعتقد الكاثوليكيّ في النقاط التي ينكرها عليه الأرثوذكسيّون.

أسقف عكّا (١٧٧٤- ١٧٧٦)

إنّ تآليف جرمانوس آدم ونشاطه الراعويّ في حلب جعلت أبناء الطائفة في عكّا يطلبونه مطرانًا لمدينتهم. ووافق جميع أساقفة الطائفة على هذا الترشيح، ما عدا أثناسيوس جوهر، الذي كان مكتفيًا إذ ذاك بكرسيّ صيدا. ولا غرابة في الأمر، بعدما عرفنا من الخصومة التي قامت بين هذين الرجلين. فعمد البطريرك ثاوضوسيوس السادس الدهّان إلى رسامة جرمانوس آدم مطرانًا على عكّا ليلة عيد الميلاد سنة ١٧٧٤ في كنيسة دير مار أنطونيوس القرقفه. فذهب المطران الجديد إلى أبرشيّته العكّاويّة، لكنّه لم يستطع الإقامة فيها طويلاً، إذ تعلمنا حوليّات الرهبانيّة الشويريّة في سياق حوادث سنة ١٧٧٥ "أنّ المطران جرمانوس آدم هرب من عكا مع بيت أهل الصباغ، وحضروا إلى الأديرة (في لبنان) لوجود المخاوف التي كانت عليهم في عكا".
وقد تردَّد نحو سنة بين ديورة الرهبانيّة الشويريّة التي كان صديقها الحميم، إلى أن طلبهُ أهل حلب مطرانًا عليهم.

نقله إلى مطرانيّة حلب (١٧٧٧)

[193] Cfr. BACEL, dans Echos d'Orient, t. XV, p. 49- 60, 309- 321.
[194] G. GRAF, G C A L ,t. III, p.228.

في اليوم الأوّل من شهر كانون الأوّل سنة ١٧٧٦، توفي أغناطيوس جربوع، مطران حلب. وللحال رشَّح الحلبيّون جرمانوس آدم لشغل كرسيّ أبرشيّتهم، لاسيّما وأنّ جرمانوس آدم كان مبعدًا عن أبرشيّته العكّاويّة، في حال شبه تعطيل عن العمل. وقد تمّ ترشيحه للوظيفة الجديدة بإجماع آراء الحلبيّين، إكليروسًا وشعبًا. وقد لبَّى البطريرك ثاوضوسيوس دهّان رغبتهم، فنقلهُ إلى أبرشيّة حلب في غضون شهر نيسان سنة ١٧٧٧، إذ وجدنا من البطريرك ثاوضوسيوس دهّان رسالة إلى الحلبيّين بتاريخ ١٧ نيسان ١٧٧٧، يوافق فيها على ترشيح جرمانوس آدم، ورسالة من هذا الأخير إلى أبناء أبرشيّته الحلبيّة بتاريخ ٣ أيار ١٧٧٧.

على أنّه لم يستطع التوجّه إلى حلب والإقامة فيها منذ تعيينه مطرانًا عليها. وقيل إنّ مردّ ذلك إلى وضع الكاثوليك في حلب إذ ذاك، وهم رازحون تحت نير الاضطهاد. على أنّ سلفه المطران أغناطيوس جربوع توفي في حلب بعد أن قضى فيها ردحًا من الزمن، فضلاً عن أنّ وطأة الاضطهاد كانت قد خفّت إلى حدّ بعيد. ولعلّ السبب الحقيقيّ هو أنّ جرمانوس آدم كان مشغولاً بأمور ثقافيّة وقضائيّة ودينيّة هامّة في لبنان، فلم يشأ التخلّي عنها، وآثر أن يبقى في ديورة الرهبانيّة الشويريّة، وأن يدير من هناك أمور أبرشيّته الحلبيّة بواسطة نائب عامّ أقامه عليها، هو الخوري أنطون صباغ، الذي منحهُ شارة "الحجر" الكنسيّ في نيسان سنة ١٧٧٨. ثمّ عيّن بدلاً منه الخوري ميخائيل جربوع. أمّا هو فأقام إمّا في دير القدّيس يوحنّا الصابغ بالشوير، وإمّا في دير الملاك ميخائيل بالزوق.

نشاط إداريّ وقضائي هامّ في لبنان (١٧٧٧- ١٧٩١)

كان المطران جرمانوس آدم يتمتّع بنشاط دقّاق، يسانده علم غزير ونباهة فطريّة نادرة. على أنّه كان حادّ الطبع، ميّالاً إلى التدخّل في أمور غيره، معجبًا بنفسه، وهاويًا المشاحنات والمخاصمات.

فمنذ أوّل عهد إقامته بلبنان مثلاً، نراه يصطدم بمطران بيروت أغناطيوس صرّوف، الذي ما إنْ تبوّأ كرسيّ بيروت سنة ١٧٧٨، حتّى اتّخذ المطران جرمانوس آدم صديقًا له ومستشارًا. لكنّ أثناسيوس جوهر، وكان لا يزال إذ ذاك مطرانًا على صيدا، استاء من هذا التقارب، وسعى بواسطة الأب سمعان صباغ، أمين سرّ البطريرك، إلى إلقاء الخلاف بينه وبين المطران صرّوف، فكُتِب له النجاح. ولمّا سار هذا الأخير في طريق معارضة الرهبان الشويريّين،

عِلمًا بأنّه كان في الأصل منهم، نهض جرمانوس آدم سنة ١٧٨٠ للدفاع عنهم، وكتب بهذا الصدد عددًا من "الفتاوى" تنمُّ عن مقدرته العلميّة وطول باعه في القانون[١٩٥]. كما أنّه تدخّل سنة ١٧٨١ في مسألة دير مار ديمتريوس في كفرتيه ضدّ المطران أغناطيوس صرّوف عينه.

ثمّ يصطدم جرمانوس آدم بأثناسيوس جوهر، الذي خلا له الجوّ من جديد بوفاة البطريرك ثاوضوسيوس دهّان في دير مار أنطونيوس القرقفه يوم ٣٠ آذار ١٧٨٨. فاجتمع أساقفة الطائفة في دير مار أنطونيوس المذكور، بتاريخ ٢٤ نيسان ١٧٨٨، وفي نيّتهم انتخاب أثناسيوس جوهر. لكنّ جرمانوس آدم عارضهم في هذا الرأي، وترك المجمع وعاد إلى دير الملاك ميخائيل بالزوق. على أنّ الأساقفة المجتمعين انتخبوا مع ذلك أثناسيوس جوهر بطريركًا. فاحتجّ المطران جرمانوس آدم ضدّ هذا الانتخاب، ومعه بندكتوس تركمانيّ مطران بعلبك، واستغاثا برومة. إلاّ أنّ المجمع المقدّس، حبًّا بالسلام وإنهاء للمشاكل، ثبَّت هذا الانتخاب في جلسته المنعقدة في ٢ آذار سنة ١٧٨٩، مقتنعًا بالأدلّة التي قدّمها موفد البطريرك المنتخب إلى رومة، أغناطيوس صرّوف مطران بيروت.

واقترحت رومة عقد سينودس عامّ لإعادة السلام إلى الطائفة. فدعا البطريرك جوهر إلى عقد هذا السينودس في الأوّل من تموز سنة ١٧٩٠، وأرفق الدعوة بجدول أعمال. لكنّ جرمانوس آدم اعترض على جدول الأعمال ولم يحضر السينودس. ثمّ غيّر رأيه، وفي ١١ أيلول ١٧٩٠ قرَّر أن يذهب إلى دير المخلّص لمواجهة البطريرك وحضور السينودس. وكانت المواجهة صاخبة، دافع فيها جرمانوس آدم بشدّة عن رئاسة البابا وسلطته، وصرَّح قائلاً: "أنّه لشرف عظيم لنا أن نكون خاضعين لرأس الكنيسة الجامعة".

ثمّ تتعقّد الأمور. ففي ١٩ أيلول عينه يستدعي البطريرك جوهر المطران جرمانوس ويقول له أنّه خلال جلسات السينودس، يجب إعطاء المقام الأوّل لمتروبوليت صور على متروبوليت حلب[١٩٦]. وكانت الغاية من هذا الإجراء إذلال مطران حلب، الذي ما عاد يفكّر إلاّ بإيجاد حجّة لمغادرة اجتماعات السينودس. وفعلاً في مساء ذلك اليوم جاءَه ساعٍ من قِبَل الأمير بشير الشهابيّ يطلب منه أن يذهب على جناح السرعة إلى دير القمر لكي يقضي في أمور

---

[195] Cfr. BACEL, Ignace Sarrouf et les réformes des Chouérites (1774- 1790), dans Echos d'Orient, t. 13 (1910), p. 76- 84, 162- 171, 282- 289, 343- 351

[196] MANSI, t. 46, col. 653

الموارنة. فينسحب من السينودس، ويعيّن وكيلاً عنه القسّ عمّانويل شمّاع، الراهب المخلّصيّ. وبعد أن أنهى أعماله القضائيّة في دير القمر، عاد إلى زوق مكايل، وتابع من هناك أمر الدفاع عن الرهبان الشويريّين ضدّ مطران بيروت أغناطيوس صرّوف. وإذ شعر أنّ حججه القانونيّة في الدفاع عنهم لا تجدي نفعًا أمام سلطة كنسيّة تتعمّد ملاحقتهم، نصحهم بأن يستغيثوا بالكرسيّ الرسوليّ.

قد يستغرب القارئ أن يلجأ الأمير بشير إلى المطران جرمانوس آدم لكي يقضي في أمور الموارنة. لكنّ الاستغراب يزول عندما يعلم أنّ البابا بيوس السادس، في براءة مؤرّخة في ١٥ كانون الأوّل سنة ١٧٨٧ كان قد عيّن المطران جرمانوس آدم قاصدًا رسوليًّا على الطائفة المارونيّة، وكلّفه بعقد سينودس عامّ يرئسه باسم الكرسيّ الرسوليّ، وفيه يعلن بطلان جميع ما تقرّر في السينودس السابق المنعقد في شهر أيلول سنة ١٧٨٦ في عين شقيف، وينحّي المطران يوسف نجيم والمطران يوحنّا الحلو والمطران يوسف تيّان عن وظائفهم، ويُعنى بانتخاب غيرهم. كما أنّ المطران جرمانوس رئس بهذه الصفة عينها المجمع المارونيّ المنعقد في بكركيّ من ٣ إلى ١٨ كانون الأوّل سنة ١٧٩٠. كلّ هذا يدلّنا من جهة على ثقة الكرسيّ الرسوليّ به، ومن جهة أخرى على مدى الصداقات التي ربحها بين الموارنة، كما وعلى مدى العداوات التي استهدف لها...

وفي هذه الأثناء كانت أبرشيّته الحلبيّة تسير بتوجيهاته من بعيد، بقيادة نائبه العامّ. وأنّ الوثائق المعاصرة تعلّمنا أنّه في سنة ١٧٨٧ تأسّست في حلب، في دير الآباء اللعازريّين، في خان البنادقة، "أخويّة القربان المقدّس". وكان أكثر أعضائها من الروم الكاثوليك، والمتقدّم فيها فرج الله عجوريّ، الذي أصبح فيما بعد مطرانًا على زحلة باسم أغناطيوس، وراعيًا لأبرشيّة حلب الشاغرة. وهذه الأخويّة أسهمت في توطيد عادة تطواف القربان المقدّس في الشوارع والساحات يوم "عيد الجسد". ثمّ انتقلت هذه العادة إلى زحلة بفضل المطران أغناطيوس عجوريّ. وقد خلفه في رئاسة الأخويّة نصرالله حمصيّ، بينما كان مرشد الأخويّة الخوري ميخائيل جربوع.

وعن سنة ١٧٩١ نقل لنا ديفيزين القنصل البريطانيّ في قبرص وحلب إحصاءً عن سكان حلب، جاء فيه أنّ مجموع سكان البلدة يبلغ ٢٢٨٠٠٠، منهم ١٦٨٠٠٠ من المسلمين، و١٠٠٠٠ من الأجانب، و٢٠٠٠٠ من المسيحيّين، و٣٠٠٠٠ من اليهود. أمّا المسيحيّون فيتفرّعون إلى ٩٢٠٠ من الروم

الكاثوليك، و٢٠٠ من الروم الأرثوذكس، و٤٨٠٠ من الأرمن، و٣٠٠٠ من السريان، و٢٨٠٠ من الموارنة. وأنّنا نشكّ كثيرًا في صحّة هذه الأرقام.

سفره إلى حلب (أيلول ١٧٩١)

جاء في كتاب "المرتاد في تاريخ حلب وبغداد"[١٩٧] لمؤلّفه يوسف بن ديمتري ابن جرجس الخوري عبّود الحلبيّ (المتوفى في حلب في ٢٣ شباط سنة ١٨٠٦) وصف دقيق مفصّل لسفر المطران جرمانوس آدم لحلب. قال (صفحة ١٣٩): "في غياب الجزّار بالحجاز، وقبل أن يُطرَدَ الأمير بشير (الشهابيّ، حاكم جبل لبنان)، حصل بينه وبين قدس السيّد المطران كير جرمانوس آدم مطران حلب عداوة عظيمة. وسبب العداوة حيث أنّه حصل (المطران جرمانوس) قاصدًا رسوليًّا في هذه السنة، وبأمر البابا صنع مجمعًا لبنانيًّا، وجمع فيه البطاركة والمطارنة، وكان هو نائب البابا، وأجرى فيه الحكومات الواجبة. فمن هذا القبيل حصلوا ضدّه بعد أن كانوا أصحابه، وهم بدءًا توسّلوا إليه بإقامة المجمع. فأرسل الأمير بشير أحضره لعنده، وأمر عليه بالحبس، وأقام محبوسًا عدّة أيام. وأخيرًا قطع جرمه بمقدار خمسة أكياس. فاقتضى أنّه نفد كلّ شيء معه، وباع بعض موجوده حتّى أكمل ذلك".

"وبعد خلاصه من السجن صمّم على أن يذهب إلى رومية، ويجعل مروره على حلب ليرى رعيّته. فأرسل أوّلاً إلى نائبه الأب الخوري ميخائيل جربوع يأمره بأن يجمع بعضًا من أعيان الطائفة، ويستشيرهم بذلك. فجمع خمسة أنفار. فالثلاثة منهم وهو ذاته لم يروا حضوره مناسبًا، والاثنان ترجَّح عندهما حضوره. فلمّا حصل الرأي للأغلب، حرّروا له بعدم المجيء. وبعد ذلك بلّغ هذا لبقيّة المتوجّهين من الارخندس، فاستحسن رأيهم بحضوره. وشاع ذلك عند الجميع، وتحرّر له عرض مختوم من عدّة أنفار من التراجمين والفرَمنْليّة والأتباع، مضمونه أن يحضر مستترًا".

"فلمّا قرب رجوع الحجّ، ورأى أنّ الجبل هائج، وله أضداد كثيرون كما تقدّم، فعاد التزم ضرورة السفر، وعزم على المجيء إلى حلب. ولمّا وصل إلى وادي الدورات مع القفل، طلع عليهم العرب، وضربوا القفل، وسلبوا كلّ ما كان له ولغيره. وبقي هو ومَن كان معه عراة حفاة. ومشى هو والقسّ ميخائيل قديد حافيين عاريين إلى إحدى القرى التي تبعد أربع ساعات، حتّى حصلوا

---

[197]- هذا الكتاب محفوظ في مخطوطة بغداديّة وحيدة، أطلعنا عليها صديقنا الأستاذ فوّاز فوّاز من دير الزور. فله منّا الشكر.

على سترة ممكنة، وجاء إلى حلب على هذا المنوال في أواخر أيلول سنة ١٧٩١. ونزل في بيت أخيه القسّ بطرس آدم. وحالاً صار له كسوة وافرة وخرجيّة وافرة من كلّ من أنفار الطائفة، كلٌّ على قدر استطاعته. ورأينا فيه عيانًا ما كنّا نسمعه بالآذان، وهي الأوصاف المفردة في عصرنا هذا، وهي شهامة النفس وزيادة العِلم، والفصاحة المتبَّلة بالحلاوة، واتّضاح الروح. وبعد إقامته في بيته ابتدأ يفتقد رعيّته".

ويقول تاريخ الرهبانيّة الشويريّة: "في شهر آب من سنة ١٧٩١ توجّه المطران جرمانوس آدم إلى مدينة حلب أبرشيّته، وصحبته الأب القسّ ميخائيل قديد الملقب بالنحويّ، وهو ابن أخي الصالح الذكر الخوري يعقوب (الصاجاتيّ) الرئيس العامّ. فلمّا وصلوا لعند معرّة (النعمان) قرب حلب، طلع عليهم عرب ونهبوا القفل، وشلّحوا المطران جرمانوس ورفيقه القسّ ميخائيل. وفي هذه الحادثة فُقِدَ للمطران شيء مقداره يساوي مبلغ خمسة عشر ألف غرش.

لكنّ المطران جرمانوس، ما إنْ حلّ في حلب حتّى واجه معارضة عنيفة، تجسّمت في "قصّة الأكمام"، التي لا بدّ لنا الآن من سردها، وإن كانت سخيفة في جوهرها. إلاّ أنّها اتّخذت أبعادًا عكست تفاقم الخلافات بين المطران وبطريركه، وبين المطران وإكليروسه الحلبيّ.

قصّة الأكمام (١٧٩٢)

نروي هذه القصّة باختصار، مستندين إلى الشاهد العيان نفسه، وهو المؤرّخ يوسف بن ديمتري بن جرجس الخوري عبّود الحلبيّ، الروميّ الملكيّ، في كتابه: "المرتاد في تاريخ حلب وبغداد".

أبطال القصّة: المطران جرمانوس آدم في أوّل زيارة يقوم بها لأبرشيّته الحلبيّة. نائبه العامّ في حلب الخوري ميخائيل جربوع، وابن أخيه القسّ اسطفان جربوع. أخيرًا البطريرك أثناسيوس جوهر، خصم المطران جرمانوس آدم. موضوع الخلاف: زوج أكمام ثمينة من إحدى البدلات الحبريّة التي خلّفها المطران المتوفّي أغناطيوس جربوع، والتي ادّعى القسّ أسطفان أنّها تعود له مكافأة على الخدمات التي قدّمها للمطران الراحل، بينما شدّد المطران جرمانوس آدم على أنّها تعود له بصفته خلفًا لسلفه على كرسيّ حلب. قيمة زوج الأكمام بحدّ ذاتها: بسيطة جدًّا بالنسبة للخلاف المصطنع الذي دار حولها، والذي يجب أن نذكر الآن أهمّ تفاصيله:

في أوائل سنة ١٧٩٠، بينما كان المطران جرمانوس آدم مقيمًا في لبنان، يدير أبرشيّته الحلبيّة بواسطة نائبه العامّ الخوري ميخائيل جربوع، حدثت بين هذا الأخير وبين بعض أبناء الطائفة خصومة، إذ كان يريد أن يساوي بين جميع أبناء الطائفة، من أغنياء وفقراء، في تحمّل الضرائب والغرامات المتوجّبة على الطائفة. وسانده في ذلك المطران جرمانوس آدم. لكنّ موقفه هذا العادل أثار عليه نقمة بعض أبناء الطائفة المتنفّذين.

في هذه الأثناء كان المطران جرمانوس مكلّفًا من قِبل الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ بترؤّس المجمع اللبنانيّ المارونيّ. وبسبب هذه المهمّة الصعبة، قام عليه أعداء ومناوئون كثيرون، حتّى أنّه في بداية سنة ١٧٩١ سُجن في دير القمر، في حكم الأمير بشير الشهابيّ، "واقتضى له أن يدفع جرمًا مقداره خمسة أكياس". فكتب إلى نائبه في حلب "يطلب مساعدة بما بقي عليه، وقدره ألف ومئة غرش".

"ثمّ أمره أن يجمع بعض أنفار من أرباب المشورة ويأخذ رأيهم" في ما إذا كان من المناسب حضوره إلى حلب أم لا. وهنا اختلفت الآراء. "وكان ذلك في جمعة أحد الشعانين" من عام ١٧٩١. فقرّر الخوري ميخائيل جربوع أنّ حضور المطران في مثل تلك الظروف غير مناسب، بينما ارتأى الفريق الآخر من الأعيان رأيًا معاكسًا، وكتبوا إلى المطران يرحّبون بقدومه. وكان المطران يريد المجيء إلى حلب. لكنّ الخوري ميخائيل جربوع تشبّث برأيه، ممّا ترك في قلب المطران استياءً ومرارة كبيرة. وفي نهاية الأمر أرسل أعيان الطائفة إلى المطران كتابًا بتاريخ ٨ أيار سنة ١٧٩١ يدعونه فيه إلى حلب في منتصف شهر أيلول. فلمّا تسلّم المطران هذه الدعوة، التي كان يتمنّاها، قرّر السفر إلى حلب فورًا.

وحدث له، كما رأينا، قبل بلوغه إلى حلب، حادث السطو من قبل بعض الأعراب، فسرقوا منه جميع أمتعته وأمواله. مع ذلك فقد بلغ حلب، "ونزل في بيت أخيه. وكلٌّ من أبناء الطائفة، من أوجه القوم وأوسطهم، تشرّفوا بقبلة يديه، وبذلوا له الإكرام، بعضهم بملابس وبعضهم بل أكثرهم بالعطيّة..." على أنّه تخلّف عن المجيء بعض الأعيان، من أصدقاء الخوري ميخائيل جربوع، ومنهم "ولدا الدلاّل"... وبدأ النفور بين المطران وبين الخوري ميخائيل نائبه.

"وفي ابتداء الصيام من عام ١٧٩٢، ظهرت عند القسّ أسطفان، ابن أخي الخوري ميخائيل، أكمام من متروكات المرحوم المطران أغناطيوس جربوع. والقسّ المذكور، بما أنّ أحواله ضيّقة جدًّا، أراد بيعها. فأحد الكهنة أشار عليه

أن يبيعها إلى المطران جرمانوس، خيرًا من بيعها إلى الغريب. فلمّا رآها قدسه قال أنّ هذه الأكمام من متروكات مطران. فلأي سبب هي موجودة عند القسّ أسطفان؟ وقال للأب الكاهن الذي أحضرها له: إمضِ أرسل لي القسّ لأستخبر منه كيف أمرها... لكنّ القسّ أسطفان لم يأت، بل أرسل للمطران ورقة بخطّ البطريرك وختمهِ فحواها أنّ القسّ أسطفان، بسبب أتعابه في خدمة المطران أغناطيوس، عنده جوز أكمام من متروكاته، فأذنّا له بلبسها ولا أحد يتعرّض له أو يطالبه بها..."

فاستاء المطران جرمانوس من تدخّل البطريرك في هذه القضيّة، ومن رفض القسّ أسطفان الحضور لديه... ويتفاقم الشرّ. ويركب القسّ أسطفان رأسه ويتكلّم بحقّ المطران. ويصرّح المطران بأنّ البطريرك وهب ما لا يملك. وتتحوّل المسألة إلى تحدّ سافر. ويتداخل الكهنة في الخلاف إلى جانب مطرانهم، ما عدا الخوري ميخائيل النائب العامّ والقسّ أسطفان والقسّ أنطون قديد، ومعهم "أولاد الدلاّل": ميخائيل وباسيل، وخصوصًا نصرالله دلاّل "الذي أقسم بأنّه سوف يربّي المطران".

وتوسّط في النـزاع مطران الموارنة جبرائيل حوشب، فلم يوفّق. لكنّ الكهنة المعارضين لمطرانهم لجأوا إليه، وبواسطته رفعوا دعواهم إلى البطريرك بعد عيد الفصح من سنة ١٧٩٢. فبادر المطران إلى معاقبة أخصامه...

"فبعد العيد وجّه المطران جرمانوس ورقة رباط إلى القسّ أنطون قديد. وأرسل أيضًا إلى القسّ أسطفان أمرًا في الرباط والمنع من التصرّف.. وبعد ما ينيف على عشرة أيام، أرسل أمرًا للخوري ميخائيل سرًّا يتضمّن أنّ الأوراق التي عنده محفوظة وهي مختصّة بقدسه يرسلها من غير تأخير..."

"ثمّ أنّه في نصف أيار لعام ١٧٩٢ حضر الساعي الذي كانوا أرسلوه إلى الجبل" إلى عند البطريرك. والبطريرك بعث للخوري ميخائيل بكتاب يعفيه فيه من الطاعة لمطرانه، وبعث للمطران جرمانوس بكتاب يؤنّبه فيه. كما كتب للكاهنين الآخرين المعارضين، "ومكتوبًا مستطيلاً للارخندس العلمانيّين".

وقد تداخل أيضًا في الأمر مطران بيروت أغناطيوس صرّوف، فساعد الحزب المناوئ لجرمانوس آدم، وأوغر صدر البطريرك عليه.

"وحين ورود الساعيّ، ووصلت المكاتيب ليد الخوري (ميخائيل جربوع)، حالاً أرسل فجمع جميع مؤازريه بهذه الدعوى، وقرأها بغاية الفرح، وحالاً أشهدوا مع الأتباع أنّهم كسبوا الدعوى على مطرانهم، وأشاعوا بأنّهم صاروا تحت حكم البطريرك".

وقد حمل اثنان من كهنة الموارنة المكاتيب للمطران. فقبل المطران أن يحلّ الكاهنين المربوطين. على أنّه أعلمهما أنّه رفع دعواه هو أيضًا إلى الكرسيّ الرسوليّ، ضدّ تدخّل البطريرك في أمور أبرشيّته. ثمّ كتب للبطريرك يعاتبه لتحيّزه وعدم سماعه حقيقة الأمر. ثمّ حرّر مكتوبين على لسان الرعيّة، الواحد إلى البطريرك، والثانيّ إلى المجمع المقدّس، وصمّم على التوجّه إلى رومة. وازدادت المقاومة بين الطرفين. وتبلبلت الرعيّة وهاجت ضدّ الإكليروس عمومًا. لكنّ الخوري ميخائيل جربوع تصلَّب في رأيه.

ثمّ جاءت جوابات البطريرك الثانية وهي أثقل من الأولى. "فعاد قدسه جدَّ على الذهاب (إلى رومة). وصار ينتظر دخول محرَّم ليطالع الخراج. فلمّا دخل محرَّم حالاً أخرج التسكره، ونهار الاثنين مساء صمّم على الذهاب، بالرغم من تدخّل الخواجه يوسف بن قرألي المارونيّ. وعاد توجّه قدسه نهار الأربعاء مساء الموافق في ١١ آب (١٧٩٢). وفي نيسان سنة ١٧٩٣ حضرت من قدسه مكاتيب بوصوله إلى تريستا بكلّ سلامة، وحصل له غاية الإكرام من أهلها".

هذا وأنّ مخطوط المؤرّخ يوسف بن ديمتري بن جرجس الخوري عبّود يتضمّن النصّ الكامل للوثائق الثلاث عشرة المتعلّقة بهذه القضيّة، التي هي بحدّ ذاتها تافهة للغاية، لكنّها أخذت أبعادًا كبيرة، لا بسبب موضوعها بالذات، بل بسبب ما عكسته من خصومات سابقة وأحقاد مكبوتة. فهي تعطينا صورة صادقة عن العلاقات المتوتّرة بين المطران جرمانوس آدم من جهة، والبطريرك أثناسيوس جوهر ومطران بيروت أغناطيوس صرّوف من جهة أخرى، كما تبرز لنا روح الخصومة في المطران جرمانوس آدم، واعتداده بذاته، وتصلّبه برأيه وطبعه الجافّ، مقرونًا بثقافة عالية وعِلم غزير، مع حنكة نادرة في تعقيد الأمور، حتّى البسيطة منها. ولا أبلغ من "قصّة الأكمام" مثلاً على المشاكل التافهة التي تسمّم حياة البيئات المغلقة، ولاسيّما الإكليريكيّة منها، فتتصاعد الأمور، ويجد الرؤساء الأعلون أنفسهم في حرج أمامها. ونحن نعلم أنّ رومة سوف توعز يومًا بلطف إلى المطران جرمانوس آدم بإعادة زوج الأكمام إلى صاحبها، ووضع نقطة الختام على مشكلة كان من الأجدر ألاّ تُثار منذ البداية...

التجوّل في إيطاليا (١٧٩٢- ١٧٩٧).

أبحر جرمانوس آدم من مرفأ اللاذقيّة في غضون شهر آب أو أيلول سنة ١٧٩٢، قاصدًا رومة. لكنّنا نرى في الوثائق المعاصرة أنّه تلكّأ بعض الشيء في الطريق، إذ كان ما يزال في مدينة تريستا خلال شهر آذار أو نيسان من السنة التالية ١٧٩٣، حيث "حصل له غاية الإكرام من أهلها".

ثمّ توجّه جرمانوس آدم إلى رومة، وغايته الحصول من المجمع المقدّس على إبطال أعمال مجمع دير المخلّص، المنعقد في أواخر عام ١٧٩٠، وانتزاع أبرشيّة حلب من سلطة البطريرك الأنطاكيّ، وإخضاعها مباشرة لرعاية الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ.

وكان جرمانوس آدم واثقًا من نفسه تمام الثقة، لاسيّما وأنّ البطريرك أثناسيوس جوهر لم يوفد وكيلاً للدفاع عنه. على أنّ قرار المجمع المقدّس، الصادر في ٢٦ نيسان ١٧٩٣، والذي وافق عليه البابا بيوس السادس في ١٩ أيلول ١٧٩٣، جاء مخيّبًا لآماله. ويلخّص القرار بأنّ الكرسيّ الرسوليّ لا يقبل أن تكون أبرشيّة حلب تحت سلطته المباشرة، وأنّه يتوجّب على البطريرك أن يعامل المطران جرمانوس آدم بلطف ووداعة، وأن لا يتدخّل في أمور أبرشيّته دون سبب. كما أنّه يتوجّب على المطران جرمانوس آدم أن يحترم بطريركه ويخضع لأوامره، وأن يبادر فيزوره عند عودته إلى الشرق. لأنّه لا بدّ من الرجوع إلى أبرشيّته والاهتمام بأمورها. وعليه أن يردّ "الأكمام" لصاحبها، أو يدفع له ثمنها "حبًّا بالسلام".

ونستبين من بنود هذا القرار أنّ رومة آثرت في هذه القضيّة إرضاء البطريرك أثناسيوس جوهر، وتجنّب نزوات غضبه المعروفة، أكثر من اعتبار حقوق المطران جرمانوس آدم ومراعاة شعوره.

ويتوفّى البطريرك أثناسيوس جوهر في ٢١ تشرين الثانيّ من السنة التالية ١٧٩٤. وينتخب أساقفة الطائفة خلفًا له كيرلّس الرابع سياج في دير مار الياس رشميا بتاريخ ٣٠ تشرين الثانيّ ١٧٩٤. على أنّه لم يشغل الكرسيّ البطريركيّ إلاّ أقلّ من سنتين، إذ توفي بدوره في ٢٦ تموز سنة ١٧٩٦. فينعقد مجمع في دير مار جرجس الغرب في ٣١ آب ١٧٩٦ لانتخاب خلفه البطريرك أغابيوس مطر، ولم يحضره المطران جرمانوس آدم، لأنّه كان لا يزال في إيطاليا. كما أنّه لم يحضر كذلك المجمع المنعقد في دير الملاك ميخائيل بالزوق من ١١ إلى ١٤ أيلول سنة ١٧٩٧ لحلّ الرهبانيّة السمعانيّة. ولم يعُد إلى حلب إلاّ في ٧ نيسان سنة ١٧٩٨. فيكون غيابه في إيطاليا قد دام نحو ستّ سنوات.

ماذا فعل جرمانوس آدم في إيطاليا خلال هذه المدّة الطويلة؟

اتّصالات مشبوهة

في البدء حاول جرمانوس آدم أن يتّصل بعدد من الأساقفة الإيطاليّين لكي يحصل على مساعدتهم ونفوذهم لنصرة قضيّته الشخصيّة. لكنّ تجواله في إيطاليا أدَّى في نهاية الأمر إلى احتكاكه ببعض اللاهوتيّين المتطرّفين، من أساقفة وكهنة، ممّن كانوا يشكّكون في رئاسة الحبر الرومانيّ وسلطته على الكنيسة، ويقولون بأولويّة المجامع المسكونيّة والمصافّ الأسقفيّ.

وهكذا نرى جرمانوس آدم يطوف عواصم إيطاليا متردّدًا بين رومة وفلورنسا وليفرنو ونابولي ومسّينا ومالطه. ويكتب من مسّينا مصرّحًا بأنّه قاطع مجمع انتشار الإيمان مقاطعة نهائيّة، لأنّه في مروره برومة في نيسان سنة ١٧٩٦ تعرّض لتوبيخ حادّ اللهجة من قبل الكردينال أنطونللي، رئيس المجمع، الذي أنّبه لتجواله في إيطاليا وعدم عودته إلى أبرشيّته، أو أقلّه إلى لبنان[١٩٨].

وكان من بين الذين أثّروا أعمق تأثير عليه في إيطاليا مطران مدينتي بستويا وبراتو المدعو شيبيو ريتشي (Scipion Ricci)، المعروف بأفكاره المناوئة لسلطة البابا الفرديّة. كما أنّه اتّصل إذ ذاك ببعض الأساقفة الفرنسيّين اللاجئين إلى إيطاليا هربًا من الثورة الفرنسيّة، وهم من دعاة الأفكار "الغليكانيّة" المشابهة لها.

ومن إيطاليا يتابع جرمانوس آدم أحوال أبرشيّته الحلبيّة، فيكتب إلى إكليروسه بتاريخ ٧ كانون الثانيّ ١٧٩٧ رسالة يدحض فيها ادّعاء حارس الأراضي المقدّسة الذي أراد أن يمنح سرّ التثبيت ثانية لأبناء طائفة الروم الكاثوليك بحلب.

في حلب من جديد (١٧٩٨)

أخيرًا يقرّر المطران جرمانوس آدم أن يغادر إيطاليا ويعود إلى الشرق. فيصل إلى حلب في ٧ نيسان سنة ١٧٩٨[١٩٩]. ولكن شتّان ما بين المطران جرمانوس آدم الذي غادرها حاملاً لواء الرئاسة الرومانيّة، والمطران

---

198 Archives Propagande, Greci Melchiti, no. 10, fol. 441.
199 Archives Propagande, Greci Melchiti, no. 10, fol. 474- 475.

جرمانوس آدم الذي عاد إليها مشكّكًا فيها وداعيًا إلى التحرّر من قيودها. فإنّ موقف رومة منه قد غيَّر تمامًا موقفه منها...

وقد بلغتنا رسالة من أحد المرسلين بحلب إلى مجمع انتشار الإيمان في رومة بتاريخ ١٢ حزيران ١٧٩٨، تعكس لنا أصداء تلك الآراء الغليكانيّة والفبرونيّة التي أخذ جرمانوس آدم ينشرها بين مواطنيه الحلبيّين. قال المرسل[200]: يدَّعي جرمانوس آدم أنّ أساقفة إيطاليا أنفسهم ما عادوا يعيرون أيّ اعتبار لقرارات الباباوات القديمة (Décrétales). ويعتقد آدم أنّ أساقفتنا الفرنسيّين، حتّى اللاجئين منهم إلى إيطاليا، لا يأتمرون من صميم قلوبهم بالطاعة للحبر الأعظم. وقال لنا أنّ الكرسيّ الرسوليّ أصدر مؤخّرًا براءة شجب فيها الحريّات الغليكانيّة[201] (أيّ امتيازات الكنيسة في فرنسا)، وأنّه استغلّ المصائب التي تعرّض لها أساقفتنا الفرنسيّون اللاجئون إلى رومة لكي يضطرّهم إلى التوقيع بقبول هذه البراءة. على أنّ هؤلاء الأساقفة آثروا الانصياع إلى صوت ضميرهم على الإذعان لأوامر الحبر الأعظم... وإنّنا نلاحظ أنّ أناسًا عديدين، منذ عودة المطران جرمانوس إلى حلب، يعيشون في حالة اضطراب نفسانيّ ويسألوننا: هل صحيح، كما يدّعي كهنة الروم، أنّ الأساقفة الكاثوليك في أوروبا ما عادوا يطيقون الخضوع للكرسيّ الرسوليّ، وأنّ كلّ واحد منهم أخذ يطالب بالحقوق الأسقفيّة التي سلبه إيّاها الكرسيّ الرسوليّ؟".

هذا وفي حلب حول سنة ١٨٠٠، كان عدد الروم الملكيّين الكاثوليك يناهز العشرين ألفًا[202].

العودة إلى لبنان: خلافه مع المرسلين (١٧٩٩- ١٨٠٥)

لكنّ جرمانوس آدم ما لبث أن عاد إلى لبنان، إذ نراه في شهر آذار سنة ١٧٩٩ مقيمًا في دير الملاك ميخائيل بالزوق، ومنه يوجّه الرسائل والمنشورات المختلفة ضدّ المرسلين في الشرق. وكانت الفرصة المناسبة لذلك، الخلاف المستعصيّ منذ زمن غير قليل بين الرهبانيّة الشويريّة ومطران بيروت أغناطيوس صرّوف حول دير مار سمعان في قرية كفر عقاب، والرهبانيّة السمعانيّة التي كان هذا الأخير قد أسّسها سنة ١٧٩٦، لكنّ

[200] Archives Propagande, loc. Cit.
[201] Pie VII, Auctorem fidei, 18 Août 1794.
[202] Annales de la Propagation de la Foi, t. VIII, p. 565.

البطريرك أغابيوس مطر رفض أن يعترف بها ويقرّها، حتّى ولو بصفة أخويّة علمانيّة. ثمّ عقد مجمعًا عامًّا في دير الملاك ميخائيل بالزوق في ١١ أيلول سنة ١٧٩٧، تقرّر فيه حلّ الرهبانيّة المذكورة، وتحويل الدير إلى مدرسة، وفقًا لنيّة مؤسّسه البطريرك الراحل أثناسيوس دهّان. لكنّ المطران صرّوف، بعد أن بدا منه في البداية بعض الإذعان لهذه القرارات، عاد فثار عليها، واستغاث بالكرسيّ الرسوليّ. وعبثًا حاول البطريرك أن يقنعه بالعدول عن موقفه، فاضطرّ في نهاية الأمر إلى تحكيم سائر البطاركة الكاثوليك في لبنان، وهم البطريرك السريانيّ ميخائيل جروه، والبطريرك المارونيّ يوسف تيان، والبطريرك الأرمنيّ غريغوريوس. فالبطريرك الأرمنيّ اعتذر عن التدخّل في هذه القضيّة. والبطريرك المارونيّ وقف إلى جانب البطريرك أغابيوس مطر. أمّا البطريرك السريانيّ جروه فقد لجأ إلى الآباء المرسلين لإبداء الرأي. وفي ٢٧ تشرين الثّانيّ ١٧٩٧ تبنّى رأيهم ونشره بعنوان "صوت الآباء المرسلين"، وهو يقضي بتوقيف مفعول قرار البطريرك ومجمعه إلى أن يأتي جواب رومة. إذ ذاك استاء البطريرك أغابيوس مطر، وعهد إلى المطران جرمانوس آدم بأن يدحض رأي المرسلين. فكتب جرمانوس آدم ردّه الشهير: "جواب المطران جرمانوس آدم أسقف حلب وتوابعها على الكتاب المعنون: صوت الآباء المرسلين"، أنهاه في ٢٠ آذار سنة ١٧٩٩ في دير الملاك ميخائيل بالزوق[٢٠٣].

ولمّا ضمّن جرمانوس آدم كتابه هذا أهمّ الآراء الغليكانيّة والفبرونيّة المتطرّفة، التي نادى بها بوسويه وفبرونيوس وريتشي وجرسون، وأعضاء مجمعي كونستنسا وبال، وأنصار حريّات وامتيازات الكنيسة الفرنسيّة في بيانهم الشهير الصادر سنة ١٦٨٢، حدث للكاثوليك في الشرق شكّ وعثرة. واضطرّ البطريرك المارونيّ يوسف تيان أن يكتب إليه في ١٥ آذار ١٨٠١ ويطلب منه، وقد كان صديقه الحميم حتّى ذاك الوقت، أن يسحب كتابه من استعمال المؤمنين لئلاّ يحكم عليه علنًا. فأجاب آدم أنّه لن يسحب شيئًا من تعاليمه، لأنّها تعاليم الكثيرين من علماء الغرب. فعاد البطريرك تيان في ٢٥ آذار ١٨٠١ ورجاه أن يتراجع عن موقفه. لكنّ جرمانوس أبلغه أنّه نقل بوسويه Bossuet. فوجّه البطريرك تيان إلى أبناء طائفته المارونيّة رسالة يشجب فيها كتاب المطران آدم، ويطلب منهم اتلاف النسخ التي قد تكون في

---

[203] C. CHARON, Ignace Sarrouf, évêque de Beyrouth, et l’affaire de la Congrégation de Mar Semaan (1798- 1806), dans Echos d’Orient, t. 5 (1901- 1902), p. 264- 270.

حوزتهم منه. لكنّ المطران جرمانوس آدم وجّه بدوره في ٦ نيسان ١٨٠١ رسالة معاكسة إلى أبناء أبرشيّته يردّ فيها على حملة البطريرك المارونيّ ضدّه. وتدخّل البطريرك أغابيوس مطر في الخلاف إلى جانب صديقه ومطران طائفته، فوجّه في ٣ حزيران ١٨٠١ رسالة إلى أبناء البطريركيّة الأنطاكيّة يدافع فيها عن المطران جرمانوس آدم. ثمّ تداخل الآباء المرسلون ضدّ المطران جرمانوس آدم، لاسيّما الأب الكبّوشيّ Robert المقيم في طرابلس وغيره ودامت الحملة عليه ومعه حتّى سنة ١٨٠٣. وفي الأثناء، بلغت القضيّة إلى المراجع الرومانيّة. فطلب البابا بيوس السابع بتاريخ ١٣ شباط ١٨٠٢ من البطريرك أغابيوس مطر أن يحقّق في الأمر، وأن يفرض على المطران جرمانوس آدم وأتباعه أن يوقّعوا على الوثائق الرومانيّة التي حكمت على المطران ريتشي ومجمع بستويا. ثمّ أهملت الدوائر الرومانيّة هذه القضيّة ولم تتابعها...

لكنّ البطريرك يوسف تيان عاد في ٢٢ شباط ١٨٠٥ فأصدر منشورًا يمنع فيه قراءة مؤلّفات المطران جرمانوس آدم[٢٠٤].

دوره الرئيسيّ في مجمع القرقفه (سنة ١٨٠٦)

على أنّ الأثر الأكبر الذي تركه المطران جرمانوس آدم يتجلّى لنا في المجمع الطائفيّ العامّ المنعقد في دير مار أنطونيوس القرقفه من ٢٣ تموز إلى ٣ آب سنة ١٨٠٦. فكان له فيه القدح المعلّى. وقد حضره البطريرك أغابيوس مطر وتسعة أساقفة مع الرؤساء العامّين وأعضاء الإكليروس البارزين، منهم الخوري ميخائيل مظلوم، ممثّلاً لإكليروس حلب، وأمين سرّ المجمع. وقد تسرّبت إلى أعمال هذا المجمع بعض تطرّفات عقائديّة وغيرها، من رواسب آراء المطران جرمانوس آدم، الذي أعدّه، ودوّن قراراته، وكان لولب الحركة الدائمة فيه[٢٠٥]. مع ذلك فإنّ المعاصرين لم يجدوا فيه لأوّل وهلة سوى النواحي الإيجابيّة، وهي في الواقع كثيرة. فوافق عليه البطريرك أغابيوس مطر، وكذلك البطريرك المارونيّ نفسه يوسف تيان الذي مدحه في رسالة مؤرّخة في ١٥ شباط ١٨٠٩[٢٠٦]، والقاصد الرسوليّ لويس غندلفيّ Gondolfi[207]. وقد

[204]- عنه نسخة في محفوظات مطرانيّتنا بحلب، سجلّ ٥ عدد ٩.

[205] C. CHARON, Germanos Adam et le Concile de Carcafé (1806) dans Echos d'Orient, t. 5 (1901- 1902), p. 332- 343.

[206] MANSI, t. 46, col. 869.

[207] MANSI, t. 46, col. 870.

طبعت قرارات هذا المجمع وانتشرت في سورية سنة ١٨٠٩ و١٨١٠ قبل أن يقرّها الكرسيّ الرسوليّ.

وانتشرت معها أيضًا آراء حول فاعليّة الكلام الربّانيّ في تحويل القرابين، وضرورة تلاوة الصلاة المتضمّنة استدعاء الروح القدس (Epiclèse). وقام الجدل بين المؤمنين في حلب.

وممّا لا شكّ فيه أنّ آراء جرمانوس آدم بدت للمعاصرين متطرّفة بل هرطوقيّة ومخالفة للعقيدة الكاثوليكيّة. إلاّ أنّ الذين فحصوها مؤخّرًا عن كثب أبدوا موقفًا أكثر تحفّظًا. ففي أغلب الأحيان، ليس جرمانوس آدم سوى ناقل للأفكار الغليكانيّة والفبرونيّة الرائجة بين علماء الغرب في عصره. وهو أحيانًا مجرّد شاهد أمين للتقليد الكنسيّ الشرقيّ الأرثوذكسيّ، في ما لا يتعارض مع جوهر العقيدة الكاثوليكيّة. ولعلّه في أغلب مواقفه سابق لعصره... وقد يكون شطّ أحيانًا عن المعتقد الكاثوليكيّ...

ومهما يكن من أمر، فبعد وفاته، أيّ في ٦ آذار سنة ١٨١٢، أرسل مجمع انتشار الإيمان تعليمات صارمة يشجب فيها أفكار فبرونيوس وكباسيلاس، التي كان روّجها جرمانوس آدم في سورية ولبنان. وقد وقّعها ممثّلو الكنائس الملكيّة والأرمنيّة والسريانيّة والمارونيّة. وهذه الطوائف أمرت بجمع كتب جرمانوس آدم وحرقها. وهذا سبب ندرتها وصعوبة الحصول عليها.

وفي ٣ حزيران سنة ١٨١٦ نهى البابا بيوس السابع تحت طائلة الحرم عن قراءة مؤلّفات جرمانوس آدم، ولاسيّما كتاب تعليمه المسيحيّ. وقد تجدّد هذا النهي في قرار ملحق مؤرّخ في ٨ أيار ١٨٢٢.

ثمّ في ٣ حزيران سنة ١٨٣٥، حكم الكرسيّ الرسوليّ على مجمع القرقفه جملة، لأنّه تسلّلت إليه بدع هرطوقيّة.

الجدالات اللاهوتيّة في حلب

سنة ١٨٠٣ أنهى المطران جرمانوس آدم كتابه الكبير "إيضاح البراهين الثابتة في حقيقة الأمانة الأرثوذكسيّة"، وفيه اعتمد بعض آراء تحدّ من سلطة البابا على الكنيسة، وتقول بتفوّق المجمع المسكونيّ عليه، كما تنكر سلطته المباشرة على الأبرشيّات، وتركّز على ضرورة استدعاء الروح القدس لتتميم استحالة القرابين إلى جسد المسيح ودمه.

كان المطران جرمانوس آدم يعرف أنّ هذه الآراء بعيدة عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة التقليديّة. لذلك لم يشأ أن تنتشر هذه التعاليم في صفوف الشعب. بل

كتبها كعالم لاهوتيّ ينظر إلى الأمور المجرّدة، ويعتبر أنّ ما لم تحرِّمه الكنيسة بوجه رسميّ يجوز الأخذ به في البيئات العلميّة. فحرص على حفظ نسخ الكتاب سريّة، ولم يطّلع عليها سوى القليلين من إكليروسه، من بينهم الخوري ميخائيل النحويّ والقسّ ميخائيل مظلوم.

إلاّ أنّ بعض محبّي الخصام تمكّنوا من الاطّلاع على هذا الكتاب، فراحوا ينشرون مضمونه بين الشعب لكي يحطّوا من سمعة المطران جرمانوس آدم، وينتقموا من موقفه الحازم تجاه المرسلين، ويرغموا الروم الملكيّين المتحمّسين لأسقفهم على الاعتراف جهارًا بضلاله. فانقسمت الطائفة إلى قسمين أو حزبين: حزب "الآدميّين" وحزب "المعارضين". وأصبحت المسائل الدينيّة الدقيقة، كما في العصور البيزنطيّة القديمة، موضوع أحاديث الناس في السهرات والأسواق، مع ما يرافق ذلك من تصلّب في الرأي وتهجّم وعنف.

وإذ تبلغ أنباء الخصومات آذان المطران جرمانوس في زوق مكايل، يكتب رسالة بتاريخ ١٠ تموز ١٨٠٩ يمنع فيها المجادلة في تآليفه. ويعلن لكهنته في رسالة أخرى بتاريخ ١٧ تموز ١٨٠٩ أنّ رأيه مقبول كالرأي المعاكس، وأنّه يمكن التمسّك به ما دام الكرسيّ الرسوليّ لم يحسُم القضيّة. أمّا منشور البطريرك أغابيوس مطر فيعلن اعتقاده واعتقاد أساقفة الطائفة بالتعليم الكنسيّ التقليديّ العامّ، دون أن يحرم الرأي المخالف.

ويظلّ التنافر بين الفئتين. فيبعث البطريرك بمنشور ثانٍ بتاريخ ٣٠ أيلول ١٨٠٩، يطلب فيه "رذل" الرأي المخالف. فيصرّ الفريق "الآدميّ" على فهم كلمة "رذل" بموجب المنشور الأوّل، أيّ أنّه يجب إهمال هذا الرأي وعدم المحاماة عنه منعًا للشكوك والاسجاس، بغضّ النظر عن صحّته أو غلطه. أمّا الفريق المعارض "الكاثوليكيّ" فيصرّ على وجوب اعتبار هذا الرأي مرذولاً بحدّ ذاته... ويبقى الخلاف على حاله، وتبقى العرائض ترسل، ومناشير البطريرك تفد... حتّى يوم وفاة المطران جرمانوس آدم في ١٠ تشرين الأوّل سنة ١٨٠٩.

على أنّ الخلافات ما زالت مستمرّة، وسوف تعكّر جوّ انتخاب خلفه المطران مكسيموس مظلوم.

وفاته

توفي جرمانوس آدم في ١٠ تشرين الأوّل سنة ١٨٠٩ "بدير ماري ميخائيل الزوق"، كما تخبرنا حوليّات الرهبانيّة الشويريّة، "حيث صار له جنّاز حافل، ولحّدوه في كنيسة الدير المذكور".

وعند وفاته، أعلن جرمانوس آدم أنّه يُخضِع جميع مؤلّفاته لحكم الكرسيّ الرسوليّ، وأنّه يموت كاثوليكيًّا متّحدًا بالحبر الأعظم وخاضعًا له.

بل أنّ الكرسيّ الرسوليّ إذ ذاك، وإن كان متحفّظًا بعض الشيء حياله، إلاّ أنّه كان يثق مع ذلك بعلمه وتقواه وحنكته في تدبير الأمور. ففي رسالة مؤرّخة في ٢٥ تشرين الثانيّ سنة ١٨٠٩، وقد وصلت بعد وفاته، كتب له مجمع انتشار الإيمان يكلّفه بإنهاء خلاف بين المطران المارونيّ حوّا وبطريركه يوسف تيّان، وخلاف آخر بين بطريرك السريان الكاثوليك ومجمع انتشار الإيمان عينه...

وقد رثاه المعلّم نقولا الترك في ديوانه مؤرّخًا وفاته:

هَنِّ ابنَ آدمَ بالفردوس حيثُ قضى — أبهى حياةٍ بتقوى اللهِ منتهية
جرمانوسُ السيّدُ المفضالُ مَنْ شَهدت — لفضلِه الساميّ المشهور كلُّ فِئة
نِلتَ الإكليلَ في سنةٍ مؤرَّخَةٍ — جاءَت بألفٍ وتسعٍ مع ثماني مئة

انتاجه الأدبيّ

١) كراريس وتقارير مختلفة ضدّ البطريرك أثناسيوس جوهر وأنصاره من الرهبان المخلصيّين، كتبها بين سنة ١٧٦٣ وسنة ١٧٦٨.

٢) "إيضاح اعتقاد الآباء القدّيسين ضدّ إلحاد المشاقين"، كتبه في حلب سنة ١٧٦٧.

٣) "الردّ على صوت المرسلين"، انتهى من كتابته في دير الملاك ميخائيل بالزوق في ٢٠ آذار سنة ١٧٩٩.

٤) "إيضاح البراهين اليقينيّة على حقيقة الأمانة الأرثوذكسيّة" كتبه في زوق مكايل سنة ١٨٠٣.

٥) "منارة التعاليم النفيسة في شرح سلطة الكنيسة"، أنهى كتابه في الزوق في ٢١ آذار سنة ١٨٠٤.

٦) "شرح التعليم المسيحيّ"، المعروف بالتعليم المسيحيّ الصغير، كتبه في الزوق، وطُبع في مطبعة الشوير سنة ١٨٠٢. وكان القصد منه إحلاله محلّ "التعليم" الذي وضعه الكردينال بلّرمينوس. لكنّ رومة شجبته وحرمته بتاريخ

٣ حزيران سنة ١٨١٦. ثمّ عاد الآباء اليسوعيّون فنقّحوه وطبعوه وراج استعماله في سورية ولبنان فترة طويلة.

٧) "شرح التعليم وقواعد الإيمان القويم"، المعروف بالتعليم المسيحيّ الكبير، طبع كذلك في مطبعة الشوير سنة ١٨٠٢.

٨) مجموعة مكاتبات وكراريس ومناشير راعويّة، تضمّنتها المخطوطة رقم ٧٠ من مكتبة إكليريكيّة القدّيسة حنّة بالقدس الشريف.

٩) سيرة السيّد المسيح، جمعها من الأناجيل الأربعة، وصنّفها في دير الشوير سنة ١٨٠٠، وأعدّها لقراءة المؤمنين في بيوتهم.

١٠) "إرشاد إلى معلّمي الاعتراف".

١١) مجموعة أربعين خطبة دينيّة.

١٢) ترجمة بعض مجلّدات من "تاريخ الكنيسة" الذي كان وضعه بالإيطاليّة الكردينال أورسي Orsi. وقد قام بهذه الترجمة سنة ١٧٦٩ إذ كان نائبًا للبطريرك ثاوضوسيوس دهّان في عكا.

١٣) وترجم أيضًا في دير الملاك ميخائيل بالزوق سنة ١٧٨٠ "تاريخ مجامع الكنيسة المقدّسة"، الذي كان وضعه باللاتينيّة الراهب الفرنسيّ Jean Cabassut المتوفّى سنة ١٦٨٥.

بعض مصادر البحث

- S. VAILHÉ, Adam (Germain), dans DHGE, t. I, col 294- 495.
- LOUTFI LAHAM, B. S, Catholicisme, Gallicanisme et Orthodoxie dans l'Écclésiologie de Mgr. Germanos Adam, Métropolite d'Alep (1725- 1809). Thèse de doctorat présentée à l'institut Oriental de Rome en 1961. Manuscrit.
- MOUNGED EL- HACHEM, Gallicanisme et ultramontanisme en Orient à la fin du XVIIIl siècle- Thèse de doctorat présentée à l'Institut Catholique de Paris en 1965. Manuscrit.
- المطران جرمانوس آدم، متروبوليت حلب، حياته ومؤلّفاته، بقلم الأب لطفي لحّام المخلّصيّ، في مجلّة الوحدة سنة ١٩٦٩، صفحة ١٧١- ١٨٩.
- كنسيّات المطران جرمانوس آدم بقلم الأب لطفي لحّام، في مجلّة الوحدة، سنة ١٩٧١، صفحة ١٦٠- ١٧١.

مكسيموس مظلوم
(٦ آب ١٨١٠- ٢٠ تموز ١٨١٥)

نشأته

هو ميخائيل بن جرجي مظلوم، وأمّه مريم بنّا. وُلد في حلب خلال شهر تشرين الثانيّ سنة ١٧٧٩. وتعلّم مهنة الحياكة، وتثقّف في العلوم الكهنوتيّة في الدار الأسقفيّة نفسها، على يد الخوري ميخائيل النحويّ والخوري أنطوان خالد وغيرهم[٢٠٨].

في ٢٦ كانون الأوّل سنة ١٨٠٤ رسمه المطران جرمانوس آدم شمّاسًا إنجيليًّا، ثمّ كاهنًا في ١٥ نيسان سنة ١٨٠٦. وبقي بالقرب منه، فكان يده اليمنى في تهيئة مجمع القرقفه سنة ١٨٠٦ وإنجاحه. وقد قام الخوري ميخائيل مظلوم فيه بأعمال أمانة السرّ، وتبنّى تمامًا مواقف معلّمه العقائديّة، التي ما لبثت أن أحدثت شكًّا بين العلمانيّين في حلب، وقسّمت الإكليروس إلى فئتين متناوئتين، لاسيّما في موضوع كلمات التحويل الجوهريّ وفاعليّة صلاة استدعاء الروح القدس. وقد تحزّب لآراء المطران جرمانوس آدم كلّ من الخوري ميخائيل النحويّ والخوري ميخائيل مظلوم، الذي عاد في هذه الأثناء إلى حلب، بينما عارضها معظم العلمانيّين بقيادة الأب باسيليوس شاهيات والمرسلين الأجانب.

وتفاقم الخلاف بين الطرفين، وانقسمت الطائفة شرّ انقسام، بدليل ما كتبه البطريرك أغابيوس مطر إلى كهنة حلب في ١٠ تشرين الثانيّ سنة ١٨٠٩[٢٠٩]: "أنّه ما زالت نار الانقسام تضطرم" في حلب. ويذكّرهم بأنّه سبق فأرسل لهم كتابًا آخر في ٢٣ تشرين الأوّل ١٨٠٩ يحثّهم فيه على الاتحاد. ويقول أنّهم أرسلوا إلى ديوانه الخوري ميخائيل مظلوم، لكنّه لم يكن قد وصل حتّى ذاك الوقت.

إنّ حلب إذًا تغلي كالقدر المحميّ، وتتنبئ بشرّ العواقب حين يتوفّى المطران جرمانوس آدم في ١٠ تشرين الأوّل سنة ١٨٠٩. فأيٌّ من الحزبين المتنازعين سوف يفرض على الأبرشيّة مرشّحه؟ هل هو حزب المطران المتوفّى الذي يتزعّمه دون منازع القسّ ميخائيل مظلوم، أم الحزب المعارض؟

208- استعنّا في كتابة هذا الفصل على بحث الأب أغناطيوس ديك: "البطريرك مكسيموس مظلوم وأبرشيّة حلب"، الصادر في كتاب "الذكرى المئويّة الأولى لوفاة السعيد الذكر البطريرك مكسيموس الثالث مظلوم"، صفحة ٤٣- ٨٠.

209- محفوظات مطرانيّتنا بحلب، سجلّ ١ رقم ٢٣.

ويبقى القسّ ميخائيل مظلوم في جوار البطريرك مدّة شهرين ونيّف. وفي أثنائها رقاه البطريرك إلى درجة الخوري عن طلب من إكليروس حلب.

انتخابه أسقفًا لحلب

بوفاة المطران جرمانوس آدم يبقى كرسيّ حلب شاغرًا نحو عشرة أشهر[٢١٠]. ويبادر البطريرك أغابيوس مطر إلى تعيين شقيق المتوفّى، الخوري بطرس آدم، وكيلاً بطريركيًّا على الأبرشيّة المترمّلة.

وفي ٧ كانون الأوّل سنة ١٨٠٩ أرسل البطريرك منشورًا آخر يأمر فيه بجمع كتابات المطران جرمانوس آدم، مستثنيًا منها كتاب التعليم المسيحيّ، ويعطي أوامر جديدة للصلح. ويبدو أنّ الجميع قدّموا الطاعة لهذا المنشور، وحصل بعض الهدوء في حلب. على أنّ البطريرك، في رسالة مؤرّخة في ٣٠ كانون الثانيّ ١٨١٠، يعود فيأسف لعدم رجوع المحبّة والاتفاق بين الفئتين المتنازعتين من الكهنة، ويلقي مسؤوليّة الانقسامات في الشعب على عاتق الكهنة، ويحرّضهم على وحدة القلب والتسامح ويكتب في اليوم نفسه إلى الشعب المؤمن يأمر بأن تُجمع جميع التآليف والأوراق المتعلّقة بهذه القضيّة، وأن تُرسل إليه لكي يفحصها ويحسم أمرها.

إلاّ أنّ هذه الهدنة لم تدم. فالفريق "الكاثوليكيّ" كان يريد الظهور بالانتصار الكامل على أخصامه. والبطريرك، بعد أن أمر بعدم التكلّم عن هذه المواضيع، انقاد لوساوس هذا الفريق، وتحت ضغط مطران بيروت أغناطيوس صرّوف وخصم جرمانوس آدم القديم، اتّخذ موقفًا صريحًا ضدّ الفريق الآدميّ في منشوره المؤرّخ في ٩ آذار ١٨١٠. فاحتجّ الفريق "الآدميّ"، واضطرّ البطريرك إلى إرسال منشور آخر بتاريخ ٦ نيسان ١٨١٠ تراجع فيه، وهو موجّه لوكيله في حلب الخوري بطرس آدم.

ويلوح الضجر واليأس على البطريرك الشيخ الذي تتجاذبه الفئتان: "... ساعٍ خارج من عندنا من إحدى الفئتين، وساعٍ قادم من الفئة الثّانية. وكلّ فئة تحرّر شكلاً، وتشاء أن نتمّم لها مرغوبها حسب ميلها وهواها، ولو كان بالمغالطة وإهانة الكنيسة ورؤسائها...".

وفي منشور آخر مؤرّخ في ٥ أيار ١٨١٠ يعلن البطريرك خضوعه لتحديدات المجمع الفلورنتينيّ الذي يقول "إنّ التقديس يتمّ بكلمات المسيح

---

[210] MANSI, t. 46. col 922.

وحدها". ويضيف البطريرك: "فإلى هنا وكفى!". ويحرّم على العلمانيّين التدخّل في شؤون الكنيسة.

وإنّ الحزب المعارض لأفكار المطران المتوفّى جرمانوس آدم، والذي يمثّل النـزعة "الغربيّة" في الأبرشيّة، برئاسة المقدسيّ حنّا العجوريّ، طلب من البطريرك أن يؤجّل انتخاب الأسقف الجديد، أو أن يرشّح لهذا المنصب أحد الرهبان الباسيليّين، خارجًا عن إكليروس حلب. فوعد البطريرك بأن لا يأمر بإجراء الانتخاب قبل أن تهدأ الخواطر. وانضمّ إلى الحزب المعارض أساقفة الطائفة، الذين حرّروا في ٧/ ١٩ حزيران سنة ١٨١٠ بيانًا يطالبون فيه بصرف النظر، هذه المرّة، عن ترشيح أحد من كهنة حلب للأسقفيّة. ووافقهم في هذا الرأي عدد من البطاركة والأساقفة من سائر الطوائف الكاثوليكيّة، الذين كانوا يخشون استمرار تأثير المطران جرمانوس آدم وآرائه المتطرّفة.

ولضمان نجاح مسعاهم، أقدم أصحاب الحزب المعارض على الاستغاثة بالكرسيّ الرسوليّ في ٢٧/١٥ حزيران ١٨١٠، بغية تأخير عمليّة الانتخاب. ويسلّمون نسختين عنها إلى الوكيل البطريركيّ الخوري بطرس آدم، وهو بدوره يسلّمها إلى القاصد الرسوليّ، لويس غندلفيّ، المقيم في لبنان، راجيًا إيّاه بالايعاز إلى البطريرك بأن يؤجّل عمليّة الانتخاب حتّى ورود الجواب من رومة. وكانت هذه مناورة ملتوية واستغلالاً واضحًا لحقّ الاستغاثة برومة. فكلّ مَن شعر بضعف موقفه أو عجزه عن الدفاع عنه بطرق مشروعة يعمد إلى مثل هذه الحيلة فيوقف سير الأمور بحجّة الاستغاثة برومة وضرورة انتظار جوابها...

على كلّ حال، قام القاصد الرسوليّ بواجبه، وحوّل أحد نصّي الاستغاثة إلى رومة، والآخر بعث به إلى البطريرك بتاريخ ٢٨ حزيران/ ١٠ تموز ١٨١٠. لكنّ البطريرك لم يعتبر قانونًا أنّه يترتّب على هذه الاستغاثة توقيف سير إجراءات الانتخاب. فكتب بتاريخ ٨/ ٢٠ تموز ١٨١٠ إلى وكيله بحلب يأمر بإجراء الانتخاب فورًا، ويهدّد المعارضين بالعقوبات الكنسيّة، ويرشّح، إلى جانب القسّ ميخائيل مظلوم، ثلاثة من الرهبان الشويريّين، كما سبقت المعارضة فطلبت ذلك.

وإنّ الوكيل البطريركيّ الخوري بطرس آدم يذيع الأوامر البطريركيّة، ويأمر الكهنة المعارضين الخمسة بأن يشتركوا في عمليّة الانتخاب التي حدّد لها موعدًا يوم ٢٦ تموز/ ٧ آب سنة ١٨١٠. لكنّ الكهنة المعارضين يرفضون الاشتراك في الانتخاب، متحجّجين باستغاثتهم برومة. فيدعوهم الوكيل

البطريركيّ مرّة ثانية، فيرفضون، مضيفين أنّه لا حاجة لأيّ عمليّة انتخاب، ما دام الخوري ميخائيل مظلوم هو في حكم المنتخب... وفي الواقع كان الخوري ميخائيل مظلوم في طريقه إلى دير المخلّص، حيث استدعاه البطريرك في ٤ تموز ليكون أمين سرّه.

وفي الموعد المحدّد، أيّ في ٢٦ تموز/ ٧ آب ١٨١٠، اجتمع كهنة الحزب المواليّ، وهو حزب جرمانوس آدم، أو "الحزب الشرقيّ"، كما كانوا يدعونه، وانتخبوا بإجماع أصواتهم، وبحضور بعض أعيان الطائفة، الخوري ميخائيل مظلوم مرشّحًا لكرسيّ حلب.

وكما كان متوقّعًا، فقد ثار الكهنة المعارضون مع العلمانيّين التابعين لهم، كما استاء أساقفة الطائفة. لكنّ البطريرك، ما إن وصله صكّ الانتخاب، حتّى دعى الخوري ميخائيل مظلوم، الذي كان قد بلغ إلى طرفه في ٥/ ١٧ آب ١٨١٠، ورسمه أسقفًا في اليوم التالي، أيّ في ٦/ ١٨ آب ١٨١٠، دون تأخير، ودون استدعاء أساقفة الطائفة للموافقة على ترشيح الحلبيّين، كما هو المعتاد.

وكتب البطريرك إلى الحلبيّين يعلمهم برسامة أسقفهم، ويمدح صفاته العالية، ويطلب منهم أن يخلصوا له الطاعة والولاء. وكتب السينودس المقدّس إلى رومة بتاريخ ٢٠ تشرين الأوّل/ ٥ تشرين الثانيّ ١٨١٠ يخبر قداسة البابا بالانتخاب الذي جرى[٢١١]. كما أنّ مكسيموس- وهو الاسم الجديد الذي اختاره الخوري ميخائيل مظلوم يوم رسامته الأسقفيّة- كتب أيضًا في ٨ آب رسالة راعويّة إلى أبناء أبرشيّته الحلبيّة، حمّلها أجمل عواطفه وأطيب استعداداته. وإذ يعيّن الخوري بطرس آدم نائبًا عنه، يحثّ الجمع على المحبّة والتسامح، ويريد أن يكون القدوة التي يحتذى بها، فيردف قائلاً: "وها إنّنا نحن نتقدّمكم في ذلك، ونصفح ونسامح من كلّ القلب، ونترك كلّ ما صدر في حقّنا، من أيّ كان وبأيّ نوع كان. وقد صيّرنا ذواتنا مستعدّين لخدمة الجميع على حدّ سواء، ومقدّمين حياتنا نفسها إن لزم الأمر من أجل كلّ نفس من أنفس جميعكم. وليس عندنا تمييز بين شخص وشخص، أو عائلة دون عائلة. بل أنتم بجميعكم أبناؤنا الأخصّاء المحبوبون منّا جدًّا بالربّ"...

وفي رسالة ثانية بتاريخ ٢٥ آب ١٨١٠ يطلب مكسيموس مظلوم من نائبه الخوري بطرس آدم أن يختار شبّانًا للكهنوت فيهم الصفات الضروريّة، "وهذا بقطع النظر عن الحوادث التي جرت في هذه المدّة، والتي نأمل من الله سرعة زوالها بالتمام".

---

211 MANSI, t. 46, col. 921.

ضحيّة المعارضة

لم يعُد المطران مكسيموس مظلوم إلى حلب بعد رسامته، بل بقي في لبنان، بجوار البطريرك أغابيوس مطر. في هذه الأثناء، نشطت المعارضة ضدّه، فرفض أصحابها قبول مكسيموس مطرانًا عليهم، وأرسلوا إلى رومة مَن يدافع عن موقفهم، وهو الأب الكرمليّ Sigismond. وساندهم بواقع الحال مطران بيروت أغناطيوس صرّوف...أمّا البطريرك فرشقهم بالعقوبات الكنسيّة، لكنّهم أنكروا مفعولها بحجّة أنّهم سبقوا واستغاثوا برومة... واضطرّ المطران مكسيموس إلى وضع مقال يدافع فيه عن صحّة انتخابه ورسامته، بعث به البطريرك إلى حلب. فردّ عليه الأب نقولا كوديس اللعازريّ بمقال طويل إلى البطريرك في نحو ٦٤ صفحة ومؤرّخ في ٢٥ تشرين الثّانيّ ١٨١٠. وقد لا يخلو من بعض الادّعاء والسفسطة. فأجابه البطريرك برسالة قصيرة شديدة اللهجة بتاريخ ١ شباط ١٨١١ ويقول له: "قد اتّضح بكفاية أنّك إمام العصاة وركن التحزّب المهلك".

بسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد
بحث
بخصوص الاسجاس الحاضرة بحلب فيما بين الروم الملكيّين
الأكرمين. مقدّم إلى غبطة كير وكير أغابيوس البطريرك
الأنطاكيّ الكلّي الطوبى. مؤلّف من أحد مرسلي
بيعة الله الجامعة جوابًا عن مشرّفة
مرسلة من طوباويّته له
بهذا الخصوص
م

عنوان مقال الأب نقولا كوديس اللعازريّ
يعارض فيه رسالة البطريرك أغابيوس مطر في تثبيت صحّة انتخاب
المطران مكسيموس مظلوم (من محفوظات مطرانيّتنا)

وأخيرًا وصل إلى رومة تقرير القاصد الرسوليّ مع رسائل الاستغاثة، لكنّ البابا كان إذ ذاك، مع الكرادلة، منفيًّا في مدينة سافونا، والدوائر الرومانيّة مبعثرة. مع ذلك فقد كان أمين مجمع انتشار الإيمان، المنسنيور Giovanni

Quarantotti، مقيمًا في رومة، ومزوّدًا بصلاحيّات استثنائيّة واسعة لتسيير الأمور في غياب رؤسائه. فبعد أن اطّلع على القضيّة، وقّع في ٣٠ آذار ١٨١١ قرارًا[٢١٢] يعلن فيه قبول استغاثة الحلبيّين، وتوقيف مكسيموس مظلوم عن ممارسة سلطته الأسقفيّة حتّى صدور الحكم النهائيّ من رومة، وتكليف القاصد الرسوليّ باختيار مدبّر رسوليّ لإدارة الأبرشيّة، على أن يكون من خارج إكليروس حلب. ولا شكّ في أنّ المنسنيور المذكور وقع ضحيّة الشكاوى المغرضة التي قدّمها أخصام مكسيموس مظلوم.

ولم يسع القاصد الرسوليّ إلاّ أن ينشر هذه الأوامر الرومانيّة، ثمّ عيّن القسّ موسى قطّان، كاهن رعيّة الزوق، مدبّرًا رسوليًّا للأبرشيّة الحلبيّة، بتاريخ ١٩ تشرين الثّانيّ سنة ١٨١١.

على أنّ البطريرك وسينودس أساقفته، في ١/ ١٣ كانون الأوّل سنة ١٨١١[٢١٣] استغاثوا بالبابا بيوس السابع ضدّ قرار أمين مجمع انتشار الإيمان، واحتجّوا إلى مجلس كرادلة المجمع المذكور[٢١٤] وإلى الكردينال رئيس المجمع بالذات[٢١٥]. وكتب البطريرك من جديد إلى أبناء الأبرشيّة الحلبيّة يأمرهم بالطاعة والخضوع لمطرانهم الجديد، وحظّر على القسّ موسى قطّان أن يتدخّل في أمور الأبرشيّة الحلبيّة أو أن يمارس أيّ سلطة عليها.

أمّا مكسيموس مظلوم فقد سعى في توسيع رقعة أنصاره ومؤيّديه، فاتّصل بالسلطات العثمانيّة، وبوزير الأديان في باريس، وبالإمبراطور نابوليون نفسه، وفي هذه الأثناء مارس سلطته الأسقفيّة على أبرشيّته، ورسم عددًا من الكهنة. ففي ٣٠ كانون الأوّل سنة ١٨١٠ مثلاً، نراه يكتب إلى نائبه الخوري بطرس آدم، ويعطيه التعليمات اللازمة بخصوص تنفيذ وصيّة سلفه المرحوم المطران جرمانوس آدم[٢١٦]. وفي أيار سنة ١٨١٠ يوقّع مع أساقفة الطائفة وثيقة افتتاح مدرسة عين تراز الإكليريكيّة، ويعيّنه البطريرك أوّل رئيس لها. وفي مجمع دير المخلّص المنعقد من ١١ إلى ١٤ أيار ١٨١١، يوقّع: مكسيموس مظلوم، "مطران (دون ذكر حلب) ورئيس المدرسة"...

وكان موقف مكسيموس مظلوم قويًّا ما دام بطريركه إلى جانبه، يحميه ويتحمّل المسؤوليّة معه. لكنّ البطريرك أغابيوس مطر توفي في ٣١ كانون

[212] MANSI, t. 46, col. 923.
[213] MANSI, t. 46, col. 923.
[214] MANSI, t. 46, col. 926
[215] MANSI, t. 46, col. 929.

[216]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ١٨.

الثانيّ/ ١٢ شباط ١٨١٢. فخلفه على الكرسيّ البطريركيّ في ١٥ نيسان ١٨١٢ مطران بيروت أغناطيوس صرّوف، لا غيره... وقد اعتقد أساقفة السينودس أنّهم بانتخابه بطريركًا يضعون حدًّا لأزمة الأبرشيّة الحلبيّة، لأنّه كان من الواضح لأعين الجميع أنّ حزب المعارضة في حلب إنّما كان يستند إلى تأييد مطران بيروت، الذي كان خصمًا للمطران جرمانوس آدم، فنقل خصومته إلى خلفه المطران مكسيموس مظلوم. وحقّ لهذا الأخير أن يتوقّع شرّ العواقب من هذا الانتخاب. إلاّ أنّ البطريرك ما لبث أن توفي مقتولاً في ٦ تشرين الثانيّ سنة ١٨١٢، على يد الياس عماد المعلوف وأولاده.

وفي المنشور الراعويّ الذي كتبه المطران مكسيموس في ٤ نيسان سنة ١٨١٢ عن مدرسة عين تراز إلى أبناء أبرشيّته بمناسبة عيد الفصح، يتكلّم ببلاغة عن المحبّة ويطلب منهم أن يتّحدوا، ويضيف قائلاً: "... وإذا كنّا جميعًا منتظرين أن نسمع صوت بطرس رأس الرسل متكلّمًا في بيوس السابع الكلّي القداسة، ونحن وأنتم جميعًا كلّيو الاستعداد دائمًا للطاعة، فما هو المحوج إلى حدوث البلبلات المتّصلة التي لا ينتج عنها سوى السقوط في الخطايا... فاتّخذوا جميعكم اسطرنا هذه على أنّها محرّرة منّا بدموع منسكبة على ما قد فعله عدوّ الخلاص بهذا الكرم السيّديّ، واعلموا كافّة بأنّه لو كان اتّفاقكم وسلامتكم ورجوع الحبّ العامّ إليكم متوقّفًا على فقد حياتنا، فضلاً عن غيره من الأشياء، فلم نكن نعبأ به أو نتأخّر عنه... فيا أيّتها الرعيّة المباركة، اتّخذوا ايرادي هذا كما هو أمام الله، وهو صادر عن رجل ليس بأعجميّ عليكم، ولا بأجنبيّ عنكم، بل هو منكم وخادم أنفسكم"...

وفي هذه الأثناء، كان مجمع انتشار الإيمان لا يزال متمسّكًا برأيه، فأعلن في ٢٣ نيسان ١٨١٣ من جديد عدم قانونيّة انتخاب مكسيموس مظلوم مطرانًا على حلب[٢١٧]، آخذًا برأي القاصد الرسوليّ لويس غندلفيّ الذي شوّه صحيفة مكسيموس في رومة.

وعلى أثر وفاة البطريرك أغناطيوس صرّوف، انتخب الأساقفة في ٢/ ١٤ آب سنة ١٨١٣ مطران صيدا أثناسيوس مطر بطريركًا، وهو شقيق للبطريرك الراحل أغابيوس مطر، ومن أصدقاء مكسيموس مظلوم ومؤيّديه. ورأى البطريرك الجديد أنّ خير حلّ للمشكلة هو أن يعيّن مكسيموس مظلوم وكيلاً له في رومة، ويمكنه هكذا من الدفاع عن نفسه مباشرة أمام المجمع المقدّس. فكتب مكسيموس مظلوم عن مدرسة البشارة بعين تراز، في ١٠ أيلول سنة

[217]MANSI, t. 46, col. 934.

١٨١٣، رسالة إلى أبناء أبرشيّته يودّعهم فيها، وقد وقّعها "مكسيموس مطران حلب وما يليها" ويوكل بموجبها البطريرك بإدارة أبرشيّته في مدّة غيابه عنها في رومة.

ويستند البطريرك إلى هذا التوكيل، فيتسلّم إدارة الأبرشيّة الحلبيّة، ويحظّر على القسّ موسى قطّان ممارسة أيّة سلطة فيها. بل يكتب إلى الرهبان الشويريّين في ٢٩ تموز/ ١٠ آب ١٨١٣ يمنعهم من طبع التعليمات التي كان مجمع انتشار الإيمان بعث بها إلى الشرق لكي يدحض "أضاليل كاباسيلاس" حول فاعليّة الكلمات الربّانيّة في تحويل القرابين[٢١٨].

لكنّ البطريرك أثناسيوس مطر يتوفّى بدوره، مصابًا بداء الطاعون في ٨/ ٢٠ تشرين الثانيّ ١٨١٣. وينتخب الأساقفة في ١/ ١٣ كانون الأوّل سنة ١٨١٣ مطران عكا مكاريوس طويل بطريركًا للطائفة، وهو أيضًا من أصدقاء مكسيموس مظلوم ومؤيّديه. فيحذو حذو سلفه، ويصرّ على مكسيموس مظلوم بالتوجّه إلى رومة، لكي يحصل له على "درع التثبيت" من قداسة البابا.

فيتوجّه مكسيموس مظلوم في آخر الأمر إلى رومة، حيث يصل في غضون أيلول ١٨١٤، واثقًا من نفسه ومن عدالة قضيّته. لكنّ المجمع المقدّس، في اجتماعه المنعقد في ٢٥ تموز ١٨١٥، لم يأخذ بأدلّته، وأدان تصرّفه، ولكي يضمن إخماد لهيب الخصومات، احتفظ به في رومة، ومنعه من العودة إلى الشرق...[٢١٩] وعيّن له مرتّبًا شهريًّا، ومنحه لقب رئيس أساقفة ميراليكيا شرفًا.

فانصاع مكسيموس مظلوم لهذه القرارات، التي قد نستغربها اليوم، بعقليّتنا الحديثة. وكتب في نيسان ١٨١٥ من مدينة رومة، بعد وصوله إليها بنحو ثمانية أشهر، كتابًا إلى البطريرك مكاريوس طويل يتضمّن تنازله عن أبرشيّة حلب، "لأجل راحة ضميره من شغل هكذا باهظ، ومن شعب هكذا متعب"[٢٢٠]. وبتاريخ ١٥ نيسان ١٨١٥ أرسل كتابًا إلى القسّ جرجس طحّان، متقدّم إكليروس حلب، طلب إليه فيه أن يحمل إلى البطريرك الكتاب السابق دون إعلام الحلبيّين بتنازله عن الأبرشيّة، تاركًا للبطريرك أمر إعلان هذا الأمر متى شاء[٢٢١]. وفي ٢٠ تموز التالي، أرسل كتابًا إلى البطريرك كرّر فيه تنازله

---

[218] MANSI, t. 46, col. 934.

[219]- سنة ١٨١٣ أمرت الحكومة النصارى بأن يعمّموا بعمائم زرق وأن يحتذوا بالسريامة الحمراء (كامل الغزّي، نهر الذهب في تاريخ حلب، الجزء الثالث، صفحة ٣٢١).

[220]- وثائق الأب توتل، الجزء الأوّل، صفحة ١٢٠.

[221]- الكتاب المذكور، صفحة ١٢١.

عن أبرشيّة حلب، وأرسل تحريرًا عموميًّا إلى الإكليروس والشعب يدعو فيه إلى التصافح والاتفاق.

في هذا الموقف يتجلّى نبل أخلاق مكسيموس مظلوم، وتقواه، فضلاً عن صفات العقل والقلب الممتازة التي سوف تجعل منه أكبر بطريرك للروم الملكيّين الكاثوليك عرفه التاريخ. وأنّ منفاه، الذي تقبّله طوعًا حبًّا بالسلام، ومكوثه نحو خمسة عشر سنة في أوروبا في نشاط علميّ ورسوليّ مستمرّ، صهرا فيه الرجل العظيم، الذي لم تستحقّه حلب مطرانًا، ثمّ عادت فاستقبلته بطريركًا عليها وعلى الطائفة جمعاء، استقبال الظافرين.

القسّ موسى قطّان المدبّر الرسوليّ

تعيّن القسّ موسى قطّان، كاهن رعيّة الزوق، مدبّرًا رسوليًّا على أبرشيّة حلب، ولمّا تشغر تمامًا من راعيها المطران مكسيموس مظلوم. فكان موقف المدبّر الرسوليّ حرجًا للغاية، إذ ناهضه، لا راعي الأبرشيّة فحسب، بل بطريركه، والسينودس الأسقفيّ، وخيرة أبناء حلب، من كهنة وعلمانيّين، ممّن كانوا يُعرفون بحزب جرمانوس آدم، أو "الحزب الشرقيّ". فحاول مع ذلك أن يقوم بوظيفته، طاعة لأوامر الكرسيّ الرسوليّ، دون تحزّب ودون مغالاة.

وهكذا نراه يكتب في ٤ كانون الأوّل سنة ١٨١١ إلى كهنة حلب، يحثّهم على الخضوع لأوامر الكرسيّ الرسوليّ التي أوقفت راعيهم مكسيموس مظلوم عن ممارسة وظيفته مؤقّتًا، ويضيف: "هذا شرف كنيسة الروم الشرقيّة الكاثوليكيّة، أيّ قبولنا حكم الكرسيّ الرسوليّ زمانًا ما، إلى أن يبرز الحكم الأخير، الذي قد يمكن، لأجل خضوعكم، أن يكون تثبيت قدس السيّد كير مكسيموس الكلّي الاحترام على حلب"...[٢٢٢]

وفي ٢٥ أيلول سنة ١٨١٣ تُقرّر رومة أنّ المدبّر الرسوليّ موسى قطّان يتعلّق رأسًا بمجمع انتشار الإيمان، وتُعفيه من كلّ سلطة للبطريرك عليه[٢٢٣].

وفي ١ أيلول سنة ١٨١٤ يكتب القسّ موسى قطّان إعلامًا لكهنة حلب وشعبها، يقدّم لهم فيه القسّ أونيسيموس قاضي، رئيس دير مار الياس بزحلة، ويصرّفه على رعيّة حلب، ويوقّع: "القسّ موسى قطّان، نائب رسوليّ حالاً"[٢٢٤].

---

[222]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٣٢.

[223] MANSI, t. 46, col. 939.

[224]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٤.

وفي ٤ آذار ١٨١٥ كتب رئيس مجمع انتشار الإيمان "إلى القسّ موسى قطّان النائب الرسوليّ على حلب"، يستفهم منه عن السلوك الصارم الذي يسلكه بعض المرسلين الذين "يبقون تلاميذهم المعترفين عندهم جملة سنين من دون أن يمنحوهم الحلّة السريّة، ويضعون عليهم قوانين ثقيلة على نقائص خفيفة جدًّا"[٢٢٥].

هذا وما أن قدَّم مكسيموس مظلوم تنازله النهائيّ عن كرسيّ حلب في ٢٠ تموز ١٨١٥، حتّى اقترح المجمع المقدّس على البابا، في ٢٥ تموز نفسه، تعيين الأب سابا كاتب، الرئيس العامّ المخلّصيّ، مطرانًا على حلب. ثمّ عدل عن رأيه. وقيل أنّ الكرسيّ الرسوليّ قد عيّن الخوري أغناطيوس أرقش الشويريّ مطرانًا على حلب[٢٢٦]، وكان قد شغل وظيفة الرئيس العامّ في رهبانيّته سبعًا وعشرين سنة، لكنّه توفي في ١٢ تشرين الأوّل سنة ١٨١٥، ودُفن في دير الملاك ميخائيل بالزوق.

أمّا القسّ موسى قطّان، فما أن توفي البطريرك مكاريوس طويل في ٣/ ١٥ كانون الأوّل سنة ١٨١٥، حتّى اجتمع أساقفة الطائفة، وكان عددهم إذ ذاك أربعة فقط، في دير مار أنطونيوس القرقفه في ٢٨ حزيران/ ١٠ تموز ١٨١٦، وانتخبوه بطريركًا باسم أغناطيوس الخامس قطّان[٢٢٧] في ١/ ١٣ تموز ١٨١٦، ورسموه أسقفًا، ونصّبوه بطريركًا. وجعل إقامته في دير الملاك ميخائيل بالزوق. ثمّ بادر إلى اختيار معاون له في البطريركيّة، هو الخوري يوحنّا عجوريّ، الذي كان قد دافع في حلب عن حزب المعارضة ضدّ مكسيموس مظلوم، فرسمه أسقفًا باسم أغناطيوس، وعيّنه معاونًا له ومستشارًا. ثمّ عيّنه مطرانًا على ديار بكر، ثمّ على زحلة. وبهذه الصفة عيَّنه الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ نائبًا على حلب من سنة ١٨٢٦ حتّى سنة ١٨٣١، كما سنرى.

ـ ١٥ـ
باسيليوس عرقتنجيّ
(٣ حزيران ١٨١٦ـ ٢٩ أيار ١٨٢٣)

225ـ محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ١٤.

226 MANSI, t. 46, col. 949.
227 MANSI, t. 46, col. 949.

نشأته

هو جبرائيل بن نعمة الله عرقتنجيّ، الحلبيّ الأصل، الذي دخل الرهبانيّة الشويريّة سنة ١٧٨٨ ودُعي فيها باسيليوس[٢٢٨]، وتقلّب في مناصبها. ثمّ انتخب مدبّرًا رابعًا في المجمع العامّ المنعقد في أوّل تشرين الثانيّ سنة ١٨٠٨، ثمّ مدبّرًا ثانيًا في المجمع العامّ المنعقد في أوّل تشرين الثانيّ سنة ١٨١١، ثمّ رئيسًا عامًّا في المجمع المنعقد في أوّل تشرين الثانيّ سنة ١٨١٤.

تعيينه مطرانًا على حلب

إنّ الكرسيّ الرسوليّ، إذ أبطل انتخاب مكسيموس مظلوم مطرانًا على حلب، اعتبر، وفقًا للقانون الكنسيّ الغربيّ، أنّ تعيين خلفه أصبح من اختصاصه دون سواه.

ولذلك عمد البابا بيوس السابع في براءته المؤرّخة في ٣ حزيران سنة ١٨١٦ إلى تعيين الخوري باسيليوس عرقتنجيّ مطرانًا على حلب. والبراءة المذكورة[٢٢٩] تعلن أوّلاً بطلان انتخاب مكسيموس مظلوم لكرسيّ حلب. ثمّ بقاء الأبرشيّة، من الوجهة القانونيّة، في حالة الشغور، كما تركها المرحوم المطران جرمانوس آدم يوم وفاته. فيعتبر البابا من حقّه واختصاصه أن يعيّن له خلفًا، سيّما وأنّه قَبِلَ، إلى جانب ذلك، استغاثة إكليروس حلب وشعبها المقدّمة له. على أنّه يريد أن يحفظ في المستقبل للناخبين العاديّين حقوقهم غير منثلمة. ويعطي البابا تعليمات لتصحيح ما قد جرى في عهد المطران مظلوم: تصحيح الزواجات الباطلة بسبب ما سبقها من تفسيح باطل عن الموانع الزواجيّة، أو بسبب إقامة رتبة الإكليل من قبل كاهن دخيل، ترتيب أمور الكهنة الدّخلاء، اعترافات المؤمنين عند الكهنة الدّخلاء... وبكلمة واحدة يكلّف البابا راعي الأبرشيّة الجديد ترتيب أمور الأبرشيّة بالتي هي أحسن، بعد الأزمات والاضطرابات المريرة التي عانتها.

هذا وقد نال المطران المعيّن الرسامة الأسقفيّة من يد البطريرك أغناطيوس الخامس قطّان في ١٦ تشرين الأوّل سنة ١٨١٦.

وفي هذا اليوم عينه، أيّ ١٦ تشرين الأوّل ١٨١٦، نرى البطريرك أغناطيوس قطّان يكتب إلى النائب الأسقفيّ العامّ بحلب، القسّ جبرائيل مراش،

228- هذا ما ورد في المخطوط رقم ١٤٣ من مكتبة دير الشير، حيث نقرأ في صفحة ١٨١: "علّقه الأخ باسيليوس ابن نعمة الله عرقتنجيّ الحلبيّ".

229- عنها نسخة في محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٢.

بأنّه، خلافًا لرأي المطران المرحوم جرمانوس آدم، لا يوافق شخصيًّا على مساواة "البراءتليّة" بعموم الشعب في تحمّل الضرائب المتوجّبة على الطائفة، لأنّه من حقّهم الامتناع عن دفعها، لكنّه يمكن إقناعهم بالدفع...[٢٣٠]

وفي اليوم التالي لرسامته الأسقفيّة، أيّ في ١٧ تشرين الأوّل سنة ١٨١٦، يبعث المطران الجديد باسيليوس عرقتنجيّ بأولى رسائله[٢٣١] "لحضرة إكليروسنا الموقر الحلبيّ الروم الكاثوليكيّ"، تحريرًا عن دير الملاك ميخائيل بالزوق من معاملة كسروان. وفي هذه الرسالة يحثّهم على مطالعة عِلم الذمّة، وعلى عقد اجتماع أسبوعيّ للشورى فيما بينهم، وعلى الاهتمام بنشر الأخويّات ومراكز التعليم المسيحيّ. ويختم بختمه الرهبانيّ القديم، مع هذه الملاحظة: "عرّفوا الجميع أنّنا ختمنا بختمنا السابق، لأنّ ختمنا الجديد ما خلص"! وبهذه المناسبة يعيّن الخوري جبرائيل مراش نائبًا أسقفيًّا عنه لمدّة سنة.

تدبيره أمور أبرشيّته الحلبيّة انطلاقًا من لبنان

يستبين لنا من الوثائق المعاصرة أنّ باسيليوس عرقتنجيّ، منذ أن تعيّن مطرانًا على حلب، لم يطأ أرض أبرشيّته، فأدار أمورها من لبنان. وكانت إدارته رتيبة عاديّة، لم نلمس فيها آفاقًا واسعة، ولا انطلاقات جديدة. فنكتفي بإيراد ما بلغنا من مظاهرها في ما يلي:

في ٢٠ كانون الثانيّ سنة ١٨١٧ يحدّد المطران باسيليوس عرقتنجيّ "صورة القضايا المحفوظ حلُّها لحقارتنا، وقد فوّضنا الأب النائب بالحلّ منها"[٢٣٢]. وهي ١٤ قضيّة، منها معاطاة السحر، وفتح مكاتيب المطران، وممارسة التجارة والصناعة بالنسبة للإكليريكيّين، والامتناع عن خدمة المدنفين على الموت الخ...

وفي كانون الثانيّ سنة ١٨١٧ أيضًا، يصدر المطران باسيليوس عرقتنجيّ عن دير الملاك ميخائيل بالزوق منشورًا راعويًّا[٢٣٣] يحدّد فيه تعرفة حسنات القداديس: غرش ونصف الغرش للقدّاس العاديّ، ثلاثة غروش إذا أقيم القدّاس في بيت المتوفّى. ويعيّن للنائب العامّ حصّتين من "البتمون". ويفرض أن

230- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٢٨.

231- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٢٧. نسخة أخرى في السجلّ ١ رقم ٤٣.

232- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٦.

233- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٤٦.

ينـزع من كلّ تركة خيريّة ربع قيمتها للفقراء، وكذلك ١٥ ٠/٠ لمعلّم الاعتراف.

وفي غضون سنة ١٨١٧ قدِم إلى حلب النائب الرسوليّ لويس غندلفيّ اللعازريّ البيامونتيّ. وكان سابقًا قد أقام في أزمير من سنة ١٧٨٢ إلى سنة ١٧٩٧. ثمّ عُيّن رئيسًا لدير عينطورة. واتّخذه الأمير بشير الثّانيّ الشهابيّ مرشدًا له ومستشارًا. وخرج الحلبيّون إلى لقائه حتّى قرية الأنصاري. ونزل ضيفًا على دير الأرض المقدّسة، وأقام في حلب أيامًا، زار خلالها الوزير خورشيد باشا، الذي استقبله بكلّ حفاوة وإكرام[٢٣٤].

ويكاد ذكر المطران باسيليوس عرقتنجيّ في التاريخ يبقى باهتًا خاملاً، لولا أنّه حدث في عهده، سنة ١٨١٨، اضطهاد آخر للكاثوليك، راح ضحيّته أحد عشر شهيدًا، لا بدّ لنا من ذكره هنا باختصار، مراعاة لحقوق التاريخ، مع الإشارة إلى أنّنا بالطبع نأسف لمثل هذه الحوادث المؤلمة التي تقسم بين الأخ وأخيه، وتثير الأحقاد والضغائن، ممّا لم يكن ليجري لو لم تنشطر طائفة الروم الواحدة، ويا للأسف، شطرين، ولو سادت بينهما، كما تسود اليوم والحمد لله، عاطفة التقدير والاحترام المتبادلين، بل المحبّة الأخويّة الخالصة.

خلفيّة الأحداث

في حلب، تشكّل طائفة "الروم" الطائفة المسيحيّة الكبرى. لكنّها، في الزمن الذي نحن بصدده، منقسمة إلى فئتين: الفئة الكاثوليكيّة، وهي تمثّل ما يناهز ثلاثة أرباع الطائفة، والفئة الأرثوذكسيّة التي تشكّل الربع الآخر.

إنّ راعي الفئة الكاثوليكيّة متغيّب في لبنان. وراعي الفئة الأرثوذكسيّة يونانيّ الجنسيّة، لا ينظر بعين الرضى لا إلى الكثلكة ولا إلى العروبة. لكنّه الأسقف الوحيد الذي تعترف به السلطة العثمانيّة راعيًا للطائفة، بينما تبدو الفئة الكاثوليكيّة متمرّدة على هذه السلطة. فيحاول هذا الأسقف أن يخضع لسلطانه الفئة الكاثوليكيّة المتمرّدة، مستعينًا بما له من نفوذ في الأستانة ولدى ممثّلي السلطة العثمانيّة في حلب. فتنتفض الفئة الكاثوليكيّة وتثور. وتسقط الضحايا...

"شهداء حلب" عام ١٨١٨[٢٣٥]

[234]- وثائق الأب توتل، الجزء الأوّل، صفحة ١٢٣.

[235]- استقينا جميع المعلومات الواردة في هذه الفقرة من الوثائق التي نشرها المرحومان الأبوان أكاكيوس كوسا ودميانوس شبارخ في كتابهما "شهداء حلب" الصادر سنة ١٩٣٢، صفحة ٥٣- ٢١٧.

في ١٤ آذار/ ٢٦ نيسان سنة ١٨١٨ عاد فدخل حلب باحتفال عظيم الأسقف اليونانيّ الأرثوذكسيّ جراسيموس التركمانيّ، متّشحًا بالحبة الخضراء، ومزوَّدًا بخطّ شريف مؤرّخ في ٢٤ شباط ١٨١٨، وموجّه إلى الوزير الأعظم أحمد خورشيد باشا، والي حلب، وإلى قاضي قضاة المدينة، مضمونه أنّه يجب على جميع أبناء طائفة الروم، من كاثوليك وأرثوذكس، أن يتبعوا المطران الوحيد المعترف به لدى الدولة، وهو جراسيموس التركمانيّ، ولا يجوز لأحد من الروم الكاثوليك أن يرتاد كنيسة أخرى كاثوليكيّة، أو أن يقبل في بيته أحدًا من كهنة الطوائف الكاثوليكيّة الأخرى، ولاسيّما من الكهنة المرسلين الأجانب. ويجب أن يُعطى الأسقف المذكور ثلث تركة مَن يتوفّى من أبناء طائفته، وله السلطة بأن يفسخ زواجات أبناء طائفته، وبأن ينفي منهم مَن يستنسب فيه هذه العقوبة.

فتوجّه أعيان الطائفة إلى الواليّ في مركزه في تكية الشيخ أبي بكر. وبعد أن استعطفوه بالهدايا، حصلوا منه على الوعد بعدم تنفيذ هذه الأوامر بحقّهم، ممّا لم يرق للأسقف اليونانيّ طبعًا. ففي ٢٣ آذار/ ٤ نيسان سنة ١٨١٨، عاد الأسقف فأقنع الواليّ بأن ينفي جميع كهنة طائفة الروم الكاثوليك، وعددهم أربعة عشر، وهم من المتمرّدين عليه. فسلكوا جميعهم طريق المنفى إلى أديرة لبنان[٢٣٦]. وفي ٤ نيسان استدعى المطران وجهاء الطائفة ومنعهم من الدخول إلى كنائس بقيّة الطوائف الكاثوليكيّة.

وتفاديًا للمشاكل، أوعز أيضًا قنصل فرنسا في ٥ نيسان إلى المرسلين الأجانب بأن يمتنعوا مؤقّتًا عن دخول بيوت الروم، وكانوا بأغلبيّتهم من الكاثوليك.

وتتأزّم الأمور. ففي ١٦ نيسان أمر المطران جراسيموس بأن تجتمع لديه في القلاّية جماعة الكاثوليك. فنحو الساعة التاسعة صباحًا أخذوا يتقاطرون أفواجًا من كلّ مرتبة وسنّ، حتّى بلغ عددهم نحو أربعة آلاف شخص. وعلت هتافاتهم متحدّية سلطة المطران، في شبه مظاهرة شعبيّة عارمة ضدّه. فلجأ المطران إلى الواليّ، الذي أرسل للحال طبيبه الخاصّ، وهو مسيحيّ إيطاليّ مارق يدعى Giannantonio Toselli، ومعه المباشر، فأمر الكاثوليك بأن يصلّوا

---

[236]- تقول حوليّات الرهبانيّة الشويريّة أنّ عدد الكهنة الذين خرجوا من حلب كان أحد عشر كاهنًا، والآباء الرهبان أربعة. وهذه أسماؤهم: "جبرائيل مراش، نعمة الله نجم، جرجس طحّان، حنّا سالم، بولس خيّاط، أنطون داقور، بطرس تيناويّ، ميخائيل أنطاكيّ، يوسف حبجي، بولس كاسيا، والآباء الرهبان واصاف قرقش، وأندراوس حنّا، وبرنردوس نحّاس، وورومانوس حدّاد".

في كنيسة المطران، وأن يعترفوا به راعيًا عليهم، وإلاّ ضبطت أموالهم وقطعت رؤوسهم. فرفضوا الانصياع لهذه الأوامر. وزاد البلبال، وقالوا أنّهم يستغيثون بقاضي الشريعة التي تمنع الإكراه في الدين. وشرع وجهاء الطائفة في تهدئة الشعب. وانحلّ الاجتماع في القلاّية.

لكنّ الفئات الأكثر هياجًا من سواها والأكثر حماسًا توجّهت للحال إلى مقام الباشا، لكي تتظلّم إليه. وبقي بعضهم في ساحة القلاّية، واعتدى على العناصر الأرثوذكسيّة وضربها. وغيرهم هدَّد الأسقف بالذات، بل شتمه. فهرب الأسقف إلى قاضي الشرع، واستماله إلى قضيّته. فكتب القاضي إلى الواليّ فتوى قال فيها: أنّ جماعة الكاثوليك قوم مشاغبون عصاة، متمرّدون على الأوامر الشاهانيّة، وقد هاجموا المطران في قلاّيته مسلّحين.

أمّا الوالي في سرايا الشيخ أبي بكر، فإذ رأى تلك الجماهير الغفيرة تنادي وتصرخ، حاول في البدء أن يتفاوض بهدوء مع ثلاثة من ممثليهم، ممّن يجيدون التركيّة. وبينما كانوا يخبرون الواليّ عن سبب رفضهم لسلطة المطران جراسيموس وللاشتراك معه في الصلاة، إذا بالقاضي يأتي شخصيًّا إلى السرايا، ويوغرُ صدر الواليّ ضدّ مَن مثّلهم وكأنّهم متمرّدون، لا على أسقفهم فحسب، بل على السلطان والدولة العثمانيّة بالذات.

ولمّا كان ممثّلو الشعب الكاثوليكيّ المتظاهر قد غادروا السرايا، عاد الوالي فاستدعى البعض منهم، وأمرهم بأن يذعنوا للفور لمطرانهم، وإلاّ قطع رؤوسهم. وإذ رفضوا، هجم الجند عليهم، واقتادوا ثمانية منهم إلى الحبس الداخليّ، وقطعوا رؤوسهم. ولمّا فرَّ الباقون من السرايا، لحق بهم الجند، وقتلوا ثلاثة آخرين. فكان عدد الذين قُطعت رؤوسهم أحد عشر، منهم تسعة من الروم الكاثوليك، وواحد من السريان، وواحد من الموارنة.

إذ ذاك توسّط بعض المقرّبين من الواليّ بأن يعفي عن البعض ويحبس الآخرين. فأخذ الجند يتراكضون، ويقبضون على الفارّين، ويزجّونهم في السجن، حتّى بلغ عددهم نحو الخمسمئة، كما وضعت الأختام على بيوت الشهداء والمساجين.

وهذه أسماء الشهداء الأحد عشر:

١- يوسف نقولا قاق، روميّ كاثوليك. متزوّج، زعيم المتظاهرين.

٢- بطرس نصرالله مراش، روميّ كاثوليك، متزوّج.

٣- جرجس جبرائيل عجوريّ، روميّ كاثوليك، أعزب، له من العمر ١٨ سنة.

٤- جبرائيل نعمةالله طنبه، روميّ كاثوليكيّ، أعزب.
٥- نصرالله نعمةالله طنبه، روميّ كاثوليكيّ، أعزب، شقيقه.
٦- أنطوان ميخائيل باسيل، روميّ كاثوليكيّ، روميّ، متزوّج وله أربع بنات، عمر الكبرى منهنّ ٦ سنوات.
٧- نعوم ميخائيل باسيل، أخوه، روميّ كاثوليكيّ، أعزب.
٨- يوسف نصرالله شاهيات، روميّ كاثوليكيّ، متزوّج.
٩- فتح الله يوسف عبيد الأسود، روميّ كاثوليكيّ، متزوّج، خرج من المدينة لكي يَرَى عاقبة الأمور، فدنا من السرايا، وهناك أمسكه الجند وقتلوه، دون أن يكون قد اشترك في التظاهرة.
١٠- جرجي ميخائيل بخاش، سريانيّ كاثوليكيّ، أعزب، كان يرافق مظاهرة الاحتجاج، فقبض عليه الجند وقتلوه.
١١- أنطوان ميخائيل حوّا، مارونيّ، كان يعبر الطريق ماضيًا إلى البستان، فأمسكه الجند وقتلوه.

التغلّب على الأزمة

وفي اليوم التالي، أيّ ١٧ نيسان ١٨١٨، أطلق الواليّ سراح جميع المساجين، ما عدا الروم الكاثوليك منهم، وكان عددهم يناهز الخمسمئة. وفي الليل عقد وجهاء الطائفة اجتماعًا قرّروا فيه، من باب الفطنة، أن يهادنوا المطران جراسيموس، حتّى يهدأ غضبه. وفي ١٨ منه، وكان يوم سبت لعازر، ذهبوا وقدّموا له طاعتهم، فأطلق سراح باقي المساجين. وفي ١٩ منه، وكان يوم أحد الشعانين، ذهب وجهاء الطائفة إلى الكنيسة، وحضروا قدّاس المطران، ما عدا جبرائيل عجوريّ (والد الشهيد جرجس عجوريّ)، وولداه باسيل وبطرس، وأنطوان يوسف باسيل، ونعوم بطرس باسيل، وباسيل بطرس رعد حمصيّ، الذين تحدّوا المطران واختبأوا لئلاّ يضطرّوا إلى دخول الكنيسة. وآخرون رحلوا عن البلاد، علمًا بأنّ الأتراك نصبوا الأوتاد (الخوازيق) في الساحات لِمَن يجرؤ من أبناء طائفة الروم على مقاطعة المطران.

أمّا الشهداء فقد بقيت جثثهم مطروحة على الأرض مدّة ثلاثة أيام، حتّى جاء ذووهم، فدفعوا مقدار خمسين كيسًا من الدراهم، فسمح لهم بدفنهم، فدفنوهم في مقابر النصارى. ونقل بعض المعاصرين أنّه ظهر نور على قبورهم.

وأنّ المطران المارونيّ جرمانوس حوّا بادر فأدرج أسماءهم في "السنكسار" الكنسيّ، ولم يتردّد في اعتبارهم شهداء[237].

ودفع الكاثوليك ثلاثين كيسًا من أجل فكّ الأختام عن بيوت الشهداء. كما تكلّفوا نحو أربعمئة كيس ذهب لتهدئة غضب الواليّ واستمالته إلى قضيّتهم. وقد أثار الظلم اللاحق بالضحايا عطف المسلمين من أبناء البلد. فاضطرّ الواليّ إلى التراجع رويدًا رويدًا عن موقفه، وإيقاف المطران جراسيموس عند حدّه. فأمر بأنّه إذا حدثت في المستقبل منازعة دينيّة يجب رفعُها إلى ديوان القاضي. واستند الكاثوليك إلى هذا الأمر، واستدعوا المطران جراسيموس إلى ديوان القاضي، مشتكين عليه بأنّه يريد أن يغتصبهم قسرًا على الدّخول إلى كنيسته. فأحالهم القاضي إلى المفتيّ، وهذا الأخير أجاب بما معناه: "لا يجب على المسلمين أن يحكموا في دعاوى غير المسلمين". فامتنع الواليّ عن إلزام الكاثوليك بالصلاة مع المطران جراسيموس.

لكنّه منع الكاثوليك في الوقت عينه من التردّد إلى كنائس الطوائف الكاثوليكيّة الأخرى. ففي الأحد السابق لعيد الميلاد سنة ١٨١٨ عُلّق على أبواب كنيسة الموارنة وكنيسة السريان هذا الأمر: "ليكن معلومًا بأنّ كلّ مَن يحاول من أبناء طائفة الروم أن يصلّي في الكنائس الأخرى، فإنْ كان فقيرًا يُعدم، وإنْ كان غنيًّا تضبط أمواله ويعاقب أشدّ المعاقبة، والكنيسة التي يصلّي فيها تكون معرّضة لدفع غرامة باهظة. والنساء لا يقعن تحت هذا المنع". وحتّم الواليّ على مطراني الطائفتين المذكورتين أن لا يقبلا أحدًا من طائفة الروم في كنائسهما، كما منع المرسلين الأجانب من خدمة أبناء الطوائف الشرقيّة حتّى في ساعة الموت.

لكنّ الكرسيّ الرسوليّ والدول الأجنبيّة الكاثوليكيّة، ولاسيّما النمسا وفرنسا، بدأت للفور مساعيها للدفاع عن الكاثوليك. وقدّم السفير البابويّ في فيينا عريضة باسم الكرسيّ الرسوليّ إلى البلاط النمساويّ، مع كتاب من البابا بالذات إلى الإمبراطور. وكلّف المجمع المقدّس المطران مكسيموس مظلوم، وكان مقيمًا إذ ذاك في رومة، بأن يحمل رسالة من وزارة الخارجيّة البابويّة إلى الأمير Metternich، وأن يواجه الإمبراطور النمساويّ بالذات، الذي تعاطف إلى أقصى حدّ مع قضيّة الكاثوليك في الشرق، وذرف الدموع السخينة

[237]- عندما نُقلت "مقابر النصارى" في الثلاثينات إلى خارج البلدة، جمعت مطرانيّة الروم الكاثوليك عظام الشهداء التسعة من أبنائها، ووضعتها في صناديق خاصّة، احتفظت بها ريثما يقام لهم نصب، أو يوضع رفاتهم المقدّس في مكان خاصّ لائق بهم.

عندما قصَّ عليه المطران مكسيموس مظلوم ما يتحمّل هؤلاء من اضطهاد وغرامات وسجون. فوعد بأن يبذل قصارى جهده للدفاع عنهم، ووفى بوعده. وقد قام مكسيموس مظلوم بهذه المهمّة في غضون شهر آب سنة ١٨١٨.

وبفضل هذه المساعي رجّحت كفّة الكاثوليك عند والي حلب منذ بداية عام ١٨١٩، لاسيّما وأنّ أحد الروم الكاثوليك، وهو الخواجا ناقوز، تعيّن من قبل الصدر الأعظم موظّفًا في الحكومة العثمانيّة. وتعيّن الخواجا نعّوم غضبان وكيلاً لطائفة الروم بحلب، وكان من ألدّ أخصام المطران جراسيموس. وبسعيه طرد الواليّ المطران جراسيموس من حضرته، وتهدّده بالعقاب إذا عاد واشتكى على الروم الكاثوليك.

وفي ٦ شباط ١٨١٩ حصل نعّوم غضبان من الواليّ على السماح للروم الكاثوليك بالصلاة في كنائس السريان أو الموارنة. ففي ٧ شباط ذهب جميعهم إلى القدّاس الاحتفاليّ الذي أقامه المطران جرمانوس حوّا، وخطب فيهم مشجّعًا. وفي ٩ شباط عادوا فحضروا من جديد قدّاسه، وقد حضره معهم مدير الماليّة موفدًا من قبل الواليّ. وفي نهاية القدّاس، مدح المطران ثبات الشهداء الأحد عشر. وقد رفع الجميع الدّعاء من أجل الدولة ومن أجل الواليّ. بل أنّه في السبت التالي جاء الواليّ بذاته، ومشى في مقدّمة المسيحيّين إلى باب كنيسة الموارنة، ومكث واقفًا حتّى نهاية الصلاة. فانكسرت حدّة الأزمة. واضطرّ المطران جراسيموس في ٦ آذار ١٨١٩ إلى مغادرة حلب، متوجّهًا إلى القدس الشريف. ثمّ وصلت أوامر من الأستانة بإرساله إلى المنفى وبإرجاع الكهنة الكاثوليك من منفاهم في لبنان إلى حلب.

تقييم الأزمة ونتائجها

من الصعب جدًّا تقييم موقف المطران جراسيموس ومسؤوليّته تجاه هذه الحوادث المؤسفة. فإنّ الوثائق المعاصرة تشهد بأنّ المطران جراسيموس التركمانيّ، في بداية عهده في أسقفيّة حلب، هادن الفئة الكاثوليكيّة، وتساهل معها كثيرًا، حتّى أنّه سمح للكاثوليك بأن يستعملوا كنيسته ويقدّسوا فيها على الهياكل الجانبيّة بكلّ حريّة. غير أنّ بعض "الأروام" شكوه إلى البطريرك القسطنطينيّ، الذي دعاه ووبّخه على هذا التساهل، وتهدّده بالعقوبات الكنسيّة إنْ هو لم يضع حدًّا "لانشقاق" الفئة الكاثوليكيّة في أبرشيّته، وكانت تمثّل الأغلبيّة من الطائفة، ومن بينهم الأسر الوجيهة الغنيّة كأسرة عايده وحمصيّ وبيطار وغضبان وعجوريّ وباسيل ودلاّل وغيرهم.

ونعتقد أنّ المسؤوليّة الكبرى تقع على "أبناء الأروام"، سواء أكانوا في حلب أم في القسطنطينيّة، الذين نظروا إلى الفئة الكاثوليكيّة وكأنّها فئة منشقة متمرّدة متفرنجة، فأرادوا بذل كلّ وسيلة لاسترجاعها إلى حظيرة الأرثوذكسيّة الرسميّة. فاستعملوا نفوذهم في الأستانة وفي حلب. ولم يتورّعوا أمام اللجوء إلى عنف السلطة العثمانيّة.

ولعلّ المطران جراسيموس لم يستدرك ولم يُرد مسبقًا ما آلت إليه الأمور فيما بعد. فهناك تصاعد واضح في العنف من جميع الأطراف المعنيّة: المطران يشتكي إلى القاضي والواليّ. الشعب يتمرّد ويهدّد المطران. الواليّ يردّ بعنف ووحشيّة. ثمّ تعود الأمور أدراجها إلى الوراء. فالدول الكاثوليكيّة تتداخل. والأموال تُصرف بسخاء. والواليّ يتراجع عن موقفه، ويناله التوبيخ من رؤسائه، فيهادن الكاثوليك، بل ينتهي إلى الدفاع عنهم...

صفحة قاتمة من النـزاعات الطائفيّة بين المسيحيّين، يسجّلها الحكّام الأتراك بمداد من الدم البرئ...

وكان من نتائج هذا الاضطهاد أن نُفي كهنة الروم إلى لبنان، ولم يعودوا منه إلاّ في أوائل سنة ١٨٢٥، وتبدَّد الكاثوليك، فهاجر الكثيرون منهم إلى ليفورنو ومرسيليا وغيرها. ومنذ ذلك الحين استولى الأرثوذكس نهائيًّا على الكنيسة وعلى المطرانيّة وعلى الأوقاف والمكتبة والمحفوظات. فحرم الكاثوليك منها، حتّى تحرّر جميع الرعايا الكاثوليك سنة ١٨٣١.

وفي تلك الظروف الصعبة أبدى الموارنة بحلب كلّ محبّة وتعاطف نحو إخوانهم الروم الكاثوليك، فاحتضنوهم، وكثيرًا ما تحمّلوا الاضطهاد والغرامات بسببهم، واعتنوا بهم روحيًّا في غياب كهنتهم المنفيّين في لبنان.

وتخبرنا الوثائق المعاصرة أنّه في ١٣ آب سنة ١٨٢٢ حدثت في حلب زلزلة رهيبة تهدّم معها ربع المدينة. وقد كتب المطران المارونيّ جرمانوس حوّا في ١٦ نيسان ١٨٢٣ إلى القنصل الإنكليزيّ يقول: "في الزلزلة خربت بعض أطراف كنيستنا من خارج. فأرسل الباشا والقاضي كشفوا على كنيستنا، فما رأوا أنّنا عمّرنا شيئًا بالكلّية. ومع ذلك مسكوا قسّيسًا من كهنتنا، وحبسوه وعرّوه من ثيابه، وأخرجوه ليشنقوه، وأخذوا جرمًا من كنيستنا ثمانية عشر ألف وخمسمائة غرش، مع كوننا لما عمّرنا شيئًا"...[٢٣٨]. يا لهول تلك الأيام!

238- الأب توتل، الجزء الأوّل، صفحة ١٢٤.

سنواته الأخيرة ووفاته

في خضمّ هذه الحوادث الجسام كلّها، بقي المطران باسيليوس عرقتنجيّ في لبنان، ولم يستطِع المجيء إلى حلب. ولدينا منه بتاريخ ١٣ أيار ١٨١٨ رسالة إلى البابا اشترك في توقيعها مع بطريركه أغناطيوس قطّان، والبطريرك المارونيّ يوحنّا بطرس، وفيها سردُ حوادث الاضطهاد الذي طرأ عام ١٨١٨، وطلب مساعدة.

ونراه كذلك يكتب من دير القدّيس يوحنّا الصابغ في ١٢ آب ١٨١٩ إلى المجمع المقدّس يطلب إسعافًا ماليًّا لكهنته الذين ما زالوا لاجئين إلى الديورة في لبنان، "بالقرب منه".

كما يكتب أيضًا من لبنان في ١١ نيسان سنة ١٨٢١ إلى المجمع المقدّس يطلب إدراج أسماء الشهداء الأحد عشر في عداد القدّيسين.

وهكذا نعتقد أنّ المطران باسيليوس عرقتنجيّ، منذ أن تعيّن مطرانًا على حلب، لم يطأ أرض أبرشيّته، بل بقي يدير أمورها من لبنان.

وفي ٢٥ أيار ١٨٢٣ يكتب باسيليوس عرقتنجيّ وصيّته الأخيرة، تحريرًا عن دير الملاك ميخائيل بالزوق، ويقول فيها: "أرغب وأريد أن يكون دفني في ضريح سلفائي المرحومين الصالحي الذكر هو ضمن كنيسة هذا الدير"، مشيرًا إلى المطران جراسيموس سمان والمطران جرمانوس آدم، اللذين توفيا في دير الملاك ميخائيل ودُفنا في كنيسته. ويعيّن السيّد يوسف خباز منقذًا لوصيّته هذه[٢٣٩].

ويتوفّى المطران باسيليوس عرقتنجيّ في دير الملاك ميخائيل بالزوق بعد بضعة أيام، في ٢٩ أيار ١٨٢٣، ويُدفن في كنيسة الدير المذكور.

ولا يعود الكهنة المنفيّون إلى حلب إلاّ في أوائل سنة ١٨٢٥، بينما كان الكرسيّ شاغرًا حتّى تعيين مدبّر رسوليّ له في شخص أسقف زحله المطران أغناطيوس عجوريّ بتاريخ ٩ حزيران ١٨٢٦. في هذه الأثناء، وقّع كهنة حلب في ١١ شباط سنة ١٨٢٥، فور عودتهم إلى حلب، وثيقة تعهّدوا فيها بأن يعيشوا بكامل الاتحاد والمحبّة، وأن يقدّسوا في بيوتهم، ما عدا حالات المرض الخطير التي تدعو إلى إقامة القدّاس في بيت المريض، وأن لا يقبلوا أحدًا للاعتراف في بيوتهم. وقد أثبت البطريرك أغناطيوس قطّان هذا الاتفاق بين الكهنة[٢٤٠].

---

[239]- محفوظات مطرانيّتنا بحلب، سجلّ ١ رقم ٥.

[240]- محفوظات مطرانيّتنا بحلب، سجلّ ١ رقم ٣٠.

- ١٦ -
أغناطيوس عجوريّ
(نائب رسوليّ، من أوائل ١٨٢٦ حتّى أواسط ١٨٣١)

نشأته

هو المقدسيّ حنّا أو يوحنّا عجوريّ، زعيم المعارضة ضدّ المطران مكسيموس مظلوم، وممثّل النـزعة "الغربيّة" في الأبرشيّة الحلبيّة.

وُلد في حلب حول سنة ١٧٨٥، ولعب دورًا كبيرًا في المنازعات العقائديّة التي بلبلت الطائفة في عهد المطرانين جرمانوس آدم ومكسيموس مظلوم. فكان دائمًا إلى جانب المرسلين والغُلاة من الكاثوليك "الغربيّين".

سيم كاهنًا في تاريخ لم نستطع تحديده إلى الآن. ولم يثبت لدينا، كما ادّعى البعض، أنّه كان قد درس العلوم الدينيّة في معهد انتشار الإيمان برومة.

ولمّا نُصّب القسّ موسى قطّان في ١/ ١٣ تموز سنة ١٨١٦ بطريركًا على الطائفة باسم أغناطيوس الخامس، بادر فورًا إلى اختيار صديقه ومؤازرة الخوري يوحنّا عجوريّ معاونًا له ومستشارًا في البطريركيّة. فرسمه كاهنًا ثمّ أسقفًا على ديار بكر، ثمّ، لقلّة أبناء الطائفة في تلك الديار، ولرغبته الملحّة في إبقائه بالقرب منه، نقله إلى كرسيّ زحلة.

وهناك، بصفته مطرانًا لزحلة، بلغه من الكرسيّ الرسوليّ تعيينه مدبّرًا لأبرشيّة حلب، الشاغرة بوفاة راعيها المطران باسيليوس عرقتنجيّ في ٢٩ أيار سنة ١٨٢٣، في دير الملاك ميخائيل بالزوق.

تعيينه مدبّرًا رسوليًّا لأبرشيّة حلب

لا نعرف بوجه التدقيق متى وكيف تعيّن أغناطيوس عجوريّ، مطران زحلة، مدبّرًا أو نائبًا لأبرشيّة حلب. وإنّنا نعتقد أنّه قد تمّ ذلك في أوائل سنة ١٨٢٦.

فالبراءة البابويّة التي تعيّنه رسميًّا مدبّرًا لأبرشيّة حلب صدرت بتوقيع البابا لاون الثانيّ عشر بتاريخ ٩ حزيران (غربيّ) سنة ١٨٢٦.

لكنّ الأب فردينان توتل يقول[٢٤١] أنّ كهنة حلب، وكانوا قد عادوا قبل بضعة أشهر من منفاهم، دوّنوا بتاريخ ٢٢ تموز سنة ١٨٢٥ وثيقة دعوها "بيان القضايا التي ارتضينا، نحن المحرّرة أسماؤنا أدناه، أن يكونوا بطالات في طائفتنا"، فمنعوا بمقتضاها بعض التجاوزات في الأعراس، وعرضوها على أغناطيوس عجوريّ "نائب أبرشيّة حلب"، فأثبتها بتوقيعه في ١ آذار سنة ١٨٢٦.

وقد عثرنا في محفوظات مطرانيّتنا[٢٤٢] على منشور منه صدر عن الدار الأسقفيّة بزحلة في ٥ أيار ١٨٢٦، وفيه يسمح بالزواج للمدعوّة تريز ابنة أندريا، ويلزمها بتكميل وعدها المتبادل مع أنطوان تيناويّ، ويمنح الآباء الكهنة سلطة التفسيح من القرابة الدمويّة في تلك الحالة، ويفرض على الخطيبين قانونًا، ويوقّع: "أغناطيوس عجوريّ مطران الفرزل والبقاع ونائب أبرشيّة حلب".

هذا وقد تبيّن لنا أنّ المطران أغناطيوس عجوريّ لم يتوجّه قط إلى حلب، بل اكتفى بإدارة أبرشيّته من مركزه الأسقفيّ في زحلة، تمامًا كما فعل سلفه المطران باسيليوس عرقتنجيّ، إذ رعى أمور أبرشيّته الحلبيّة من دير الملاك ميخائيل بالزوق.

أهمّ حوادث نيابته

في ٢١ كانون الثانيّ سنة ١٨٢٧، يكتب إكليروس الروم الكاثوليك بحلب إلى مجمع انتشار الإيمان برومة فعرض حالة اضطهاد الكاثوليك في حلب، والصعوبة التي يجدها الآباء الكهنة للتقديس في البيوت الخاصّة، إذ كانت "كنيسة السيّدة" في أيدي الفئة الأرثوذكسيّة، ويلتمس من المجمع أن يوعز إلى السريان بحلب بأن يسمحوا لكهنة الروم بالتقديس في كنيستهم[٢٤٣]، فيقولون أنّ كنيسة السريان واسعة، والطائفة فيها قليلة. "فهي تكفي لنا ولهم، دون ثلم حقوق كنيستهم أو كهنتهم". ويضيفون: "نرجو أن تأمروا الطائفة المذكورة بأن يقبلوا كهنتنا ليقدّسوا فقط في كنيستهم، حتّى تنجو طائفتنا من غائلة غضب الحكم العثمانيّ عليها إذا قدّس كهنتنا في بيوتهم الخصوصيّة... ويحقّ لنا منهم هذا الطلب من باب المعروف منهم، لأنّ آباءنا الأقدمين هم الذين أسعفوا

241- وثائق الأب توتل، الجزء الأوّل، صفحة ١٣٥- ١٣٧.

242- سجلّ ١ رقم ٤٥.

243- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ١١.

الطائفة المذكورة في إنقاذ كنيستهم من أيدي الهراطقة، وكانت جماعتنا العلّة الفاعلة لهذا الأمر. ومن قريب، حين هدم جانب من كنيستهم في الزلزلة المشتهرة التي صارت منذ ما ينيف عن أربع سنوات، فلكي يقيموا المهدوم ويعمّروا ما يلزم، فقد ساعدتهم طائفتنا بمبلغ دراهم وافر جمعوه من جميع بيوت طائفتنا..."

إنّ الروم الكاثوليك بحلب يستندون في طلبهم إلى إسهامهم السخيّ في استرجاع كنيسة السريان بحلب في عهد المطران أغناطيوس جربوع سنة ١٧٧١، وفي حادث الزلزال الكبير سنة ١٨٢٢. لكنّ السريان يخشون بحقّ ما قد تتعرّض له كنيستهم من الأخطار إذا فتحت أبوابها لكهنة الروم الكاثوليك، إذ أنّهم لم ينسوا الإعلان الذي أمر الواليّ بتعليقه على أبواب الكنائس يوم الأحد السابق لعيد الميلاد سنة ١٨١٨: "كلّ كنيسة يصلّي فيها أبناء طائفة الروم (فيما سوى كنيستهم) تكون معرّضة لدفع غرامة باهظة".

وفي ٢٥ تشرين الأوّل سنة ١٨٢٧، يبعث المطران أغناطيوس عجوريّ من الدار الأسقفيّة بزحلة إلى كهنة حلب وشعبها بمنشور راعويّ[٢٤٤] يهنّئهم فيه بانتهاء الطاعون، ويدحض قول مَن ادّعى بأنّ كثيرين من المؤمنين ماتوا دون تقبّل الأسرار المقدّسة بسبب كسل الكهنة وتقاعسهم. ويتحدّث عن توزيع أموال التركات على الفقراء، وعن الكهنة الجدد الذين رسمهم، وهو مزمع أن يرسلهم إلى حلب، ويقول: "قد عيّنّا لكلّ واحد صايحًا (أيّ حيًّا من أحياء المدينة)، يعتني بالقاطنين فيه من أبناء رعيّتنا". ويعزّيهم بوفاة الخوري جبرائيل مراش والخوري أنطون داقور والخوري بولس كاسيّا. ويقول أنّه قد وصل إلى طرفه سبعة شمامسة يتهيّئون للكهنوت، واثنان منهم يتوجّهان إلى رومة.

وفي ١٣ حزيران سنة ١٨٢٨، يكتب عن الدار الأسقفيّة بزحلة رسالة إلى أبناء أبرشيّته الحلبيّة[٢٤٥]، يمدّد فيها مهلة اكتساب الغفران اليوبيليّ لأربعة أشهر إضافيّة، من أوّل شهر آب حتّى آخر يوم من شهر تشرين الثانيّ سنة ١٨٢٨، لأنّ الكثيرين من أبناء حلب، على ما يقول، لم يستطيعوا ربح غفران اليوبيل في الوقت المحدَّد بسبب الطاعون المتفشّي في العام المنصرم. وقد كان في منشور سابق عيّن أربع كنائس يجب زيارتها لربح الغفران. وفي هذا المنشور اللاحق، يحصر زيارة الكنائس، بالنسبة للنساء، في اثنتين فقط، هما كنيسة السيّدة للسريان، وكنيسة مار الياس للموارنة. وفي كنيسة السيّدة للسريان يعيّن

[244]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٤٢.

[245]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ١، ونسخة أخرى في سجلّ ١ رقم ١٣.

لهنّ هيكلين تجب زيارتهما، هما هيكل العذراء مريم، وهيكل القدّيسين بطرس وبولس. وفي كنيسة مار الياس للموارنة يعيّن لهنّ أيضًا هيكلين، هما هيكل القدّيس يوسف البتول، وهيكل مار الياس الحيّ. أمّا الرجال فيستطيعون أن يزوروا كنيستين أخريين من كنائس المرسلين.

وعلى أثر وفاة النائب السابق، الخوري جبرائيل مراش، فإنّه يعيّن لأبرشيّته نائبًا جديدًا وهو الأب إبراهيم عيّاط، ويمنحه توكيلاً عامًّا. ثمّ يعيّن بدلاً عنه في وقت لاحق الخوري جرجس طحّان.

وفي ٨ تشرين الأوّل سنة ١٨٢٨، يكتب[٢٤٦] إلى مرشدي ومتقدّمي أخويّتي بشارة العذراء وخطبتها، ليصلح خلافًا نشأ بينهم بشأن الانتخابات.

وفي منشور له مؤرّخ في ١٣ تشرين الثّانيّ سنة ١٨٢٩[٢٤٧]، يعيّن المطران عجوريّ الزمن والمكان والأفعال المطلوبة لربح الغفران الذي أنعم به البابا بيوس الثامن بمناسبة ارتقائه السدّة البطرسيّة. فيعيّن المطران عجوريّ مدّة قوامها خمسة عشر يومًا تبدأ في ١٠ كانون الأوّل وتنتهي في ٢٥ منه. ويفرض زيارتين متواليتين لثلاث كنائس: كنيسة السيّدة للسريان، وكنيسة مار الياس للموارنة، وكنيسة الرهبان الفرنسيسكان. أمّا بالنسبة للنساء فإنّ زيارة هذه الكنيسة الأخيرة لا تفرض عليهنّ بسبب بُعدها عن الأحياء المسيحيّة.

الخلاف مع إكليروس حلب

لم تمض خمس سنوات على نيابة المطران أغناطيوس عجوريّ على حلب حتّى قام الخلاف بينه وبين البعض من إكليروس حلب. ودار محور الخلاف، على ما يبدو، حول إقدام المطران عجوريّ على رسامة كهنة جدد، وإرسالهم إلى حلب، وتصريفهم في الرعيّة، دون موافقة كهنة حلب الأقدمين. فثاروا عليه.

وقد نستغرب اليوم هذا الموقف، لأنّ الكنيسة في عصرنا تشعر بنقص في عدد الكهنة بوجه العموم، ولا تتردّد في رسامة كهنة جدد وتصريفهم في خدمة الرعايا. على أنّ العرف في حلب كان يقضي بأن يبقى عدد الكهنة ثابتًا، حول الأربعة عشر، وأن لا يصرّف كهنة جدد في خدمة الرعايا لئلاّ ينقص من جرّاء ذلك مدخول الكهنة القدامى، علمًا بأنّهم كانوا إذ ذاك يعيشون من

246- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٣٤.

247- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٤٠.

تبرّعات المؤمنين، ولم يكن لهم راتب شهريّ محدّد... من هنا نشأ الخلاف وتطوّر.

ففي ١٩ أيلول سنة ١٨٣٠ يستغيث بعض كهنة حلب وأفراد من شعبها بالبطريرك والقاصد الرسوليّ ضدّ المطران أغناطيوس عجوريّ[٢٤٨] ويقولون أنّه لا يعتبر أحدًا، ولا يتبع الطرق القانونيّة في أحكامه، ولا يعير أذنًا صاغية لملاحظات الإكليروس الحلبيّ وملاحظات القاصد الرسوليّ. ويضيفون: "لذا نلجأ إلى الكرسيّ الرسوليّ طالبين منه رفع نيابته على أبرشيّة حلب، مع أنّنا سبقنا وطلبناه نائبًا علينا. ونطلب إقامة نائب آخر علينا، تمهيدًا لانتخاب مطران شرعيّ بالطرق المألوفة. ونشتكي من رسامة كهنة دون مراجعة الإكليروس والارخندس وبسرعة مشكّكة، من دون انتخاب الإكليروس ورضى الأجاود". ويقولون أنّه حتّى الآن أرسل أربعة من أولئك الكهنة الجدد وصرّفهم في أبرشيّة حلب. "ومن ثمّ نعلن ونشهد أنّنا لا نعرفهم كهنة رعيّتنا، ولا نرضى أن يعدّوا من مصافّ إكليروسنا". تلي تواقيع خمسة من كهنة حلب وعدد من وجهاء الطائفة، نورد أسماءهم هنا لِما فيها من فائدة تاريخيّة:

التواقيع: الخوري حنّا سالم، الخوري ميخائيل أنطاكيّ، الخوري يوسف جبجيّ، القسّ إبراهيم عيّاط، القسّ ميخائيل عجوريّ، نصرالله غزالة، أنطون باسيل، أنطون بردغجيّ، نعمةالله باسيل، نعمةالله حمصيّ، نعمةالله خوري، بطرس حمصيّ، رزق الله جهاميّ، عبدالله باسيل، حنّا رعد، بطرس نجم، بطرس جحه، ميخائيل غضبان، نعمةالله غزاله، فتح الله باسيل، الياس كبابة، نعّوم غضبان، شكري غضبان، فتح الله عجوريّ، أنطوان عجوريّ، فتح الله بردغجيّ، عبدالله جنبرت، عبدالله عرقتنجيّ، حنّا أصفر، جرجي يوسف مراش، جرجي متري، نعمةالله عرقتنجيّ، جبرائيل أنطاكيّ، نصري نجم، يوسف حكيم، ميخائيل صايغ، شكري ناقوز، الياس شاهيات، أنطون حبريّ، يوسف قسّيس، جبرائيل عبدالله أنطاكيّ، الياس نجم، نعمةالله قسّ نصرالله، نعمةالله بطرس خوري، يوسف جمل، نصري شاهيات، جبرائيل شوحه، عبدالله جمل، عبدالله شاهيات، فيلبّس تاجر، نعّوم جنبرت، أنطون حدّاد، نعمةالله شعراويّ، الياس نصري توتنجيّ، شكرالله عايده.

على أنّ جميع الكهنة ووجهاء الشعب لم يكونوا موافقين على هذا الطلب، بل كما يحدث دائمًا في مثل هذه الخلافات، فقد قامت فورًا فئة معاكسة للأولى،

248- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٧.

على رأسها الخوري جرجس طحّان، وكيل المطران عجوريّ بحلب. فنشطت وكتبت في ٢٧ تشرين الثانيّ سنة ١٨٣٠[249] عريضة معاكسة، وقّعها ٤٠٦ أشخاص، وبعثت بها إلى مجمع انتشار الإيمان، طالبت فيها بإبقاء المطران أغناطيوس عجوريّ نائبًا على حلب. وقد وقّع العريضة أيضًا مطران الموارنة بولس اروتين في ٣ كانون الثانيّ سنة ١٨٣١.

ويدافع المطران أغناطيوس عجوريّ عن نفسه، فيكتب بتاريخ ٢٠ تشرين الأوّل سنة ١٨٣٠[250] أنّ ما ذكره أخصامه من أنّه رسم كهنة على حلب "دون معرفتهم وانتخابهم ورضاهم" لا صحّة له. فإنّه قد سلك حسب القوانين وعادة سلفائه. وأنّ الكهنة الجدد كانوا يتثقّفون عنده منذ ثلاث سنوات، بعِلم إكليروس حلب. وأنّ طلب الحلبيّين إلى البطريرك بإقالته عن نيابته مخالف لأوامر الأب الأقدس ومجمعه. لذا فهو يستغيث بدوره بالكرسيّ الرسوليّ، هو والكهنة المخلصون له، القدامى والجدد، إلى أن يرد جواب رومة على استغاثته، لاسيّما وأنّ البطريرك "رفع المنع الذي به كنّا منعنا العابدات عن الاعتراف عند مرشديهنّ المعلومين".

يشير هنا المطران أغناطيوس عجوريّ إلى أنّ بعض أخصامه من الكهنة كانوا متورّطين في قضيّة العابدات، التي سنتحدّث عنها على حِدة، وأنّهم يقاومونه لا لشيء إلاّ لكونه أراد أن يضع حدًّا لتصرّفاتهم المخالفة للقوانين وللأخلاق الكنسيّة. وفعلاً فقد كان أمرُ "أخويّة عابدات قلب يسوع" قد بلغ رومة. وفي ٢٧ آذار سنة ١٨٣٠ حضر من الكرسيّ الرسوليّ[251] أمر بإلغاء كلّ أخويّة لم يسبق ؟؟؟ بذاته، ومنها "أخويّة قلب يسوع" المذكورة، التي كان يتظاهر أصحابها بالتمتّع بمواهب روحيّة فائقة كالاختطافات وما شاكل...

وفي الوقت عينه، يكتب المطران عجوريّ بتاريخ ٢٧ تشرين الأوّل ١٨٣٠ إلى نائبه بحلب الخوري جرجس طحّان[252] بخصوص الكهنة الذين أرسلهم إلى حلب، فصار عليهم احتجاج من قبل بعض الكهنة. ويقول أنّه إنّما أرسلهم، لا لخدمة الأغنياء، بل "لخدمة الفقراء والصنّاع، وخصوصًا البسارنة، الذين ألحّوا عليه بطلب كهنة".

249- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٣ رقم ١.

250- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٣.

251- وثائق الأب توتل، الجزء الثانيّ، صفحة ٨.

252- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٨.

ويدّعي الحلبيّون أنّ المطران عجوريّ قد عُزل عن وظيفته، ويشيّعون ذلك في أنحاء البلد، بل يكتبون إلى البطريرك أغناطيوس قطّان يعلمونه بأنّ القاصد الرسوليّ يوحنّا لوسانا اتّخذ فعلاً هذا القرار، وأقام لهم نائبًا أسقفيًّا آخر هو الخوري بطرس تيناويّ، وأمر بإجراء انتخاب قانونيّ لتعيين أسقف جديد على حلب، وأنّ الانتخاب قد تمّ، وهم يطلبون من البطريرك أن يرسم المنتخب. فيجيبهم البطريرك بتاريخ ١٤ نيسان سنة ١٨٣١[٢٥٣] محتجًّا على قرار القاصد، وناعتًا إيّاه بأنّه مخالف للقوانين. ويقول البطريرك أنّه يرفض الاستعجال في أمر الرسامة، لأنّ سابق رسامة المطران مكسيموس مظلوم ما زال عالقًا في الأذهان، وهو يحمل على التحفّظ. ولمّا كان عزل المطران عجوريّ قد تمّ بعد رفع استغاثته إلى رومة، واستغاثة الحلبيّين عليه، فإنّه يتحتّم على الجميع انتظار جواب رومة. ويبدو أنّه بين الأسباب التي أوردها الحلبيّون كانت رغبتهم في الاستعجال ببناء كنيسة لهم في حلب. فيجيبهم البطريرك: "ولا يعيق مباشرتكم عمار كنيسة وغيره تعويق الرسامة، هذه البرهة، حسب استنادكم".

هذه أوّل إشارة إلى عزم الروم الملكيّين الكاثوليك بحلب على بناء كنيسة جديدة خاصّة بهم، والاستغناء عن التقديس في البيوت أو في كنائس الطوائف الكاثوليكيّة الأخرى. ذاك أنّ جيوش إبراهيم باشا المصريّ كانت قد اجتاحت سورية، مبشّرة بعهد من الحريّة جديد، يتيح لأبناء الأقلّيات المضطهدة في عهد العثمانيّين ممارسة حقوقهم وشعائرهم الدينيّة دون قيد ولا إكراه.

ويبدو أنّ المطران أغناطيوس عجوريّ تنحّى فعلاً عن نيابة أبرشيّة حلب، إمّا تنفيذًا لقرار القاصد الرسوليّ، وإمّا من تلقاء نفسه. ففي المجمع الذي عقده أساقفة الطائفة في دير البشارة بزوق مكايل بتاريخ ٢٥ تشرين الثانيّ/ ٦ كانون الأوّل سنة ١٨٣١ لاتّخاذ بعض قرارات تصلح أحوال الطائفة وتعيد إليها النظام والسلام، برئاسة البطريرك أغناطيوس قطّان، حضر المطران أغناطيوس عجوريّ، ووقّع أعمال المجمع بهذه العبارة فقط "أغناطيوس مطران الفرزل والبقاع"، دون ذكر نيابته على حلب[٢٥٤].

فتكون نيابة المطران أغناطيوس عجوريّ على حلب قد دامت من أوائل سنة ١٨٢٦ حتّى أواسط سنة ١٨٣١. ويبقى الكرسيّ من بعده شاغرًا حتّى رسامة المطران غريغوريوس شاهيات في ١ كانون الثانيّ سنة ١٨٣٣. وفي هذه

253- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٣٩.

254 MANSI, t. 46, col. 960- 962.

الأثناء عرفت سوريا فتوحات الجيش المصريّ، بقيادة إبراهيم باشا. وقد آلت في الواقع إلى إعطاء الأقلّيات المسيحيّة تذوّقًا بدائيًّا لطعم الحريّة والمساواة.

الفتوحات المصريّة

دخل إبراهيم باشا حلب في ١٧ تموز سنة ١٨٣١، وأقامت جيوشه المصريّة فيها نحو عشر سنوات، حتّى سنة ١٨٤٠. وفي عهده هجر كثيرون من المسيحيّين وطنهم هربًا من الخدمة العسكريّة الإلزاميّة، كما سبق غيرهم وهجروا على أثر اضطهاد سنة ١٨١٨ أو الزلزال الذي وقع سنة ١٨٢٢.

على أنّهم بدأوا في هذا العهد، وللمرّة الأولى منذ زمن طويل، ينعمون بشيء من المساواة والحريّة الدينيّة. فما مضى شهر على دخول الجيوش المصريّة حلب حتّى كتب إبراهيم باشا في ١٠ آب سنة ١٨٣١ إلى متسلّمه في حلب، سيّاف زاده إبراهيم آغا، يمنع تسخير الناس وتغريمهم بما لا يفرضه القانون على الجميع. وفي ١٩ آب من السنة عينها بدأ ببناء المستشفى العسكريّ في حلب، واستحضر له الأدوات اللازمة من مصر، فضلاً عن الحجارة التي أمر بانتزاعها من "شاحط" القلعة.

وقد كتب إلى متسلّم اللاذقيّة يقول: "إنّ التعرّض إلى الرعايا وعدم مؤاساتهم مخالف لرضانا. لأنّ الإسلام والنصارى جميعهم رعايانا. وأمرُ المذهب ما له مدخل بحكم السياسة. فيلزم أن يكون كلٌّ بحاله: المؤمن يجري إسلامه، والعيسويّ كذلك ولا أحد يتسلّط على أحد".

ولم يتأخّر إبراهيم باشا عن ترقية النصارى والدروز عند ثبوت الاستحقاق. فعرض على الأمير الشهابيّ الكبير حاكميّة جميع الأقطار الشامية. وقدَّر حنّا البحريّ، الدّمشقيّ الملكيّ الكاثوليكيّ، ورقّاه إلى المرتبة التي استحقّها، وجعله مديرًا عامًّا للماليّة، متنعّمًا برتبة البيكاويّة، وهو أوّل نصرانيّ في الأقطار العربيّة نال هذا اللقب[٢٥٥].

"وبعد حكم إبراهيم باشا في الشام بدأ عصر التنوير والإصلاح. فقد كان الذميّ قبل أيامه لا يعدّ نفسه من الآدميّين. فلمّا انتشرت راية العدل، وعمّ الأمن، وتساوى الناس أمام الحاكم، وظهرت القوّة التي كانت كامنة في الصدور، خطا النصارى الخطوات الواسعة في ميدان الحضارة، ونشطوا إلى

[255]- راجع "ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا" إدارة الشام، للدكتور أسد رستم، صفحة ١١٣.

القيام بالأعمال الكبيرة. ولم يزل أهل الشام يتحدّثون بإبراهيم باشا وأيامه إلى هذا الحين"[٢٥٦].

وفاته

توفي البطريرك أغناطيوس قطّان في ١٣/ ٢٥ آذار سنة ١٨٣٣ في دير البشارة بزوق مكايل. أمّا المطران أغناطيوس عجوريّ، "مطران الفرزل والبقاع"، الذي كان قد تنحّى سنة ١٨٣١ عن منصب النائب الرسوليّ على أبرشيّة حلب، فقد توفي يوم ٤ آب سنة ١٨٣٤ في مدينة زحلة، "من معاملة بقاع بعلبك"، كما ورد في رسالة كتبها الشمّاس بطرس حاتم، ثمّ امتنع عن إرسالها له لتبلّغه خبر وفاته في التاريخ المذكور[٢٥٧]. وفي محفوظات مطرانيّتنا[٢٥٨] صورة عن وصيّته الأخيرة، مؤرّخة في شهر شباط سنة ١٨٣٤.

- ١٧ -
غريغوريوس شاهيات
(١ كانون الثانيّ ١٨٣٣- ٢١ آب ١٨٤٣)

نشأته

هو القسّ بطرس شاهيات، من إكليروس أبرشيّة حلب. دخل الرهبانيّة الشويريّة سنة ١٨١٩[٢٥٩]، وهو كاهن، فانضمّ في الرهبانيّة إلى أخيه الخوري باسيليوس شاهيات، الذي كان مزمعًا أن يُنتخب رئيسًا عامًّا للرهبانيّة الشويريّة في المجمع العامّ التاسع والثلاثين المنعقد في ٣١ تشرين الأوّل سنة ١٨٢٩[٢٦٠]، ثمّ أصبح فيما بعد مطرانًا على زحلة والفرزل.

مارس القسّ بطرس شاهيات الخدمة الكهنوتيّة في مصر، ونال فيها تقدير الجميع. وهناك رشّحه البابا لاون الثانيّ عشر ليكون أسقفًا على بيروت، لكنّه

256- راجع "حسر اللثام عن نكبات الشام"، طبعة مصر ١٨٩٥، صفحة ٤٥.

257- كتب الشمّاس بطرس حاتم، الذي كان مزمعًا أن يتبوّأ يومًا كرسيّ حلب باسم المطران بولس حاتم، هذه الحاشية: "هذا التحرير حرّرته إلى السيّد أغناطيوس عجوريّ. وثاني يوم تحريره، إذ كنتُ قاصدًا طيَّه وإرساله، بلغني خبر وفاته السعيدة التي تمّت في ٤ آب سنة ١٨٣٤ في مدينة زحلة من معاملة بقاع بعلبك". وهذه الرسالة محفوظة في خزانة مطرانيّتنا، بين أوراق المطران بولس حاتم.

258- سجلّ ١٧ رقم ٨٩.

259- راجع تاريخ الرهبانيّة الشويريّة، للأب أثناسيوس الحاج، صفحة ٨٦٣.

260- المرجع المذكور أعلاه، صفحة ٩٣٥.

أُبعدَ عن هذا المنصب لصالح المطران أغابيوس الرياشيّ، الذي شغل الكرسيّ بدلاً منه.

انتخابه مطرانًا على حلب وسيامته الأسقفيّة

في أوائل سنة ١٨٣١، قرّر القاصد الرسوليّ يوحنّا لوسانا تنحية المطران أغناطيوس عجوريّ عن منصبه المؤقّت كمدبّر رسوليّ للأبرشيّة الحلبيّة، ودعا الحلبيّين إلى انتخاب أسقف أصيل لهم. لكنّهم انقسموا قسمين: قسم كان يؤثر إبقاء المطران أغناطيوس عجوريّ، وعدم تنحيته إلاّ بقرار صريح من الكرسيّ الرسوليّ، وقسم كان يرى أنّه من الصعب على المطران عجوريّ تدبير أبرشيّتين في آن واحد، وأنّه من صلاحيّات القاصد الرسوليّ تنحيته والحكم بانتخاب خلف له. ولمّا طال النـزاع بين الطرفين، رُفعت القضيّة إلى البابا غريغوريوس السادس عشر، الذي كتب بتاريخ ٢٤ كانون الأوّل سنة ١٨٣١ إلى البطريرك أغناطيوس قطّان[٢٦١] يدعوه فيه إلى اختيار أسقف أصيل لأبرشيّة حلب، مضيفًا أنّه يؤثر، احترامًا للمقام البطريركيّ ولعادات الكنيسة الشرقيّة، أن يترك هذا الإجراء للبطريرك من أن يستأثر به شخصيًّا.

ولمّا كان الإكليروس والشعب في حلب ما زالوا منقسمين على أنفسهم حول ترشيح كاهن من إكليروس حلب لارتقاء السدّة الأسقفيّة فيها، فقد أجمع الرأي هذه المرّة على وجوب اختيار كاهن من الرهبان الشويريّين دون سواهم. فاجتمع القاصد الرسوليّ وكهنة الأبرشيّة واثنا عشر من وجهاء الطائفة "في محلّ أخويّة سيّدة البشارة"، الذي كان إذ ذاك في بيت الخوري إبراهيم عيّاط. فتلى القاصد أمامهم براءة البابا غريغوريوس السادس عشر، ومنشور البطريرك أغناطيوس قطّان. ثمّ اشتركوا جميعًا في الذبيحة الإلهيّة. وبعد الصلاة، رموا القرعة، فانتخبوا، كما قالوا، "بالصوت الحيّ، باتفاق جميعنا، حضرة الأب القسّ بطرس شاهيات المحترم مطرانًا على كاتدرا كنيستنا الروميّة الكاثوليكيّة بحلب". فأعلنوا نتيجة اقتراعهم لوجهاء الطائفة المجتمعين معهم، فوافقوا عليه. ونظّموا محضرًا، أيّ صكّ انتخاب، مؤرّخًا في ٢٥ حزيران سنة ١٨٣٢[٢٦٢]، ووقّعوا عليه، ثمّ عرضوه على أبناء الطائفة، فجمع في يوم واحد لا أقلّ من ألفي توقيع.

---

[261] Bref “Crum Eclesia Melehitarum”, dans MARTINIS, Jus missionarium, t. V, p. 20.

[262]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٣ رقم ٢.

وهذه أسماء الكهنة الموقّعين وعددهم خمسة عشر: الخوري جرجس طحّان، الخوري ميخائيل أنطاكيّ، الخوري يوسف جبجيّ، الخوري بطرس تيناويّ، القسّ إبراهيم عيّاط، القسّ بطرس سمان، القسّ ميخائيل خوري، القسّ يوسف حاتم، القسّ يوسف توتنجيّ، القسّ نصرالله رعد، القسّ عبدالله قديد، القسّ جبرائيل جوّان، القسّ الياس كيال، القسّ فتح الله سمّاك، القسّ جرجس حدّاد.

ويقول تاريخ إكليروس حلب[٢٦٣]: "ارتسم السيّد غريغوريوس شاهيات من السيّد البطريرك أغناطيوس قطّان في ١ كانون الثّانيّ سنة ١٨٣٣ في دير مار ميخائيل الزوق". ويقول البعض أنّه اتّخذ له في الرسامة الأسقفيّة اسم غريغوريوس لا لشيء إلاّ لكون البراءة الشاهانيّة التي أُخرجت له قبل رسامته كانت قد أطلقت عليه هذا الاسم، فاضطرّ إلى قبوله منعًا لكلّ التباس.

إقامته في حلب

إنّ المطران غريغوريوس شاهيات، بعكس ما جرى لسلفائه الذين بقوا في لبنان، وأداروا من هناك أمور أبرشيّتهم الحلبيّة، استطاع، بفضل حملة الجيوش المصريّة، أن يتوجّه فورًا إلى حلب، وأن يقيم فيها باطمئنان دون منازعة. بل زاد على ذلك، فتمسّك بإقامته فيها. ونعتقد أنّه منذ دخوله حلب مطرانًا حتّى وفاته لم يغادرها يومًا واحدًا...

فما أن نال المطران غريغوريوس شاهيات السيامة الأسقفيّة في ١ كانون الثّانيّ سنة ١٨٣٣، حتّى تأهّب للسفر إلى أبرشيّته. فاستردّ بادئ بدء الشمّاسين الحلبيّين اللذين كان المطران أغناطيوس عجوريّ قد احتفظ بهما لخدمته في زحلة، وهما فرج الله سالم وبطرس حاتم، الذي كان مزمعًا سنة ١٨٦٣ أن يتبوّأ كرسيّ أبرشيّة حلب باسم المطران بولس حاتم. وبصحبة هذين الشمّاسين توجّه إلى حلب، فدخلها باحتفال مهيب في ٣١ آذار سنة ١٨٣٣[٢٦٤].

وإنّنا نستغرب هذه السرعة في مغادرة لبنان والتوجّه إلى حلب، علمًا بأنّه في ٢٤ آذار/ ٥ نيسان من السنة المذكورة كان أساقفة الطائفة مدعوّين إلى دير القدّيس جاورجيوس الغرب (دير الشير) لعقد مجمع عامّ تمّ فيه انتخاب مكسيموس مظلوم بطريركًا على الطائفة. لكنّ المطران غريغوريوس

263- وهو محفوظ في مطرانيّتنا، حاشية في صفحة ١٢.

264- تاريخ إكليروس حلب، صفحة ١٢.

شاهيات، لأسباب نجهلها، آثر ألاّ يحضر هذا المجمع، فتوجّه إلى حلب، وعيّن وكيلاً عنه لحضور المجمع شقيقه الخوري باسيليوس شاهيات[٢٦٥].

وفي مجمع عين تراز الشهير، المنعقد سنة ١٨٣٥، لم يحضر كذلك المطران غريغوريوس شاهيات، بل أوفد إليه شقيقه الخوري باسيليوس شاهيات، فأُعطي وكيله المكان الثانيّ بعد مطران صور، فاحتجّ باسم موكّله، وطلب أن يسجّل في محضر المجمع أنّ توقيعه بعد مطران صور لا ينفي حقّ مطران حلب في التقدّم على جميع المطارين[٢٦٦].

وأنّنا نشتمّ من هذا التصرّف توتّر العلاقات، منذ البداية، بين المطران غريغوريوس شاهيات والبطريرك مكسيموس مظلوم، كما سيتبيّن لنا ذلك تدريجًا من سياق التاريخ.

علاقته بالبطريرك مكسيموس مظلوم وبإكليروس أبرشيّته الحلبيّة

يقول الأب أغناطيوس ديك[٢٦٧]: "قد اتّسمت علاقات البطريرك مظلوم مع مطران حلب (غريغوريوس شاهيات) بالتوتّر وعدم الانسجام. فبينما كان البطريرك شديد الحرص على التقاليد الشرقيّة والحقوق البطريركيّة، كان المطران غريغوريوس معجبًا بالمرسلين وبكلّ ما هو غربيّ، ويلتجئ في كلّ سانحة إلى القاصد الرسوليّ. وقد اتّخذ له مرشدًا ولاهوتيًّا خاصًّا، مجمّلاً بالعِلم والتقوى، على ما يقول، والغيرة على حقوق الكرسيّ الرسوليّ الأعلى ونقاوة الإيمان، هو البادري كوديس اللعازريّ (Nicolas Gaudez)، مرشد العابدات الأوّل، والمسؤول عن التطرّفات المخلّة بالتقوى الحقيقيّة والآداب التي أفسدت هذه الجمعيّة والنفوس، وأقلقت أبرشيّة حلب لسنين طويلة. لكنّ المطران غريغوريوس كان يعتقد بنقاوة العابدات المنقادات لهذا المرسل الرسوليّ، المحلّى بالعِلم والتقوى والغيرة على حقوق الكرسيّ الرسوليّ، على نحو ما يقول.

"أمّا البطريرك مكسيموس فكان مطّلعًا على ما يختبئ من الفساد تحت ظواهر التقوى والعبادة. وكتب إلى المطران غريغوريوس يحذّره. فظنّ هذا أنّ البطريرك ناقم على الأب كوديس لموقفه المضادّ له سنة ١٨١٠".

---

[265] MANSI, t. 46, col. 970- 972.
[266] MANSI, t. 46, col. 1002.
[267]- في مقال له بعنوان "البطريرك مكسيموس مظلوم وأبرشيّة حلب"، نشر في مجموعة "الذكرى المئويّة لوفاة السعيد الذكر البطريرك مكسيموس الثالث مظلوم"، حريصا ١٩٥٧، صفحة ٦٤ وما يليها.

ويتمسّك المطران غريغوريوس بالأب كوديس، ويرفض أن يبتعد عنه، ويكتب إلى المجمع المقدّس بتاريخ ١٣ نيسان سنة ١٨٣٥: "ألتمس من نيافتكم أن لا يمتنع هذا الأب عنّي لأنّي محتاج إليه". لكنّ المجمع المقدّس، إذ يطّلع على أخطاء هذا المرسل، يمنعه سنة ١٨٣٦ من إرشاد العابدات، ثمّ يمنعه من كلّ عمل رسوليّ، ثمّ يأمره بمغادرة حلب سنة ١٨٣٨.

"وقد توتّرت العلاقات غير مرّة بين المطران وكهنته، وبينه وبين البطريرك المحامي عنهم. وكان في أساس هذا الخلاف التباس مؤلم. فبينما كان الكهنة والبطريرك يريدون محاربة الروح الفاسدة، كان المطران يتوهّم أنّهم يعاكسون الروح الغربيّة، ويريدون تحقير الكنيسة الرومانيّة ومرسليها، وينسب إليهم روح الشقاق. وإذ لم يعُد يثق بكهنته، أراد أن يرسم كهنة جددًا بحسب روحه وعقليّته. فعارضه الكهنة بحجّة أنّ عددهم كافٍ وزائد عن حاجات الشعب. فكان من هذا الإجراء سبب ثان للخلاف".

"والمطران يرسل إلى رومة شكاياته لتحميه من تدخّل البطريرك، فيطعن فيه، ويصوّره كدكتاتور يمنعه من أن يمارس بحريّة سلطته الأسقفيّة، وكمتعصّب ضدّ الكرسيّ الرومانيّ. ففي رسالته بتاريخ ١٩ تشرين الثّانيّ سنة ١٨٣٦ يتشكّى أوّلاً من نفوذ وكيل البطريرك العلمانيّ في حلب، السيّد عبدالله دلاّل، وتسلّطه على المطران والتدخّل في شؤونه. ثمّ من منع البطريرك إيّاه عن رسامة كهنة جدد"...

ومن تصفّح محفوظات مطرانيّتنا، يبدو لنا بوضوح أنّ المطران غريغوريوس شاهيات كان مقتنعًا بتقوى العابدات. فدافع عنهنّ ضدّ أخصامهنّ. فبتاريخ ٢٢ شباط سنة ١٨٣٥ مثلاً، نرى المدعوّة مرغريتا بالي والمدعوّة مريم قلاوص مظلوم تبلّغان المطران غريغوريوس شاهيات[٢٦٨] بأنّهما استغاثتا بالمجمع المقدّس، وبأنّهما ليستا خاضعتين لأوامره، إذ أنّه شكاهما بتقديم شهادة زور ضدّ جمعيّة العابدات...

"وممّا زاد التوتّر بين السلطتين المنشور الذي أبرزه البطريرك في ١ كانون الأوّل سنة ١٨٣٦ ضدّ العابدات ومرشدهم، مارًّا فوق سلطة المطران غريغوريوس. ففي هذا المنشور يذكر أوّلاً الفحص القانونيّ الذي قام به القاصد الرسوليّ Jean Baptiste d'Auvergne، ليتحقّق التهم الملحقة بجمعيّة العابدات، ثمّ مكاتبة القاصد له ليأخذ التدابير اللازمة ضدّ هذه الجمعيّة الزائفة، إذ أنّ

[268]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٤ رقم ١٥.

المطران غريغوريوس (بحسن نيّة) يوافق عليها ويحامي عن شؤونها". فالبطريرك في منشوره يحرم الجمعيّة وعوائدها في الاجتماع الليليّ والاسترشاد، ويحرم مَن يدافع عنها. ثمّ يمنع القسّ ميخائيل عجوريّ من استماع الاعترافات وإعطاء المناولة. أخيرًا يعاقب زعيمتي الحركة وهما مرغريتا نجم ومرغريتا عجوريّ، ويأمر بحلّ الجمعيّة، ويمنع عن التحدّث بصددها...

"ولمّا وصل المنشور البطريركيّ إلى حلب، أبى المطران غريغوريوس نشره، ومنع كهنته من إعلانه. أمّا أغلبهم فقد أشهروا المنشور في قداديس يوم الأحد طائعين للبطريرك. أمّا العابدات فقد استغثن بالكرسيّ الرسوليّ ضدّ أحكام غبطته. والمطران غريغوريوس أصدر منشورًا[٢٦٩]، ينفي فيه حقّ البطريرك بالتدخّل في شؤون حلب ويعلن أنّ القضيّة معلّقة بالكرسيّ الرسوليّ، وبالتالي فأحكام غبطته باطلة. ثمّ أبرز القصاصات بحقّ الكهنة الذين عصوه بإعلان منشور البطريرك. فاستغاث هؤلاء بالكرسيّ الرسوليّ ضدّ هذا التصرّف. أمّا البطريرك مكسيموس ففي رسالة إلى الكهنة في ١ شباط سنة ١٨٣٧ يعلن لهم أنّ استغاثة المطران ضدّ منشوره سوف ترذل، وأنّها مجرّد مماطلة... ثمّ يبرز إعلانًا بالتاريخ نفسه يقول فيه أنّ القصاصات المبرزة ضدّ الكهنة لطاعتهم منشوره هي باطلة... فأصبح الخلاف في تلك السنة ١٨٣٧ في أشدّه".

"وحاول أمير اللواء يوحنّا بك البحريّ، وزير إبراهيم باشا، أن يضع الوفاق بين الطرفين. وكتب بهذا الشأن إلى المطران، فأجابه هذا مشتكيًا من تصرّفات رئيسه". وأجاب البطريرك على شكاوى المطران في رسالة وجّهها إلى يوحنّا بك البحريّ في ٢٢ أيار سنة ١٨٣٧.

"وظلّت الحالة هكذا سنة" أخرى... وأخيرًا وصلت إلى القاصد الرسوليّ الجديد يوسف أنجلو دي فايزو أحكام رومة الصادرة في ٢٩ أيار ١٨٣٨، وهي تقضي من ناحية بحلّ جمعيّة العابدات"، وتميل من ناحية أخرى إلى تبرير موقف المطران غريغوريوس تجاه بطريركه. فلم يتجرّأ القاصد الرسوليّ في بداية الأمر على إعلانها. ثمّ أخبر بها البطريرك، الذي سعى بإعادة الصلح بين المطران والمعارضين من كهنته. ويقول عن المطران أنّه

[269]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٤ رقم ٢٧.

رجل ساذج، يسهل عليهم كسب مودّته... ثمّ عاد التفاهم والتعاون بين البطريرك عينه والقاصد الرسوليّ.

أمّا في حلب، فبعد أن قدّم الكهنة طاعتهم للمطران في ٢٦ تشرين الأوّل سنة ١٨٣٨، عاد فحاول أن يفرض على أكثرهم عنادًا ومقاومة له بعض العقوبات الكنسيّة، فأبوا وترابطوا. فاضطرّ المطران إلى أن يرفع العقوبات عنهم. وتمّت المصالحة بينه وبينهم. وكتب البطريرك مكسيموس في ٢٨ تشرين الثانيّ سنة ١٨٣٨ يهنّئهم بذلك. ويبدو أنّ الساعي الأوّل بالمصالحة كان الخواجه حبيب بحريّ، شقيق الوزير يوحنّا بك بحريّ.

ثمّ تدوم الألفة بنوع الإجمال بين المطران وكهنته حتّى وفاته، ويمتنع البطريرك مكسيموس مظلوم من التدخّل في أمور حلب إلاّ لتوطيد السلام والمحبّة بين الجميع.

وفي هذه الأثناء تضعضعت "أخويّة العابدات" وانفرط عقدها. فأخذت العابدات الواحدة تلو الأخرى، تنسحب من الأخويّة، وتقرّ بأخطائها. وهكذا نرى المطران أثناسيوس توتونجيّ، أسقف طرابلس، يكتب في ١٤ نيسان سنة ١٨٣٧ إلى سوسنة داقور يهنّئها على خروجها من أخويّة العابدات[٢٧٠].

ونجد بتاريخ ١ أيلول سنة ١٨٣٩ إقرارًا من مرغريتا حكيم[٢٧١]. ومن السنة عينها إقرار آخر من سوسنة غالي[٢٧٢]. وبتاريخ ٣٠ كانون الثانيّ سنة ١٨٤٠ إقرار طويل من مرغريتا ابنة عبدالله جنبرت[٢٧٣].

بدعة العابدات

ولمّا هدأت الحال في حلب، تجرّأ الخوري بولس حاتم، الذي كان مزمعًا أن يتبوّأ كرسيّ أبرشيّة حلب سنة ١٨٦٢ باسم المطران بولس حاتم، فنشر سنة ١٨٣٩ كتابًا دحض فيه أباطيل أخويّة عابدات قلب يسوع، وفنّدها بندًا بندًا، ودعاه "كتاب دحض الأضاليل الباطشتاويّة، الآتية عن ضلالات تعاليم هنديّة". وفي مكتبة مطرانيّتنا الخطّيّة نسخة منه.

إنّ معارضي هذه الأخويّة، وفي مقدّمتهم الخوري بولس حاتم، كانوا مقتنعين بأنّ أضاليل العابدات جاءتهم من الراهبة المارونيّة مرغريتا باطشتا،

270- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٤ عدد ٧.
271- سجلّ ٤ عدد ١٠.
272- سجلّ ٤ عدد ١١.
273- سجلّ ٤ عدد ٩.

التي تتلمذت في الأصل للراهبة المارونيّة هندية عجيميّ الذائعة الصيت، بتحريض المرسل اللعازريّ نقولا كوديس (Nicolas Gaudez) ويأخذون على "العابدات" ادّعاءَهنّ بأنّ مرغريتا باطشتا قد تسلّمت تعليم تلك الأخويّة من السماء بطريق الوحي، وأنّ مرشدهنّ المذكور كان يأمرهنّ بأن يحفظن جميع أنواع عبادتهنّ تحت السرّ المثقل بالنذر، ويمنعهنّ من كشف ضمائرهنّ إلى أيّ كاهن لا ينتمي إلى الأخويّة، ويلزمهنّ بأن ينذرن الطاعة المطلقة له ولِمَن يقيمهم مرشدين للأخويّة، وأن ينذرن الثبات في دعوتهنّ حتّى الموت.

وكان أعضاء الأخويّة، من سيّدات ورجال، يدّعون بأنّهم يعلمون أزمنة انتقالاتهم في مراتب السيرة الروحيّة بوجه التأكيد والتحديد، وبأنّه يجب السلوك حسب قناعة الضمير الخاصّ، وإن كان خاطئًا. وكانوا يدّعون بورود إيحاءات خاصّة عليهم ويتوهّمون إمكان الاقتران الحسّيّ مع موضوع عبادتهم، أيّ قلب يسوع، ويستخدمون أحيانًا في سبيل الوصول إلى غايتهم "الاقترابات الحسّيّة" المشبوهة، ويبرّرونها بشتّى الحجج الواهية، منها أنّ هذه "الاقترابات" عرضٌ خارجيّ غير مقصود، أو أنّها قد تعطي سبيلاً للاحتمال والاتّضاع أمام الله، أو أنّها تساعد على "الانعتاق من منخز اللحم في هذه الحياة"، أو أنّه لا يجب اعتبارها حادثة مع البشر، بل وكأنّها مكتملة مع موضوع عبادتهم، أو أنّها تعويض عن متعة الزواج التي حُرموا منها. وكانوا يميّزون في دعوتهم طريقتين: إحداهما طريق العذوبة والمواهب، وثانيهما طريق الصليب.

وكانوا يدّعون أيضًا أنّهم ليسوا بحاجة إلى إرشاد الكتب المقدّسة أو المرشدين من البشر، لأنّ موضوع عبادتهم يرشدهم مباشرة بالإيحاءات الداخليّة، وأنّهم متحرّرون من عبوديّة الشرائع عمومًا، ومن سلطة الرؤساء الكنسيّين، ومن طاعة الوالدين. ويعتقدون بأنّهم يستحيلون استحالة كاملة، فيذوبون في الله، ويماثلون السيّد المسيح بالبرّ والقداسة. ويدّعون أنّهم امتلكوا العصمة عن الخطأ في المستقبل، وأنّهم أكيدون من الخلاص. فهم وحدهم مختارون للمجد في السماء. ويتجنّبون الاشتراك بالأقداس مع إكليروسهم العاديّ، بل يحتقرونه. ويرفضون الصلاة اللفظيّة، ولاسيّما الطقسيّة منها، ويكتفون بالصلاة العقليّة أيّ التأمّل. كما أنّهم كانوا يحتقرون الزواج والمتزوّجين، وعمل اليد الخ...

ومجمل القول، شكّلت "العابدات" في حلب جماعة سرّيّة متطرّفة، آلت بمرور الزمن إلى تصرّفات غير مقبولة، واستهتار بالأخلاق، وتحدٍّ صريح

لسلطة الكنيسة. وقد خفي أمرها في بادئ الأمر على الأسقف الفاضل غريغوريوس شاهيات، لكنّ الخوري بولس حاتم، بالاتفاق مع البطريرك مكسيموس مظلوم، فضح أمرها، فقضى عليها قضاء تامًّا.

بناء الكنيسة الكاتدرائيّة وكنيسة القدّيس جاورجيوس

ما إن دخل المطران غريغوريوس شاهيات مدينة حلب في ٣١ آذار سنة ١٨٣٣ حتّى قرّر بناء الكنيسة الكاتدرائيّة في حيّ الصليبة، وكنيسة القدّيس جاورجيوس في حيّ الشرعاسوس. وكان الروم الكاثوليك بحلب قد شغلوا مناصب هامّة في عهد الفتوحات المصريّة. ففي ٢٨ كانون الثاني سنة ١٨٣٥ تعيّن عبدالله دلاّل الملكيّ الكاثوليكيّ عضوًا في مجلس الشورى بحلب، وتعيّن شكري تاجر مباشرًا لخزينة حلب.

أمّا بالنسبة للكنيسة الكاتدرائيّة، فقد بدأت حملة التبرّعات في أوائل تموز سنة ١٨٣٣، أيّ بعد ثلاثة أشهر فقط من وصوله إلى حلب. وما أنْ مضى شهران على افتتاح لائحة التبرّعات حتّى تجمّع لدى المطران غريغوريوس ما ينيف على ثلاثين ألف غرش. واشتركت النساء بحملة التبرّع، فقدّمن الأموال النقديّة؛ وبعن حلاهنّ ومجوهراتهنّ وقدّمن ثمنها للطائفة. فاقتنى المطران ومعاونوه عددًا من الدور القديمة بغية هدمها وإقامة الكنيسة مكانها.

وبدأت أعمال البناء في الكاتدرائيّة والقلاّية المجاورة لها، ودامت تسع سنوات، من سنة ١٨٣٤ حتّى سنة ١٨٤٣، دون هوادة. ويبدو محقّقًا أنّ بناء القلاّية قد بوشر به وتمّ قبل إكمال بناء الكاتدرائيّة[٢٧٤]. فاستُعملت القلاّية في هذه الأثناء بيتًا مؤقّتًا للصلاة. مع ذلك ففي بداية سنة ١٨٤٢ قارب بناء الكنيسة النهاية، إذ بلغ العمل محراب الهيكل، أيّ الحنيّة التي تقع وراء المائدة المقدّسة، والتي يقوم عليها كرسيّ الأسقف. فقد وضع البنّاؤون فوق المحراب رخامة كتبوا عليها بالعربيّة واليونانيّة: "مبارك أنت على عرش مجد ملكك أيّها الجالس على الشروبيم". وأرّخوها بسنة ١٨٤٢. ولمّا عقدوا القبّة التي تعلو الكنيسة في وسطها، نقشوا هذه الآية: "الله في وسطها، فلن تتزعزع".

ونعلم من رسالة بعث بها البطريرك مكسيموس مظلوم من الأستانة بتاريخ ٣ كانون الثانيّ سنة ١٨٤٣ إلى صديقه القسّ بولس حاتم، أنّه في نهاية سنة

---

[274]- كما أنّ الطائفة فتحت مدرسة لأبنائها سنة ١٨٣٩ بجوار القلاّية. فقد ذكر المعلّم نعّوم بخّاش في يوميّاته عن الأسبوع الثالث من شهر آب سنة ١٨٣٩ ما يلي: "هذه الجمعة فتحوا الروم (مدرسة)، وراح من عندي حنّا ديب وسابا".

١٨٤٢ كان قد تمّ كذلك تبليط الكنيسة، ومنع قبول الاعترافات في البيوت، وحصر الاستماع إليها في الكنيسة.

بل أنّنا نعلم من يوميّات المعلّم نعّوم البخّاش أنّ الكنيسة فُتحت للصلاة يوم أحد الشعانين الموافق ١٩ آذار سنة ١٨٤٢. وبعد سنة من فتحها للصلاة تمّ بناء الهيكل الكبير، إذ يذكر المعلّم نعّوم البخّاش أنّه "بتاريخ يوم الجمعة ١٦ آذار سنة ١٨٤٣ جلب الروم حجرة لأجل مائدة الهيكل... والحجرة كبيرة. وقد ذهب المطران والبسارنه (أيّ آل البسارينيّ) وغيرهم فجلبوها بالزلاغيط "والله يساوى"، لأنّها كبيرة جدًّا".

وبعد ثلاثة أشهر، "في يوم العنصرة المبارك سنة ١٨٤٣"، منح المطران غريغوريوس شاهيات أولى الرسامات الإكليريكيّة في الكنيسة الكاتدرائيّة الجديدة. ثمّ توفّاه الله في ٢١ آب من السنة عينها، فدُفن في الكنيسة التي بناها، إلى يمين الهيكل الكبير.

أمّا كنيسة القدّيس جاورجيوس بحيّ الشرعاسوس، وهو حيّ شعبيّ عمّاليّ في القطاع الشرقيّ من المدينة، فيعود بناؤها كذلك إلى الثلاثينات من القرن التاسع عشر. فقد بدأ المسؤولون في الطائفة بإقامة معبد للقدّيس جاورجيوس في دار قديمة تابعة لوقف فقراء الطائفة في الحيّ المذكور.

ثمّ بنوا كنيسة صغيرة في الحيّ عينه بين سنتي ١٨٣٣ و١٨٣٥. وأنّ أقدم وثيقة أتت على ذكر هذه الكنيسة الصغيرة الأولى وردت في حاشية ذيّل بها أحدهم كتابًا للأناجيل محفوظًا في دار السيّد جوزيف شرقي بحلب، مفادها أنّ كنيسة القدّيس جاورجيوس في الشرعاسوس فُتحت للعبادة سنة ١٨٣٥، أيّ قبل الكنيسة الكاتدرائيّة بسبع سنوات.

وبقيت الكنيسة على هذه الحال حتّى وفاة المطران غريغوريوس شاهيات، ولم تتوسّع إلاّ سنة ١٨٤٩ في عهد خلفه المطران ديمتريوس أنطاكيّ، كما سنرى.

ونحجم عن إطالة الحديث في تفاصيل بناء هاتين الكنيستين، لأنّنا سوف نفرد لهما بحثًا خاصًّا مسهبًا في إطار الكتاب الذي ننوي نشره عن "كنائس حلب القديمة".

الشمامسة والكهنة المرتسمون عن يده[٢٧٥]

[275]- نقلاً عن سجلّ إكليروس حلب، صفحة ١٢ و١٣.

١- باسيليوس جحه. هو بطرس بن يوسف جحه. رسمه شمّاسًا إنجيليًّا في ٢٧ تشرين الثانيّ سنة ١٨٣٨، ثمّ كاهنًا في ٢ شباط سنة ١٨٣٩، باسم باسيليوس، في "كنيسة القدّيس جاورجيوس، في صايح الشرعاسوس".

٢- ديمتري شاهيات. هو ديمتري بن عبدالله شاهيات (وهو إذًا ابن شقيق المطران). رسمه شمّاسًا إنجيليًّا في ١٩ آذار ١٨٣٩، ثمّ قسًّا في ١ كانون الثانيّ سنة ١٨٤١.

٣- فيلبّس شاهيات. هو فتح الله بن عبدالله شاهيات (وهو إذًا ابن ثانٍ لشقيق المطران). رسمه شمّاسًا إنجيليًّا في ٢٩ حزيران ١٨٣٩، ودعاه نقولاوس، ثم ّكاهنًا في ٢٥ كانون الأوّل سنة ١٨٣٩ ودعاه فيلبّس.

٤- أنطون عبدالله فرخ، رسمه شمّاسًا إنجيليًّا في ٢٥ كانون الأوّل ١٨٣٩ ودعاه كيرلّس، ثمّ قسًّا في ١٤ أيلول ١٨٤٠.

٥- الياس جحه. هو الياس بن جبرائيل جحه، رسمه شمّاسًا إنجيليًّا في ١٤ أيلول ١٨٤٠، ثمّ قسًّا يوم عيد العنصرة سنة ١٨٤٣.

٦- أندراوس اليان. هو نعّوم اليان، رسمه شمّاسًا إنجيليًّا في ١ كانون الثانيّ سنة ١٨٤١، ثمّ قسًّا باسم أندراوس في ٢٨ أيار سنة ١٨٤١.

٧- أثناسيوس تادفيه. هو شكرالله بن نقولا تادفيه، رسمه شمّاسًا إنجيليًّا. في ٦ أيلول سنة ١٨٤١، ودعاه أثناسيوس، ثمّ قسًّا في ٢٦ كانون الأوّل ١٨٤١.

٨- برتلماوس قسّ حنانيا. هو رزق الله بن يوسف قسّ حنانيا، رسمه شمّاسًا إنجيليًّا في ٢٥ كانون الأوّل ١٨٤١، ودعاه برتلماوس.

٩- رزق الله لطّوف شوحه، رسمه شمّاسًا رسائليًّا يوم عيد العنصرة سنة ١٨٤٣.

وفاته

يقول تاريخ إكليروس حلب[٢٧٦]: "توفي المثلّث الرحمة السيّد غريغوريوس شاهيات في ٢١ آب، نهار السبت، سنة ١٨٤٣، غبّ أن ساس حلب نيّفًا عن عشر سنوات، ودُفن في كنيسة الكاتدرا في قدس الأقداس بجانب الهيكل الملوكيّ الأيمن باحتفال عظيم، بحضور رؤساء الطوائف الكاثوليكيّة كافّة وكهنتهم مع المرسلين اللاتين".

276- مخطوط محفوظ في مطرانيّتنا، صفحة ١٣.

ويقول المعلّم نعّوم بخّاش في يوميّاته[٢٧٧] أنّه كان على رأس الحضور "بطريرك السريان بطرس جروه، ومطران الموارنة بولس آروتين، ومطران الأرمن عيواظ".

- ١٨ -
ديمتريوس أنطاكيّ
(١٧ أيلول ١٨٤٤ - ٩ تموز ١٨٦٣)

نشأته

هو ميخائيل بن حنّا أنطاكيّ، من إكليروس أبرشيّة حلب. في ربيع سنة ١٨١٨ كان من عداد كهنة حلب الأحد عشر الذين سعى المطران الأرثوذكسيّ اليونانيّ جراسيموس التركمانيّ بنفيهم إلى لبنان. فبقي مع رفقائه متردّدًا بين أديرة لبنان حتّى أوائل سنة ١٨٢٥. وفي ١٩ أيلول سنة ١٨٣٠ نراه ينضمّ إلى عدد من كهنة حلب وأعيانها للمطالبة برفع يد المطران أغناطيوس عجوريّ عن إدارة أمور أبرشيّة حلب[٢٧٨].

شغور الكرسيّ

بعد أن شغر كرسيّ أبرشيّة حلب بوفاة المطران غريغوريوس شاهيات في ٢١ آب سنة ١٨٤٣، لم يشأ البطريرك مكسيموس مظلوم أن يعيّن نائبًا بطريركيًّا عليها، بل احتفظ لنفسه مباشرة بسياسة الأبرشيّة الحلبيّة. فكانت المراسلة متواصلة بين حلب والقسطنطينيّة، حيث كان البطريرك مقيمًا، سنة ١٨٤٣ وسنة ١٨٤٤، في شتّى المواضيع الإداريّة والطقسيّة، مثلاً حول إقامة القدّاس في أيام الصوم الكبير. فكان البطريرك يمنع، بموجب الطقس البيزنطيّ، إقامة الذبيحة الإلهيّة في أيام الصوم الأربعينيّ، ما عدا أيام السبت والأحد، ويفرض أن يقام بدلاً منها قدّاس "الأقداس السابق تقديسها" بينما كان كهنة حلب يلحّون عليه في ضرورة إقامة القدّاس العاديّ يوميًّا، حتّى في زمن الصوم الأربعينيّ، مع الاحتفاظ "في الكنيستين بقدّاس البروجيازمينا عند الظهر كالسابق".

277- طبعة الأب فرديناب توتل، صفحة ٦٣.
278- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٧.

انتخابه أسقفًا لحلب.

وكان لا بدّ للبطريرك مكسيموس مظلوم من أن يُعنى في نهاية الأمر بانتخاب أسقف أصيل لكرسيّ حلب. فأصدر منشورًا في ٤ نيسان سنة ١٨٤٤ يأمر بإجراء الانتخاب. وكتب إلى بطريرك السريان السيّد بطرس جروه، المقيم آنذاك في حلب، بأن يتفضّل ويرئس جلسة الانتخاب، الذي تمّ فعلاً برئاسته يوم الأحد ٧ أيار ١٨٤٤، لكنّه لم يسفر عن نتيجة حاسمة، لأنّ الأصوات تبدّدت. وفي الاقتراع الثانيّ نفسه لم يحصل المرشّح الأوّل، وهو الخوري ميخائيل أنطاكيّ، إلاّ على أربعة أصوات من أصل ١٩ صوتًا. وفي الاقتراع الثالث، أيّده أصدقاء القسّ بولس حاتم، صديقه في مقاومة "العابدات"، فنال ستّة أصوات فقط. وإذ لم يسفر الاقتراع عن أكثريّة مطلقة، بات الانتخاب متعلّقًا بالبطريرك، الذي أخذ يستشير أساقفة الطائفة بالمراسلة. ونتيجة لهذه الاتصالات، قرّ رأيه في ١٢ تموز ١٨٤٤ على تعيين الخوري ميخائيل أنطاكيّ راعيًا لأبرشيّة حلب.

وبادر الأسقف المنتخب فكتب بتاريخ ٣٠ تموز ١٨٤٤ إلى البطريرك مكسيموس معلنًا إيمانه واستعداده لتتميم أوامر الكرسيّ الرسوليّ والسلطة البطريركيّة بشأن العابدات. وكذلك حرّر المتقدّمون في الإكليروس والشعب صكًّا في ٢٥ آب ١٨٤٤ بقبول هذا التعيين، نذكر من بينهم أسماء الكهنة الموقّعين: الخوري يوسف جبجيّ، الخوري بطرس تيناويّ، القسّ يوسف حاتم، القسّ نصرالله رعد، القسّ عبدالله قديد، القسّ جبرائيل جوّان، القسّ جرجس حدّاد، القسّ فتح الله سمّان (٨ أسماء).

لكنّ حزب العابدات، الذي كان يعرف أنّ الأسقف المنتخب هو مقاومهم الأكبر مع القسّ بولس حاتم، رفع استغاثة إلى الكرسيّ الرسوليّ ضدّ شرعيّة انتخابه، كما طعن في صحّة رسامته الأسقفيّة. فإنّ البطريرك مكسيموس مظلوم ارتأى أن يكلّف بمنح الرسامة الأسقفيّة كلاً من البطريرك السريانيّ بطرس جروه، ومطران الموارنة بولس آروتين، ومكاريوس سمّان مطران ديار بكر. وفعلاً فقد كتب إلى المطران بولس آروتين في ٦ أيلول ١٨٤٤ يسأله أن يشارك في وضع اليد[٢٧٩]، لكنّه إذ رأى المقاومة تستقرّ ضدّ المطران المنتخب، آثر عدم التدخّل، وامتنع عن الاشتراك في الرسامة. أمّا البطريرك السريانيّ بطرس جروه، فقد اكتفى، على ما يبدو، بترؤّس الحفلة، فلم يبقَ

---

[279]- محفوظات المطرانيّة المارونيّة، اضبارة آروتين، صفحة ٣٢٢.

سوى المطران مكاريوس سمّان لكي يقوم بحفلة السيامة، التي تمّت يوم الأحد ١٧ أيلول ١٨٤٤. واتّخذ الأسقف الجديد له بهذه المناسبة اسم ديمتريوس.

ويقول المعلّم نعّوم بخّاش بتاريخ ذاك اليوم: يوم الأحد "كان رسامة خوري ميخائيل أنطاكيّ مطرانًا على حلب. وقلبوا اسمه مطران ديمتريوس. رسمه مطران مكاريوس وحده. لأنّ أناسًا من الطائفة يريدونه، وأناسًا لا. فما راح المطارين من غير الطوائف، بل البقيّة مستغيثون برومية عليه".

وفي هذه المناسبة أيضًا أضاف البطريرك مكسيموس إلى كرسيّ حلب مدينة سلوقية أيّ السويديّة. فقد جاء في تاريخ إكليروس حلب: "إنّ غبطة السيّد مكسيموس رفع هذا الكرسيّ إلى رئاسة الأسقفيّة، مضيفًا إليه سلوقية، وذلك في ١٧ أيلول سنة ١٨٤٤".

كانت هذه هديّة البطريرك مكسيموس إلى صديقه المطران ديمتريوس أنطاكيّ، وحافزًا له على الخوض في معركة "العابدات"، والقضاء على أخويّتهنّ المزيّفة.

وفعلاً ففي المجمع الأورشليميّ المنعقد من ١٢ أيار إلى ١٥ حزيران سنة ١٨٤٩، حضر ديمتريوس أنطاكيّ بالذات ووقع بهذه العبارة: "الحقير في رؤساء الكهنة ديمتريوس متروبوليت حلب وسلوقية"[٢٨٠]. وفي المجمع المنعقد في دير المخلّص بتاريخ ٢٠ آذار سنة ١٨٥٦ لانتخاب البطريرك إكليمنضوس بحوث خلفًا للبطريرك مكسيموس مظلوم، لم يحضر المطران ديمتريوس أنطاكيّ، بل أوفد عنه الأب توما قباش، الرئيس العامّ للرهبان الباسيليّين الحلبيّين، فوقع أعمال المجمع بعد متروبوليت صور، وكتب: "الخوري توما وكيل كير ديمتريوس رئيس أساقفة حلب وسلوقية"[٢٨١].

على أنّ المعارضة الدّاخليّة ضدّ المطران ديمتريوس أنطاكيّ وصحّة انتخابه وشرعيّة رسامته لم تتوقّف إلاّ عندما حكم الكرسيّ الرسوليّ في ٢٠ كانون الثّانيّ سنة ١٨٤٥ بصحّة الانتخاب والرسامة[٢٨٢].

وفي ١٦ نيسان ١٨٤٦ شكّل المطران ديمتريوس أنطاكيّ مجلسًا استشاريًّا مؤلّفًا من سبعة علمانيّين من الوجهاء، دعاهم "ارخندس الطائفة"[٢٨٣]، وهم المقدسيّ نعمةالله حمصيّ (رئيسًا فخريًّا)، نعمةالله غزاله "رزق الله جهاميّ، عبدالله عرقتنجيّ، يوسف وكيل، عبدالله باسيل، والمقدسيّ شكرالله ناقوز.

---

[280] MANSI, t. 46, col. 1140.

[281] MANSI, t. 46, col. 1170- 1172

[282]- محفوظات مطرانيّتنا سجلّ ٥ رقم ٢٥.

[283]- محفوظات مطرانيّتنا سجلّ ٥ رقم ١٧.

القضاء على أخويّة "العابدات"

كان أوّل اهتمام المطران ديمتريوس أنطاكيّ، بعد تثبيت صحّة انتخابه ورسامته، هو القضاء على أخويّة "العابدات" وتشتيت شملها، لأنّهنّ في عهد المطران الراحل كنّ تستّرن وتظاهرن بالخضوع دون الابتعاد عن سلوكهنّ القديم.

فما أنْ عَلِمَ المطران الجديد بأمر تعيينه أسقفًا على حلب، وقبل نيله الرسامة الأسقفيّة، حتّى بادر في ٣٠ تموز ١٨٤٤[٢٨٤] وكتب للبطريرك مكسيموس مظلوم معلنًا إيمانه وعزمه على تتميم أوامر الكرسيّ الرسوليّ بشأن العابدات. وكأنّي بالبطريرك مظلوم لم يعيّنه على حلب إلاّ للقضاء على بدعة "العابدات"...

وفي أواسط سنة ١٨٤٥ يكتب المطران ديمتريوس أنطاكيّ إلى مجمع انتشار الإيمان في رومة يشكو من حملة العابدات ضدّه[٢٨٥]، ويقول: "منذ أن شرعتُ في كشف أضاليل العابدات واستئصالها من أبرشيّتي، قد استعدّيتُ لاضطهادات متنوّعة من قبل أحزاب تلك العابدات... فمن مدّة تنيف عن خمس سنوات، قد جرّب حزبهنّ أن يحرّك ضدّي اضطهادًا قويًّا... مستخدمًا لذلك رجلين شرّيرين للغاية. وبقوّة الرشوة صيّرهما يثلبانني بآثام شنيعة جدًّا...". ثمّ يقول أنّهما ندما على فعلهما، وكتبا بذلك تقريرًا محفوظًا عند البطريرك جروه، ومنه نسخة عنده وعند بطريركه. ويهاجم بهذه المناسبة السيّد مطر مطران الموارنة، وهو ابن أخت مرغريتا باطيشتا مؤسّسة تلك الأخويّة، ويقول أنّه رسم بعض كهنة من عائلة القسّ نصرالله أيّوب، وينعت هذا الأخير بكونه "الركن الأعظم لشيعة العابدات". ويقول أيضًا أنّ حزب العابدات قد حصل على سند آخر في إكليروس الأرمن الكاثوليك في شخص القسّ بولس بليط الذي رسمه المطران عيواظ مؤخّرًا. ويضيف أنّ زعماء حزب العابدات في حلب والمدافعين عنهنّ هم يوسف مخملجيّ وأنطون نجم وجرجس مراش.

وأنّ المساعد الأكبر للمطران ديمتريوس في محاربة هذه البدعة كان الخوري بولس حاتم، بمعاونة أخيه الخوري يوسف حاتم. فأخذ يتقصّى أسرار العابدات، ويطّلع على خفاياهنّ، ويحمل الواحدة منهنّ تلو الأخرى على

284- محفوظات مطرانيّتنا سجلّ ٥ رقم ٢٤.

285- محفوظات مطرانيّتنا سجلّ ٤ رقم ٥.

الإقرار بتجاوزات الأخويّة ومرشديها، وقد ألّف كتابًا بهذا الموضوع[٢٨٦]. ثمّ قضى على مقاومة الرئيستين غرّة نجم وغرّة عجوريّ والكهنة الثلاثة المرشدين.

وفي ٣ آب سنة ١٨٤٧ جرى في الكنيسة الكاتدرائيّة احتفال مهيب، حضره المطران ديمتريوس أنطاكيّ، ومطران الفرزل باسيليوس شاهيات، ومطران طرابلس أثناسيوس توتونجيّ، وفيه رشقت بدعة العابدات بالحرم الكبير، وأرغم ثلاثة من الكهنة ممّن كانوا يعضدونها، بتلاوة إقرار بخطأهم، وهم القسّ إبراهيم عيّاط، والقسّ ميخائيل عجوريّ، والقسّ باسيليوس جحه.

وأنّ محفوظات مطرانيّتنا بحلب تتيح لنا أن نتتبّع خطوة خطوة جهاد المطران ديمتريوس أنطاكيّ، ولاسيّما معاونه الخوري بولس حاتم، الذي اعتلن الخصم الأكبر لهذه البدعة، والناقد الصارم لتصرّفاتها الشاذّة.

ففي ١٤ تموز ١٨٤٧ إقرار مريم حمويّ عمّا شاهدته وتعلّمته عن مريم صائغ ومادلينا جربوع وتلميذاتهما[٢٨٧]. وفي ٢٣ تموز ١٨٤٧ إقرار العابدة مادلين أنطون جربوع، تلميذة القسّ ميخائيل عجوريّ[٢٨٨]. وفي ٢٤ تموز ١٨٤٧ إقرار العابدة مادلينا فتح الله طنبه، تلميذة الخوري باسيليوس جحه[٢٨٩]. وفي ١١ آب ١٨٤٧ إقرار صوفيا حمصيّ[٢٩٠]. وفي ١٢ آب ١٨٤٧ ضبط استجواب غرّة نجم وغرّة عجوريّ، رئيستي الأخويّة، عن الأوراق التي وجدت عندهما بخصوص عبادة قلب يسوع[٢٩١].

ثمّ يلتفت التفتيش إلى الكهنة أنفسهم، مرشدي هذه الأخويّة. ففي ١١ كانون الأوّل ١٨٤٧ يوجّه المطران ديمتريوس أنطاكيّ إلى الخوري إبراهيم عيّاط كتابًا يأمره فيه بعدم الخروج من بيته، ويمنعه عن المعاطاة مع الشعب، بسبب تعاليمه الضالّة وتصرّفاته مع أخويّة العابدات[٢٩٢]. وتتناول الإجراءات عينها كاهنين آخرين هما القسّ جبرائيل عجوريّ والقسّ باسيليوس جحه.

286- في ٥ آب ١٨٤٧ (سجلّ ٥ عدد ٤٧) يكتب البطريرك إلى المطران ديمتريوس عن هذا الكتاب، فيقول أنّه اشترك في وضعه، "ليس فقط بإتقاننا إيّاه على قواعد الصرف والنحو والفصاحة بقدر الإمكان، بل أيضًا بمقابلة النسختين المبيّضتين مقابلة تامّة بذاتنا". ويقول أنّه فرّغ كاتبيه خصوصًا لهذا الغرض، آخذًا على نفسه كتابة مراسلاته بقلمه.

287- سجلّ ٤ عدد ٢٠.

288- سجلّ ٤ عدد ١٧.

289- سجلّ ٤ عدد ١٤.

290- سجلّ ٤ عدد ١٦.

291- سجلّ ٤ عدد ٢٢.

292- سجلّ ٤ عدد ١٩.

أخيرًا يضرب المطران ضربته القاضية، فيرشق بالحرم الكبير رئيستي الأخويّة، وهما غرّة نجم وغرّة عجوريّ، ويطلق الحرم أيضًا على كلّ مَن عرف شيئًا عن تصرّفات هذه الأخويّة الشاذّة ولا يخبر به السلطة الكنسيّة. إذ ذاك تنهال عليه التقارير السرّيّة من الفتيات والسيّدات المغرورات. فيعيّن الخوري بولس حاتم كاتم سرّه، وأخاه الخوري يوسف حاتم، لفحصها. ويضطرّ الكهنة الثلاثة إلى الإقرار بكلّ شيء فيطلب المطران ديمتريوس من المجمع المقدّس[٢٩٣] أن يتدخّل ويخرجهم من حلب. ويقبض على أوراق مؤسّسة الأخويّة، مرغريتا باطشتا، وخليفتها مرغريتا نجم، بمساعي فتح الله عجوريّ، شقيق غرّة عجوريّ، الرئيسة الثانية...

على أنّ هذه الإجراءات الصارمة لم تخلُ من معارضة قويّة، واستغاثات بالكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ. فبعض الكهنة كان ينشر الرسائل بين الشعب يدافع فيها عن أخويّة العابدات، ويطلب من المؤمنين عدم تسليم كتب عبادة قلب يسوع، خلافًا لأوامر المطران[٢٩٤].

وتتّخذ المعارضة أحيانًا شكل التهجّم الشامل، لا على تصرّفات المطران فحسب، بل على سلوكه الشخصيّ، فتتّهمه بأبشع التهم، وتروّج الافتراءات الشتّى بحقّه. ونحن نعتقد أنّ المطران ديمتريوس أنطاكيّ دفع غاليًا ثمن حملته التي شنّها بلا رحمة ولا هوادة على أخويّة العابدات، وعلى العابدات أنفسهنّ وعلى كلّ مَن كان وراءهنّ... فكان لا بدّ من أن يتألّب الأخصام ضدّه يومًا وينتقموا منه...

وفضلاً عن بدعة العابدات، فقد اضطرّ أيضًا المطران ديمتريوس أنطاكيّ إلى مقاومة البدع البروتستانتيّة، فأصدر في ٢١ كانون الثانيّ سنة ١٨٥٠ رسالة رعائيّة إلى الشعب[٢٩٥] يمنع فيها قراءة كتبهم والاشتراك معهم في الأقداس.

وفي هذه الأثناء كان البطريرك مكسيموس يعمل في الأستانة للحصول على الاعتراف لطائفته الروميّة الملكيّة الكاثوليكيّة بالاستقلال عن طائفة الروم الأرثوذكس، وبحقّ إكليروسها بلبس الزيّ التقليديّ الشرقيّ. فيكتب من الأستانة في ٢٩ تشرين الأوّل سنة ١٨٤٧ إلى المطران ديمتريوس[٢٩٦] يعلمه

293- سجلّ ٤ عدد ٢٥.
294- سجلّ ٤ عدد ١٨.
295- سجلّ ٥ عدد ٣٧.
296- سجلّ ٥ عدد ٤٩.

عن نتائج مساعيه، ويضيف: "في أوّل فرصة إن شاء الله نرسل إليكم عن طريق بيروت القلنسوة الجديدة، وداخلها قالبها مع اللاطية باللون المور الغامق. وتشاهدون ظرافتها البهيّة المنظر، إذ لا يخفاكم كم هو اعتبار هذا اللون الشريف المختصّ برؤساء الكهنة دون سواهم، والمستعمل قديمًا من أشراف اليونان كبراء أصل طائفتنا. فاستمرّوا كما أنتم خلوًّا من تغيير شيء إلى أن يصلكم ما قدّم شرحه".

زيارة البطريرك مكسيموس مظلوم لمدينة حلب

سنة ١٨٤٩ عقد أساقفة الطائفة مجمعًا في أورشليم. فحضره المطران ديمتريوس أنطاكيّ، وطالب فيه بحقّ التصدّر على مطران صور، فناصره البطريرك مكسيموس مظلوم في هذه القضيّة. إلاّ أنّ مطران صور استغاث برومة، وروما أصدرت حكمها لصالحه، فأقرّت بالمكان الأوّل لأبرشيّة صور، وبالمكان الثانيّ لأبرشيّة حلب.

وبعد انتهاء المجمع، ألحّ المطران ديمتريوس أنطاكيّ على البطريرك بأن يذهب لزيارة حلب، وكان قد غادرها سنة ١٨١٠، ولم يعُد إليها منذ ذاك الحين. فأراد شعب حلب أن يعوّض إلى حدّ ما عن موقفه السابق نحوه، وقد اتّسم بالمناوئة من قبل الكثيرين، كما أراد أن يظهر حماسه للبطريرك العظيم، "أبي الطائفة"، بعد انتصاره في القسطنطينيّة وحصوله على تحرير الطائفة والاعتراف لها بالاستقلال الإداريّ، المدنيّ. فقبل البطريرك دعوة مطران حلب ووجهاء الطائفة فيها، فقرّر زيارته حلب، بل بقي فيها أربعة عشر شهرًا. وأنّنا ننقل عن مرافقه الشمّاس توما مظلوم تفاصيل هذه الزيارة.

في ٢٢ حزيران سنة ١٨٤٩ غادر البطريرك القدس بصحبة المطران ديمتريوس أنطاكيّ، ومطران زحلة باسيليوس شاهيات، ومطران حمص غريغوريوس عطا، مع وفد الإكليروس الحلبيّ إلى المجمع الأورشليميّ. فقصدوا يافا، حيث ركبوا باخرة أقلّتهم إلى بيروت، فحلّت فيها حتّى أوائل آب. ثمّ أبحروا من بيروت إلى الإسكندرونة.

"وفي ٣ آب صباحًا خرجوا إلى البلد رسميًّا، ونزلوا في بيت الخواجا برتودينو، وكيل الحلبيّين، حيث صودف بعض من الإكليروس والشعب الحلبيّ، الذين جاؤوا لملاقاة طوباويّته، مستحضرين معهم اليخت لركوبه. وحيوانًا من العكامة والمراكيب الضروريّة. وكان المطران ديمتريوس كتب إلى الخوري بولس حاتم أن لا تصير احتفالات زائدة، بل يكون شيء

باعتدال"، إلاّ أنّ الحلبيّين أبوا إلاّ إظهار حماسهم وافتخارهم بالبطريرك العظيم، ابن بلدهم.

وبعد يومين من خروجهم إلى الإسكندرونة، توجّهوا ليدخلوا حلب. "وفي ٦ آب ركبوا متوجّهين نحو مدينة حلب، التي قبل أن يصلوها بمسافة خمس ساعات، شرعوا يستقبلون الملاقين، الذين رويدًا رويدًا كانوا يتكاثرون حتّى بلغوا جميعًا السبيل البعيد عن المدينة نحو ساعة، حيث كانوا نصبوا الخيام لجمهور الملاقين، الذين منهم جناب القواس باش، المرسل من سعادة مصطفى ظريف باشا المعظّم، مع اثني عشر من قواسته".

فغبّ أن أخذ غبطته ورفاقه قليلاً من الراحة مع الملاقين، وتناولوا المشروب، قد ركبوا أجمعين، مع تراجمي الثلاث عشرة قنصليّة، والقوّاسة المختصّة بها، الذين كانوا استقبلوا قدسه من مسافة بعيدة عن السبيل. فعدد الملاقين ربّما اتّصل إلى أكثر من خمسة آلاف. والجميع أخذوا بالمسير بترتيب ونظام. كما أنّ إكليروس الطوائف المسيحيّة كلّها كانوا من عدد الملاقين، ماشين بترتيبهم. وبالإجمال فإنّ هذه الدخلة الحافلة كانت مهيبة من كلّ جهاتها، وقط ما شوهد احتفال مثل هذا قبلاً لدخول أحد رؤساء الديانة المسيحيّة".

"فلمّا بلغوا أجمعين إلى بوّابة حارة الصليبة، نزل طوباويّته من التخت، وتردّى بالمتيّة، وضبط بيده العكّاز الحبريّ، والإكليروس كافّة أمامه بالبدلات المقدّسة المختصّة بدرجاتهم، وبالشموع والمباخر والتراتيل، رافعين سناجق الصليب والمراوح، في الوقت الذي فيه من كلّ الجهات، من حدّ بستان الكتّاب إلى كنيسة الطائفة، النساء من الجهتين يزلغطن بالتهاليل".

"فكان وصول غبطته إلى الكنيسة نحو الساعة الخامسة من النهار. ففي الكنيسة حسب عادة غبطته، قدّم الشكر لله، والدّعاء لعزّة ملكنا الشوكتليّ عبد المجيد خان، ولسعادة وزرائه المعظّمين، الذين أحدهم والي المدينة المشار إليه"...

"فلمّا انتهى احتفال هذه الدخلة الفريدة، توجّه طوباويّته إلى دار الأسقفيّة، حيث استقبله السيّد جروه بطريرك السريان الكلّيّ الطوبى. وجاءت إلى هناك مطارنة الروم والسريان والأرمن والموارنة، كاثوليكيّين وغير كاثوليكيّين. ثمّ جاء وجهاء الطائفة يسلّمون عليه، بنوع أنّ الابتهاج والسرور والأفراح القلبيّة وجدت عامّة بعلامات غير قابلة الاشتباه".

"وفي يوم ٧ آب أرسل الواليّ ممثّلاً عنه ليسلّم عليه. وأرسل القاضي الكبير ابنه الوحيد. وجاء القناصل بأنفسهم".

"وفي يوم ٨ آب شرع يردّ الزيارات. فذهب راكبًا، وبرفقته كير ديمتريوس وكير أثناسيوس (توتنجيّ، مطران طرابلس) الموقّرين، مع إكليروس الطائفة، إلى مقابلة سعادة الباشا المشير المعظّم، الذي استقبله بكرامة ومحابرة وافرتين جدًّا. وبعد أن تخاطبا فرنسويًّا برهة من الزمن... رجع بالاحتفال نفسه إلى دار الأسقفيّة... وأنّ الشعوب، من إسلام ونصارى ويهود، حيث اجتيازنا هذا الاحتفاليّ في الطرقات، كانوا يظهرون كلّ احتشام ووقار، الأمر الذي ما شوهد مثله في حلب".

لعلّ كاتب الأسطر بالغ في تفاؤله... فأنّ مثل هذا الدّخول الرائع والأبّهة غير المعتادة تركا في نفس البعض شيئًا من الاستغراب، بل من الحقد، سوف يعتلن في "قومة البلد"، بعد أربعة عشر شهرًا، قضاها البطريرك مظلوم في حلب، نعم خلالها بدفء الضيافة الحلبيّة. فكانت له بمثابة وقت استجمام وراحة بعد جهاداته الجبّارة، وبعد انفصاله الطويل عن أقربائه وأصدقائه وأبناء وطنه...

"قومة البلد" سنة ١٨٥٠

لقد كتب الكثيرون عن البلابل التي هزّت حلب في منتصف شهر تشرين الأوّل سنة ١٨٥٠، والتي ما زال الحلبيّون يذكرونها فيدعونها "قومة البلد"، وفيها راح عدد من المسيحيّين ضحيّة المشاغبين، ونُهبت البيوت، وأُحرقت الكنائس. فقد أورد تفاصيلها الأب يوسف قرألي[٢٩٧]، والأب فردينان توتل اليسوعيّ[٢٩٨]، أخذًا عن الوثائق المعاصرة، ولاسيّما عن رسالة المطران المارونيّ بولس آروتين إلى مجمع انتشار الإيمان[٢٩٩]، وعن الرحّالة الإنكليزيّ Neale[300]، وعن المخطوط رقم ١٣٥٩ من المكتبة المارونيّة بحلب، وعن "مختصر تاريخ حلب" لجامعه عبدالله مراش[٣٠١].

لكنّنا اعتمدنا خصوصًا في سرد الحوادث على يوميّات المعلّم نعّوم بخّاش، الذي عاش تلك الحوادث المؤلمة، فعكس لنا بتعبيره الشعبيّ انفعالات المسيحيّين من معاصريه وتعليلهم للحوادث كما رأوها بأمّ أعينهم. قال المعلّم نعّوم بخّاش ما معناه:

---

[297]- في المجلّة السوريّة سنة ١٩٢٧، صفحة ٩٧- ٩٩ و ١٤٠- ١٤٧.

[298]- في مذكّراته، الجزء الثانيّ، صفحة ٦٧ وما يليها.

[299]- عن محفوظات المطرانيّة المارونيّة بحلب، اضبارة آروتين، صفحة ٤٢٧.

[300] Eighr Years In Syria, 1842- 1850, p- 117 sq.

[301]- الأصل محفوظ في مخطوطة من مكتبة تيمور باشا بمصر.

يوم السبت ٦/ ١٨ آب ١٨٤٩ دخل البطريرك مكسيموس مظلوم مدينة حلب بأبّهة منقطعة النظير، كما سبق ووصفناها. فهذا الاستقبال، وإكرام الواليّ والقاضي له، فضلاً عن حماس الشعب المسيحيّ وتأييد القناصل، جعل بعض الفئات تحقد على البطريرك وعلى المسيحيّين عمومًا، ولم يعتادوا من قبل أن يروهم في مثل هذا الوضع الرفيع. ولمّا أخذ البطريرك مظلوم يردّ الزيارات، ركب جوادًا، ورافقه مطرانان، وثمانية قسوس رافعين العكّاز البطريركيّ، وقواسان بعكاكيز من فضّة، "كما لو كان وزيرًا"...

وعلى أثر ذلك تجرّأ المسيحيّون وأخذوا يوسّعون كنائسهم ويرمّمونها، دون استئذان أحد، ودون دفع الرشوات والغرامات كما في الماضي. وعمد الوجهاء منهم على دعوة البطريرك إلى البساتين، وأدّبوا له مآدب فخمة، دعوا إليها كبار المسلمين، كما فعل مثلاً شكرالله تاجر إذ "دعى البطريرك إلى بستان النابيّ، مع نوبة (أيّ جوقة طرب) بوجود عبدالله بك بابنسيّ نفسه".

وتجرّأ أيضًا بعض النصارى، فنزعوا عنهم اللفّات والعمائم، ولبسوا الطرابيش، أسوة بكبار الموظّفين العثمانيّين، "من أمثال أولاد رعد وتاجر" فعظم شأن النصارى، وتوغّرت صدور منافسيهم.

"وفي ٥ تشرين الأوّل أرسل الباشا أوراقًا للحارات، وقال أنّ السلطان يريد أن يجنّد واحدًا على عشرة من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين عشرين سنة وخمسة وعشرين... فهاج أهل قسطل الحرامي، وهاجموا قرقول قسطل الحرامي... فأكلوا ثاني يوم عصيًا بالسرايا"...

وبدأت حوادث الشغب ليلة ١٦ تشرين الأوّل سنة ١٨٥٠. فنزل إلى البلد عسكر نظاميّ من ثكنة الشيخ يبرق، وتفرّق في البلد، فكفّ الأشقياء عن النهب أمّا الثوّار، وعلى رأسهم عبدالله البابنسيّ ورمضان آغا والشيخ خيرالله، فقد هاجموا الأحياء، وابتدأوا بنهب البيوت. أمّا حيّ الصليبة فلم يدخلوه في تلك الليلة.

وفي اليوم التالي ١٧ تشرين الأوّل اجتمع الأساقفة والوجهاء عند البطريرك مكسيموس مظلوم، فأشار عليهم بأن يستحضروا عشرين ألف غرش، ويقدّموها لزعيم الثوّار عبدالله البابنسيّ، فيتكفّل بحماية حيّ الصليبة، الذي كان يضمّ أكبر البيوتات المسيحيّة وأغناها. فلم يتبعوا مشورته. فدخل الكنيسة الكاتدرائيّة، وتناول القربان الموجود فيها، ثمّ ذهب متستّرًا إلى بيت الخواجه الياس نعّوم كبابه.

وفي اليوم الثّاني صباحًا، حضر الثوّار، وكسروا أبواب المحلّة، ونهبوا البيوت وضربوا بطريرك السريان الكاثوليك وأثخنوه جراحًا، ظانّين أنّه البطريرك مظلوم، ثمّ أحرقوا كنيسته وكنيسة الروم الأرثوذكس وكنيسة الروم الكاثوليك، وقتلوا عددًا من المسيحيّين.

أمّا البطريرك مكسيموس فبقي مختبئًا. وأنّ كثيرين من المسلمين حاموا عن جيرانهم المسيحيّين ضدّ أصحاب الفوضى. وجاء منهم قوم إلى عند الياس نعّوم كبابه، وعرضوا عليه أن يذهب مع عائلته إلى أحد الخانات الأمينة، حيث القناصل والتجّار الأجانب، وتكفّلوا بإيصالهم سالمين. فاغتنم البطريرك مظلوم هذه الفرصة، والتحف بالازار والمنديل كالحريم، وذهب هكذا متنكّرًا إلى خان العلبيّة، إلى بيت الخواجا مركوبولي، وظلّ مختبئًا هناك أحد عشر يومًا دون أن يعلم به أحد. ومن هناك أوصل كتاباته إلى الأستانة عن هذه الحوادث. فوصلت إليها قبل أن ترد تقارير واليّ حلب. ثمّ خرج من حلب متستّرًا بزيّ جنرال فرنسيّ، وبرفقته جنود من قبل الواليّ، وخمسة من العربان لحمايته، فتوجّه إلى الإسكندرونة، ومنها أبحر إلى بيروت.

ثمّ قام الواليّ وضرب بيد قويّة على المشاغبين الذين تعدّوا على أبناء وطنهم بهذه الطريقة الوحشيّة. ووصل إلى حلب في ٢٢ تشرين الأوّل محمد باشا قبرصليّ، ومعه العسكر والعدّة اللازمة لتأديب الثوّار. فبعد يومين من قدومه، "سفّر ظريف باشا معزولاً، لتهاونه وتأخّره في قمع الثوّار. وفي ٢٥ تشرين الأوّل، "نزل عبدالله بابنسيّ ورمضان آغا واثنين آخرين ممّن أضرموا نار الفتنة، ودوّرهم بالبلد مقدار ساعتين بدواب مبهدلة، مربوطيّ الأرجل، وعلى صدرهم لوحة كتب عليها: "هذا جزاء مَن يخون السلطان".

كانت حصيلة الثورة مقتل بعض المسيحيّين، وحرق الكنائس ونهب البيوت المسيحيّة والمطرانيّات، وعلى الأخصّ مطرانيّة الروم الكاثوليك، مع كافّة موجودات البطريرك مظلوم. "وأمّا بقيّة بيوت النصارى التي سلمت من النهب، فقد تكلّف أصحابها على حمايتها ما يزيد من مئة ألف غرش". فمجموع الخسارات تقدّر بمائة ألف كيس، أيّ خمسين مليون غرش. وتسعة عشر ابنة فضّت بكارتها، وخمسون امرأة فضح عرضها، وفتيات أخذن للسبيّ خارج المدينة...

وأنّ قنصل فرنسا Lesseps وقنصل انكلترا Warry أظهرا شهامة نبيلة في حماية المسيحيّين والدفاع عنهم في تلك الظروف الصعبة.

ثمّ أخذ الباشا يطلب الأمتعة المسلوبة، فيجمعونها في دار مطرانيّة الروم، ويعرضونها على الناس لبيعها بطريق المزاد العلنيّ، لكي يعوّضوا على أصحابها. وكتب كلّ من المتضرّرين لائحة بالأمتعة التي نُهبت له، مع تقدير ثمنها. وأعلن الباشا التساويّ بين الرعايا. وشكّل مجلسًا للنظر في الدعاوى. لكنّ كثيرين من أعضاء هذا المجلس المسلمين تمنّعوا عن الحضور، فعوّض عنهم ببعض المسيحيّين أو اليهود. ونفى إلى كنديا نحو خمسمئة شخص من الذين أضرموا نار الفتنة. كما نفى يوسف بك الشريف إلى قونيه، والمفتيّ تقيّ الدين أفنديّ إلى القدس، ومنها إلى مكّة...

وفي الحال جاءت التبرّعات من الخارج لكي تغطّي حاجات المنهوبين الفقراء، وفي طليعتها تبرّع من قداسة البابا بمبلغ ٤٤٢٥٦ غرشًا بواسطة الخواجا موليناري. وفي الحال يتّفق المطران ديمتريوس ومطران الروم الأرثوذكس كيرلّس، فيشكّلون بعثة إلى أوروبا لجمع التبرّعات، قوامها المطران أثناسيوس توتنجيّ، والخواجا فتح الله مراش، والخواجا شكرالله عبّود[٣٠٢].

أمّا الباب العاليّ فكان يصدر الأمر تلو الآخر بالتعويض على المسيحيّين. لكنّ السلطات المحلّيّة كانت تتلكأ في التنفيذ، بسبب معارضة الوجهاء من غير المسيحيّين الذين وقع على عاتقهم دفع التعويضات.

ففي الأوّل من كانون الثانيّ سنة ١٨٥٢ مثلاً، اجتمع الواليّ الجديد عثمان نوري باشا برئيس مجلس الإدارة والقاضي. وبأمر المشير محمد باشا دعا جميع المطارين وبعض أعيان المسيحيّين، وحاولوا أن يقنعوهم بقبول ٢٥٠٠ كيس لترميم الكنائس وللتعويض على الفقراء، وأن يوقّعوا بختمهم على صكّ القبول. وقالوا أنّ رشيد باشا أمر بخمسة آلاف كيس ضريبة على أهالي حلب، لكنّه لا يمكنهم أن يؤمّنوا أكثر من ٢٥٠٠ كيس، وأنّ هذا المبلغ ضرب على عامّة الشعب. أمّا خاصّتهم من أصحاب الثروة، كشريف بك ويوسف بك شريف، فطلب من الأوّل ٧٠٠٠ غرش، ومن الثانيّ ٩٠٠٠، وطلب من غيرهم ٣٠٠٠، مع أنّه ليس لهم في القضيّة لا ناقة ولا جمل. وكان شريف بك أوّل مَن رضي بالقرعة العسكريّة، ومع ذلك فقد صار أوّل محرّك للفتنة. فلم يقبل المطارين والمسيحيّون هذا العرض، بل أرسلوا ثلاثة نوّاب إلى استنبول يطالبون بالتعويض...

302- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٥ عدد ٤٦.

وفي أواخر كانون الثّانيّ ١٨٥٢ اختلف موقف المسيحيّين من أمر التعويضات: فالأرمن والموارنة والسريان أخذوا يتراجعون عن مطاليبهم، لأنّ الثوّار صاروا يتهدّدون المسيحيّين بأوخم العواقب إذا ما أصرّت الحكومة العثمانيّة على مطالبتهم جماعيًّا بتحمّل ثمن التعويض. أمّا الروم الكاثوليك فما زالوا يطالبون به، وكانت نكبتهم أشدّ من نكبة غيرهم. أمّا في استنبول فأخذ المسؤولون يساوفون حتّى تنطفئ الشرارة من تلقاء ذاتها.

وفي ٢٧ شباط ١٨٥٢ سمع في حلب بأنّ الباب العاليّ قد يفرض على كلّ ذكر في الدولة العثمانيّة ضريبة عشرين غرشًا على السواء لتغطية قيمة التعويضات... فسكت المسيحيّون، ودخل أمر التعويض عليهم في خبر كان...

أمّا معاقبة المجرمين فسارت في نفس الطريق. ففي ١٠ حزيران ١٨٥٢، شاع في حلب أنّ عدد المشتبه بهم بلغ ١٨٠٠ شخص، وأنّ هؤلاء اتّهموا ٦٠٠ شخص آخر بالاشتراك معهم في السلب والنهب...

وهكذا كان المسؤولون العثمانيّون يشيعون الأخبار الكاذبة حتّى يخاف المسيحيّون من متابعة مطلبهم، فيكفّوا عنه، فترتاح الدولة من ملاحقة المجرمين، ولا تأبه بالظلم اللاحق بالمسيحيّين...

وجلّ ما ناله المسيحيّون هو بعض الدراهم من خزينة الدولة ساعدهم على تجديد وترميم كنائسهم. وهكذا تجدّد بناء الكنيسة الكاتدرائيّة للروم الكاثوليك، ووضع على مدخلها حجر مرمريّ مع هذه الكتابة: "قد ترمّمت هذه الكنيسة من بعد حريقها بأمر مولانا السلطان عبدالمجيد خان سنة ١٨٥٢، في عهد المطران ديمتريوس أنطاكيّ".

ونجد حجرًا مماثلاً فوق مدخل كنيسة القدّيس جاورجيوس في حيّ الشرعسوس التي لم تنجُ من الحريق، ورمّمت هي أيضًا سنة ١٨٥٢.

وما زال المسيحيّون بحلب يتمسّكون بحبال العنكبوت، ويأملون بأنّ الدولة العثمانيّة سوف تعوّض عليهم، حتّى سنة ١٨٧٠... ففي ١٦ شباط من تلك السنة كتب باولاكي حوا من استنبول إلى أسقفه المارونيّ بحلب: "بخصوص المسلوبات، فإنّ ناظر الدّاخليّة أوصى الواليّ الجديد درويش باشا، الذي توجّه منذ بضعة أيام إلى حلب، بأنّه فور وصوله يرسل دفتر كامل المنهوبات. وبوقته تفتكر الدولة في طريقة التعويض عن مسلوبات سنة ١٨٥٠!"...

مع ذلك ففي ٣٠ آذار سنة ١٨٥٦ عُقد مؤتمر باريس، وبه انتهت حرب القرم. وكان الفوز فيها نهائيًّا لتركيا، بمساعدة الدول الغربيّة. فأعلن السلطان عبد المجيد بالخطّ الهمايونيّ المساواة بين رعايا السلطنة في ما يتعلّق

بالوظائف والضرائب دون تمييز في المذهب أو الجنس، وفقًا لِما كان إبراهيم باشا المصريّ سبق فأدخله من إصلاح.

في خضمّ المقاومة وبوتقة المحنة

عندما غادر البطريرك مكسيموس مظلوم حلب، شُغل بخلافة المستحكم مع مطران بيروت أغابيوس رياشيّ. فأوفد إلى روما الخوري بولس حاتم وكيلاً عنه لكي ينهي الدعاوى المقامة عليه، ويحصل من الكرسيّ الرسوليّ على تثبيت مجمعه الأورشليميّ الذي عقده سنة ١٨٤٩.

على أنّ غياب الخوري بولس حاتم عن حلب عرض صديقه المطران ديمتريوس أنطاكيّ إلى حملة عنيفة من مقاوميه، اضطرّته فترة من الزمن إلى مغادرة حلب.

وأنّنا نراه في غضون سنة ١٨٥٣ يصطدم بالقسّ بولس بليط الأرمنيّ، فيصدر في ١٤ آب ١٨٥٣ منشورًا ضدّه[٣٠٣]، لأنّه كان يشيع تهمًا باطلة على إكليروس الروم الكاثوليك. فشكاه المطران ديمتريوس إلى مطرانه باسيل عيواظ، الذي اقترح جلسة تحكيم في دار الخوري ديمتريوس شاهيات. لكنّه امتنع عن الحضور، هو وكاهنه. فاضطرّ المطران ديمتريوس إلى أن يمنعه من سماع اعتراف أبناء طائفة الروم. لكنّه، جريًا على العادة، استغاث بالكرسيّ الرسوليّ. ومنع المطران ديمتريوس أبناء طائفته من الذهاب إلى "التعليم" أو الأخويّة التي يكون هذا القسّ مرشدها. على أنّ البطريرك مكسيموس مظلوم كتب إلى المطران ديمتريوس في ٩ أيلول ١٨٥٣ ينصحه بالتروّي وضبط النفس في هذه القضيّة[٣٠٤].

ثمّ يصطدم المطران ديمتريوس بأبناء طائفته وبإكليروسه. فتتكاثر بحقّه الشكاوى إلى البطريرك مكسيموس مظلوم، الذي يستدعيه مع الشهود إلى ديوانه بدمشق. وبعد الفحص القانونيّ يصدر البطريرك في ١٨ تشرين الثانيّ ١٨٥٣ بيانًا يبرّر فيه المطران... لكنّ ثمانية من الكهنة وستًّا وستّين من العلمانيّين يعودون فيكتبون إلى البطريرك في ٢١ كانون الثانيّ سنة ١٨٥٤[٣٠٥] يطلبون عزل المطران ديمتريوس... ويقولون أنّ البطريرك لم يرد أن يدينه علنًا، أملاً بأنّه سوف يتنازل طوعًا. لكنّ الحالة ما عادت تطاق. ويضيفون أنّ

---

[303]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٥ عدد ٤٠.

[304]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٥ عدد ٤٢.

[305]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٥ عدد ٤١.

المطران هو متغيّب حاليًّا عن أبرشيّته، ويطلبون من البطريرك أن يمنعه من الرجوع إلى كرسيّه، والحكم عليه بالعزل...

والبطريرك مكسيموس نفسه يعلن في ٥ شباط سنة ١٨٥٤ أنّ رغبته كانت في الواقع أن يتنازل المطران من نفسه، نظرًا إلى خير النفوس وتقدّمه في السنّ، أو يبتعد فترة من الزمن عن أبرشيّته، ماكثًا في القلاّية البطريركيّة بدمشق، إلى أن تهدأ المقاومة. وإذ أصرّ المطران على العودة إلى أبرشيّته، ربطه البطريرك عن وظيفته الأسقفيّة، وعيّن الخوري يوسف حاتم (شقيق الخوري بولس حاتم) وكيلاً بطريركيًّا إلى حين. فعمد المطران ديمتريوس بدوره إلى الاستغاثة برومة ضدّ تصرّف البطريرك.

وعاد المطران ديمتريوس إلى حلب مخالفًا قرار بطريركه... ومن هناك كتب في ٣٠ تموز سنة ١٨٥٥ إلى القاصد الرسوليّ[٣٠٦] يشكو له مقاومة إكليروسه. فقد حذفوا ذكره في القدّاس، ومنعوه من أن يقدّس في الكنيستين المشيّدتين حديثًا (الكنيسة الكاتدرائيّة وكنيسة القدّيس جاورجيوس في حيّ الشرعاسوس)، فاكتفى بالتقديس في معبد المطرانيّة حبًّا بالسلام. ويتساءل: "ما هو الموجب منع دخولي الكنيسة، وأنا والشعب الذي يرغب أن يصلّي عندي نحتمل في الآحاد والأعياد ضيقة المكان والازدحام"؟

وفي محفوظات مطرانيّتنا كرّاس كامل[٣٠٧] يتضمّن مراسلات المطران ديمتريوس في الفترة بين سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٥٥ بخصوص المقاومة التي يلقاها من فئة من الإكليروس والشعب، بموافقة البطريرك.

وأنّ القاصد الرسوليّ، سعيًا لإعادة الهدوء والسلام، طلب من المطران ديمتريوس أن يبتعد قليلاً عن حلب. فذهب إلى أنطاكية، ولم يعُد إلى حلب إلاّ في غضون شهر آب سنة ١٨٥٦.

ذاك أنّ البطريرك مكسيموس مظلوم كان قد توفي في ١١ آب سنة ١٨٥٥، وانتخب بدلاً منه على الكرسيّ البطريركيّ إكليمنضوس بحوث في ٢٠ آذار ١٨٥٦.

فبادر أنصار المطران ديمتريوس من كهنة وعلمانيّين فكتبوا إلى البطريرك إكليمنضوس بحوث[٣٠٨] يطلبون منه الأمر بإعادة أسقفهم إليهم ويقولون في معرض كلامهم أنّ تغيّب المطران في أنطاكية كان عن طلب القاصد الرسوليّ

306- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٥ عدد ٢١.

307- سجلّ ٥ عدد ١٥.

308- سجلّ ٥ عدد ١٦.

لمدّة ستّين يومًا فقط. وها قد مضت عليه أشهر بكاملها بعيدًا عن أبرشيّته، ويقولون أنّ الكهنة أخصامه لا يذكرونه في القدّاس... والصكّ موقّع من ١٣٧٢ شخصًا من أرباب العائلات، بينما لا يتعدّى عدد الأخصام الأربعمئة أو الخمسمئة، على ما يقولون.

فيصدر البطريرك إكليمنضوس بحوث منشورًا بتاريخ ٢١ تموز ١٨٥٧[٣٠٩]، يحرّض فيه الطائفة على الاتّحاد والمحبّة، وعلى قبول المطران ديمتريوس بعد إرجاعه إلى كرسيّه "بقرار من القاصد الرسوليّ"، "إلى أن يأتي الحكم النهائيّ من المجمع المقدّس". فعاد المطران ديمتريوس إلى حلب، وقضى فيها آخر أيامه بهدوء حتّى وفاته.

"مدرسة الروم" بحلب

في ٢ أيلول سنة ١٨٥٤، على ما ورد في يوميّات المعلّم نعّوم البخّاش، "فتحَ الروم (الكاثوليك) مدرسة بالكنيسة" للصبيان. وبعد بضعة أيام يقول أنّهم "فتحوا مدرسة بنات، من روم وأرمن وسريان، فوق كنيسة الموارنة، الصالة، واستكروها بسعر ١٨٠٠ غرش. ويعلّمون فيها قراءة وخياطة وطارة وتزركش". ولعلّ هذه أوّل مدرسة مهنيّة للبنات في الشرق العربيّ كلّه!

اعتماد الحساب الغربيّ

في ٦ كانون الثانيّ سنة ١٨٥٧ يصدر البطريرك إكليمنضوس بحوث منشورًا[٣١٠] يعلن فيه على أبناء الطائفة إدخال الحساب الغربيّ الجديد المعروف بالحساب الغريغوريّ. ويقرّر أن يبدأ الأخذ بالحساب الجديد مع أوّل أيام الصوم الأربعينيّ الواقع تلك السنة في ١١ شباط ١٨٥٧، "ومن ذاك اليوم يترك فارق الاثني عشر يومًا بين الحسابين".

وقد لقي هذا الإجراء مقاومة شديدة من أبناء الطائفة ومن بعض أحبارها، نخصّ منهم بالذكر مطران بيروت أغابيوس رياشيّ، ومطران صيدا ثاوضوسيوس قيّومجيّ ومطران بعلبك ملاتيوس، ومطران زحلة باسيليوس، ممّا حمل البطريرك إكليمنضوس بحوث، المعروف بتقواه ووداعته وتواضعه، إلى التنازل عن كرسيّه مرّة أولى في ٢٨ تموز سنة ١٨٥٨. فلم يقبل الكرسيّ الرسوليّ به، بل أمره بالعودة إلى منصبه. لكنّ المقاومة ازدادت اتّساعًا وعنفًا،

309- سجلّ ٢ رقم . النسخة الأصليّة في سجلّ ٢ رقم ١٢.

310- منه نسخة في محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٢ رقم ١٠.

فعاد البطريرك إكليمنضوس وأصرّ على التنازل عن كرسيّه، فقبل به الكرسيّ الرسوليّ. إذ ذاك اجتمع أساقفة الطائفة في دير مار يوحنّا الصابغ في ٢٩ أيلول سنة ١٨٦٤، وانتخبوا غريغوريوس يوسف بطريركًا عليهم.

أمّا في حلب فيبدو أنّ اعتماد الحساب الغربيّ لم يلاقِ معارضة تُذكر، بل بادر الحلبيّون عمومًا إلى الوقوف إلى جانب البطريرك بحوث، وفي مقدّمتهم المطران أثناسيوس توتنجيّ، الذي كان البطريرك مكسيموس مظلوم رسمه مطرانًا على طرابلس في ١١ تشرين الأوّل سنة ١٨٣٦، وعيّنه رئيسًا لمدرسة عين تراز الإكليريكيّة، لكنّه لم يبقَ في هذه الوظيفة سوى سنتين، ثمّ غادرها وتجوّل في أوروبا وعقد اتّصالات مشبوهة مع الكنيسة الإنجليكانيّة، وأخيرًا استقرّ في حلب. فالمطران أثناسيوس المذكور ساند اعتماد الحساب الغربيّ، ونشر كتابًا بعنوان "دليل المستفيد على الفصح المجيد"، بيّن فيه أنّ الحساب الغربيّ في تحديد عيد الفصح لا يعارض قرارات المجمع المسكونيّ النيقاويّ الأوّل.

إحصائيّات عن عدد أبناء الطائفة في ذاك العهد.

إنّ الاضطهادات والاضطرابات والكوارث أدّت إلى تناقص عدد أبناء الطائفة في عهد المطران ديمتريوس أنطاكيّ. ففي سنة ١٨٤٦ قام القنصل الفرنسيّ بحلب المدعو Henry Guys بإحصاء لأبناء الطائفة "في حلب وأريحا"(؟)، فبلغ عددهم على ما قال ٦٤٩٠ نسمة لا غير[٣١١].

أمّا عن سنة ١٨٥٠، فلدينا إحصاء رسميّ قامت به المطرانيّة. وقد حفظته لنا وثيقة معاصرة تحت هذا العنوان[٣١٢]: "بيان جملة طائفتنا الروم الكاثوليك بموجب ضبطهم في دفتر النوريّة إفرادًا بكلّ تدقيق في العام الماضي ١٨٥٠: ذكور ٣٣٩٨، إناث ٣٣٠٦. يكون إجمالهم ٦٧٠٤ أنفار لا غير".

تلي ذلك بعض إيضاحات اجتماعيّة، نوردها بنصّها الحرفيّ، مع ما فيها من مبالغة غايتها استدراد عطف الدولة:

١٠٠ عائلة، عدد أنفارها ٤٢٠، المنهوبون "؟؟؟"

٥٥ عائلة، عدد أنفارها ٢٥٠، البسارنة المنهوبون من العسكر وبغاية الفقر.

٤٠٥ عائلات، عدد أنفارها ١٤٦٢، فقراء وعميان ومقطوعون وعجز وأيتام بغاية الفقر.

---

311 C. KOROLEVSKIJ, Hist. des Patr. Melk. T. III, p. 302.

312- في محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٥ رقم ٣٩.

٥٦٠ مجموع العائلات، عدد أنفارها ٢١٣٢، الفقراء والمحتاجون من أبناء الطائفة.

ولدينا أيضًا من السنة عينها ١٨٥٠ قائمتان[٣١٣]: الأولى تتضمّن أسماء المنهوبين من أبناء الطائفة في حادث "قومة البلد"، وعددهم ٣٦٢ (بما فيه أفراد عائلاتهم) والثانية تتضمّن أسماء فقراء طائفة الروم الكاثوليك سنة ١٨٥٠، وعددهم ١٤٦٢ شخصًا.

وفي تقرير وضعه سنة ١٨٥٦ المطران المارونيّ بولس آروتين[٣١٤]، وجدنا الإحصائيّات التالية عن المسيحيّين في حلب:

الكاثوليك		**الأرثوذكس**	
لاتين	٥٠٠	أرمن أرثوذكس	١٦٠٠
موارنة	٢٠٠٠	روم أرثوذكس	٥٠٠
روم كاثوليك	٧٠٠٠	سريان أرثوذكس	٢٠٠
أرمن كاثوليك	٤٢٠٠		
سريان كاثوليك	٢٣٠٠		
كلدان	٢٠٠		
مجموع الكاثوليك	١٦٢٠٠	مجموع الأرثوذكس	٢٣٠٠

وفاته

يقول تاريخ إكليروس حلب: "انتقل إلى رحمة الله كير ديمتريوس أنطاكيّ في ٩ تموز سنة ١٨٦٣، ودُفن بجانب المائدة الكبرى الشماليّة بوجود رؤساء الطوائف الكاثوليكيّين والمرسلين"[٣١٥].

وفي ٢٠ تموز ١٨٦٣[٣١٦] يكتب البطريرك إكليمنضوس بحوث إلى إكليروس حلب يعزّيه بوفاة المطران ديمتريوس. ويقول أنّهم نعوه إليه بواسطة

313- في محفوظات مطرانيّتنا سجلّ ٥ رقم ٣٩ مكرّر.

314- وثائق الأب توتل، صفحة ٨٣.

315- صفحة ١٣.

316- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٢ رقم ١٥.

الخواجا نعمةالله جبرائيل ناقوز "القائم بوكالتنا المدنيّة في مدينتكم". ويقيم الخوري يوسف حاتم نائبًا بطريركيًّا أثناء شغور الكرسيّ.
وهكذا ارتاح المطران ديمتريوس أنطاكيّ من عنائه الطويل. فكان ضحيّة مقاومته لشيعة "العابدات"، ومَن وراءهنّ من كبار عائلات حلب وإكليروس الطائفة. فأهمل ذكره، حتّى أنّنا لم نجد عنه في المطرانيّة، أو في أيّ مكان آخر، صورة نزيّن بها بحثنا هذا.

- ١٩ -
بولس حاتم
(٢٧ أيلول ١٨٦٣- ١٠ شباط ١٨٨٥)

نشأته

هو بطرس بن نعمةالله بن بطرس حاتم[٣١٧]، ووالدته سوسان بنت يوسف شبارخ. وُلد في حلب في ١٥/ ٢٧ كانون الثانيّ ١٨١١. وبعد إنهائه الدروس الابتدائيّة، جعل يدرس اللغة السريانيّة، وطفق يشارك الإكليروس المارونيّ في ترتيل الفروض الكنسيّة. فتوسّم فيه مطران الموارنة بحلب بولس آروتين خيرًا، فأراد أن يدخله مصافّ إكليروسه المارونيّ، فلم يأذن له مطرانه بذلك. فظلّ يجدّ في تحصيل ما تيسّر له من معارف. فأخذ مبادئ اللغة اللاتينيّة عن الخوري جبرائيل جوّان الملكيّ الكاثوليكيّ.
وفي غضون ذلك بلغ خبره المطران أغناطيوس عجوريّ، رئيس أساقفة زحلة، الذي كان متوليًّا إذ ذاك إدارة أبرشيّة حلب بالوكالة. فاستدعاه إليه سنة ١٨٢٨ إلى قرية زوق مكايل بغية إرساله إلى رومة. لكنّ ظروفه الصحيّة حالت دون ذلك. فاكتفى بوضعه في المدرسة الإكليريكيّة الأرمنيّة بدير بزمّار. فأكبّ هناك على درس مبادئ الفلسفة واللاهوت واللغة الإيطاليّة. وفي نهايتها، دعاه المطران أغناطيوس عجوريّ إلى خدمة أبرشيّة زحلة. فأقامه كاتم سرّه، وفوَّض إليه إرشاد الأخويّات ومراكز التعليم المسيحيّ التي كان قد أنشأها. فقام بأعبائها خير قيام، ووسّع نطاقها إلى قرى البقاع.
ورقّاه المطران أغناطيوس عجوريّ سنة ١٨٣٠ إلى درجة الشمّاس الإنجيليّ، ووكّل إليه بوجه عامّ عملَ الرسالة في قرى منطقة زحله. ولنا من

---

[317]- استعنّا في كتابة هذا البحث بمقال كتبه الايكونوموس ميخائيل شحود في مجلّة المسرّة، سنة ١٩١٤، صفحة ٦٠١- ٦١٣، بعنوان: "ترجمة المثلّث الرحمات السيّد بولس حاتم، مطران الروم الكاثوليك بحلب".

أسقفه المذكور صكّ مؤرّخ في ١٤ شباط ١٨٣٠ يأذن فيه "للأرشيدياكون" بطرس حاتم أن يقبل انضمام المؤمنين إلى أخويّة قلب يسوع[٣١٨].

الكاهن الغيور

وفي سنة ١٨٣٣ أعاده المطران أغناطيوس عجوريّ إلى أبرشيّة حلب. فعاد إليها مرافقًا الأسقف الجديد المعيّن لها، وهو المطران غريغوريوس شاهيات، ودخلها معه في ٣١ آذار سنة ١٨٣٣. ويوم الأحد الواقع في ١٨ حزيران من السنة عينها، ألقى، بحضور أسقفه المطران غريغوريوس شاهيات، أولى مواعظه في الكنيسة الكاتدرائيّة حول "ثبات الكنيسة الكاثوليكيّة وعناية الله بها".

ثمّ رقّاه المطران غريغوريوس شاهيات إلى درجة الكهنوت المقدّس في ٢٦ أيار سنة ١٨٣٥، وكان يوم أحد العنصرة، ودعاه بولس. ثمّ عيّنه كاتم أسراره. وبهذه الصفة أخذ يناهض بدعة "العابدات"، كما سردنا ذلك سابقًا.

وعندما توفي المطران غريغوريوس شاهيات سنة ١٨٤٣، وتولّى البطريرك مكسيموس مظلوم بنفسه مؤقتًا تدبير الأبرشيّة الحلبيّة، أراد أن يبطل إقامة قدّاس يوحنّا الذهبيّ الفم أيام الصوم الأربعينيّ المقدّس، تمشّيًا مع قواعد الطقس البيزنطيّ الأصليّ. فراسله الأب بولس حاتم، مبيّنًا أنّ هذا التدبير لا يناسب وضع كنيسة حلب، حتّى نال الإذن منه بإقامة قدّاس واحد فقط صباحًا، استعدادًا لقدّاس "الأقداس السابق تقديسها"، المعروفة بالبروجيازمينا.

ولمّا ارتقى المطران ديمتريوس أنطاكيّ كرسيّ أبرشيّة حلب، ولاقى ما لاقى من المعارضة، سعى الخوري بولس حاتم، فحصل من رومة على تثبيت صحّة رسامة أسقفه، بالرغم من كونه نال السيامة الأسقفيّة بوضع يد أسقف واحد مع مشاركة كاهنين.

ومن المعلوم أنّ الخوري بولس حاتم كان إذ ذاك ألمع كاهن في إكليروس حلب الروميّ الملكيّ. وقد أخلص المودّة لأسقفه المطران ديمتريوس أنطاكيّ، صديقه القديم ومؤازره في مناهضة أخويّة "العابدات"، وإنْ رفضَ دائمًا أن يصبح نائبه العامّ، لئلاّ يقول أخصامه "أنّهم لا يقبلون عليهم أسقفين"، كما جاء في رسالة بعث بها بتاريخ ٢٣ تموز سنة ١٨٤٤ إلى البطريرك مكسيموس

[318]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ١ رقم ٢٤.

مظلوم. وقد أضاف فيها أنّ أربعمئة "تلميذ" روحيّ في حلب اتّخذوه راعيًا ومرشدًا لنفوسهم.

وفي هذه الأثناء سمح له البطريرك مكسيموس مظلوم، مكافأة له على أتعابه في محاربة بدعة "العابدات"، بأن يزيّن صدره بالصليب الكريم أثناء الذبيحة الإلهيّة. فأصبح بهذه اللفتة الكريمة، وهي الأولى من نوعها في تاريخ الطائفة الملكيّة الكاثوليكيّة، "أرشمندريتًا" بالفعل دون اللقب. وكانت طائفتنا تجهل حتّى ذاك التاريخ مثل تلك الرتب الشرفيّة.

قاوم الخوري بولس حاتم بشجاعة أضاليل "أخويّة قلب يسوع"، المعروفة بأخويّة "العابدات". وقد أنجز سنة ١٨٣٩ كتابًا دعاه "دحض الأضاليل الباطشتاويّة الآتية عن ضلالات هندية"، فنَّد فيه مزاعم أصحاب تلك الأخويّة. والكتاب يشتمل على مقدّمة واثنين وأربعين رأسًا وخاتمة. وقد أظهر فيه أنّ هذه الهرطقة تسرَّبت إلى حلب من بقايا تعليم هندية عجيميّ التي فضح أمرها في لبنان سنة ١٧٧٨. وعن تعليمها الفاسد أخذت مرغريتا باطشتا، ومنها انتقلت إلى حلب. وفي الخاتمة يصف الحرم الاحتفاليّ الذي أطلق على تلك الضلالات في ٣ آب سنة ١٨٤٧ في الكنيسة الكاتدرائيّة بحضور السيّد ديمتريوس أنطاكيّ مطران حلب، والسيّد باسيليوس شاهيات مطران الفرزل، والسيّد أثناسيوس توتونجيّ مطران طرابلس. وفي ختام الاحتفال استدعاه المطران ديمتريوس أنطاكيّ وأناط بعنقه صليبًا، وعيّنه "أوّل كهنة" الأبرشيّة، مكافئًا إيّاه على ما تجشّمه من التعب في تلك النازلة. وقد ورد كذلك ثناء من البطريرك مكسيموس مظلوم.

وفي ٨ كانون الأوّل سنة ١٨٥٠ سار إلى رومة بمهمّة من قبل البطريرك مكسيموس مظلوم، وأقام فيها نحوًا من سنتين. وفي أثناء هذه المدّة درس اللغة الفرنسيّة وتعمّق في اللاتينيّة. ولمّا أتمّ ما أمر به، جال في معظم مدن إيطاليا وفرنسا. ثمّ ترك تلك البلاد، وعاد إلى حلب، فقوبل فيها بمزيد الاحترام، لأنّ الناس كانوا يتوقّعون من سياسته ما يُصلح الشؤون المرتبكة وقتئذ، لأنّ عددًا من أبناء الطائفة كان يندفع لمقاومة المطران ديمتريوس أنطاكيّ رافضًا رعايته القانونيّة. فشرَعَ الأب بولس حاتم يبذل ما في وسعه من الجهد والهمّة لاستتباب السلم وإزالة البلبلة من وسط الجماعة، إلى أن وفّق الله سبحانه وتعالى مسعاه. ولم تمضِ بضعة أيام على دخوله المدينة (في أواخر سنة ١٨٥٢) حتّى رجع المتفرّقون إلى وحدة الكلمة وإلى طاعة رئيسهم الشرعيّ.

وفي سنة ١٨٦٠ أراد الله أن يمتحن صبره، فابتلاه بحمّى شديدة، تحمّل أوجاعها مدى أربعين يومًا.

ارتقاؤه السدّة الأسقفيّة

بعد أن توفي المطران ديمتريوس أنطاكيّ في ٩ تموز سنة ١٨٦٣، وجّه البطريرك إكليمنضوس بحوث بتاريخ ١٠ آب ١٨٦٣ منشورًا إلى أبرشيّة حلب[٣١٩] يأمر فيه باجتماع اللجنة الانتخابيّة المعتادة لاختيار خلف له، برئاسة النائب البطريركيّ الخوري يوسف حاتم. واللجنة الانتخابيّة مؤلّفة من كهنة الأبرشيّة فقط، بحضور عشرين شخصًا من أرخندس الطائفة.

وفي ٢١ آب ١٨٦٣ اجتمع الكهنة للانتخاب، وكان عددهم أحد عشر كاهنًا فقط، فنال الخوري بولس حاتم سبعة أصوات من أصل أحد عشر صوتًا. فوقّع الحاضرون وثيقة الانتخاب وبعثوا بها إلى البطريرك إكليمنضوس بحوث، الذي أصدر بتاريخ ٣١ آب ١٨٦٣ منشورًا[٣٢٠] ثبّت فيه هذا الانتخاب، واستدعى المنتخب للرسامة.

فودّع الأسقف المنتخب أبناء الطائفة في ١٣ أيلول ١٨٦٣ بخطاب مؤثر بليغ، وفي ١٤ منه توجّه إلى الإسكندريّة، فركب البحر، وبلغ بيروت في ١٩ منه. وفي ٢٧ أيلول ١٨٦٣ رقاه البطريرك إكليمنضوس بحوث إلى الدرجة الأسقفيّة بمعاونة السيّد أغابيوس رياشيّ مطران بيروت، والسيّد غريغوريوس يوسف مطران عكّا، وأبقى له اسم بولس. وكانت الرسامة في كاتدرائيّة بيروت بالذات.

وبعد ثلاثة أيام، أيّ في ٣٠ أيلول ١٨٦٣، غادر بيروت وعاد إلى حلب، فدخلها في ٥ تشرين الأوّل. ونظّمت الطائفة له استقبالاً حافلاً. وهنّأه الشاعر الروميّ الملكيّ الحلبيّ الشهير فرنسيس فتح الله مراش بقصيدة عصماء بعث بها إليه من باريس بتاريخ ٢٥ تشرين الأوّل ١٨٦٣، حفظتها لنا خزائن مطرانيّتنا[٣٢١]، ونحن ننشرها هنا للمرّة الأولى، وهي بعنوان: "ثمرة البشرى ومرآة الذكرى":

ما للقلوبِ على البشائر تَخفِقُ وعلى مَ أجنحةُ الهياكلِ تُصفّقُ

[319]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٢ رقم ١١.

[320]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٢ رقم ٩.

[321]- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٢ رقم ١٩.

ولأيّ مَغْنَمَةٍ أرى كلّ الورى جُمعَت وأبوابَ التفرّق تُغلَقُ
فهل الزمانُ جَنَى جميع الناس ما كانت بهِ آمالهم تتعلّقُ
هذا لمّا الخوريُّ بولسُ صارَ في حلبٍ رئيسَ أساقفٍ إذ يلبقُ
نعمَ القضيّةُ هكذا فلذاك قد جدَّ الجميعُ بفرحةٍ لا تَعتَقُ
مَن مثلهُ أهلٌ لما أولي ومَن يحكيه فهوَ اليومَ فردٌ مُطلَقُ
كلّ الكواكب ذات إشراقٍ ولا أهلٌ لطعن الليل إلاّ الأشرقُ
فلنا الهناءُ بهِ كذلك لهُ الثَّنا أمران بينَهما الزمانُ موفّقُ
لبثَ الهدى طول المدى لمّا بدا يرعى الجُدا والغيُّ راح يُخزّقُ
بشراكَ يا عرشَ الكنيسةِ ذا العُلا إذ قد ثوى بكَ ذا الرأس الأليقُ
فعصا الرعاية افرعت بيمينهِ وسني الحجى مَن فيه أصبح يبرقُ
هذا هُوَ الراعي الذي حمل الهدى هذا هُوَ الرأسُ الذي لا يُطرقُ
هذا هُوَ الوَطرُ الذي عمَّ الورى هذا هُوَ الكنـزُ الذي لا يُنفَقُ
غنَّت بلابلة النباهة باسمهِ وبهِ لسان العلمِ أصبحَ ينطقُ
هذي عصَاكَ وذي النِعاجُ فَهُشَّ يا موسى الزمان فأنتَ وحدكَ تشفقُ
كلّ العيونِ رَنَتْ إليكَ قريرةً حتّى كأنّك بالعيون ممنطقُ
وكذا الهياكلُ والمنابرُ أوشكت تهوي للثمِ يديك وهيَ تصفقُ
لو لم تكن للفضل أثبتَ مركزٍ لم نلقَ دايرة الملا بِكَ تُحدِقُ
فخذِ التهانيّ من قطيعك واعطهِ بركاتك العظمى ففيها يرزقُ

يا أيّها الرومُ اطربوا وترنّموا إذ قامَ يرعاكم أمينٌ صيدَقُ
قولوا فحظ مؤرّخيهِ لكم بهِ بعصاك يا راعي الذئابُ تُمزَّقُ

من ملتمس بركاتكم الرسوليّة فرنسيس فتح الله مراش في ٢٥ تشرين الأوّل ١٨٦٣.

السنوات الأولى من أسقفيّته

في ١٨ أيلول ١٨٦٤ عاد المطران بولس حاتم فسافر إلى بيروت بدعوة من البطريرك إكليمنضوس بحوث، لحضور المجمع الطائفيّ في دير مار يوحنّا الشوير، وفيه استقال البطريرك بحوث عن منصبه (٢٤ أيلول ١٨٦٤)، وانتُخب بدلاً عنه البطريرك غريغوريوس يوسف (٢٩ أيلول ١٨٦٤). ولمّا انتهى المجمع، أقام قدّاسًا احتفاليًّا، وخطب فيه مثنيًا على صفات البطريرك الجديد. ووقّع أعمال المجمع بهذه العبارة فقط: "بولس متروبوليت سلوقية وحلب". وجاء توقيعه بعد توقيع مطران بيروت وجبيل، وبعد توقيع مطران صيدا ودير القمر، ولكن قبل توقيع مطران صور[٣٢٢]، ممّا يدلّ على أنّ الأساقفة ما عادوا في هذا المجمع يأخذون بعين الاعتبار أسبقيّة الكراسيّ، بل أقدميّة المطارين من حيث الرسامة الأسقفيّة. وفي ١٧ أيار سنة ١٨٦٧ سافر إلى رومة بصحبة القسّ ميخائيل مظلوم، بدعوة من البابا بيوس التاسع، للاشتراك في الاحتفال المقام لتثبيت بعض القدّيسين. وعاد إلى حلب في ٦ آب من السنة عينها.

ولمّا تشكّلت في مدينة كلّز نواة لأبناء الطائفة، سعى المطران بولس حاتم لدى بطريركه بإضافة مدينة قورش الأثريّة (قرب كلّز) إلى لائحة أبرشيّات مطران حلب، فكان له ذلك سنة ١٨٦٩، كما يخبرنا تاريخ إكليروس حلب، فيقول في حاشية له[٣٢٣]: "اعلم أنّ قدس السيّد البطريرك كير كيريو غريغوريوس يوسف في مجمع أساقفة الطائفة المنعقد منه في دمشق الشام في شهر تشرين الأوّل سنة ١٨٦٩، قبل التوجّه لرومية لأجل المجمع الفاتيكانيّ، قد أضاف أبرشيّة كلّس (أو كلّز، القريبة من قورش) لكرسيّ حلب المتروبوليتيّ، وذلك بموجب إعلام بطريركيّ محفوظ في القلاّية بحلب"، لم نعثر عليه حتّى الآن.

---

[322] MANSI, t. 46, col. 1186- 1184.

[323]- صفحة ١٤.

الاشتراك في المجمع الفاتيكانيّ الأوّل

في ١٤ أيلول ١٨٦٩ كتب البطريرك غريغوريوس يوسف إلى جميع أساقفة الطائفة[٣٢٤] يدعوهم إلى الاجتماع به في دمشق يوم ٣٠ أيلول للتداول معه في أمور المجمع الفاتيكانيّ الأوّل المنويّ عقده.

وأنّ المطران بولس حاتم، استعدادًا لهذا المجمع، أصدر بتاريخ ١٢ أيلول ١٨٦٩ منشورًا راعويًّا، شرح فيه لأبناء أبرشيّته أهميّة انعقاد المجمع، وطلب منهم رفع الصلوات من أجل نجاحه.

غادر المطران بولس حاتم حلب، واشترك فعلاً مع سائر أساقفة الطائفة، وعددهم ثمانية، في اجتماع تمهيديّ عُقد في ٣٠ أيلول ١٨٦٩. ثمّ غادر ستّة منهم دمشق في ١٧ تشرين الأوّل ١٨٦٩، متوجّهين إلى بيروت حيث أبحروا في ٢٦ منه. فبلغوا أنكونا من أعمال إيطاليا في ٧ تشرين الثانيّ. وفي اليوم التاليّ توجّهوا بالقطار إلى رومة، حيث حلّوا بادئ بدء في دير الآباء اللعازريّين، ومنه نُقلوا بعد خمسة أيام إلى دير القدّيس خريسغونس. وكان المطران بولس حاتم مع هذا الفوج الأوّل.

واتّخذ المطران بولس حاتم مقعدًا في المجمع الفاتيكانيّ بين رؤساء الأساقفة، وكان مقعده يحمل الرقم ١١٦. وقد عقدت الجلسة العلنيّة الأولى في ٨ كانون الأوّل ١٨٦٩، وهي جلسة الافتتاح. وفي ٦ كانون الثانيّ ١٨٧٠ عُقدت الجلسة الثانية، وفيها تُلي قانون الإيمان وأقسم آباء المجمع على حفظه. وفي ٢٤ نيسان ١٨٧٠ عُقدت الجلسة الثالثة، وفيها أُطلقَ الحرم على مَن يُنكر وجود الله، ومَن يُنكر أنّ الله خلق العالم، ومَن يقول أنّ الله خلق المخلوقات اضطرارًا. وفي الجلسة الرابعة والأخيرة، المعقودة في ١٨ تموز ١٨٧٠، تحدّدت عصمة الحبر الرومانيّ عندما يُعلن رسميًّا قضايا الإيمان. لكنّ المطران بولس حاتم، مع بطريركه وسائر أساقفة الطائفة، كان قد غادر رومة قبل ذلك، وعاد إلى الشرق، حيث بلغ حلب في غضون شهر أيار ١٨٧٠[٣٢٥].

324- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٢ رقم ٢٨.

325 Cfr. J. NASRALLAH, Mgr Grégoire ‘Ata et le Concile du Vatican, dans Notes et Documents pour servir à l’histoire du patriarcat melchite d’Antioche, t. I, Jérusalem 1965, p. 37- 38.

راجع أيضًا مقال الأب فائز فريجات المخلّصيّ في مجلّة "الوحدة في الإيمان"، سنة ١٩٧٠، صفحة ٩٤- ١٣٩: "الكنيسة الملكيّة والمجمع الفاتيكانيّ الأوّل".

ونحن نعلم أنّ موقف المطران بولس حاتم، في جلسات المجمع الفاتيكانيّ، لم يختلف عن موقف بطريركه غريغوريوس يوسف، وكان معارضًا بعض المعارضة لا لتحديد عصمة البابا بحدّ ذاتها، بل لمناسبة توقيت ذاك التحديد، نظرًا لموقف الكنائس الأرثوذكسيّة منه.

وفي أثناء انعقاد المجمع الفاتيكانيّ، إذ كان المطران بولس في رومة، يقول المطران غريغوريوس عطا في كتابه "مختصر حوض الجداول"[٣٢٦] أنّه "حصلت بلبلة من بعض أشخاص في حلب على أحد كهنة حلب المرتسم من كير ديمتريوس (أنطاكيّ)، وأنّ رسامته غير صحيحة لأنّ كير ديمتريوس ارتسم من أسقف واحد، وهو المطران مكاريوس سمّان. فحينئذ مطارنة طائفتنا الثمانية الذين كانوا برومية عملوا شرحًا على سؤال من كير بولس بهذا الخصوص، وبه أثبتوا رسامة المرحوم كير ديمتريوس أنّها صحيحة... وقد سجّل هذا الإثبات غبطة بطريركنا كيريوس غريغوريوس يوسف".

الاعتراف للطائفة بالمقام الأوّل في حلب

في أوائل سنة ١٨٦٥ نرى ثريا باشا، واليّ حلب، يعترف لطائفة الروم الكاثوليك بحقّ التقدّم على سائر الطوائف المسيحيّة في حلب. وبتاريخ ٢٢ آذار ١٨٦٥[٣٢٧] يكتب له البطريرك غريغوريوس يوسف يشكره لإعطائه المطران بولس حاتم "التقدّم بموجب القانون العاليّ على أمثاله لأكثريّة الملّة"، فيقول: "وأمّا الجمهور الذي على وجه الخصوص قد استغرقته فيوضاتكم المشيريّة، ونال من لدنكم الساميّ مزيد الالتفات ولطف العناية، فهو لحسن حظّ هذا الراعيّ، أبناء طائفتي الروم الملكيّة الكاثوليكيّة، المتمكّنين ضمن حدود ولايتكم الجليلة، ولاسيّما في المركز الوقور، مدينة حلب الشهباء، الذين مع حضرة أخينا العزيز بولس أفنديّ الميتروبوليت المحترم قد أنهوا لهذا العاجز عن حقائق اقتسامهم غنائم بليغ المحنونيّة وخالص التشكّرات لعناية دولتكم السامية، وأفضال ألطافكم البهيّة، وذلك بواسطة بعض متقدّميهم، لاسيّما بواسطة حضرة الميتروبوليت المومى إليه، الذي بحسن موالاة قد أبان لنا بلسان جمهورهم وعن نفسه كيفيّة مديونيّتهم بالممنونيّة القلبيّة لإجراءاتكم الفضلى، وحسن التفاتكم لجهّتهم، وتلطيفاتكم بالأفنديّ المومى إليه، وإعطائكم إيّاه التقدّم بموجب القانون العاليّ على أمثاله لأكثريّة الملّة...".

326- عن النسخة المخطوطة المحفوظة في مطرانيّتنا، صفحة ١٠٥.

327- محفوظات مطرانيّتنا، سجلّ ٢ رقم ٢٥.

وقد أجاب الواليّ ثريا باشا عن حلب في ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٨١ هـ، قائلاً للبطريرك: "أنّي والله اعتقدتُ نفسي دون ما كان من الأطناب. فقد وجدتُ حسن نفسكم هي المشوّقة لهذا الإسهاب. فأخذت منه غاية، هي حسن تبصّركم لقلبي، فكانت من السرور حسبي. ولذلك أقدم لديكم كمال الممنونيّة مع وافر الاحترام الذاتيّ. وبناء عليه بادرتُ لترقيم رقيمة الجواب. ودمتم...".

ثمّ بادر البطريرك إلى تحرير كتاب للصدر الأعظم نفسه، بتاريخ ٢٧ نيسان سنة ١٨٦٥، يثني فيه على بادرة الواليّ مصطفى ثريا باشا، ويطنب في مدحه فيقول عنه أنّه اعتنى على الخصوص "في راحة واستراحة ورفاهة وأمنيّة صفوف الأهالي بلا استثناء، سواء أكان في مواد الغذاء، بتعديل الأسعار وإيجاد أضعاف الموادّ المذكورة، وتقرير التسهيلات الكافية، وإبادة الجراد الذي كان سيوعد الخلق بإبادة الحنطة، أو في إعطائه الراحة للفقراء، واهتمامه كأب في مؤاساتهم بالحُسنى، أو في ترهيب الأشقياء وتأمين أهل العرض، وتطويع العُربان الطائفة في تلك الصحارى المحيطة بالولاية، واستجلاب العصاة منهم لأمنيّة القرايا والطرقات، حتّى غدت داخليّة وخارجيّة هذه الأيالة، الواسعة الأرجاء، الوفيرة السكان، هادئة منتظمة، مطمئنّة مخصبة، رغيدة العيش، موفّقة التجارة...".

جوقة التراتيل

كان المطران بولس حاتم مولعًا بالطقوس الكنسيّة والتراتيل الدينيّة. ولهذه الغاية ألّف جوقة بيزنطيّة عهد بإدارتها إلى جرجس فتح الله اليان، فعيّنه مدرّسًا للغة اليونانيّة وللموسيقى الكنسيّة البيزنطيّة المعروفة بالبصلتيكا. فقام بهذه المهمّة خير قيام، وألّف باللغة العربيّة كتاب قواعد البصلتيكا، ثمّ أردفه بمجموعة ضخمة من التراتيل الكنسيّة مضبوطة بعلامات البصلتيكا اليونانيّة، سمّاها "كتاب اقتطاف لوازم البصلتيكا"، وقد عُني بطبعه "على الحجر". وقد وردت في مقدّمته لائحة المعنيّين بالبصلتيكا في حلب في ذاك العهد، ممّن اقتنوا نسخة من الكتاب المذكور "بوقت طبعه، وهم من الصنعة المذكورة". وهذه أسماؤهم: المطران بولس حاتم، الأب جبرائيل صائغ، الأب بطرس ججه، الشمّاس روفائيل رباط، نعّوم الياس ميخائيل توتونجيّ، نعّوم الياس توتونجيّ، ميخائيل يوسف رباط، الياس أنطوان عبجيّ، رزق الله نعّوم زلعوم، حبيب حنّا صائغ، ميخائيل يوسف شعراويّ، جرجي حدّاد، جرجي كتر، خليل عبدالله كنيفاتيّ، يوسف الياس رباط، جرجي نصري زلط، رزق الله نصريّ

عزيزة، جرجي نعّوم سالم، جرجي نعّوم شاشاتيّ، عبدالله يوسف خرّاق، باسيل يوسف شمّاس، فتح الله شكري قسنصرالله، جبرائيل يوسف شرقيّ، الياس نعّوم قندلفت، رزق الله نصري ناصر، جرجي عبدالله جلاّد، متري ميخائيل حاتم.

وجدير بالذكر أنّ أكثر القطع الواردة في هذه المجموعة منقولة عن كتب يونانيّة مماثلة، ما خلا بعض ابتكارات للمعلّم جرجس اليان، نذكر منها مثلاً "طبطيخة (أيّ ذبتيخا) الأسقف، ربط الحقير جرجس اليان، على اسم قدس السيّد الجليل كير وكير بولس حاتم الجزيل الاحترام" (صفحة ١٢)، و"بواجب الاستئهال، على هوا الطونا، ربط الحقير جرجس اليان" (صفحة ٤١)، والطونا كما هو معروف ليس سوى نهر الدانوب، و"هوا الطونا" قد يكون لحنًا تركيًّا غريبًا طبّقه جرجس اليان على ترتيلة كنسيّة بيزنطيّة. وكذلك ترتيلة "سيّدنا ورئيس كهنتنا"، "على هوا الموزيكه، ربط الحقير جرجس اليان" (صفحة ٧٦)، ممّا يجعلنا نعتقد أنّه قامت في مدرسة الروم إذ ذاك، إلى جانب جوقة التراتيل، فرقة تضمّ عازفين على الآلات الموسيقيّة. وكذلك "بوليخرونيون" لمطران حلب، وفيه ألقابه الثلاثة: متروبوليت حلب وسلوقية وقورش، "بربط الحقير جرجس اليان" (صفحة ٣٧٥).

وأنّ القطعة الوحيدة التي وجدناها في هذه المجموعة باللغة العربيّة هي "صلاة للعذراء مريم" (صفحة ٥٥٠). ولعلّها أقدم أنشودة عربيّة ضبطت بالعلامات الموسيقيّة اليونانيّة.

مؤلّفاته

١) "دحض الأضاليل الباطشتاويّة الآتية عن ضلالات تعاليم هندية". وضعه سنة ١٨٣٩. وفيه يفنّد أضاليل أخويّة عابدات قلب يسوع في حلب. ومنه نسخة في مكتبة مطرانيّتنا وفي المكتبة المارونيّة بحلب.

٢) له من الخطب نحو ثلاثة آلاف خطبة، جمع بعضهم بعضًا منها في مجلّدين بغية نشرها. لكنّها لم تُنشَر.

مآثره وخصاله

١) الوعظ، وكان فيه بليغًا. فكان يعظ كلّ يوم أحد وعيد بعد الإنجيل المقدّس في القدّاس الكبير الذي يقيمه لأجل الرعيّة في الكنيسة الكاتدرائيّة صباحًا، ومساء الآحاد في الكنيسة الكاتدرائيّة وكنيسة القدّيس جاورجيوس مناوبة بعد

صلاة الغروب. وكان يعظ خصوصًا على أعضاء أخويّة القربان. ويقال أنّه في السنين الثلاثة الأخيرة من حياته كان يفتتح جميع العظات التي يلقيها على أعضاء أخويّة القربان بهذه الآية من نشيد الأناشيد: "أدخلني إلى خزانة خمره ورتّب عليّ المحبّة".

٢) تثقيف المرشّحين للكهنوت في دار المطرانيّة. فكان شديدًا في تربيتهم.

٣) إنشاء مكتبة لا بأس بها في المطرانيّة. وكان يتقن العربيّة واليونانيّة واللاتينيّة والإيطاليّة والفرنسيّة.

٤) تنظيم الحفلات البيعيّة وإنشاء مدرسة لتعليم البصلتيكا، كانت تجتمع مرّة في الأسبوع في داره.

٥) المواظبة على تلاوة الفرض الإلهيّ مساء كلّ يوم في الكنيسة الكاتدرائيّة.

٦) كان زاهدًا في لباسه. يُحكى أنّ بعض الوجهاء أتوه مرّة وألحّوا عليه بلبس أثواب فاخرة. فلم يقبل. فقالوا له: أنت مطران الروم، فيجب أن يكون لباسك ملائمًا لمنـزلتك. فأجابهم: أنا قبل كلّ شيء راع، والراعي له العباءة والعصا. ثمّ أردف مشيرًا إلى ثوبه الخشن وإلى عكّازه: فهذه عباءتي وهذه عصاي.

٧) وكان غيورًا على مصالح المسيحيّين، ولاسيّما على الفقراء والبائسين منهم. ولمّا أتت إليه الحكومة تطلب سجلّ أسماء أولاد الطائفة لأجل جمع بدلات العسكريّة، رفض إعطاءه، لعلمه بما كان يلحق الشعب من مظالم في ذاك العهد. ولمّا ألحّوا عليه كثيرًا في طلبه أجابهم بشدّة: "أنا المطران وأنا الشعب. فإن شئتم فأحبسوني. أمّا السجلّ فلا أسلّمه". ثمّ تناول عكّازه وهمّ بالخروج. فلاطفوه وتركوه وشأنه.

٨) وكان شديد المحافظة على مركزه. يُحكى عن ثريا باشا والي حلب أنّه ردّ الزيارة له، لكن من بعد أن زار سائر الأساقفة خلافًا للعوائد المرعيّة من عهد بعيد. فلم يقبله المطران ولم يرد مواجهته. فاغتاظ الواليّ جدًّا، وفاوض في ذلك الأستانة تلغرافيًّا، محتجًّا على الإهانة التي ألمّت به. فكان جواب الباب العاليّ أن يعمل "المطران أفنديّ" ترضية في زيارة رسميّة له. وهكذا كان.

مرضه الأخير ووفاته

أُصيب المطران حاتم في آخر حياته "بمرض الملوك". فاحتمل عذابه نحو عشر سنين، خافيًا الكمد ومظهرًا الجلد، إلى أن لزم الفراش أخيرًا نحو ثلاثة

عشر شهرًا. وفي أثناء ذلك بُليَ بقرحة في ظهره أمست هي القاضية عليه. فانتقل إلى جوار ربّه في ١٠ شباط سنة ١٨٨٥. واحتفل بجنازته في اليوم التاليّ، ودُفن إلى يسار الهيكل الكبير في الكنيسة الكاتدرائيّة.

- ٢٠ -
كيرلّس جحا
(٣ أيار ١٨٨٥- ٢٨ حزيران ١٩٠٢)

نشأته

هو سمعان بن حنّا جحا وكاترين بيطار.

وُلد في حلب في ١٦/ ٢٨ تشرين الأوّل سنة ١٨٤٠. تعلّم في صباه العربيّة والافرنسيّة والتركيّة. وقد درس في حلب العلوم الفلسفيّة واللاهوتيّة على يد المطران أثناسيوس توتونجيّ، مطران طرابلس المتقاعد، تلميذ البروباغنده في رومة، وكان قد فتح في بيته مدرسة شبه إكليريكيّة لإفادة الشبّان عمومًا، والمرشّحين للكهنوت خصوصًا.

وسمع به المطران ديمتريوس أنطاكيّ، فقرَّ به منه، وأسند إليه بعض شؤون الطائفة الزمنيّة. ثمّ رسمه شمّاسًا إنجيليًّا في ٢ شباط سنة ١٨٦١، وبدّل اسمه من سمعان إلى بطرس، وكلّفه على وجه الخصوص بأعمال ترميم الكنيسة الكاتدرائيّة التي كان قد أحرقها الثوّار في ما يُعرف "بقومة البلد" سنة ١٨٥٠.[٣٢٨]

وفي ٢٩ أيلول سنة ١٨٦٤ عقد أساقفة الطائفة في دير القدّيس يوحنّا الصابغ مجمعًا انتخبوا فيه غريغوريوس يوسف بطريركًا على الطائفة بدلاً من البطريرك المستقيل إكليمنضوس بحوث. فحضر هذا المجمع المطران بولس حاتم، واصطحب معه الشمّاس بطرس جحا كاتمًا لأسراره، ووكيلاً عن المطران أثناسيوس توتونجيّ، مطران طرابلس المتقاعد.

ويوم أحد حاملات الطيب الموافق ٣٠ نيسان ١٨٦٥، رقّاه المطران بولس حاتم إلى درجة الكهنوت المقدّس. وكلّفه خصّيصًا بالاتصالات مع الدوائر الحكوميّة، فوثّق علاقاته خصوصًا مع واليّ حلب كامل باشا.

---

[328]- ولعلّه ذا الفضل الأكبر في بناء الايقونسطانس الرخاميّ الجميل في الكنيسة الكاتدرائيّة، وهو من صنع أحد النحّاتين الحلبيّين الماهرين من بيت فستوق.

وفي ١٠ أيار سنة ١٨٧٤ رسمه المطران بولس حاتم "خوريًّا"، وصرّفه على إحدى الرعايا في حلب.

ولمّا توفي المطران بولس حاتم في ١٠ شباط سنة ١٨٨٥، تعيّن الخوري بطرس جحا نائبًا بطريركيًّا إلى أن يتمّ انتخاب خلف للمطران المتوفّى.

ارتقاؤه الأسقفيّة

ولم يدم شغور كرسيّ حلب أكثر من فترة الحداد المعتادة، أيّ أربعين يومًا، تمّ على أثرها انتخاب الخوري بطرس جحا مطرانًا على حلب بإجماع الأصوات ما عدا صوتًا واحدًا، هو صوته.

هذا وقد ترك لنا بخطّ يده، في "تاريخ إكليروس حلب"[٣٢٩]، سرد هذا الحادث، فقال: "أنّه في اليوم ٢٥ من شهر آذار لسنة ١٨٨٥، تمّ انتخابنا، رغم عدم الاستئهال، نحن الحقير في الميتروبوليّتين كيرلّس جحا، من جمهور الإكليروس في الكنيسة الكاتدرائيّة، حيث كان قابلاً القرعة السريّة القانونيّة السيّد غريغوريوس، مطران الأرمن الكاثوليك. فصادفنا اثنا عشر صوتًا من ثلاثة عشر صوت المنتخبين. ونحبّ إتمام الانتخاب القانونيّ هذا، دوّت الكنيسة بأصوات البهجة داخلاً وخارجًا. هذا وقد دُعينا من غبطة البطريرك كيريوس كيريوس غريغوريوس (يوسف) الكلّيّ الطوبى إلى بيروت، حيث كان سفرنا إليها في ٢٤ نيسان سنة ١٨٨٥. فبلغنا مدينة بيروت هذه في ٣٠ نيسان من السنة نفسها، ثمّ في ١ أيار سافرنا منها عن إرادة طوباويّته إلى دير القدّيس جاورجيوس الشير. وفي ٣ أيار من السنة عينها قبلنا الشرطونيّة الأسقفيّة من يد طوباويّته، بمشاركة أخوينا السيّدين الجزيلي الشرف والحرمة كيريوس ملاتيوس (فكاك) مطران بيروت وجبيل، وكيريوس أثناسيوس (ناصر) مطران قلاّية أورشليم والنائب البطريركيّ على القطر المصريّ، في كنيسة دير القدّيس جاورجيوس العامر. ثمّ في ٢٢ حزيران من السنة نفسها دخلنا الشهباء، مركز أبرشيّتنا، بحفلة لم يسبق لها مثيل... وقد تبدَّل اسمنا من بطرس إلى كيرلّس في الشيرطونيّة الأسقفيّة..."

هذا وقد أرسل الباشا جوادًا مطهمًا، فركبه المطران عند دخوله البلد، وعزفت له موسيقى البلد مع موسيقى الآباء الفرنسيسكان.

---

[329]- صفحة ١٦ (وهو من محفوظات مطرانيّتنا بحلب).

يقول الأب فردينان توتل في وثائقه التاريخيّة عن حلب (الجزء الرابع، صفحة ٢١) عن المطران جحا، الذي عرفه في صباه، أنّه "استحقّ لقبه بالمجيد بما كان عليه من صبغة العظمة والمجد، إذا ما سار منتصب القامة، ولحيته البيضاء تزيده هيبة تحت القلنسوة واللاطية السوداء، وصدره مرصّع بالصليب والأيقونة والنياشين. زار السلطان عبد الحميد في قصر يلدز، فدخل عليه وهو لابس الثياب البيزنطيّة الفاخرة الملوكيّة، فانذهل الباديشاه لمرآه وسأل: ما الخبر؟- فأجاب متروبوليت حلب: أنّي ارتديتُ الحلّة التي أوقف فيها عند المذبح للصلاة أمام الله! وأنا أقف أمام سلطاننا ممثّل الله على الأرض، وأدعو لكم!".

وفعلاً رفع المطران جحا الدعاء رسميًّا في الكنيسة للسلطان، بحضور ترجمان الواليّ. ورأى أحد الكهنة منتصبًا في كرسيّ الكهنة ولم ينـزل عنه وقت الدعاء، فانتهره علنًا ووبّخه.

وكان صارمًا في اختيار رجال الإكليروس، فلا يضع يده على أحدهم إلاّ بعد اختبار طويل، ومنهم مَن بقي شمّاسًا في خدمة المطران سنوات طويلة يتشوّق إلى الكهنوت دون أن يناله.

وجاءه يومًا القسّ جرجس منش المارونيّ، فأنشده قصيدة مديح في يوم عيده. وكان يقرأ القصيدة وارد أن يمزّقها تباعًا كلّما أنهى بيتًا منها. وفي الختام قال: لستُ أرى سواك أهلاً لها، فلن يسمعها من بعدك سواك. فنادى به المطران: لا تمزّق هذا الأثر الكريم، فهو منك أغلى من أن يتلف لساعته!

مدرسة القدّيس نقولاوس الأسقفيّة

ما استقرّ المقام بالمطران جحا حتّى رأى حاجة أبناء طائفته إلى مدارس. وكان للطائفة إذ ذاك مدرستان ابتدائيّتان فقط: الواحدة في حيّ الصليبه (بجوار الكنيسة الكاتدرائيّة)، والأخرى في حيّ الشرعاسوس (بجوار كنيسة القدّيس جاورجيوس). فسعى فورًا بتحسين هاتين المدرستين وتوسيعهما وتشييد غيرهما، بحيث لم ينته العام الأوّل لأسقفيّته إلاّ وأصبح للطائفة خمس مدارس ابتدائيّة: ثلاثة للذكور في الصليبه والشرعاسوس والقبب، واثنتان للإناث في الصليبه والشرعسوس، عدا الكتاتيب، أيّ مراكز التعليم المسيحيّ، التي أقامها في كلّ حيّ من الأحياء المسيحيّة. فبلغ عدد التلاميذ في تلك المدارس الابتدائيّة ما يقرب الألف والخمسمائة.

إلاّ أنّه رأى أنّه لا بدّ للطائفة من مدرسة أسقفيّة كبرى، فتبرّع آل الحمصيّ الكرام بإحدى دورهم الكبرى في حيّ الصليبه لهذه الغاية. فصرف المطران جحا على تحويلها إلى مدرسة وتجهيزها بالأثاث اللائق ما يقارب أربعة آلاف جنيه مصريّ. وهكذا تأسّست "مدرسة القدّيس نقولاوس الأسقفيّة بحلب" في شهر آذار سنة ١٨٨٦.

وإليك حجّة تأسيس ذلك المعهد منقوشة في لوحة محفوظة إلى يومنا في صدر إيوانه: "لبّى دعوة الفضل والغيرة ذوو الآثار المأثورة الخواجات رزق الله وبطرس وجرجي أولاد المرحوم المقدسيّ نعمةالله حمصيّ، فجعلوا هذه الدار وقفًا على مدرسة الطائفة الروميّة الملكيّة الكاثوليكيّة، استدرار غيث الرضوان والرحمة على نفس أخيهم المرحوم ميخائيل نعمةالله حمصيّ. وتاريخ الوقف في عهد سيادة مؤسّس المدرسة المتروبوليت كيرلّس جحا الكلّيّ الشرف والجزيل الحرمة، الدائب بإذاعة العرفان والآداب بين خرافه بكلّ مسعى مشكور وعمل مبرور. في ٦ كانون الأوّل سنة ١٨٨٦".

كانت حفلة المناولة الأولى تُقام في المدرسة كلّ سنة في ٦ كانون الأوّل، في عيد القدّيس نقولاوس شفيع المدرسة. وفي عيد القدّيس كيرلّس، شفيع المطران، كان طلاب المدرسة يتوجّهون ببزّاتهم الرسميّة إلى دار المطرانيّة لتهنئة راعيهم ومؤسّس مدرستهم. "وكان لكلّ صفّ من صفوف المدرسة ممثّل يدخل بدوره على المطران، ويقرأ خطاب التهنئة والدعاء والمديح شعرًا ونثرًا... وكان المطران كيرلّس جحا كريمًا حنونًا فخورًا بمدرسته"، يتولّى بنفسه قراءة العلامات وتوزيع الأوسمة على المتفوّقين.

في أواخر سنة ١٨٨٦ زار المطران جحا فرنسا. وخلال إقامته فيها ابتاع لمدرسته الأسقفيّة المحبوبة آلات الموسيقى النحاسيّة مع وسائل إيضاح مختلفة.

سنة ١٨٩٥ كان عدد التلاميذ في المدرسة الأسقفيّة ١٤٤، وعدد المعلّمين ٩، منهم السيّد أندره بوس، وكان من أخوة المدارس المسيحيّة، ثمّ تركهم وعرض خدماته على المطران جحا، فعهد إليه بالمناظرة العموميّة وبتعليم الصفّ الأوّل الافرنسيّ. وكذلك الأب كورنفو الافرنسيّ. وفي تشرين الأوّل سنة ١٨٩٩ انضمّ إليهما الأخوة الماريانيت ميرك وشازو وغاندا. إلاّ أنّ إقامة الأخوة الماريانيت في حلب لم تطل، فتركوا المدرسة وعادوا إلى فرنسا بعد أربع سنوات من التعليم. وعلى قصر مدّة إقامتهم في حلب، فقد أنجبوا تلامذة ممتازين في عالم الدنيا والدين، منهم جوستان شعراويّ محافظ زحلة، وجوردان عبجيّ، والمطران إيزيدورس فتّال، والخوري بطرس سابا،

والاكسرخوس إيلاريون عبجيّ، والخوري جبرائيل رباط. ولعلّ مغادرة الأخوة الماريانيت حلب كانت بسبب ارتقاء المطران جحا السدّة البطريركيّة سنة ١٩٠٢ ومغادرته حلب.

ومن المعلوم أنّ المطران مكاريوس سابا سنة ١٩١٩ دعا إلى المدرسة الأسقفيّة بدلاً منهم الأخوة الماريست، كما كان قد فعل قبله المطران أوغسطينوس صائغ، رئيس أساقفة حلب للأرمن الكاثوليك. ثمّ ما عتّم الأخوة الماريانيت أن استقلّوا عن الأرمن والروم، وفتحوا مدرسة خاصّة بهم في بناية جميلة أشادوها في حيّ السبيل وراء الخطّ الحديديّ، ثمّ باعوها لمؤسّسة جورج ومتيلد سالم الخيريّة، وانتقلوا إلى بناء آخر هو ملك الدولة الفرنسيّة.

مآثره في الأسقفيّة

في أواخر سنة ١٨٨٦ دعا البطريرك غريغوريوس يوسف المطران جحا لكي يرافقه، مع وفد من الأساقفة والكهنة، لتقديم التهانيّ للبابا لاون الثالث عشر بمناسبة يوبيله الأسقفيّ الفضّيّ. فانطلق إلى رومة ومعه تاج فاخر مرصّع باللؤلؤ والجواهر الكريمة، قدّمه هديّة لقداسة البابا باسم الأبرشيّة الحلبيّة. وقد بلغ رومة في ٢٧ تشرين الأوّل ١٨٨٦.

ومن روما اجتاز إلى فرنسا، حيث استقبلته الحكومة الفرنسيّة رسميًّا، وتناول طعام الغداء على مائدة رئيس الجمهوريّة، وأعطي وسامَ "جوقة الشرف"، وتقرّر منحه ٢٥٠ بينتو تدفعها الحكومة الفرنسيّة إعانة سنويّة للمدرسة الأسقفيّة الكبرى بحلب. وفي خلال إقامته بفرنسا اشترى لمطرانيّته مطبعة حديثة وبعث بها إلى حلب.

ومن فرنسا دعاه البطريرك إلى الأستانة. فانطلق إليها. وكان إذ ذاك في مقام الصدارة صديقه القديم كامل باشا، والي حلب الأسبق. فعرّفه بكثيرين من الوزراء وأعيان الدولة، وقدّمه للعتبة السلطانيّة أكثر من مرّة. فأنعمت عليه بالوسام المجيديّ من الطبقة الثانية. ثمّ ظفر بمقابلة السلطان بالذات، الذي زيّن صدره بالوسام العثمانيّ من الطبقة الثانية.

ثمّ عاد من هناك بصحبة بطريركه إلى حلب سنة ١٨٨٧. وقد أبدع في استقبال بطريركه والاحتفاء به.

الراعيّ الوقور

هذا وقد حفظت لنا سجلات المطرانيّة بحلب وثائق شيّقة عن أسقفيّة هذا الراعيّ الوقور. منها قصيدة تهاني طيّبة من القسّ ثاوفانوس بدويّ، الرئيس العامّ للرهبانيّة الباسيليّة الحلبيّة. وقصيدة تهاني أخرى من الشاعر الحلبيّ جرجس مكربنه، مطلعها:

لعُمركَ ما كلُّ امرئٍ يُدركُ الفخرا ولا مَن أرادَ العِزَّ كان بهِ أحرى

ولا كلُّ مَن يعلو الجوادَ بفارسٍ ولا كلُّ مَن لاقى العدا يكسبُ النصرا

ومنها أيضًا رسائله الراعويّة التي كان يصدرها كلّ سنة، ابتداء من سنة ١٨٨٥. ومعظمها حثّ للأهلين على تربية أولادهم تربية صالحة، وعلى إرسالهم إلى مراكز التعليم المسيحيّ التي بدأت الطوائف تفتحها في مختلف أحياء المدينة. وكان المطران جحا يصدر رسائله كلّ سنة في افتتاح التفقّد الراعويّ بعد عيد الفصح.

وقد امتاز المطران جحا بولائه للكرسيّ الرومانيّ، الذي كان يوليه بدوره تمام الثقة. كما امتاز بحبّه لرعيّته، ووقار عيشه، وجلال طلعته، واعتزازه بأبنائه الحلبيّين. فيقول مثلاً في رسالته المؤرّخة في ٨ كانون الأوّل سنة ١٨٨٧، واصفًا زيارته الخاصّة للبابا لاون الثالث عشر: "في اليوم الثامن عشر من الشهر نفسه (تشرين الثانيّ سنة ١٨٨٦) حظينا تشرّفًا بالمثول لدى عرش قداسته مرّة ثانية لوحدنا، على نوع خاصّ، باسم أبرشيّتنا الحلبيّة العزيزة. وبعد أن أكملنا فروض انتمائنا لقداسته بعاطفة الخضوع والحبّ، نشرنا آيات الإجلال والثناء عليكم، أيّها الأبناء الأعزّاء بالمسيح، معترفين إزاء عرشه الأقدس بفضل تديّنكم وشديد تمسّككم بالسدّة الرسوليّة، بحيث فقتم من سواكم بالمحافظة على الوحدة مع الكنيسة الرومانيّة المقدّسة، إذ وقفتم وقفة الأبطال بجأش ثابت في موقف الدفاع، بين تقلّبات أدوار الاضطهادات الطويلة القاسية، باذلين لذلك النفس والنفيس. وقد كلّل الله جهادكم بالفخار، لأنّكم حفظتم وديعة الإيمان نقيّة طاهرة غير منثلمة..."

وفي سنة ١٨٩٥ كثر عدد أبناء الطائفة في قصبة عينتاب، وكان الآباء الفرنسيسكان يُعنون بهم روحيًّا. فأراد المطران جحا أن يرسل إليهم القسّ ميخائيل شحود ليتفقّدهم ويثبّتهم في طقسهم الشرقيّ، حسب رغبة البابا لاون الثالث عشر، ثمّ حالت الظروف دون تحقيق هذه الأمنية.

تأسيس الجمعيّة الخيريّة

سنة ١٨٩٩ أسّس المطران كيرلّس جحا الجمعيّة الخيريّة لطائفته بحلب. وكان أوّل رئيس لها المرحوم فتح الله أنطاكيّ. ودُعيت بادئ بدء "الجنة الرحمة". واختير شفيعًا لها القدّيس يوحنّا الرحيم، بطريرك الإسكندريّة الملكيّ في أوائل القرن السابع للميلاد. ووضع لها قانون مختصر. وفي سنة ١٩٠٠ أصدرت الجمعيّة أوّل بيان لها، ونشرت في مقدّمته ذلك القانون. وكان أكبر مجموع يتبرّع به المحسنون في السنوات الأولى من تأسيس الجمعيّة أثناء اللمّة السنويّة مجيديًا، أيّ ما يعادل خمس ليرات عثمانيّة ونصفًا ذهبًا.

نحو المنصب البطريركيّ

عندما شعر البطريرك غريغوريوس يوسف بدنوّ أجله، أرسل فاستدعى صديقه المطران جحا ليعهد إليه بشؤون البطريركيّة ويوصيه بأمر الرعيّة. فغادر المطران جحا حلب على جناح السرعة، ولكنّه ما أن بلغ الإسكندرونة حتّى نعى البرق وفاة البطريرك غريغوريوس يوسف في دمشق في ١٣ تموز ١٨٩٧، فوصل إلى دمشق بعد وفاة البطريرك.

وفي ٢٧ تموز ١٨٩٨ عيّنت روما المطران جحا قائمقامًا بطريركيًّا. وصادقت الحكومة العثمانيّة على تعيينه. وتبلبلت الأوضاع وتعرقل انتخاب بطريرك جديد، إلى أن استطاع أن يدعو إلى مجمع عُقد في دير المخلّص بصربا من ١٠ إلى ٢٤ شباط سنة ١٨٩٨، انتخب فيه بطرس الرابع جريجيري بطريركًا. وقد وقّع المطران جحا بهذه العبارة: "كيرلّس جحا رئيس أساقفة حلب وسلوقية وقورش"[٣٣٠]. وجاء توقيعه بعد توقيع مطران صيدا ودير القمر، وتوقيع وكيل مطران حمص، لكن قبل توقيع المطارين الآخرين، وفقًا لأقدميّة الرسامة الأسقفيّة.

وفي أواخر آذار من السنة عينها ١٨٩٨ سافر المطران جحا إلى القدس لزيارة الأماكن المقدّسة.

ثمّ سافر إلى رومة بدعوة من الكرسيّ الرسوليّ، الذي أبدى نحوه كلّ عطف وتقدير، واستمع إلى تقريره عن حالة الطائفة. ومن رومة عاد إلى حلب، ولم يغادرها حتّى أواخر تشرين الأوّل سنة ١٩٠١، حيث ذهب إلى لبنان بانتظار انعقاد المجمع الملّي الذي كان يتوقّع عقده في غضون سنة ١٩٠١، بعد عيد الفصح. وبقي طويلاً في لبنان، في دير المخلّص بصربا، لأنّ المجمع تأخّر

---

330 MANSI, t. 46, col. 1202 sq.

عقده بسبب تردّي صحّة البطريرك جريجيريّ. وفي آذار سنة ١٩٠٢ كان لا يزال مقيمًا في دير المخلّص بصربا.

ويوم الأربعاء ١٩ آذار سنة ١٩٠٢، صعد إلى عين تراز مع مطران بيروت، لكي يزور بطريركه العليل، فلم يعرفهما البطريرك. ويوم الجمعة العظيمة ٢٨ آذار ١٩٠٢، أُنزل البطريرك إلى بيروت، وتوفي هناك في ٢٤ نيسان ١٩٠٢. وفي حفلة الجنازة التي أُقيمت للصلاة على جثمانه، قرّظه البطريرك السريانيّ مار أغناطيوس الرحمانيّ، وتلاه المطران جحا بالذات.

بطريرك الطائفة

عند وفاة البطريرك جريجيريّ، عادت رومة فعيّنت المطران جحا مدبّرًا رسوليًّا للكرسيّ البطريركيّ، كما كانت قد فعلت سابقًا عند وفاة البطريرك غريغوريوس يوسف. وثبّتت الدولة العثمانيّة فورًا هذا التعيين. ثمّ أنّ المطران جحا دعا أساقفة الطائفة إلى عقد سينودس انتخابيّ في عين تراز في ٢٦ حزيران ١٩٠٢. وفيه انتخب المطران جحا بالصوت الحيّ، دون اقتراع، بطريركًا للطائفة في ٢٧ حزيران ١٩٠٢، باسم كيرلّس الثامن. وقد ثبّته البابا برقيًّا، كما أنّ الباب العاليّ أنعم عليه فورًا بوسام المجيديّة من الدرجة الأولى.

وأنّ البطريرك الجديد، منذ تولّيه منصبه، نال استحسان الجميع. فقد كان يحبّ الشورى والعمل الجماعيّ. ولم يمضِ على انتخابه شهر واحد حتّى أرسل الباب العاليّ فرمان الاعتراف به مدنيًّا كرئيس لملّة الروم الكاثوليك. وهذا ما لم يسبق له مثيل في تاريخ الطائفة.

ومنذ أوائل تنصيبه بطريركًا قرّر عقد المجمع الملّي، الذي كان يؤخّره سلفه البطريرك الجريجيريّ. فعيّن لجنة لإكمال أعمال اللجنة السابقة، وكلّفها باستكمال المسودّة الأولى، وتدوين قانون كنسيّ كامل للطائفة. وكانت اللجنة مؤلّفة من مطران مدينة صور أفتيموس زلحف رئيسًا، ومطران بصرى وحوران نقولاوس قاضي، ومطران زحلة كيرلّس مغبغب، ومطران عكّا غريغوريوس حجّار. وبعد أن بقي البطريرك جحا في بيروت نحو شهر، دخل احتفاليًّا دمشق في ٨ آب ١٩٠٢.

في شباط ١٩٠٨ رَئِسَ البطريرك كيرلّس جحا في رومة القدّاس الحبريّ والاحتفالات بحضور البابا بيوس العاشر بمناسبة مرور ١٥٠٠ سنة على وفاة القدّيس يوحنّا فم الذهب.

وفي سنة ١٩١١ نزح إلى القطر المصريّ، ولبث فيه إلى أن اشتعلت نار الحرب العالميّة الأولى، فلم يتمكّن من الرجوع إلى سورية. ولمّا خلعت الحكومة الانكليزيّة الخديويّ عبّاس، وأقامت خلفًا له السلطان كامل، اشترك البطريرك في حفلة المبايعة. فغضبت عليه الدولة التركيّة، وعدّت فعله هذا خيانة بحقّ تابعيّته للباب العاليّ. لذا خلعته من البطريركيّة، أيّ من السلطة المدنيّة التي منحته إيّاها، وأمرت مطارنة طائفته أن يقيموا قائمقامًا بدلاً منه. وضربت لهم أجلاً لذلك في ١٤ كانون الثانيّ سنة ١٩١٥. فلم يسعَ أساقفة الطائفة مخالفة الأمر. فاجتمعوا في دمشق، لكنّ مطران حلب ديمتريوس قاضي تغيّب عن الاجتماع بسبب انحراف صحّته، ووكّل عنه الأرشمندريت ديمتري سكّريّه. وأنّ الأساقفة أبوا أوّلاً أن ينتخبوا دون إذن من رومة، وقدّموا في ذلك عريضة إلى الحكومة العثمانيّة معتذرين. فأجابهم والي دمشق بأنّ الدولة لا تتعرّض لهم قطّ في الأمور الروحيّة، فلهم أن يراجعوا رومة متى شاؤوا. إنّما هي تطلب منهم أن يقيموا عن البطريرك قائمقامًا زمنيًّا. وإنْ لم يفعلوا، فالحكومة لا تعود تعترف بطائفة الروم الكاثوليك، بل تعتبر أبناءها مجرّد أفراد عثمانيّين، لا جامعة تجمعهم. فتداركًا للمصاعب، قدَّم المطارنة إلى الدولة مرشّحين حسب طلبها، هما مطران صيدا باسيليوس حجّار، ومطران زحلة كيرلّس مغبغب. وبعد شهر جاء الجواب من وزارة العدليّة بتعيين المطران باسيليوس حجّار قائمقامًا بطريركيًّا. فأقام في دمشق. ولَبِثَ الأرشمندريت ديمتري سكّريّة النائب البطريركيّ قابضًا على السلطة الروحيّة كما كان قبلاً.

وتوفي البطريرك كيرلّس جحا في رمل الإسكندريّة في ٩ كانون الثانيّ سنة ١٩١٦. ولم يعلم المطارنة بذلك إلاّ في ١٨ شباط من السنة عينها، أيّ في اليوم التالي لوفاة المطران باسيليوس حجّار في دمشق.

وبعد شهر، في آذار سنة ١٩١٦، إذ رجع المطارنة فاجتمعوا في دمشق بأمر الحكومة التركيّة أيضًا لانتخاب خلف للقائمقام البطريركيّ المتوفّى، وردت رسالة من البابا بندكتوس الخامس عشر عن يد القصادة الرسوليّة، وسُلّمت إلى المطارنة في دمشق في ٢٥ آذار، وبها يعيّن البابا مطران حلب ديمتريوس قاضي نائبًا رسوليًّا إلى حين انتخاب بطريرك جديد. فضمّ إليه المطارنة اسم المطران كيرلّس مغبغب، وقدّموهما إلى الدولة التركيّة، فعيّنت المطران ديمتريوس قاضي قائمقامًا بطريركيًّا. وبذلك اجتمعت السلطتان، الروحيّة والزمنيّة، في شخص واحد.

ولمّا رجع المطارنة المبعدون من منفاهم، وانفتحت أبواب مصر، وأصبح في وسع جميع الأساقفة الاجتماع، صدر الأمر من رومة بانتخاب البطريرك. فتمّ ذلك في ٢٩ آذار سنة ١٩١٩ في دير المخلّص بصربا باتفاق الأصوات كلّها على المطران ديمتريوس قاضي، متروبوليت حلب.

الإكليروس الحلبيّ في عهد المطران كيرلّس جحا

لمّا استلم المطران كيرلّس جحا زمام الأبرشيّة الحلبيّة كان مصفّ كهنة الرعيّة مؤلّفًا على الشكل التالي:

حنّا سالم، ديمتري قسنصرالله، جرجس عازريه، الياس جحا، جرجس تاجر، أنطون شرقي، روفائيل ربّاط، قسطنطين خضريّ، مخائيل شحّود، نعمةالله نجم، جبرائيل صايغ.

وقبيل مغادرته الأبرشيّة سنة ١٩٠١ كان مصفّ كهنة الرعيّة مؤلّفًا على الشكل التاليّ:

ديمتري قسنصرالله، مخائيل شحّود، جبرائيل صايغ، ثاوذورس صايغ، روفائيل ربّاط، نعمةالله نجم، أغناطيوس ربّاط، باسيليوس شمّاع، قسطنطين خضريّ، نيقولا فتّال، أثناسيوس كبابه، بطرس سابا. وغادر بطرس سابا حلب سنة ١٩٠١ ليصبح نائبًا بطريركيًّا على مصر باسم المطران مكاريوس سابا فدخل في مصفّ كهنة الرعيّة الأب ملاتيوس غزال في السنة نفسها. وسيم كاهنًا الأب الياس كبوجيّ أوّل خرّيجيّ إكليريكيّة القدّيسة حنّة، بيد أنّه لم يتسلّم شؤون الرعيّة إلاّ في السنة التالية.

- ٢١ -
ديمتريوس قاضي
(٢٩ تشرين الثّانيّ ١٩٠٣- ٢٩ آذار ١٩١٩).

نشأته

هو يوسف بن نقولا قاضي الدّمشقيّ. وُلد بدمشق في ١٨ كانون الثّانيّ سنة ١٨٦١[٣٣١]. وكان والده، المدعو أيضًا يوسف بن نقولا القاضي، قد استُشهد فيها سنة ١٨٦٠، تاركًا زوجته سوسنّة غنّاجّه حاملاً، وعلى ذراعيها طفلة لا

[331]- استعنّا في كتابة هذا البحث بمقال مسهب صدر في مجلّة المسرّة سنة ١٩٢٥، صفحة ٦٤٥- ٧٠٤، بعنوان: "المثلث الرحمات البطريرك ديمتريوس الأوّل قاضي".

تتجاوز الثمانية عشرة شهرًا. واسم الابنة صوفيا، وقد اقترنت في ما بعدُ بالمدعو أنطوان نحّاس. وأنّ سوسنّة، بعد ثمانية أشهر من وفاة زوجها، ولدت طفلاً، سمّته يوسف، باسم والده الشهيد، وهو صاحب الترجمة. وقد عني به خصّيصًا عمّه جرجي قاضي، والد المطران نقولاوس قاضي، رئيس أساقفة حوران.

درس الطفل يوسف العلوم الابتدائيّة في مدرسة الآباء اللعازريّين بدمشق. ولمّا بلغ الخامسة عشرة من عمره، شعر بميل شديد إلى الانخراط في سلك الرهبانيّة اللعازريّة. لكنّ أساتذته اللعازريّين أنفسهم نصحوه بأن يبقى في طائفته ويخدمها. فدرس زمنًا في المعهد اللعازريّ الذي تربّى فيه. ولمّا توفيت والدته بالهواء الأصفر، أرسله البطريرك غريغوريوس يوسف إلى مدرسة عين تراز الإكليريكيّة، ثمّ إلى معاهد "سان سلبيس" الإكليريكيّة (Saint Sulpice)، الصغرى منها في إيسي (Issy)، ثمّ الكبرى في باريس، حيث درس الفلسفة واللاهوت من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٨٨٨، بعد أن تمكّن من العلوم اللغويّة والأدبيّة في معهد الآباء اليسوعيّين في محلّة "فوجيرار" (Vaugirard).

ولمّا ناهز أن ينتهي دروسه الإكليريكيّة، رسمه الكردينال ريشار (Richard)، رئيس أساقفة باريس، شمّاسًا إنجيليًّا. ثمّ سيم كاهنًا في باريس سنة ١٨٨٨، بوضع يد البطريرك بطرس الجريجيريّ، وكان آنئذ أسقفًا على أبرشيّة مرجعيون.

وبعد أن لبث في باريس ردحًا من الزمن، عاد إلى الأصقاع الشرقيّة لخدمة وطنه وكنيسته. فأُقيم سنة ١٨٨٩ مديرًا للمدرسة البطريركيّة بدمشق، ثمّ رئيسًا لها سنة ١٨٩١، وبقي في هذا المنصب حتّى سنة ١٨٩٢. وفي عهده انتعشت المدرسة الليليّة التي كان قد أنشأها بدمشق البطريرك مكسيموس مظلوم.

ثمّ تعيّن سنة ١٨٩٢ مديرًا للمدرسة البطريركيّة في بيروت. وبقي في هذا المنصب أربع سنوات، أيّ حتّى سنة ١٨٩٥.

ومن سنة ١٨٩٥ حتّى سنة ١٨٩٨ شغل منصب النائب البطريركيّ في القدس الشريف. وفي سنة ١٨٩٨ عيّنه البطريرك بطرس الجريجيريّ نائبًا بطريركيًّا في باريس، حيث بقي خمس سنوات، حتّى شهر تشرين الأوّل سنة ١٩٠٣. وفي أثناء إقامته في باريس، تعيّن عضوًا في اللجنة المجتمعة في روما سنة ١٩٠١ لتهيئة مشروع مجمع طائفيّ عامّ للكنيسة الملكيّة. وكان معه عضوان آخران، هما المطران ملاتيوس أبو مراد والأرشمندريت كيرلّس رزق ويقول الخوري يوسف قاضي في رسالة بعث بها من باريس إلى ابن

عمّه المطران إكليمنضوس قاضي بتاريخ ٢٤ أيلول ١٩٠١ أنّ مجمع انتشار الإيمان منذ البدء أظهر عدم اكتراث بهذه اللجنة، لاعتقاده أنّ أعضاءها غير كفوئين لمثل هذا العمل، ولاعتقاده أيضًا أنّ المجمع المنويّ عقده لن يتمّ، فمن العبث الانكباب على الأعمال التمهيديّة له. وفي أواخر آذار سنة ١٩٠١، قرّر مجمع انتشار الإيمان توقيف أعمال اللجنة التمهيديّة. إلاّ أنّ الأعضاء لجأوا إلى قداسة البابا، الذي أمر بمتابعة العمل. وكان المجمع المقدّس قد كلّف الأب ديونيسيوس الكرمليّ (الذي رُسم في تلك السنة أسقفًا فخريًّا لاتينيًّا على دمشق) بوضع مسوّدة لموادّ المجمع، بغية حمل الأعضاء الملكيّين على إقرارها كما هي. لكنّ الخوري يوسف قاضي عمل على استبعادها. وفي النهاية رضي المجمع بطبع مسوّدة النصّ الذي هيّأته اللجنة الملكيّة، فطبعت منه على الحجر خمسون نسخة بالعربيّة، وخمسون نسخة بالافرنسيّة. وأنّ المجمع لم يُجرِ أيّ تعديل في هذا النصّ، لا لموافقته على ما جاء فيه، بل لأنّه آثر أن يبدي رأيه بعد انعقاد المجمع، "لئلاّ يُقال أنّ عملاً صادق عليه المجمع عُرض لمصادقة أساقفة يعتبرهم تحت طاعته".

ولمّا اعتلى كيرلّس جحا الكرسيّ البطريركيّ، حاول أن يتهرّب من عقد هذا المجمع، فطلب بادئ بدء تعديل مشروع أعماله، ثمّ اضطرّ إلى الدعوة إليه، فانعقد في عين تراز يوم العنصرة ٣٠ أيار ١٩٠٩ واختتم في ٨ تموز من السنة عينها. وقد أرسلت نصوصه إلى رومة، ورقدت فيها، وطُوي الموضوع.

انتخابه أسقفًا لحلب

عندما نُقل المطران كيرلّس جحا إلى كرسيّ البطريركيّة الأنطاكيّة في ٢٨ حزيران سنة ١٩٠٢، بقي كرسيّ حلب شاغرًا مدى ستّة عشرة شهرًا. وكان البعض يرشّحون للأسقفيّة الخوري ميخائيل شحّود. لكن، بسعي المطران نقولاوس قاضي، الموفد من قبل البطريرك كيرلّس جحا، انتخب الخوري يوسف قاضي مطرانًا لحلب في ٢٧ تشرين الأوّل سنة ١٩٠٣، بأغلبيّة ٩٩ صوتًا على مجموعة ١٠٦ ناخبين، من الكهنة والعلمانيّين. فأعطى بذلك الحلبيّون دليلاً على انفتاحهم لغير المرشّحين الحلبيّين.

ومنحه البطريرك كيرلّس الثامن جحا السيامة الأسقفيّة في مدينة الإسكندريّة في ٢٩ تشرين الثانيّ سنة ١٩٠٣، باسم ديمتريوس. فدخل حلب واستلم منصبه في ٢٢ كانون الأوّل التاليّ وكان شعاره: "الوداعة والقوّة".

الراعيّ الصالح

وفي السنة التالية، أيّ سنة ١٩٠٤، قام المطران الجديد بزيارة راعويّة، أحصى فيها بتدقيق عدد أبناء أبرشيّته المقيمين فعلاً في حلب، فبلغ عددهم ٩٨٧٦ شخصًا. ولنا عن سنة ١٩١١ إحصاء شامل لأهالي مدينة حلب، ورد في المعجم الكنسيّ للتاريخ والجغرافيا (المجلّد ٢، العمود ١٢٧- ١٢٨). بموجب هذا الإحصاء كان عدد سكّان حلب يبلغ في تلك السنة ١٧٢٥٠٠ نسمة، منهم ١٢٥٠٠٠ مسلم، و٧٠٠٠ يهوديّ، و٤٠٥٠٠ مسيحيّ: منهم ٢١٣٠٠ كاثوليكيّ، و١٨١٠٠ أرثوذكسيّ. أمّا الكاثوليك فيتوزّعون كما يلي: ١٠٠٠٠ روم كاثوليك، ٥٥٠٠ أرمن كاثوليك، ٢٦٠٠ سريان كاثوليك، ١٩٠٠ موارنة، ١١٠٠ لاتين، ٣٠٠ كلدان. أمّا غير الكاثوليك فيتوزّعون بدورهم كما يلي: ١٥٠٠٠ أرمن غريغوريّون، ١٥٠٠ بروتستانت، ١٢٠٠ روم أرثوذكس، ٥٠٠ سريان أرثوذكس.

وفي أيلول سنة ١٩٠٥، زار البطريرك كيرلّس جحا السلطان عبد الحميد في اسطنبول، وبمعيّته المطران مكاريوس سابا والمطران فلابيانوس كفوري. وجاءت تلك الزيارة ردًّا على رسالة السلطان إلى البابا بيوس العاشر في مناسبة جلوسه على العرش. وقد أنعم السلطان بالوسام العثمانيّ الأوّل على البطريرك. وفي حلب حذا المطران قاضي حذو بطريركه، فرفع الدعاء للسلطان في الكنيسة الكاتدرائيّة، بحضور موفدَيْ الولاية رفعتلو عبدالله أفنديّ سالم، ورفعتلو نعمان أفنديّ سكياس.

وفي ٢١ تشرين الثانيّ سنة ١٩٠٥ سام المطران ديمتريوس قاضي الكاهنين بولس نجم وجرجس سالم. وأقيم القسّ أثناسيوس كبّابه رئيسًا على المدرسة الأسقفيّة، والخوري باسيل شحّود مديرًا، والقسّ بولس نجم مناظرًا.

وفي سنة ١٩١١، نشرت الروّادة الإنكليزيّة جرترود بلّ أخبارًا عن رحلتها إلى بلاد الشام والعراق. وقالت إنّها في حلب تعرّفت إلى المتروبوليت ديمتريوس قاضي، الذي استقبلها في دار الأسقفيّة، وردَّ لها الزيارة في الفندق الذي نزلت فيه، مصطحبًا معه المرحوم نقولاكي حمصيّ. فتكلّما عن حاجة البلد إلى الإصلاح، وعن جمود الأتراك. فإنّ الموظّف التركيّ إذا أُرسل إلى حلب، عدَّ نفسه وكأنّه في المنفى، فلا يكترث لصالح البلد، ويطمع بالعودة إلى العاصمة اسطمبول.

أمّا المطران ديمتريوس، فكان يدرك ولا شكّ الفارق العظيم بين العيشة التي عاشها في باريس، والعيشة التي انتقل إليها في حلب. لكنّه بسموّ تفكيره وعمق روحانيّته، عرف أن يتأقلم وبيئته الجديدة، فنال إعجاب الجميع ومحبّتهم.

وكان المطران قاضي سريع الخاطر، محبًّا للنكتة. أخبرنا بعضهم عنه أنّه جاءه يومًا أحد سكّان ضواحي المدينة من أبناء طائفته، قبيح الخَلق والخُلق، فقال له بلهجة الآمر المتسلّط: "يا سيّدنا زوّجني". فتطلّع إليه المطران وفهم نفسيّته، فأجابه بلطف: "هذه ليست وظيفتي". فأعاد الرجل وكرّر طلبه، بل أمَره: "يا سيّدنا زوّجني، وإلاّ توجّهتُ إلى الخطيئة"! فعيل صبر المطران، فقال له بين جادّ ومازح: "يا بنيّ، إبحث عمَّن يقبل أن يخطئ معك، وخطيئتك في ذمّتي"...

وقد اعتاد المطران الجديد أن يوجّه كلّ سنة بمناسبة عيد الفصح رسالة دوريّة إلى أبناء أبرشيّته. وفي محفوظات مطرانيّتنا مجموعة شبه كاملة من تلك المناشير. ففي سنة ١٩٠٤ كان موضوعها المحبّة، وفي سنة ١٩٠٥ السلام، وفي سنة ١٩٠٦ الفتور الروحيّ، وفي سنة ١٩٠٧ سرّ الزواج المقدّس، وفي سنة ١٩٠٨ الطهارة، وفي سنة ١٩٠٩ التوبة، وفي سنة ١٩١٢ القيامة، وفي سنة ١٩١٤ تحذير من ناشري الأضاليل، الخ...

وقد عُني عناية خاصّة بإصلاح بعض العوائد الغريبة التي لا تتّفق والحياة المسيحيّة الصادقة، منها الإفراط في الحزن على الموتى. فكان بعضهم، عند وفاة أحد الأقارب أو الأنسباء، يمتنع عن الصلاة في الكنيسة لسنة أو سنتين أو لسنوات حسب درجة القرابة أو النسابة، ويحطّم الزواج في بيته، ويسوّد المرائي والجدران، ويلبس الحداد لوقت طويل، عن قناعة أو لمجرّد الحياء البشريّ. فقام المطران قاضي، وبعد أن استشار كبار الطائفة، كتب رقعة حدَّد فيها درجات الحداد بحسب درجات القرابة أو النسابة. ثمّ طبع الرقعة ووزّعها على الأهلين، فسُرَّ الجميع بهذا التدبير، لأنّه أنقذهم من أسْرٍ ثقيل.

وتلافيًا لمساوئ الزواجات الاعتباطيّة المتسرّعة، أمر أن تدوم الخطبة أقلّه أسبوعًا أو أسبوعين، وحظّر على الكهنة أن يباركوا زواجًا أيًّا كان قبل فوات هذه المدّة.

وعالج أيضًا مسألة الأعياد والأصوام، فاحتفظ بالأعياد السيّديّة فقط، وأعياد السيّدة، وعيدَيْ هامتي الرسل والقدّيس جاورجيوس. فكان المجموع خمسة عشرة عيدًا من الثمانية والعشرين التي كان قد فرضها الطقس البيزنطيّ قديمًا. وأخذت برأيه سائر الطوائف في حلب سنة ١٩٠٨، فتوحّدت الممارسة في هذا

الأمر بين المسيحيّين. وهكذا فعل أيضًا بخصوص الأصوام والقطاعات، فخفّف وطأتها، فسمح بأكل اللحوم مدّة الصوم الكبير ما خلا أيام الأربعاء والجمعة والأسبوعين الأوّل والأخير.

وقد عُني المطران ديمتريوس قاضي عناية خاصّة بتطوير المدرسة الأسقفيّة الكبرى، المعروفة بمدرسة القدّيس نقولاوس، والتي كان قد أسّسها في آذار سنة ١٨٨٦ المطران كيرلّس جحا، فرفع عدد صفوفها إلى تسعة، وأصبح عدد طلاّبها سنة ١٩٠٦ نحو ١٧٦ طالبًا، يتعلّمون العربيّة والفرنسيّة والتركيّة والإنكليزيّة. وإلى جانبها بقيت مدرستان للصبيان (كان عددهم ٣٢١ طالبًا سنة ١٩٠٦)، ومدرسة للبنات كانت تعدّ في السنة عينها ٨٠ طالبة.

وهناك أيضًا اهتمامه بالأحداث، وتأسيس مدارس التعليم المسيحيّ الليليّة سنة ١٩٠٨. وهناك رحلاته إلى رومة وفرنسا في شؤون أبرشيّته. وهناك اهتمامه بالحياة الروحيّة، ومحبّته للكهنة.

في خضمّ الحرب العالميّة الأولى

ولمّا اندلعت الحرب العالميّة الأولى، رأى لأوّل وهلة حرج المقام، وأنّه لا بدّ له قبل كلّ شيء أن يأمن ظنّ الأتراك وبطشهم، وإلاّ فإنّه يجور على نفسه وعلى أبنائه، وعلى المنفيّين التعساء الذين ما عتّموا إذ سيقوا إلى حلب أفواجًا وزرافات. وقد قضى تلك السنوات العصيبة في علاقات متواصلة مع المنفيّين، دون أن يثير عليه ظنون الأتراك وضغائن جمال باشا. فلزم السكوت التامّ في الشؤون السياسيّة، ولم يفسح لجمال باشا مجالاً لأن يأخذ عليه كلمة واحدة أو عملاً واحدًا معاديًا للأتراك.

وهكذا استطاع أن يفتح صدره للمنفيّين التاعسين. وكانت حلب المقرّ الذي يحطّون فيه رحالهم، قبل مسيرهم إلى المنفى أو العذاب أو الموت. ففتح لهم المطران قاضي قلبه وبيته وصندوقه. فأعطاهم بسخاء، وأضافهم، وقبل أن يصير لأجلهم متوسّلاً، وأن يطرق باب جمال باشا، وباب مدير الشرطة، وباب الواليّ، وأبوابًا كثيرة غيرها، وأن ينتظر الساعات الطوال ريثما تُتاح له مقابلتهم. وكان يزور بنفسه البؤساء المساجين. وهكذا صنع مع الآباء اللعازريّين، وهكذا صنع مع الأرمن. والكثيرون من هؤلاء قَبِلهم في طائفته لكي يجنّبهم ملاحقة الأتراك. وهكذا فعل خصوصًا مع الأب يوسف بحريّ اللعازريّ، ورفيقه الأب رستم، فأواهما في مطرانيّته، وعُني بهما، ودافع عنهما حتّى سراحهما. وهكذا فعل أيضًا مع الأب خورسانيان الأرمنيّ ورفاقه

التسعة، ومن بينهم المطران غريغوريوس باهابان أسقف أنقرة على الأرمن الكاثوليك، وابن عمّه المطران أنطوان باهابان أسقف قيصريّة الكبادوك، وبعض الكهنة والعلمانيّين. ويقول الأب خورسانيان أنّ المطران قاضي استقبلهم جميعًا، وأضافهم في مدرسته. ثمّ "أرسل رداءين من أرديته، واحدًا لكلّ من الأسقفين، وأرسل لنا ثيابًا وقمصانًا. ثمّ أعطانا كهنة الروم الكاثوليك أرديةً وقلانس، مخافة أن يتعرّف بنا الشرطة الأتراك، فيزجّونا في الحُبوس، ونقتل لا محالة، وهكذا بقينا في حلب ٥٣ يومًا تحت حماية سيادته".

ثمّ أسعف نحو مئتي أرمنيّ، رجالاً ونساء وأولادًا، وصلوا إلى حلب في حالة من البؤس لا توصف. فأعطاهم وغيرهم كلّ ما ملكت يده، وحتّى لم يبقَ له إلاّ ثوب واحد يلبسه. وقيل له يومًا أنّ بعض الكهنة المنفيّين في عوز. ففتح صندوقه فلم يجد فيه سوى ٢٥ ليرة عثمانيّة. فأرسلها كلّها إليهم.

وتابع المطران قاضي اهتمام سلفه المطران جحا بالجمعيّة الخيريّة، التي كانت تُدعى آنذاك "لجنة الرحمة"، وأولاها عنايته الخاصّة، وعهد إلى المرحوم ديزيره حمصيّ برئاستها، وعيّن لها مرشدًا الخوري ميخائيل شحّود. وفي إبّان الحرب العالميّة الأولى ألغت الحكومة العثمانيّة الجمعيّات، أيًّا كانت. فاضطرّ الأعضاء إلى العمل خفية، مستهدفين للمطاردات والملاحقات العنيفة.

كما أنّ الحكومة العثمانيّة استولت على كنائس الطائفة بحلب ومدارسها، في حزيران سنة ١٩١٦، وحوّلتها إلى مستشفيات. لكنّها سرعان ما أفرجت عن كنيسة القدّيس جاورجيوس بحيّ الشرعاسوس، لِما شاع بين المرضى من أنّ القدّيس يتراءى لهم وهو راكب حصانه الأبيض، ويتجوّل مسرعًا في صفوفهم، وكأنّه مستاء لاحتلال مزاره الشهير، فأخلته الحكومة، وأعادته إلى شعائر العبادة. أمّا الكنيسة الكاتدرائيّة الكبرى فقد بقيت باستيلاء الأتراك. فاضطرّ المطران قاضي إلى تحويل إحدى قاعات المطرانيّة (وهي تُعرف اليوم بقاعة المطالعة) إلى معبد، يزدحم أيام الآحاد والأعياد، بل كلّ يوم من أيام الأسبوع، بحشود المصلّين، بحيث كانت تقام لهم يوميًّا نحو عشرة قداديس، حتّى يستطيع الجميع أن يشتركوا في الصلاة في ذاك المعبد الضيّق.

النائب الرسوليّ والقائمقام البطريركيّ

ولمّا توفي البطريرك كيرلّس جحا في ٩ كانون الثانيّ سنة ١٩١٦ في مصر، عيّن الكرسيّ الرسوليّ المطران قاضي في شهر آذار سنة ١٩١٦ نائبًا رسوليًّا. وكانت الحكومة التركيّة تلحّ قبيل ذلك في انتخاب قائمقام بطريركيّ.

فانتخب أساقفة الطائفة لهذه المهمّة النائب الرسوليّ عينه. وهكذا اجتمعت في شخصه السلطتان، الروحيّة والزمنيّة ومنذئذ اضطرّ أن يجعل مقامه في دمشق ويغادر حلب، فعيَّن الإيكونوموس باسيليوس شمّاع في ١٣ أيار سنة ١٩١٦ نائبًا أسقفيًّا عامًّا له على أبرشيّة حلب.

قضى المطران قاضي تلك السنوات الأربع (١٩١٦- ١٩١٩) في تعب فكر دائم وانزعاج متواصل. فمن جهة أبناؤه معذَّبون مهدَّدون، ومن جهة أخرى جمال باشا مراقب لأعمال الأسقف بظنونه وتهديداته وتطلّباته.

ثمّ أنّ مديريّة المذاهب في الأستانة أبرقت إلى واليّ دمشق أن يبلغ القائمقام البطريركيّ بأن يجمع أساقفة الطائفة ويقيموا عليهم بطريركًا. لكنّ معظم أساقفة الطائفة كانوا منفيّين أو غائبين عن أبرشيّاتهم. ثمّ كان لا بدّ من استشارة الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ لعقد المجمع الانتخابيّ، فسكت المطران قاضي ولم يجب في بادئ الأمر. ثمّ تدخّل الكرسيّ الرسوليّ، ووسّط سفير النمسا في الأستانة، فرجعت الحكومة التركيّة عن قرارها.

على أنّ الحلفاء ما عتّموا أن دخلوا دمشق وسوريا في أواخر أيلول سنة ١٩١٨. فزالت المخاوف، وتمكّن أساقفة الطائفة من الاجتماع في دير المخلّص في صربا، فنصّبوا المطران قاضي بطريركًا على الطائفة في ٢٩ آذار سنة ١٩١٩، وبقي اسمه ديمتريوس، وشعاره "الوداعة والقوّة" كما في حلب.

بطريرك الطائفة (١٩١٩- ١٩٢٥)

بقي ديمتريوس قاضي بطريركًا على الطائفة من سنة ١٩١٩ حتّى سنة ١٩٢٥. فعُني قبل كلّ شيء بتنصيب أساقفة لمختلف أبرشيّات الطائفة التي كانت قد فقدت رعاتها أثناء الحرب العالميّة الأولى. ثمّ أنّه سنة ١٩٢١ اتّفق في القاهرة مع راهبات المحبّة المعروفات براهبات بزنسون، على تأسيس فرع شرقيّ ينتمي إلى رهبانيّتهنّ، ويبقى مع هذا على الطقس الشرقيّ وتحت إشراف بطريرك الطائفة. فتمّ له ذلك. وأسّست الراهبات المذكورات مدرسة في القاهرة، وأخرى في الإسكندريّة، وثالثة في دمشق.

وسنة ١٩٢٤ ألّف لجنة خاصّة لوضع نظام عامّ للطائفة. لكنّه توفي قبل الانتهاء من هذا العمل. وقد سعى كثيرًا في تفريغ عقارات الوقف من أسماء الأشخاص الفرديّين إلى أسماء معنويّة كنسيّة، دون دفع رسوم الانتقال.

ثمّ اندلعت الثورة في سوريا. فاضطرب لها كثيرًا، وتأثّر لحوادثها. فعاجلته المنون، وتوفي بغتة في دمشق صباح الأحد ٢٥ تشرين الأوّل سنة ١٩٢٥.

- ٢٢ -
مكاريوس سابا
(٢٧ حزيران ١٩١٩- ٢٨ تموز ١٩٤٣)

نشأته

هو ديزيره بن فتح الله بن بطرس سابا، وأمّه كاتين ابنة تيدوري مكربنه[٣٣٢]. وُلد في حلب في ١٢ شباط سنة ١٨٧٣. وبعد أن تلقن العلوم الابتدائيّة في المدرسة الطائفيّة، دخل مدرسة الآباء الفرنسيسكان لتحصيل العلوم الثانويّة. وإذ توسّم فيه المطران كيرلّس جحا علائم النجابة والدعوة الكهنوتيّة، أرسله سنة ١٨٨٦ إلى مدرسة عين تراز الإكليريكيّة. فأقام سنة كاملة في المدرسة البطريركيّة ببيروت لإنهاء تحصيله الثانويّ، ثمّ انتقل إلى عين تراز، حيث أقام سبع سنوات، حتّى سنة ١٨٩٤، فأتمّ دروسه الفلسفيّة واللاهوتيّة.

وعلى إثرها دعاه المطران كيرلّس جحا، وعهد إليه، وهو لا يزال علمانيًّا، بنظارة المدرسة الأسقفيّة بحلب. ثمّ رسمه شمّاسًا إنجيليًّا باسم مكاريوس في ٢ شباط سنة ١٨٩٦، واتّخذه أمين أسراره. فاصطحبه في جميع رحلاته وأسفاره، واستعان به خصّيصًا عندما تعيّن قائمقامًا بطريركيًّا على أثر وفاة البطريرك غريغوريوس يوسف. ولمّا انتهت مدّة النيابة البطريركيّة بانتخاب البطريرك بطرس الرابع الجريجيريّ، رسمه المطران كيرلّس جحا كاهنًا باسم بطرس، وذلك في دير المخلّص بصربا في ٣ آذار سنة ١٨٩٨.

واصطحبه أيضًا في رحلته إلى القدس فرومة فباريس. وعند عودته من تلك الرحلة عُهِدَ إليه، مع أمانة السرّ، برئاسة المدرسة الأسقفيّة وخدمة الرعيّة.

وعلى أثر وفاة البطريرك بطرس الرابع الجريجيريّ سنة ١٩٠٢، عُيّن المطران كيرلّس جحا من جديد قائمقامًا بطريركيًّا، ثمّ نودي به بالصوت الحيّ بطريركًا على الطائفة في ٢٨ حزيران ١٩٠٢. فلم يشأ أن يتخلّى عن أمين سرّه، فأبقاه بمعيّته، واصطحبه في أسفاره وتجوّلاته بين مصر وسورية. ثمّ رقاه إلى درجة الإيكونوموس في ٢٩ آذار سنة ١٩٠٣ في كنيسة القدّيس ميخائيل بالقاهرة.

---

[332]- اعتمدنا في تدوين هذه النبذة على كرّاس نشره "شهود عيان" في المطبعة البولسيّة بحريصا سنة ١٩٤٣ بعنوان: "المطران مكاريوس سابا".

ولمّا شغرت وظيفة النيابة البطريركيّة بمصر بوفاة المطران أثناسيوس ناصر، رسمه البطريرك كيرلّس جحا في الإسكندريّة في ٢٩ تشرين الثّانيّ سنة ١٩٠٣ رئيس أساقفة بلميرا شرفًا، ونائبًا بطريركيًّا عامًّا على القطر المصريّ والسودان. ورسم معه في اليوم عينه السيّد ديمتريوس قاضي مطرانًا على حلب. فرافق بطريركه في أسفاره العديدة. وسافر معه إلى الأستانة سنة ١٩٠٤، ونال من السلطان عبد الحميد أوسمة عثمانيّة عالية. ثمّ رافقه أيضًا إلى رومة، وحظي بمقابلة البابا بيوس العاشر. ثمّ عاد مع بطريركه إلى مصر، وتسلّم زمام النيابة البطريركيّة فيها حتّى سنة ١٩١٩. وكانت له في هذا المنصب مآثر عديدة، بمساهمته الفعّالة، مع بطريركه وسائر اللجان الطائفيّة، في إكمال وتدشين الكاتدرائيّة الجديدة في القاهرة سنة ١٩٠٣، وتوسيع كنيسة الرمل سنة ١٩١٥، وبناء كنيسة المنصورة الجديدة سنة ١٩٠٧، وترميم وتحسين كاتدرائيّة الإسكندريّة سنة ١٩٠٥، وإنشاء كنيسة القدّيس كيرلّس في هليوبوليس سنة ١٩١٠، وإنشاء المدرسة البطريركيّة بالقاهرة سنة ١٩٠٧، ومدرسة حيّ السكاكينيّ مع ميتم ومشغل للبنات، وفتح مدرسة هليوبوليس لصغار البنين والبنات سنة ١٩١٦، كما أُنشأت في عهده وبمعاضدته فروع طائفيّة لجمعيّة القدّيس منصور في القاهرة والإسكندريّة سنة ١٩١١ و١٩١٢، وتأسّس النادي الكاثوليكيّ للشبيبة السوريّة سنة ١٩١٧.

ولمّا انتقل البطريرك كيرلّس جحا إلى رحمة الله في ٩ كانون الثّانيّ سنة ١٩١٦، آلت إليه سلطات روحيّة وإداريّة واسعة، بسبب انقطاع مصر عن المقرّ البطريركيّ بدمشق حينئذ. فسعى في تنفيذ وإصلاح النظام الدّاخليّ للطائفة، وشرع في انتخاب أعضاء الهيئة النيابيّة، واللجان الإداريّة والقضائيّة، مشركًا العلمانيّين إلى أقصى حدّ في تحمّل مسؤوليّات الكنيسة.

وفي سنة ١٩٠٩ اشترك في المجمع الطائفيّ العامّ المنعقد في عين تراز. وبهذه المناسبة عاد فزار حلب مسقط رأسه.

وفي سنة ١٩١٨، كان عضوًا في لجنة إعانة منكوبيّ الحرب السوريّين والفلسطينيّين. وسافر إلى القدس مع نجيب بك شقير لتوزيع الإعانات.

تعيينه مطرانًا على حلب

وإذ شغر كرسيّ حلب بارتقاء المطران ديمتريوس قاضي السدّة البطريركيّة، أراد البطريرك الجديد أن ينقل المطران مكاريوس سابا إلى كرسيّ أبرشيّة حلب خلفًا له. فجاء حلب شخصيًّا سنة ١٩١٩، مصطحبًا

المطران مكاريوس، وعرضه على الكهنة والشعب، فارتضوا به، فأقامه مطرانًا على حلب في ٢٧ حزيران سنة ١٩١٩، عاهدًا إليه في الوقت عينه بالاعتناء الروحيّ بأبناء الطائفة في الإسكندرونة وطرسوس ومرسين وأنطاكية. ويُقال أنّ فريقًا آخر من أبناء الطائفة كان يرشّح لهذا المنصب الخوري جبرائيل ربّاط الشهير.

وفي سنة ١٩٢٠ سافر المطران مكاريوس سابا إلى مصر لتصفية أشغاله فيها، وتصفية تركة البطريرك المتوفّى كيرلّس جحا.

مآثره الأسقفيّة

١- **في مجال العبادة**: كان المطران مكاريوس شديد التقوى، محبًّا للصلاة وسماع كلام الله، وميّالاً لممارسة الرياضات الروحيّة. فبادر إلى الاشتراك في المؤتمرات القربانيّة، وسافر مرارًا إلى رومة. وفي المرّة الأخيرة، في يوبيل سنة ١٩٣٣، رَئِسَ بذاته وفد الشبيبة الكاثوليكيّة إلى المدينة الخالدة. وزار كذلك سنة ١٩٢٩ ليزيو، مدينة القدّيسة تريزيا، ولورد مدينة ظهور العذراء مريم. وقد زار كذلك مرّتين مدينة فيينّا، لإجراء عمليّات جراحيّة. ومن عاصمة النمسا جلب إلى الكاتدرائيّة وإلى كنيسة القدّيس جاورجيوس مقاعد خشبيّة وثريّات كهربائيّة وشماعدين نحاسيّة.

٢- **شراء وتجهيز مقبرة جديدة**: كان أوّل ما باشر به الأسقف الجديد استملاك أراضٍ للمدافن في محلّة الشيخ مقصود، بالاتفاق مع سائر رؤساء الطوائف المسيحيّة والموسويّة. وبعد إنهاء عمليّة التخطيط والتخمين والاستملاك من قِبَل البلديّة، توفّق المطران مكاريوس، بإخلاصه وتجرّده، في تقسيم الأرض وتخصيص كلّ قسم لطائفة وتسجيلها باسمها رأسًا سنّة ١٩٢٧، منعًا لكلّ خلاف في المستقبل. ووضع لأرض الطائفة مخطّطًا خاصًّا ومصوّرًا شمسيًّا، وسيّجها سنة ١٩٢٨، وبنى فيها غرفًا خاصّة للكهنة، ومستودعًا لعظام المتوفّين. وسعى سنة ١٩٣٥ ببناء كنيسة جميلة فيها، تبرّع بثمنها الوجيه فتح الله أنطاكيّ. أمّا المدافن القديمة فوزّعت بين الطوائف وسجّلت لكلّ طائفة حصّتها سنة ١٩٣٨.

٣- **بناء كنيسة ومدرسة القدّيس ديمتريوس بالجابريّة:** لمّا انتقل العمّال وأصحاب الحِرف من الأحياء القديمة إلى حيّ الجابريّة، اشترى المطران مكاريوس أرضًا تسمّى "الجَبَلاية" لإنشاء كنيسة عليها، ثمّ تركها للطائفة،

واشترى أرضًا غيرها أصلح منها، وبنى عليها كنيسة القدّيس ديمتريوس الحاليّة سنة ١٩٣٢. وبنى بجوارها مدرسة للذكور ومدرسة للإناث.
٤- **بناء كنيسة الملاك ميخائيل بالعزيزيّة**: كان للطائفة منذ أكثر من خمسين سنة أرض في حيّ العزيزيّة معدّة لبناء كنيسة. فباعها واستبدلها بأرض أخرى أصلح منها. وتبرّع المرحوم فكتور حمصيّ المقيم في باريس بثلاثة أرباع تكاليف بناء كنيسة جميلة على هذه الأرض، جاءت روعة في الفنّ المعماريّ، ودُعيت باسم الملاك ميخائيل، وفُتحت للعبادة سنة ١٩٣٥.
٥- **ترميم وتوسيع الدار الأسقفيّة**: اشترى المطران مكاريوس من آل خوكاز سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٣٢ بيتًا ملاصقًا للدار الأسقفيّة. فهدمه وبنى سنة ١٩٣٣ دارًا أسقفيّة جديدة. وكان قد رمّم الدار الأسقفيّة القديمة سنة ١٩٢١، بحيث استطاع أن يجمع الكهنة حوله وبالقرب من الكنيسة الكاتدرائيّة.
٦- **تحويل مدخل الكاتدرائيّة** من وضعه القديم، حيث كان يُشرف على طريق ضيّقة وتحت أقبية مظلمة. فتملّك دارًا مجاورة، وثلاثة مخازن من طائفة اللاتين، ومخزنين من آل غضبان، وفضلة طريق من البلديّة، وهدم الكلّ مع دار سابقة قديمة لوقف الكنيسة، وأوجد بدلاً منها سنة ١٩٣٤ المدخل الفخم الحاليّ على ساحة فرحات. وشيّد في جانب المدخل غرفًا للمشاريع الطائفيّة والجمعيّة الخيريّة. ولم يكمل منها سوى الدور الأسفل، كما سعى في إيصال السيارات والعربات حتّى مدخل الكنيسة بواسطة البلديّة، وإلغاء درجات ما "وراء العمارة"، وتسوية وإعلاء الطريق.
٧- **تأسيس نادي الشبيبة الكاثوليكيّة**: وكان له فيه الحظّ الأوفر والنصيب الأكبر. ؟؟؟ الذي عزم، بعد درس وتنقيب، على اتّخاذ أرض تصلح لتشييد بناء عصريّ يأوي الشبيبة الكاثوليكيّة. فقرّ رأيه على أرض السادة آل حمصيّ. فلجأ إلى صاحبيها ديزيره حمصيّ وابن أخيه فكتور حمصيّ. فقدّما له الأرض أوّلاً دون بدل إيجار سنين عديدة، ثمّ ابتاع الأرض من فكتور حمصيّ، بعد وفاة عمّه ديزيره. وبالاتفاق مع سائر أحبار الطوائف الكاثوليكيّة تألّفت سنة ١٩٢٩ الشركة المساهمة للمشاريع الكاثوليكيّة. ووُضعت لتسديد قيمة الأرض وتكاليف البناء أسهم ابتاعتها الطوائف الكاثوليكيّة وكثيرون من أبناء الشعب المسيحيّ. واشترت طائفة الروم الكاثوليك منذ البداية ٥٠٠ سهم من أصل خمسة آلاف، ثمّ زادتها على مرّ الأيام حتّى بلغت إلى نحو ١١٠٠ سهم.
٨- **الميتم الطائفيّ**: وجّه المطران مكاريوس عناية خاصّة للأيتام، وقد خلّفت الحرب منهم عددًا كبيرًا. فخصّص لهم المدرسة المجّانيّة المجاورة

للكاتدرائيّة. وكان افتتاح الميتم في ٧ أيلول سنة ١٩١٩. وقد آوى في بدء عهده ٣٧ ولدًا، ثمّ ازداد عددهم بتوسيع المكان وتكاثر الأعوان، حتّى أوفى بعض السنين على الستّين. وضَمن لهم الدروس الابتدائيّة ضِمن جدران الميتم بالذات الذي وضعه تحت شفاعة العذراء مريم "سيّدة لورد". ومَن كان ذكيًّا نجيبًا بينهم كان يلتحق بالمدرسة الأسقفيّة الثانويّة. وأسّس مع الميتم "جمعيّة عاملات الشفقة"، التي ضمّت عددًا من السيّدات يقمن لدى صغار الميتم مقام الأمّهات، فضلاً عن "مشغل" تأسّس سنة ١٩٢١، ومطبعة اقتناها سنة ١٩٢٢ لكي يتدرّب الأيتام على تشغيلها وتعلّم مهنة تفتح لهم أبواب الرزق، فكانت "مطبعة الإحسان لميتم الروم الكاثوليك" في طليعة مطابع حلب. أخيرًا نقل إلى الميتم الموسيقى النحاسيّة التي كان المطران كيرلّس جحا قد زوّد بها المدرسة الأسقفيّة. فتعلّم أولاد الميتم العزف عليها، فكانت لهم موردًا آخر للرزق.

٩- **الجمعيّة الخيريّة**: كانت في حلب جمعيّة خيريّة للروم الكاثوليك منذ عهد المطران كيرلّس جحا. لكنّها توقفت عن العمل في غضون الحرب العالميّة الأولى. فعاد المطران مكاريوس وبعثها ونظّمها، منذ تشرين الأوّل سنة ١٩١٩. وبلغ ما دفعه كلّ المحسنين في اللمّة السنويّة الأولى ٣٦ ليرة عثمانيّة ذهبيّة. وكانت الجالية الحلبيّة في أمريكا قد سبقت وأرسلت بواسطة المرحوم ديزيره حمصيّ مبالغ كبيرة، فسُلّمت برمّتها إلى الجمعيّة الخيريّة. وفي عهده عُيّن لإرشاد الجمعيّة على التوالي الخوري بولس نجم، ثمّ الخوري الياس كبّوجيّ، ثمّ الخوري يوسف جمل. وتعاقب على رئاستها المرحوم ديزيره حمصيّ، ثمّ المرحوم جورج أنطاكيّ (والد السيّد فتحي أنطاكيّ)، ثمّ المرحوم اميديه شعراويّ، ثمّ المرحوم نقولاكي سمّان، ثمّ المرحوم نجيب مكربنه، ثمّ السيّد ليون زلعوم، ثمّ المرحوم سامي جمل.

١٠- **فرع الإحسان في أخويّة القدّيسة تريزيا**: تأسّست هذه الأخويّة في منتصف سنة ١٩٣٠، وارتفع شأنها في حلب. وقد انضمّت إليها مشاريع اجتماعيّة متعدّدة، منها فرع لإكساء المعوزات، وفرع لتسهيل التوظيف والعمل، وفرع لتخصيص منح دراسيّة، وفرع للمساعدات السريّة للعائلات المستورة، وفرع لمكافحة الأزياء غير المحتشمة.

١١- **في حقل المدارس**: عندما جاء المطران مكاريوس حلب، كان فيها لطائفته ثلاث مدارس للذكور: المدرسة الأسقفيّة، وقد سلّم إدارتها سنة ١٩٢٣ للأخوة المريميّين، ومدرستان مجّانيّتان في الصليبة (قرب الكاتدرائيّة) وفي الشرعاسوس (قرب كنيسة القدّيس جاورجيوس). وعزّ عليه أن لا يرى

لطائفته الكبيرة مدرسة للبنات. فاتّفق مع راهبات بيزنسون على فتح مدرسة للبنات في بناية مدرسة الألمان القديمة سنة ١٩٢١، لكنّها لم تدم طويلاً. وإذ حوّل مدرسة الصليبة المجّانيّة إلى ميتم، فقد استبدلها بمدرسة جديدة للذكور والإناث في حيّ الجابريّة، إلى جانب كنيسة القدّيس ديمتريوس. وكان له في المدارس الطائفيّة رأي خاصّ، وهو أنّ هذه المدارس يجب أن تقتصر على التعليم الابتدائيّ، ويترك التعليم الإعداديّ والثانويّ للمدارس الأجنبيّة، التي تصعب منافستها. على أنّه كان يرى أيضًا أنّه إذا كان لا بدّ من مدرسة وطنيّة مسيحيّة عالية، فلتكن مدرسة واحدة تشترك في نفقاتها وأرباحها جميع الطوائف الكاثوليكيّة على السواء. واختمرت هذه الفكرة في رأسه يوم انسحب الأخوة المريميّون من إدارة مدرسته الأسقفيّة، فاتّفق مع طائفة السريان والموارنة، وقرّروا معًا إنشاء "مدرسة الاتّحاد الكاثوليكيّ"، التي فتحت أبوابها في تشرين الأوّل سنة ١٩٢٧، لكنّها لم تدم أكثر من سنة واحدة. وفي سنة ١٩٣٦ سلّم الآباء البولسيّين إدارة المدرسة الأسقفيّة. ثمّ سنة ١٩٤٠ تسلّمها الأب ميشال غصن، وسنة ١٩٤٢ تسلّمتها الرهبانيّة الباسيليّة الحلبيّة، ثمّ عادت إدارتها إلى إكليروس الأبرشيّة.

١٢- **تعزيز التضامن بين الطوائف الكاثوليكيّة**: كان هذا من أبرز نشاطات المطران مكاريوس. فقام بسعيه في حلب منذ سنة ١٩١٩ مجلس أسقفيّ عامّ يضمّ، في اجتماعات أسبوعيّة منظّمة، مطارنة الطوائف الكاثوليكيّة ورؤساءها الروحيّين، ورؤساء الطوائف الأرثوذكسيّة أيضًا كلّما دعت الحاجة إلى ذلك. ومن مساعيه أيضًا ضمّ جمعيّتي التعليم المسيحيّ، الشرقيّة والغربيّة، وتحويلهما إلى جمعيّة واحدة شاملة. وقد سعى أيضًا إلى تأليف أمانة عامّة (أو نقابة) تضمّ ممثّلين عن جميع الجمعيّات الخيريّة الكاثوليكيّة، بهدف تنسيق العمل وتوحيد القوى. ومن مساعيه الاتّحاديّة أيضًا إنشاء المستوصف العامّ لمداواة الفقراء من جميع الطوائف الكاثوليكيّة. فقد دُشّن المستوصف سنة ١٩٣٨. وسنة ١٩٤٣ تحقّق مشروع المجلس الاستشاريّ للطوائف الكاثوليكيّة.

وكان شقيقه الأب بطرس سابا معاونه الأكبر وذراعه الأيمن في تداول الرأي وتنفيذ المشاريع.

وفاته

كان المطران مكاريوس سابا مصابًا بالتهاب الكليّ، فأُجريت له عمليّتان جراحيّتان في فيينّا عاصمة النمسا، الواحدة سنة ١٩٢١ والثانية سنة ١٩٢٩.

وقد تألّم كثيرًا في نفسه الحسّاسة من لواذع الانتقاد، ومظاهر التمرّد على السلطة الدينيّة التي قامت زمنًا في حلب. فتردّت صحّته كثيرًا في الآونة الأخيرة. وعبثًا حاول السفر إلى لبنان وفلسطين انتجاعًا للعافية، فالمرض كان قد تأصّل فيه وانحطّت قوى نفسه. وداهمته المنون صباح الأربعاء ٢٨ تموز سنة ١٩٤٣.

- ٢٣ -
إيسيذورس فتّال
(١ آب ١٩٤٣- ٤ أيلول ١٩٦١)

نشأته

وُلد المثلّث الرحمة المطران إيسيذورس ديمتريوس فتّال في حلب في ٢ تشرين الأوّل سنة ١٨٨٦، من والدين فاضلين هما الياس فتح الله فتّال، وجوزفين بيطار. وكان أبوه قد حدّثته النفس، وهو بعد فتى، بالانضمام إلى طالبيّ الكهنوت المتألّبين حول المطران بولس حاتم. فلم يتمكّن من تحقيق مقصده، فغادر القلاّية الأسقفيّة آسفًا، ووعد بأن يخصّص بدلاً عنه اثنين من أولاده لخدمة الكهنوت. فقيّض الله له أن يقوم بوعده، فصار اثنان من أولاده كاهنين، هما المطران إيسيذورس فتّال والأرشمندريت يوحنّا فتّال.

تلقّى المطران فتّال العلوم الأوّليّة في المدرسة الأسقفيّة بحلب. ومنها انتقل إلى المدرسة الصلاحيّة بالقدس الشريف سنة ١٨٩٩. ولمّا أنهى دروسه الثانويّة والفلسفيّة واللاهوتيّة فيها، نال السيامة الكهنوتيّة في ٢٠ تموز سنة ١٩١٢ بوضع يد المطران مكاريوس سابا، الذي كان يومئذ نائبًا بطريركيًّا عامًّا في القطر المصريّ. فقضى السنة الأولى من حياته الكهنوتيّة مدرّسًا في المدرسة الإكليريكيّة المذكورة. وفي آخرها دعاه المطران ديمتريوس قاضي إلى التدريس في مدرسته الأسقفيّة بحلب. بيد أنّه لم يقض في مسقط رأسه سوى سنة واحدة، إذ قد استدعاه من جديد رئيس المدرسة الصلاحيّة للتدريس فيها. فعاد إلى المدرسة الصلاحيّة في تموز سنة ١٩١٤. لكنّه لم يلبث أن شهد إقفال المدرسة في مطلع الحرب العالميّة الأولى، وتبدّد الطلاّب الإكليريكيّين. فقضى سنة يدرس في المدرسة البطريركيّة ببيروت، دُعي في نهايتها إلى المدرسة الأسقفيّة بحلب، حيث أُسندت إليه مع التدريس وظيفة مدير الدروس والنظام حتّى نهاية الحرب الكبرى.

ولمّا فتحت المدرسة الصلاحيّة أبوابها من جديد سنة ١٩١٩ عاد صاحب الترجمة إليها. وقضى فيها إحدى عشرة سنة مدرّسًا للغة العربيّة، ثمّ لآدابها، ثمّ مديرًا للدروس العربيّة. وكان في هذه الحقبة التدريسيّة الطويلة مثالاً للكاهن الغيور. وعلى أثرها عاد إلى حلب في خريف سنة ١٩٣٠، فأُسندت إليه مهمّة إدارة المدرسة الأسقفيّة، في عهد رئاسة رئيسها الأسبق الطيّب الذكر المرحوم الإيكونوموس جبرائيل ربّاط. ثمّ خلفه في تلك الوظيفة في خريف سنة ١٩٣٥، وعمل على رفع مستوى التعليم في المدرسة بإيصال الصفوف الثانويّة حتّى الدرجة الأولى من البكالوريا السوريّة والفرنسيّة.

ومن ثمرة خبرته في تدريس اللغة العربيّة وآدابها كانت سلسلة الكتب المعروفة "بالمشوّق"، التي جاءت أحد عشر جزءًا، فضلاً عن خمسة أجزاء للمعلّم، فنالت استحسان كثير من مدارس الأقطار العربيّة كلّها، من العراق إلى المغرب، ونالت رواجًا كبيرًا، حتّى طُبع منها أكثر من نصف مليون نسخة، ولاسيّما بعد أن تسلّمها الآباء المرسلون البولسيّون، فطوّروها وعدّلوا فيها وأخرجوها على أكمل وجه. وبدأ يضع سلسلة أخرى "مشوّقة" لدرس اللغة العربيّة، صرفها ونحوها وآدابها، فحالت مهامه الكهنوتيّة الكثيرة دون إتمامها.

ولمّا دُعي المرسلون البولسيّون إلى تسلّم إدارة المدرسة الأسقفيّة بحلب في خريف سنة ١٩٣٦، اعتزل الأب فتّال التعليم، وأكبّ بكلّ قواه على خدمة النفوس في الوظائف الرعائيّة. فعُيّن مرشدًا عامًّا لجمعيّة التعليم المسيحيّ، وظلّ يقوم بأعباء هذه الوظيفة مدّة سبع سنوات حتّى مطلع سنة ١٩٤٣. وفي أثنائها شرع يعدّ كتاب التعليم المسيحيّ بطريقة السؤال والجواب، مع شروحات وافية للمعلّم، وطبع منه جزءًا أوّل. وبقي الجزء الثانيّ والثالث في عداد المخطوطات. وكذلك كتاب "القواعد"، وكتاب "الإنشاء"، وكتاب "العروض"، وكتاب "الخطابة الدينيّة والمدنيّة".

وفي مطلع سنة ١٩٤٣ دُعي أيضًا إلى إدارة الناديّ الكاثوليكيّ مع الأب بريفو اليسوعيّ. وكان في الوقت عينه محاميًا عن وثائق الزواج في المحكمة الأسقفيّة مدّة خمس سنوات. وتولّى مدّة ثماني سنوات إرشاد أخويّة القدّيسة تريزيا الطفل يسوع للسيّدات والآنسات. ثمّ أُسندت إليه إدارة المدرسة الطائفيّة المجّانيّة في حيّ الشرعاسوس فقبل بتواضع هذا التعيين، وظلّ يسوس تلك المدرسة أربع سنوات، فرفعها بهمّته وسخائه إلى مستوى مرموق، واكتسب صداقات متينة وشعبيّة في الأحياء المجاورة لها.

سيامته الأسقفيّة

فيما كان الأب فتّال منصرفًا بكلّ قواه إلى خدمته الكهنوتيّة، إذ بالكرسيّ الرسوليّ وغبطة البطريرك يدعوانه إلى نيل الدرجة الأسقفيّة. فقد اختاره الكرسيّ الرسوليّ في الأوّل من نيسان سنة ١٩٤٣ أسقفًا على أبرشيّة بانياس ومرجعيون، خلفًا للمثلّث الرحمة المطران إكليمنضوس معلوف المتوفّى عام ١٩٤١. إلاّ أنّ العناية الإلهيّة أرادت أن يكون راعيًا لأبرشيّة حلب. فقد رأى المطران مكاريوس سابا في تلك الأثناء أنّ قواه تنهار بتأثير المرض والتعب. فتداول مع الكرسيّ الرسوليّ والبطريرك كيرلّس التاسع المغبغب، فاختاره معاونًا له مع حقّ الخلافة. وصدرت البراءة البابويّة في هذا الشأن بتاريخ ١٦ تموز ١٩٤٣. وكان من المقرّر أن يرتسم على كرسيّ قيصريّة الكبادوك الفخريّ. إلاّ أنّ المطران مكاريوس سابا توفي في ٢٨ تموز، فسيم الخوري إيسيذورس فتّال مطرانًا أصيلاً على أبرشيّة حلب في الأوّل من شهر آب سنة ١٩٤٣ في القاهرة، عن يد البطريرك كيرلّس التاسع المغبغب، ومساعدة الأسقفين ديونيسيوس كفوري وكيرلّس رزق.

ووصل الأسقف الجديد إلى حلب في ٢٢ آب ١٩٤٣، فجرى له استقبال رائع واتّخذ له نائبًا عامًّا الإكسرخوس إيلاريون عبجيّ. أمّا أمين سرّه فكان الإيكونوموس ميشيل غصن، ثمّ عقبه الخوري جرمانوس مصريّ. وكان الإكسرخوس بطرس جحا وكيلاً للمصروف. وعندما استأثرت رحمة الله بالإكسرخوس إيلاريون عبجيّ في ٧ تموز ١٩٦٠، عُيّن الإكسرخوس جورج ماني نائبًا أسقفيًّا عامًا بدلاً منه.

تقسيم الأبرشيّة إلى مناطق راعويّة وإنشاء لجان طائفيّة

من أبرز نشاطات الأسقف الجديد في مطلع حبريّته أنّه جعل لكهنة الرعايا في دار المطرانيّة سكنى عموميّة ومائدة عموميّة. فأخذوا يقيمون معًا بأوقات محدّدة الصلوات والقراءة الروحيّة وزيارة القربان المقدّس. ثمّ خطا خطوة جديدة، فجزّأ الأبرشيّة إلى عدّة مناطق راعويّة وزّعها على الكهنة، وجعل لهم "بتمونًا" عموميًّا أيّ صندوقًا واحدًا للدّخل يتقاسمونه في آخر كلّ شهر. كما أنّه نظّم الديوان الكنسيّ للنظر والحكم في الدعاوى الزواجيّة. وكان رئيس هذا الديوان الإكسرخوس إيلاريون عبجيّ. ثمّ شكّل مجلس أساقفة حلب محكمة روحيّة مشتركة للطوائف الكاثوليكيّة بمرسوم مؤرّخ في ٧ نيسان سنة ١٩٥١.

وفي الوقت عينه قرّر المطران الجديد إنشاء مجلس طائفيّ استشاريّ للنظر في شؤون الأبرشيّة العامّة ومراقبتها مراقبة عُليا. وإلى جانب هذا المجلس قرّر أيضًا تأليف لجان فرعيّة خاصّة تُعنى كلّ منها بناحية من نواحي الشؤون المذكورة، فكانت لجنة الأوقاف، ولجنة المقابر، ولجنة الجمعيّة الخيريّة، ولجنة الكنائس، ولجنة المدارس، ولجنة الميتم، ولجنة مشاريع الأبرشيّة، ولجنة الأمور القضائيّة.

وفي ١٣ شباط سنة ١٩٦١، عاد المطران فتّال فقسم الأبرشيّة مرّة ثانية إلى رعايا محدّدة المناطق، ووكّل كلّ رعيّة إلى أحد الآباء الكهنة.

كما قرّر المطران الجديد إصدار "نشرة طائفيّة"، أوكل أمر تحريرها لأمين سرّه الإيكونوموس ميشيل غصن، فصدر العدد الأوّل منها في تشرين الأوّل سنة ١٩٤٣. وهي لا تزال تصدر إلى اليوم. وتبعتها بعد فترة مناشير الأحد بعنوان: "النور يُضيء في الظلمة".

رعيّة جبل السيّدة

"جبل السيّدة": هذا هو الاسم الجديد الذي أُطلق على تلك البقعة الآهلة بالسكان، الواقعة على ربوة جنوبيّ المدينة، وراء المقابر المسيحيّة، والتي يفصل بينها وبين الطريق العموميّة مسافة صغيرة. وكانت قبل ذلك تُعرف باسم "الشيخ مقصود". وسبب نشأة هذه المحلّة أنّ بعضًا من سكّان المدينة، ومعظمهم من زقاق الطويل والشوربجيّ والألماجيّ والقبب، ابتاعوا فيها أرضًا سنة ١٩٣٦، وبنوا هنالك بيوتًا للسكنى تخلّصًا من استبداد الملاّكين. وأخذت هذه القرية الجديدة تنمو بسرعة غريبة، حتّى كان فيها سنة ١٩٤٤ نحو ٣٤٥ عائلة مسيحيّة، معظمهم من الأرمن. وقد عمل في تلك الرعيّة بهمّة نادرة المرحوم الخوري يوسف جمل، فبنى فيها معبدًا وفتح مدرسة، وأسّس ناديًا للشبيبة. ولمّا استلم الأب مكسيموس فحمه رعيّة جبل السيّدة، شاد معبدًا جديدًا دشّنه المطران فتّال في ١٦ نيسان ١٩٦١، وطوّر جميع نشاطات الرعيّة، ولاسيّما المدرسة الابتدائيّة، التي تسلّمت إدارتها الراهبات الباسيليّات الحلبيّات في مطلع السنة الدراسيّة ١٩٥٩- ١٩٦٠.

مؤسّسة جورج ومتيلد سالم الخيريّة

في ٢٧ تشرين الأوّل سنة ١٩٤٤ توفي في بيروت المرحوم جورج الياس سالم، وكان ركنًا من أركان التجارة والمروءة والذكاء في حلب. فأعلن

المطران فتّال عن "المشروع الخيريّ الخطير الذي كان ينوي إحياءه، ألا وهو إنشاء مؤسّسة عظيمة للأيتام تحوي زهاء ستمائة منهم، صبيانًا وبنات، وتدعمها مدرسة زراعيّة لها أراضيها الواسعة الأطراف، ودور للصنائع على اختلاف أصنافها، ممّا يجعل من ذلك كلّه شبه مدينة للعمّال، لها منازلها وجنائنها ومعبدها ومستشفاها وشوارعها ومياهها وكهرباؤها...

"ولم يغادر هذه الفانية دون أن يوصي بثلث أمواله لسيادة المطران فتّال، بصفته رئيسًا للطائفة لتحقيق هذا المشروع"... وقد أعلن ورثة المرحوم جورج سالم عزمهم على تنفيذ مشروع الفقيد قبل إطلاعهم على وصيّته، وذلك احترامًا لِما كانوا يعرفونه من إرادة الراحل الغاليّ. أمّا أرملة الفقيد السيّدة متيلد شلحت، فقد آلت على نفسها أن تتبنّى مشروع زوجها الذي تجسّمت فيه روحه، وأن تشرف على إبرازه إلى الوجود بكلّ ما أُوتيت من قوّة تخليدًا لذكرى بطل المبرّات، ولكي تنعم نفسه من أعالي السماء بالنظر إلى الصرح الخيريّ الذي سيشاد من ثمرة أتعاب حياته وجهوده الجبّارة" (عن النشرة الطائفيّة، السنة الثانية، صفحة ٢٦- ٢٨).

وفي أواخر عام ١٩٤٧، لمّا عرف المطران فتّال بأنّ معهد الأخوة المريميّين في حيّ السبيل معروض للبيع، بادر واشتراه بمبلغ عشرين ألف ليرة ذهب، وأعدّه لكي يكون مدرسة للصنائع، وأخذ يفتّش مع المرحومة متيلد سالم عن رهبانيّة تتولّى إدارته، إلى أن تمّ الاتّفاق على تسليم الإدارة للآباء السالزيان. وفي شتاء سنة ١٩٤٨ جاء الرئيس الجديد للمعهد الخوري يعقوب حلو، ومعه سبعة من الكهنة واثنان من الأخوة، وجعل يدرس إمكان فتح المدرسة الصناعيّة بعد تجهيزها. وقد فتحت المدرسة أبوابها في خريف سنة ١٩٤٨. وفي أواخر سنة ١٩٤٨، تمّ إنشاء مؤسّسة جورج ومتيلد سالم الخيريّة بحلب، على أن "تدخل المؤسّسة المذكورة ضمن نطاق مشاريع طائفة الروم الكاثوليك بحلب. ولها شخصيّة معنويّة مستقلّة، مع ما يلزم هذه الشخصيّة من الاستقلال الإداريّ والماليّ" (النشرة الطائفيّة لعام ١٩٤٨، العدد ٦، صفحة ٤٢).

وتعيّن متروبوليت الروم الكاثوليك بحلب رئيسًا أعلى لهذه المؤسّسة، تساعده السيّدة متيلد سالم، ولجنة خاصّة مؤلّفة من السّادة سليم بك جنبرت وإدمون بك حمصيّ والأستاذ عزّت صقال والأستاذ نعّوم سيوفيّ والسيّد أنطوان أسود والسيّد شارل جرمق.

وهكذا نشأت تلك المؤسّسة العظيمة التي ما زالت تقوم حتّى اليوم برسالتها الإنسانيّة السامية، والتي رعاها المطران فتّال والسيّدة متيلد سالم بحنوّ الآباء والأمّهات حتّى آخر يوم من حياتهما، ويرعاها اليوم إلى جانب راعي الأبرشيّة ابن شقيقتها السيّد رولان دي صعب، الذي كرّس وقته وقلبه لمتابعة هذا المشروع الإنسانيّ العظيم.

الوطنيّ الكبير والمناضل عن الكنيسة

تمكّن المطران فتّال بحنكته وجرأته أن يحفظ حلب من الدّمار الذي لحق دمشق في أيار عام ١٩٤٥. وكانت له اليد الطولى في ضمّ شمل مختلف عناصر الشعب حول فجر الاستقلال الوطنيّ.

فما أن انتهى عهد الانتداب الفرنسيّ في سورية وأشرقت شمس الاستقلال على بلادنا حتّى بدا للعيان دور المطران فتّال كزعيم وطنيّ كبير مخلص لشعبه ووطنه، وحافظ على هذا الدور حتّى آخر أيامه. فنحن نسمعه مثلاً يتلفّظ بالعبارات الخطيرة التالية في الحفلة التي أُقيمت في حلب بتاريخ ٢١ حزيران ١٩٤٥، ودُعيت "حفلة التآلف الوطنيّ": "هل في الدنيا أشرف وأجمل وأسمى من عاطفة الوطنيّة؟ وهل في الدنيا ما يفوق الوطن شرفًا وسموًّا وجمالاً؟... نحن أبناء أمّة واحدة هي الأمّة العربيّة السوريّة، لها مذاهبها المختلفة، ولكن ليس لها إلاّ وطن واحد ووطنيّة واحدة. نحن في هذه البلاد أبناء أمّة واحدة، لكلّ من أفرادها على اختلاف معتقدهم الدينيّ نفس الحقوق، وعلى كلّ فرد من أفرادها نفس الواجبات. وما أجملنا أمّة واحدة، وشعبًا واحدًا، وكلمة واحدة، وقوّة واحدة، في السرّاء وفي الضرّاء، لا نعرف لنا صديقًا إلاّ مَن أضمر الخير لبلادنا، ولا عدوًّا إلاّ مَن حاول المسّ من كرامتها والنيل من سيادتها".

وقد قدّر المسؤولون هذا الموقف المشرّف من راعي الأبرشيّة الجديد، لاسيّما وأنّه في منتصف ليل الأربعاء ٤ تموز ١٩٤٥ أُلقيت قنبلة على غرفة نوم أحد كبار وجهاء الطائفة والوزير السابق إدمون بك حمصيّ. فتوتّر الجوّ في المدينة، لكنّ المطران فتّال استطاع تهدئة الخواطر، مع الاحتجاج الشديد على مثل أعمال العنف هذه، وذلك بمساعدة محافظ المدينة إحسان بك الشريف، وقائد الشرطة حسني بك البحره.

وفي ٧ تشرين الثانيّ ١٩٤٥ زار حلب رئيس الجمهوريّة السوريّة شكري بك القوتلي. فأقامت له الطوائف الكاثوليكيّة حفلة شائقة في الناديّ الكاثوليكيّ، كان فيها مسك الختام للمطران فتّال الذي قال: "كيف لا يشعر المرء بالنشوة

الأدبيّة تجتاح سائر أعضائه، بالغة منه قلب العظام، وقد علم أنّ هذه السماء التي تغطّيه هي سماؤه... وأنّه يحكم ذاته بذاته، وأنّ مَن لهم سلطة عليه إنّما هم أناس ما كانوا ليحوزوا تلك السلطة لولا أنّه، والبلاد ديمقراطيّة، رضي هو بهم حكّامًا أو مأمورين، وبكلمة واحدة، أنّه مواطن في بلاد مستقلّة، بيدها وحدها إدارة شؤونها، وبيدها وحدها أمر سيادتها؟ ولله در هذه السيادة وهذا الاستقلال! وما أبهاك يا وطن في أعيننا! وما أعذب ذكراك في قلوبنا".

وقد قدّرت الحكومة السوريّة مواقف المطران فتّال الوطنيّة فمنحته بتاريخ ١٢ نيسان ١٩٤٦ وسام الاستحقاق السوريّ من الدرجة الأولى. وقد صرّح له بهذه المناسبة عطوفة الدكتور إحسان بك الشريف محافظ حلب بقوله: "لقد دافعتم، يا صاحب السيادة، عن أبنائكم دفاع الراعيّ عن غنمه، دون أن تمسّوا جانب الحكومة بما من شأنه أن يعرقل مساعيها. وبذلك قدّمتم دليلاً ساطعًا على وطنيّة صادقة ممتازة". وبناء على طلب المطران فتّال، سبق موعد الاحتفال بعيد الجلاء من ١٨ و١٩ نيسان إلى ١٧ منه احترامًا ليومي الخميس والجمعة العظيمين الواقعين في هذين اليومين، وهذا بالرغم من أنّ الدعوات كانت قد وُجّهت إلى رؤساء الدول العربيّة.

وفي الوقت عينه أنعم قداسة البابا على محافظ حلب إحسان بك الشريف بوسام رفيع تقديرًا لجهوده ومحبّته لجميع المواطنين دون تمييز.

وقد أبى محافظ حلب الجديد معالي الأمير مصطفى بك الشهابيّ إلاّ أن يقلّد بيده المطران فتّال وسام الاستحقاق السوريّ المذهَّب، وذلك في حفلة شائقة أُقيمت في دار الحكومة يوم الخميس ١٨ تموز ١٩٤٦. وقال المطران فتّال بهذه المناسبة: "يشهد لي ضميري أنّي كنتُ دومًا مخلصًا في ما قمتُ به من الواجب نحو بلادي. نعم ما قصدت يومًا، في ما كان يوحيه إليّ الضمير من الأعمال، سوى منفعة أبناء وطنيّ، من شرّ أدرأه أو خير أقدّمه. قصدت بمنتهى الذمّة والإخلاص، في كلّ ما صنعت من أقوال، أو أتيت من أعمال، هدفًا واحدًا لا غير، وهو أن أجمع بين أبناء أمّتي العزيزة، بعد أن اعتبرتها أمّة واحدة، على اختلاف ما فيها من الأديان والمشارب والمذاهب، فأجعل لأفرادها كلمة واحدة، وأجعل منها روحًا واحدة وقلبًا واحدًا، في كلّ ما يؤدّي إلى خير الوطن وتقدّمه وفلاحه".

وفي عاصفة الأزمة الفلسطينيّة اهتمّ المطران فتّال بالقضيّة، فسند حقوق العرب في خطاباته. وأقام صلوات خاصّة في الكنائس لأجل السلام في

الأراضي المقدّسة ولأجل انتصار الحقّ. واهتمّ بإغاثة اللاجئين الفلسطينيّين، وأمّن للكثير منهم كرامة العيش.

وجاهد كثيرًا لكي يمنع في صيغة الدستور السوريّ كلّ تمييز عنصريّ أو مذهبيّ. ويوم اثنين الفصح الموافق ١٠ نيسان سنة ١٩٥٠، بينما كانت الجماهير محتشدة أمام الكنيسة الكاتدرائيّة في مظاهرة احتجاج على المشروع الدستوريّ، فاه المطران فتّال بكلمة ملتهبة صفّق لها الجميع، وعدّل الدستور.

وفي عهد الحكومات ذات الطابع الفرديّ التي توالت على سوريا بعد عام ١٩٥٠ جاهد المطران فتّال بشجاعة لكي يحمل السلطات الرسميّة على احترام الحريّات الأساسيّة للمواطنين، وقد مات وهو في حلبة الجهاد.

لم يتدخّل المطران فتّال مباشرة بالسياسة، بل تعامل مع جميع السلطات الشرعيّة وحاول بإخلاص أن يحملها على احترام حقوق المواطنين وحريّاتهم الأساسيّة. على أنّ فضله الكبير قام بأن وضع في المسيحيّين الثقة بالعهد الجديد، وأقنع جميع أبناء الوطن بصدق وطنيّة المسيحيّين وإخلاصهم لقوميّتهم.

"ذات يوم من عام ١٩٤٥، والبلاد تلتهب نارًا، جاء رجل المخابرات الإنكليزيّة من القاهرة، ومعه بعض الضباط الإنكليز، يزورون المطران فتّال في مطرانيّته، ويتحدّثون إليه عن حالة الأمن في البلاد. وأثناء الحديث، عرض رجل المخابرات على سيادته خدمات الجيش البريطانيّ إذا اقتضى الحال... وانتفض سيادته من كرسيّه ووقف يلوّح بيديه وهو يعلن أنّ الحديث قد خرج عن موضوع الزيارة ويقول: شكرًا! إذا اقتضى الحال وتطلّب تدخّل أيّ جيش في شؤون البلاد فلن يكون سوى الجيش السوريّ، حامل العلم السوريّ. إنّه وحده الذي نعتمد عليه ونثق به ونركن إلى حمايته... وخرج الضابط الإنكليزيّ الكبير يجرّ أذيال الخيبة" (عن مجلّة السنابل، العدد ٣٧٤).

تأسيس مدرسة القدّيسة كاترينا

في ربيع سنة ١٩٤٦، سعى المطران فتّال إلى تأسيس مدرسة جديدة للبنات بحلب، فساعد راهبات المعونة الدائمة على اقتناء دار الراهبات الإيطاليّات، المعروفة قديمًا بمدرسة روما، في حيّ العزيزيّة. وهي التي عُرفت في ما بعد بمدرسة القدّيسة كاترينا. وقد فتحت أبوابها في ١٥ تشرين الأوّل سنة ١٩٤٦. وفي طليعة المتبرّعين لشراء وتأثيث هذه المدرسة كان المتروبوليت مكسيموس الصائغ، الذي كان أسّس الرهبانيّة المذكورة، وعدد من رجالات

حلب وسيّداتها، وفي مقدّمتهم المرحوم كامل قندلا وعائلة المرحوم جرجي يتيم. وكان في النيّة بادئ بدء تسميتها "مدرسة القدّيس نقولاوس للبنات"، واعتبارها من المدراس التي تنفق عليها المطرانيّة بالذات ثمّ سُمّيت بمدرسة القدّيسة كاترينا، بملكيّة راهبات المعونة الدائمة وإدارتهنّ. وقد جاء في النشرة الطائفيّة لسنة ١٩٤٧، صفحة ٦١: أنّ المطران فتّال "لم يُنشئ هذا المعهد، الأوّل من نوعه في حلب، دون أن يطمر في أساسه تضحيات ماليّة وأدبيّة جمّة لا يعلم بها سوى الله".

مدرسة القدّيس ديمتريوس للبنات

وإلى جانب هذه المدرسة الفخمة بنى المطران فتّال سنة ١٩٤٦ مدرسة أخرى في حيّ الجابريّة، عُرفت باسم "مدرسة القدّيس ديمتريوس للبنات". وقد كلّفته هذه المدرسة الأولى مقدار سبعين ألف ليرة سورية. ثمّ ابتاع من المرحوم عبود باتري معمل النسيج المجاور للمدرسة وأضافه إليه. وقد تمّ شراء هذا المعمل في ١٣ كانون الأوّل سنة ١٩٥٤ ودفع ثمنه / ٨٧٥٠٠/ ل. س. وقد عهد المطران فتّال بإدارة هذه المدرسة إلى راهبات سيّدة المعونة الدائمة، اللواتي ربّين أجيالاً من الفتيات والزوجات والأمّهات الصالحات. وقد ساعد الرهبات كثيرًا في إدارة المدرسة وتوجيهها الروحيّ الخوري ميشيل يتيم، الذي كان في الوقت عينه مديرًا لمدرسة القدّيس ديمتريوس للذكور، والخوري فيلبس أورفلي.

مدرسة مار الياس

كما استلم المطران فتّال سنة ١٩٥٢ مسؤوليّة مدرسة مار الياس الحيّ في الرمضانيّة، التي كان قد بناها على نفقته مع الكنيسة المجاورة المرحوم الياس سالم، والد المرحوم جورج سالم، وذلك باسم جمعيّة التعليم المسيحيّ. وقد عهد بإدارتها إلى الأب بولس يتيم. وقد وهب الخوري بطرس جحا من ماله الخاصّ للطائفة أرضًا ملاصقة لهذه المدرسة مساحتها ٢٥٦ مترًا مربّعًا.

مدرسة القدّيس نيقولاوس الأسقفيّة

عُني المطران فتّال بتوسيع مدرسة القدّيس نيقولاوس الثانويّة. فاقتنى لذلك دارين مجاورتين لها، فهدمهما، كما هدم الواجهة الشرقيّة من الدار الكبيرة القديمة، وبنى مكانها جناحًا عصريًّا على ركائز أعمدة. فأصبح للمدرسة

صحن واحد كبير في وسطه رواق صفوف. فاتّسعت واكتسبت وحدة وجمالاً. وانتهت الأعمال في أيلول سنة ١٩٦١. ومن بين رؤساء المدرسة ومديريها الذين تفانوا في خدمتها من إكليروس الأبرشيّة نذكر الأرشمندريت جبرائيل سمّان والخوري مكسيموس فحمه. يساعدهما الأرشمندريت ثاوفانوس زيتونه.

الميتم الطائفيّ والجمعيّة الخيريّة

أبدى المطران فتّال عناية خاصّة بالميتم الطائفيّ الذي كان قد أسّسه سنة ١٩١٩ المطران مكاريوس سابا. وتعاقب في إدارة الميتم الاكسرخوس إيلاريون عبجيّ، والآباء كيرلّس عقّاد ويوسف جمل ونقولاوس شحّود وثاوفانوس زيتونه ويوحنّا برغل وجورج ماني وشاروبيم سابا الخ... وقد اهتمّت السيّدة متيلد سالم مدّة ثلاث سنوات بهذا الميتم، إلى حين افتتاح المدرسة الصناعيّة التي دُعيت باسم زوجها المرحوم جورج سالم، وكان من كبار المحسنين إلى الميتم المرحوم ثابت ثابت، الذي كان يرسل له كلّ سنة مئة جنيه مصريّ، وترك له في وصيّته ألف جنيه حالت ظروف التركة دون وصولها.

وفي أيام المطران فتّال بلغ عدد اليتامى الستّين. وقد خصّصت لهم مدرسة ابتدائيّة، ومطبعة ومصنع خياطة ومصنع أحذية وفرقة موسيقى. وأنّ عائلة المرحوم ألبير حمصيّ تبرّعت للطائفة بدار كبيرة محاذية للميتم الطائفيّ، قُدّرت قيمتها بما لا يقلّ عن سبعمئة ليرة ذهبيّة، لكي يتوسّع أولاد الميتم باستعمالها إضافة للمبنى القديم المخصّص لهم.

ويوم الأحد ٤ كانون الأوّل سنة ١٩٤٩، احتفلت الجمعيّة الخيريّة بالذكرى الخمسينيّة لتأسيسها سنة ١٨٩٩ على عهد المطران كيرلّس جحا. وكان إذ ذاك رئيسها السيّد فتحي أنطاكيّ، ومرشدها الخوري بطرس جحا. وتلى السيّد نجيب مكربنه تقريرًا مسهبًا عن تاريخ الجمعيّة ونشاطاتها الاجتماعيّة.

وفي إحدى قاعات الميتم الطائفيّ كانت تجتمع اللجنة التي أسّسها المطران فتّال "لتزيين الكنائس، والسهر على نظافتها". وكانت اللجنة تضمّ سنة ١٩٥٠ اثنتين وعشرين سيّدة وفتاة، برئاسة السيّدة سامية كعكة.

كما زخرت الحياة الطائفيّة في عهده بشتّى مظاهر النشاط الراعويّ، من إقامة الرياضات، والاهتمام بالكشّاف وبالشبيبة العاملة، وزيارة السجناء، وإدارة الأخويّات وإقامة رابطة أمّهات الكهنة والرهبان والراهبات، وحفلات المناولة الأولى، والتطواف بالقربان المقدّس في الأحياء الشعبيّة، وزيارة كنيسة القدّيس جاورجيوس بحيّ الشرعاسوس الخ... كما أنّ المطران فتّال

شجّع عددًا من كهنته على التخصّص في العلوم الكنسيّة، وأرسلهم إلى جامعات أوروبا، ومنهم المرحوم الخوري عبدالمسيح عبجيّ، والعلاّمة الأرشمندريت أغناطيوس ديك.

أفراح الطائفة

من ٨ إلى ١٧ أيار سنة ١٩٥٢ زار مدينة حلب البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ، وكان صديقًا حميمًا للمطران فتّال، الذي تفنّن إلى أقصى حدّ في إكرامه والاحتفاء به. وكان المطران فتّال قد شيّد بجوار المطرانيّة بيتًا للضيافة، نزل فيه البطريرك، فعُرف حتّى الآن بعمارة البطريرك، أو "قصر الضيافة". وعاد البطريرك فزار حلب مرارًا عديدة أخرى، لكن بصفة غير رسميّة.

ومن ٦ إلى ١١ أيار سنة ١٩٥٢ أقامت حلب المؤتمر المريميّ الأوّل من نوعه في الشرق الأوسط. وفي ٢٩ كانون الأوّل سنة ١٩٥٣ زار حلب الأب كاستون كورتوا (Courtois)، مدير اتّحاد المشاريع الكاثوليكيّة في فرنسا. فأكرم المطران فتّال وفادته، ومنحه رتبة إيكونوموس.

وفي ٢٠ آذار سنة ١٩٥٥ زار حلب المطران باولو بابالاردو، الوزير المفوّض الأوّل لقداسة البابا لدى الحكومة السوريّة منذ أن تمّ التبادل الدبلوماسيّ بين دولة سوريا والفاتيكان، ونزل ضيفًا على المطران فتّال.

وفي ٢٤ تشرين الأوّل سنة ١٩٥٥ زار حلب المنسنيور كاردين مؤسّس منظّمة الشبيبة العاملة المسيحيّة، وحلّ ضيفًا على المطران فتّال، الذي منحه رتبة أرشمندريت.

وفي ١١ آذار سنة ١٩٥٦، بمناسبة احتفال العالم الكاثوليكيّ بالذكرى الثمانين لمولد قداسة البابا بيوس الثّانيّ عشر، أمر المطران فتّال بتزيين بيت الضيافة في المطرانيّة بشعار البابويّة (المفاتيح والتاج)، وقد صُنع خصّيصًا بشكل جبّار بعلوّ ستّة أمتار، تضيئه مئات المصابيح الكهربائيّة، وبهذه المناسبة أيضًا أرسلت الحكومة السوريّة وفدًا إلى الفاتيكان برئاسة الدكتور منير العجلانيّ، نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدولة، ومن أعضائه الأستاذ رزق الله سالم، نائب حلب.

كنيسة جديدة للقدّيس جاورجيوس

في خريف سنة ١٩٥٢ قرّر المطران فتّال أن يبني كنيسة جديدة للقدّيس جاورجيوس، بسبب بُعد الكنيسة القديمة بحيّ الشرعاسوس عن الأحياء المسيحيّة. فاقتنى أرضًا تنوف مساحتها على الخمسة آلاف متر مربّع في حيّ العروبة، ودفع ثمنها ما يقارب الألفي وخمسمئة ليرة ذهب. وأخذ يناشد أبناء الأبرشيّة على التعاون لبناء تلك الكنيسة الجديدة. وقد استطاع أن يرسي الحجر الأوّل فيها يوم الأحد ١ أيار سنة ١٩٦٠. وكان قد تبرّع الوجيه السيّد جليل بستانيّ بثمن الأرض كاملاً. كما تبرّع السيّد الياس عازار بالإنفاق على أعمال الحفريّات ووضع الأساس وصبّ الإسمنت.

مشاكل المدارس الخاصّة

كان للمطران فتّال دور كبير، بالاتّفاق مع زملائه أساقفة سوريا الكاثوليك، في الحوار مع السلطات الحكوميّة، ولاسيّما وزارة التربية، بشأن المدارس الخاصّة. ففي ١٣ تموز ١٩٥٦ مثلاً حضر إلى المطرانيّة بحلب الأستاذ عبد الوهاب حومد، وزير المعارف، واجتمع إلى السّادة الأساقفة من جميع الطوائف الكاثوليكيّة بحلب، الذين حضروا خصّيصًا إلى المطرانيّة لهذه المقابلة بدعوة وجّهها إليهم المطران فتّال، وتداولوا معًا في جوّ من التفاهم والرضى عن أمور تتعلّق بأحوال المدارس الخاصّة، وما تلاقيه من ضيم المرسوم التشريعيّ رقم ١٧٥. فأظهر الوزير تفهّمًا بعيد المدى. وقد أصدر رؤساء الطوائف المسيحيّة بهذه المناسبة بيانًا قالوا فيه أنّه "من الواجب عليهم أن يطلعوا السلطات العليا على أنّ بعض هذه المراسيم التي صدرت في فترة تعطيل الدستور يصعب عليهم القيام معها بواجباتهم الراعويّة، لأنّها تقضي على حرّياتهم الشرعيّة التي يضمنها دستور البلاد".

ولمّا تضرّرت بعض المدارس من جرّاء حوادث الشغب، قرّرت الدولة السوريّة في تشرين الثّانيّ سنة ١٩٥٦ أن تدفع خمسة وثمانين ألف ليرة سوريّة لكلّ من مدرسة راهبات القدّيس يوسف ومدرسة الراهبات الفرنسيسكانيّات.

بناء دور للسكن

عرف المطران فتّال أن يفيد من أراضي المدافن القديمة التي كانت من حصّة طائفته. فباع البعض منها، وبثمنه بنى دورًا للسكن تدرّ على الوقف مدخولاً يمكّن الطائفة من الإنفاق على موظّفيها ومشاريعها. وهذه الدور كانت

تشكّل ملكًا ذا قيمة، وإن كان مدخولها تدنّى يومًا بعد يوم، حتّى أصبح شبه رمزيّ في وقتنا الحاضر.

تمثال البطريرك مكسيموس مظلوم

في ٢٠ كانون الأوّل سنة ١٩٥٦ تمّ وضع تمثال البطريرك مكسيموس مظلوم في صدر ساحة الكنيسة الكاتدرائيّة مقابل أبوابها الحديديّة. وقد صُنع التمثال في إيطاليا. وهو يمثّل البطريرك مكسيموس مظلوم واقفًا. وفي قاعدة التمثال نحت الفنّان صورتين: الواحدة تمثّل البطريرك أمام السلطان العثمانيّ يطالب بالاعتراف بطائفته مدنيًّا، والثانية تمثّل البطريرك أمام البابا يدافع عن امتيازات الكنيسة الشرقيّة. وقد تبرّع بثمن التمثال المغترب بنجمان مظلوم.

راهبات سيّدة المعونة الدائمة في مستشفى الكلمة

في غضون شهر شباط سنة ١٩٥٧ حضر إلى حلب فريق من راهبات سيّدة المعونة الدائمة لتسلّم إدارة مستشفى الكلمة، وذلك عن طلب من الأستاذ فتح الله صقال، مؤسّس المستشفى ومأوى العجزة المجاور له، وبمساعي المطران فتّال، الذي ذهب إلى دمشق خصّيصًا لهذه الغاية، مُلحًّا على البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ مؤسّس الرهبانيّة المذكورة، بوجوب تلبية هذا الطلب. وكانت قد انتهت مدّة العقد الذي أُبرم بين الأستاذ فتح الله صقال والراهبات الفرنسيسيّات اللواتي تولّين إدارة المستشفى ردحًا من الزمن. وفي اليوم التالي لوصول راهبات سيّدة المعونة الدائمة، وافاهنّ المطران فتّال حاملاً في سيارته القربان المقدّس ضمن بيت القربان ليمكث يسوع معهنّ في غرفة وادعة أنيقة أعددنها لاستقباله.

إنشاء جامعة حلب

منذ مطلع سنة ١٩٥٧، اشترك المطران فتّال في المباحثات التي جرت كلّ أسبوع في دار الكتب الوطنيّة للتداول في أمر إنشاء جامعة في حلب، على غرار جامعة دمشق. وقد تشكّلت لجنة خاصّة تضمّ المطران فتّال ورهطًا من رجال القانون والهندسة والطب والصيدلة والتربية والزراعة والتجارة، للاتصال بالمراجع المختصّة في دمشق لتحقيق هذا المشروع الحيويّ. وقد اقتصرت المساعي في بادئ الأمر على إنشاء كلّيتي زراعة وتجارة، إلى

جانب كلّية الهندسة التي كانت قائمة إذ ذاك. وأنّ المطران فتّال بذل الجهود الكبيرة في سبيل تحقيق أمنية الحلبيّين بالحصول على جامعة في بلدهم.

نادي الشبيبة العاملة

منذ شهر شباط ١٩٥٧ بدأ المطران فتّال يسعى لإشادة طابق ثان فوق معمل باطري سابقًا، والذي كان قد تحوّل منذ سنوات إلى قسم من مدرسة القدّيس ديمتريوس للبنات في حيّ الجابريّة، لكي يكون هذا الطابق الجديد ناديًا للشبيبة العاملة أسوة بناديّ الشبيبة الكاثوليكيّة بحيّ العزيزيّة. وقد خصّ الأستاذ فتح الله صقال هذا المشروع بعشرة آلاف ليرة من تركة أخيه المرحوم الأستاذ عزّت صقال. وأنّ الصالة الكبيرة في هذا النادي، التي أطلق عليها اسم "صالة المطران فتّال"، تتّسع لألف كرسيّ. فمساحتها ٣٢ مترًا بعرض ١٥ مترًا تقريبًا. وفوقها سبع غرف لاجتماعات الناديّ.

مع المقاومة الشعبيّة

في نهاية عام ١٩٥٧، وجّه أساقفة الطوائف المسيحيّة بحلب نداء إلى أبنائهم لكي يتطوّعوا في صفوف المقاومة الشعبيّة، جاء فيه: "أنّ الواجب الوطنيّ يحتّم علينا اليوم ألاّ ندّخر وسعًا من مالنا، ولا من جهودنا، ولا من راحتنا، ذودًا عن حياض وطننا العزيز الغاليّ، وأن نسهر السهر الناجع لصون سيادته وحفظ استقلاله كاملاً غير منثلم. إنّ الواجب الوطنيّ يحتّم علينا اليوم أن نتكتّل كلّنا صفًّا وطنيًّا واحدًا، ساعين كلّنا بجرأة وإقدام لخدمة مصلحة الوطن، نناهض مناؤة تحاول المسّ من كرامتنا القوميّة أو النيل من سيادتنا الوطنيّة".

وبهذه المناسبة، في ٢٤ تشرين الأوّل سنة ١٩٥٧، قام اسماعيل بك القولي محافظ حلب، وجمع غفير من كلّ الهيئات الشعبيّة والدينيّة والعسكريّة والنقابات ورؤساء الغرف والمؤسّسات العامّة ورجال الصحافة، واتّجهوا نحو طريق المسلمية، حيث ألقى المحافظ خطابًا حماسيًّا، وعلى إثره بدأ بحفر الخنادق التي سيتولّى الجيش والشعب معًا تهيئتها استعدادًا للطوارئ.

وكان مشهدًا رائعًا عندما نهض مفتي حلب والمطران فتّال يساعدان المحافظ في حفر الخنادق. فكان ذلك مثلاً مؤثرًا للتضامن والتكاتف والتآلف بين مختلف عناصر الأمّة.

ويوم السبت ٥ تشرين الأوّل ١٩٥٧ أراد رئيس الجمهوريّة السوريّة شكري بك القوتليّ أن ينتهز فرصة مروره بحلب ليزور الطوائف المسيحيّة في

المدينة، التي التأمت كلّها في مطرانيّة الروم الكاثوليك. فاستقبله المطران فتّال بحفاوة منقطعة النظير. كما كان المطران فتّال موضوع حفاوة الرئيس القوتليّ وصحبه أقطاب العهد الذين حضروا إلى حلب للاحتفال بمهرجان القطن الأوّل. ثمّ ذهب المطران فتّال إلى دمشق للتداول مع أصحاب الشأن هنالك بقضايا تختصّ بالمسيحيّين عامّة، وبأبناء طائفته خاصّة. وكان يلقى دائمًا في جميع الأوساط الحكوميّة أجمل ترحيب.

في عهد الوحدة مع مصر

وتنقلب الأيام، وتتمّ الوحدة مع مصر. ويقوم المطران فتّال من جديد بدور وطنيّ هامّ في جمع الكلمة ورصّ الصفوف والدّفاع عن الكرامة وحقوق الشعب. وقد زار الرئيس جمال عبد الناصر حلب في ٢٧ شباط سنة ١٩٥٩، وكان المطران فتّال في طليعة مستقبليه. ثمّ عاد فزارها في منتصف شهر شباط سنة ١٩٦٠. وفي ١٨ شباط وضع الحجر الأساسيّ لدير راهبات الكرمل، المعروف بكرمل سيّدة سوريا.

نحو السماء

يوم الإثنين ٢٧ شباط ١٩٦١ لبّت نداء ربّها المأسوف على أخلاقها وكرمها المحسنة الكبيرة متيلد شلحت، أرملة المرحوم جورج سالم. فأقامت لها حلب يوم الأربعاء التاليّ جنازة ملوكيّة، وقد أبّنها المطران فتّال بدموع القلب، لِما كان يربط بينهما من صداقة وتعاون في العمل. وما عتَّم المطران فتّال أن تبعها، فلبّى نداء ربّه إلى حياة السعادة والخلود صباح يوم الإثنين ٤ أيلول ١٩٦١. وقد شيّعت حلب جثمانه يوم الأربعاء ٦ أيلول برئاسة البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ، الذي رثاه بعبارات مؤثّرة، ختمها بهذا الكلام: "منذ مدّة قريبة انتقلت إلى رحمة الله تلك المحسنة الكبيرة، متيلد سالم، التي اشتركت معها في تأسيس ذاك المعهد الذي يتربّى فيه مئات من الشبّان. كانت هي الأمّ، وكنت أنت الأب. فاذهب إلى السماء برفقتها، وهناك تتكلّمان عن مشاريعكما وأعمالكما، تلتمسان من لدن العليّ المؤازرة الفعّالة لتكتمل كلّها على النحو الأوفى والأكمل. وإلى الملتقى أيّها الأخ الحبيب"!.

وأنّ مؤسّسة جورج ومتيلد سالم الخيريّة أحيَتْ ذكرى الراحل الكريم في ١٧ تشرين الثانيّ سنة ١٩٦١، كما أقامت له الطائفة حفلة تأبينيّة، تحدّث فيها الأستاذ أنيس نصر، ومحافظ حلب رفعت بك زريق، والأستاذ فتح الله أسيون،

والمطران فرنسيس أيوب، والمطران إيليّا معوّض، والأستاذ محمد سيّد الزعيم، والأستاذ نعّوم سيوفيّ، ورثاه الشاعر الأستاذ أنطوان شعراويّ بقصيدة مؤثّرة، استهلّها بهذه الأبيات:

قُمْ من سُباتِكَ ظافرًا يا سيّدُ فكفى الرعيّة حرقةٌ وتنهُّدُ
قُمْ من سُباتِكَ فالمُصابُ كأنّهُ في كلّ يومٍ من جديدٍ يولدُ
عوَّدتنا نحيا بقربك أسرةً فعلامَ أنتَ على الفراقِ تعودُ
أأبي! وكم ناداك مثلي يا أبي طالَ النَّوى ودَمَتْ لفقدك أكبُدُ
إنّي شعرتُ وقد نعوك كأنّما يُتمي بفقد والدي يَتجدَّدُ

كان المطران فتّال ولا شكّ من أعظم الأساقفة الذين عرفتهم أبرشيّة حلب في هذا العصر. كان محبًّا للكنيسة والوطن، مستعدًّا لخدمة الجميع، عطوفًا على الفقير واليتيم، متجرّدًا وسَخيًّا، متوكّلاً قبل كلّ شيء على العناية الإلهيّة، التي كان يسمّيها "مصرفه الخاصّ". كان جريئًا، لا يخشى أن يقول كلمة الحقّ، تجاه أيّ إنسان. وكان في خدمة الجميع، دون تمييز بين طائفة وطائفة. وكان ينزعج للكبير والصغير. فكان يقصده الناس في كلّ ساعات النهار، وأحيانًا في ساعات الليل أيضًا. وممّا زاد شعبيّته ترفّعه عن حطام الدنيا، وفتح يده لكلّ مَن كان يقصده، فمات وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، مع أنّ ملايين الليرات مرّت بين يديه. وكان يسعف بسخاء كثيرًا من العائلات المستورة، من أبناء رعيّته ومن غيرهم. فهو من الأساقفة الذين سوف تذكرهم حلب طويلاً في طليعة رعاتها.

- ٢٤ -
أثناسيوس توتونجيّ
(٥ كانون الأوّل ١٩٦١- استقال في ٦ آذار ١٩٦٨)

نشأته

هو ميشيل بن نقولا ميخائيل توتونجيّ وأوغسطا ابنة بيازو باترينا. أبصر النور في الإسكندرونة في ٢ شباط سنة ١٨٩٩، وكان والداه قد نزحا إليها من حلب لبعض الأعمال التجاريّة. فدخل مدرسة أخوة المدارس المسيحيّة في

الإسكندرونة. ثمّ أرسله المرحوم الأب سلوانس خرّوف، الراهب الباسيليّ الحلبيّ، كاهن رعيّة الإسكندرونة إذ ذاك، إلى دير الشير ليترهّب. فوصل إلى الدير في ١ تشرين الأوّل سنة ١٩١٢. وحين بلغ الخامسة عشرة من عمره لبس ثوب الابتداء الرهبانيّ في ١٠ تشرين الأوّل سنة ١٩١٤ عن يد الرئيس العامّ الإيكونوموس يوحنّا خوّام، ودُعي أثناسيوس. وبعد سنتين قضاهما في مرحلة الابتداء، أبرز نذوره الرهبانيّة الأولى في ٢٩ تشرين الأوّل سنة ١٩١٦ على يدَي النائب العامّ على الرهبانيّة الباسيليّة الحلبيّة إذ ذاك الأرشمندريت بندكتوس عبد النور. فقضى في دير الشير أربع سنوات راهبًا دارسًا وعاملاً. ثمّ أرسله رؤساؤه إلى المدرسة الصلاحيّة بالقدس الشريف في ٣٠ آب سنة ١٩٢٠، بعد أن أبرز نذوره الرهبانيّة الاحتفاليّة. فتلقّن في المدرسة المذكورة علومه الثانويّة والفلسفيّة واللاهوتيّة، فقضى فيها سبع سنوات متوالية. ونال درجة الشمّاس الإنجيليّ في دير الشير في ٢٥ تموز سنة ١٩٢٦، على يد متروبوليت صور مكسيموس الصائغ، والسيامة الكهنوتيّة في المدرسة الصلاحيّة ذاتها في ٢٠ تموز سنة ١٩٢٧ على يد المطران غريغوريوس حجّار. وبقي في المدرسة الصلاحيّة سنتين متواليتين يعلّم فيها اللغة العربيّة واليونانيّة.

ثمّ عاد إلى رهبانيّته سنة ١٩٢٩ بدعوة من رئيسه العامّ الأرشمندريت لاونديوس كلزيّ، فشغل على التوالي وظيفة معلّم المبتدئين، ومدرّس في إكليريكيّة دير الشير، ثمّ كاهن لرعيّة سوق الغرب، ثمّ رئيس مدرسة النهضة الوطنيّة في بمكّين، ثمّ معلّم المبتدئين في دير النبيّ أشعيا قرب برمانا (١٩٣٢)، ثمّ رئيس الدير المذكور.

وفي حزيران سنة ١٩٣٣، حين شغر كرسيّ الرئاسة العامّة، عيّنه المجمع الشرقيّ المقدّس رئيسًا عامًّا على الرهبانيّة الباسيليّة الحلبيّة، وخلع عليه البطريرك كيرلّس مغبغب بهذه المناسبة رتبة إيكونوموس. ولم يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر.

ولمّا استقال المطران باسيليوس خوري، رئيس أساقفة حمص وحماه ويبرود، عن منصبه سنة ١٩٣٨ لأسباب صحيّة، عيَّن الكرسيّ الرسوليّ مباشرة الرئيس العامّ أثناسيوس توتونجيّ مطرانًا على حمص وحماه ويبرود بتاريخ ١ تشرين الأوّل سنة ١٩٣٨. وتمّت سيامته الأسقفيّة في دير الشير يوم الأحد ٢٦ تشرين الثانيّ من السنة المذكورة عينها، بوضع أيدي البطريرك كيرلّس التاسع مغبغب والمطرانين مكسيموس صائغ وغريغوريوس حجّار.

فخدم هذه الأبرشيّة المترامية الأطراف ثلاثًا وعشرين سنة بغيرة ونزاهة، إلى أن عيَّنه البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ، عند وفاة المطران إيسيذورس فتّال، مدبّرًا بطريركيًّا لأبرشيّة حلب الشاغرة.

مطران حلب

يقول البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ في صكّ تعيين المطران توتونجيّ: "لمّا لم نجد، بعد البحث الطويل، شخصًا تجسّم فيه الإجماع، دعونا إخوتنا الأساقفة الأجلاّء أعضاء السينودس المقدّس إلى الاجتماع برئاستنا في بيروت يوم الثلاثاء ٥ كانون الأوّل ١٩٦١، وبعد الابتهال إلى الله تعالى بكلّ ثقة، تداولنا طويلاً واستعرضنا حلولاً مختلفة، وأخيرًا استقرّ الرأي على نقل سيادة أخينا الجليل كيريوس أثناسيوس توتونجيّ من أبرشيّة حمص وحماه ويبرود إلى أبرشيّة حلب وسلوقية وقورش".

ودخل المطران الجديد مدينة حلب في ٣١ كانون الأوّل سنة ١٩٦١. وكان نائبه العامّ في بداية أمره الاكسرخوس جورج ماني، ثمّ خلفه الاكسرخوس بطرس جحا. وقام بأعمال أمانة سرّه الخوري جرمانوس مصريّ.

في عهده، من ١٣ إلى ٢٠ أيار ١٩٦٢، احتفلت حلب باليوبيل الفضّيّ لمنظّمة الشبيبة العاملة المسيحيّة.

وفي بداية عهده أيضًا، أحسّت بعض السيّدات والأوانس بالبؤس الإجتماعيّ والإهمال الذي يعانيه سكان دار العجزة في شارع المبلَّط، فدفعتهنّ روح المحبّة المسيحيّة إلى النهوض بهذا المأوى ليكون لائقًا بشرف الفقير، الإنسان والمسيحيّ، فتألّفت منهنّ لجنة باسم "الجمعيّة النسائيّة لرعاية العجزة واليتيمات"، كانت رئيستها الأولى الآنسة لوريس عازار. فتمّ على يدها إصلاح الدار، وأدخلت إليها الماء والكهرباء، وتجهَّزت الغرف بالأسِرَّة الحديديّة والفرش اللازمة، مع تقديم الطعام اليوميّ الكامل لجميع نزلاء ونزيلات الدار، وكان عددهم إذ ذاك يناهز الخمسين. ونالت الجمعيّة الاعتراف الرسميّ باسم "جمعيّة الرعاية الاجتماعيّة". وهي لا تزال تعمل إلى الآن.

وفي حزيران سنة ١٩٦٢ قام المطران الجديد بزيارة إلى تركيا تفقّد خلالها أحوال أبناء الطائفة في أنطاكية والإسكندرون.

وقد أولى مدارس الطائفة اهتمامه، فألّف "لجنة المدارس الطائفيّة"، برئاسة الاكسرخوس جورج ماني، وعضويّة الأب ميشيل يتيم والسّادة نافع اليان وجوزيف جرمق وأنطوان شعراويّ وأنطوان طحّان. فباشرت هذه اللجنة

للفور أعمالها، فوسَّعت بناء مدرسة القدّيس ديمتريوس للبنين بإضافة طابق جديد عليه، وبشراء دار ملاصقة للمدرسة. وفي مدرسة القدّيس ديمتريوس للبنات، هدمت القسم القديم من المدرسة، وشيَّدت مكانه طابقين جديدين، وذلك قبل افتتاح العام الدراسيّ ١٩٦٢- ١٩٦٣. وتمّ تدشين هذا الجناح الجديد في ١١ كانون الثانيّ سنة ١٩٦٣. وفي صيف ١٩٦٤ ساهمت لجنة من الفتيات الكريمات في بناء طابق جديد في مدرسة جبل السيّدة، برئاسة الآنسة لينا أنطاكيّ. فشاركت اللجنة بخمسة آلاف ليرة سوريّة، ودفع الوقف باقيّ النفقة، ولم تتجاوز الكلفة كلّها ثلاثة عشر ألف ل. س. ولا تزال هذه اللجنة تعمل إلى الآن، بإدارة الآنسة لينا أنطاكيّ توتونجيّ والآنسة إيفا بدويّ، وتُعرف باسم لجنة "مشاريع جبل السيّدة".

واشترك المطران توتونجيّ بجلسات المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثانيّ، ابتداء من جلسة الافتتاح في ١١ تشرين الأوّل سنة ١٩٦٢. وحضر الدورة الثانية التي انعقدت في خريف سنة ١٩٦٣، والدورة الثالثة في خريف سنة ١٩٦٤، والدورة الرابعة في خريف عام ١٩٦٥.

وقد عرف المطران توتونجيّ أن يقدّر فضل المتفوّقين من أبناء الأبرشيّة في مضمار الإحسان والخدمة الإجتماعيّة. فاستحصل على أوسمة بابويّة للسّادة إدمون حمصيّ وجليل بستانيّ وفتحي أنطاكيّ، وقلّدهم إيّاها خلال حفلة عائليّة أُقيمت في دار المطرانيّة يوم الجمعة ١٨ كانون الثانيّ سنة ١٩٦٣. كما استحصل على أوسمة بابويّة مماثلة في مطلع سنة ١٩٦٥ لخمسة آخرين من كبار أبناء الطائفة السّادة قسطنطين مكربنة وميشيل جنبرت وجرجي جبرا خوّام وجوزيف جرمق وإدكار بورغل.

ومنح الخوري كيرلّس عقاد رتبة أرشمندريت بمرسوم أسقفيّ مؤرّخ في ٢ شباط ١٩٦٤.

مشروع كنيسة جديدة للقدّيس جاورجيوس

على أنّ اهتمام المطران الأكبر انصبّ على مشروع بناء كنيسة القدّيس جاورجيوس الجديدة. فألّف لجنة خاصّة لهذا الغرض. وفي ٤ تموز ١٩٦٣ وافقت اللجنة على الخرائط النهائيّة التي وضعها المهندس الإيطاليّ لوشيو دي ستيفانو، وعلى التعديلات التي اقترحها المهندس تشالنكو الاختصاصيّ في هندسة الكنائس الأثريّة في سورية. ولم يعد يمانع من المباشرة بالعمل إلاّ قضيّة مجاري المياه التي طُلِبَ تحويلها من أرض الكنيسة على حساب الوقف.

وفي بداية عام ١٩٦٤ بدأ العمل بإقامة سياج حول الأرض، وكان هدفه إمكان متابعة العمل دون عرقلة مسيرة السيارات وإزعاج المارّة. وكان العمل في الأساس باهظًا وشاقًّا بسبب وجود الطبقة المائيّة وانحدار الطبقة الصخريّة. وسار العمل ببطء. وجاء خريف عام ١٩٦٤ ولم يكن قد أُنجز الأساس إلاّ في النصف الشرقيّ. فاضطرّت الطائفة إلى استخدام الحفّارات للقسم الغربيّ، وصبّ الأساسات على طريقة الأوتاد من الباطون المسلّح. وفي هذا كلّه أنفق المرحوم الياس عازار من ماله الخاصّ ما لا يعرفه إلاّ الله، إذ أبى دائمًا، من باب التواضع المسيحيّ، أن يبوح بما صرفه على هذه الأعمال.

وتوقّف العمل في بداية سنة ١٩٦٥. ثمّ تُوبع في الربيع، وربطت الركائز كلّها بما يُسمّى "الشيناج" وارتفعت العواميد، ثمّ صُبَّ السقف، فانتهى هيكل الطابق الأرضيّ مع الدرج الفخم الذي يؤدّي إلى مدخل الكنيسة من جهة الغرب، وذلك في بدء تشرين الأوّل سنة ١٩٦٥.

ثمّ توقّف العمل من جديد بسبب وفاة المهندس الحلبيّ ويلفور باليّ، المقيم في إيطاليا، والذي التزم مكتبه في روما تجهيز التصاميم. فتأخّرت الخرائط، ونضبت الموارد، ممّا حدا بالمطران توتونجيّ إلى السفر إلى أميركا الشماليّة وإلى فنـزويلا لجمع التبرّعات من أبناء الجالية العربيّة فيهما.

غادر المطران توتونجيّ حلب يوم الأربعاء ١١ أيار ١٩٦٦ متوجّهًا إلى بيروت، ومنها أقلع متوجّهًا إلى بوسطن في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، حيث كلّفه البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ بسيامة الأرشمندريت يوستينوس نجمه أسقفًا وراعيًا لأبناء الطائفة في الولايات المتّحدة. وقد تمّ ذلك بالفعل يوم العنصرة ٢٩ أيار ١٩٦٦. ثمّ زار المطران توتونجيّ الجاليات العربيّة الحلبيّة في سائر أنحاء الولايات المتّحدة وفي كندا. ومنها انحدر إلى فنـزويلا حيث قضى بضعة أشهر في تفقّد الجالية وجمع التبرّعات لكنيسة مار جرجس بحلب. فقد قضى في فنـزويلا وحدها نحو ثلاثة أشهر، من ٢٩ أيلول حتّى ٥ كانون الأوّل ١٩٦٦. وقد رافقه في تجواله في أنحاء فنـزويلا الأب أغناطيوس ديك الذي وصف تفصيلات الرحلة بدقّة وإخلاص، كما ساعد سيادته في جمع التبرّعات ومسك الدفاتر. وكانت حصيلة ما جمعه في الأمريكتين مائتين وثلاثين ألف ليرة سوريّة.

وما أن عاد المطران توتونجيّ إلى حلب حتّى عاد معه العمل في بناء كنيسة مار جرجس الجديدة، بحيث أنّه لمّا استقال عن منصبه في ٦ آذار سنة ١٩٦٨

كانت الأعمدة والجدران والسقف مصبوبة كلّها بالباطون المسلّح، وبُوشر بوضع قالب قبّة الكنيسة العظمى.

من ذكريات مطرانيّته

وفي عهد المطران توتونجيّ ازدهر مشروع مصيف كسب الذي أسّسه وأداره منذ البداية الاكسرخوس جورج ماني، ثمّ سجّله باسم الأبرشيّة حفاظًا عليه، وضمانًا لاستعماله الدائم في الترويح عن أبناء الطبقة العاملة.

وقبيل عيد الميلاد سنة ١٩٦٣ سافر المطران توتونجيّ إلى القدس للاشتراك في استقبال قداسة البابا بولس السادس الذي التقى فيها أخاه البطريرك المسكونيّ أثيناغوراس. وفي ٣٠ أيار ١٩٦٤ رافق البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ في زيارة وديّة إلى البطريرك أثيناغوراس في القسطنطينيّة، وقد اصطحب معه من إكليروس حلب الأرشمندريت أغناطيوس ديك، الذي ترك لنا على صفحات النشرة الطائفيّة وصفًا رائعًا لهذه الزيارة.

وفي ٢٨ حزيران ١٩٦٤ دشّن البطريرك مكسيموس الرابع كنيسة القدّيسة متيلدا التي أقامتها مؤسّسة جورج ومتيلد سالم الخيريّة بحلب. وكان المطران توتونجيّ قد دعاه إلى هذا الاحتفال، وأكرم وفادة بطريركه.

وفي ٢٥ شباط ١٩٦٢ منح المطران توتونجيّ السيامة الكهنوتيّة للأب يوحنّا جاموس، وفي ٥ نيسان ١٩٦٤ للأب حكمت جاموس، وفي ٢٥ كانون الأوّل سنة ١٩٦٦ للأب جورج بلدي. وفي ٥ آذار سنة ١٩٦٧، على أثر استقالة الاكسرخوس جورج ماني من منصب النائب الأسقفيّ العامّ، عيَّن المطران توتونجيّ لهذه الوظيفة الاكسرخوس بطرس جحا. وفي ٨ آذار منح الطالبين الإكليريكيّين جان جنبرت ونقولا صوّاف رتبة الشمّاس الإنجيليّ.

وقد نجح المطران توتونجيّ في غضون شهر أيار ١٩٦٦ في إقناع المطران يوسف معلوف، مؤسّس راهبات الخدمة الصالحة، بتعيين ثلاث من راهباته لإدارة الشؤون البيتيّة في مطرانيّة حلب.

ولمّا تمّ الاعتداء الصهيونيّ على سوريا في حزيران سنة ١٩٦٧، تقدّم المطران توتونجيّ مع سائر أساقفة حلب للتطوّع في الدّفاع المدنيّ والتدرّب على الإسعاف، ووجّه معهم كلمة للمواطنين عن صوت الواجب في هذا الظرف الصعب، وأضاف: "وقد باشرت أفواج الكهنة والراهبات الالتحاق بالمشافي ومراكز الإسعاف للتمرّن والقيام بما سيعهد إليهم من مهمّات إنسانيّة ووطنيّة".

المرض والاستقالة

في مطلع شهر تموز سنة ١٩٦٧ ألمَّت بالمطران توتونجيّ وعكة قلبيّة خطيرة نُقِلَ على أثرها إلى مستشفى القدّيس لويس، حيث تولّى الإشراف على معالجته الدكتور نوئيل مكربنة. وقد أمضى في المستشفى المذكور سحابة شهر كامل أُجريت له خلالها المعالجات اللازمة. ثمّ عاد إلى دار المطرانيّة، واستقرّ في غرفته الخاصّة، ملازمًا الفراش ليستكمل العلاج.

في ٥ تشرين الثانيّ من السنة عينها ١٩٦٧ توفي البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ. وبعد نحو ثلاثة أسابيع، في ٢٣ تشرين الثانيّ، انتخب السينودس المقدّس خلفًا له رئيس أساقفة حيفا والناصرة والجليل جورج حكيم، ودُعي البطريرك مكسيموس الخامس حكيم.

ولمّا كان المطران توتونجيّ قد أيقن من أنّ تردّي صحّته ما عاد يسمح له بمزاولة أعماله كما يجب، قدّم استقالته إلى غبطة البطريرك الجديد بتاريخ ٢ شباط سنة ١٩٦٨. وقبلها السينودس المقدّس في الجلسة التي عقدها في بيروت يوم الأربعاء الموافق ٦ آذار ١٩٦٨، وعُيّن بدلاً عنه المطران نافيطوس إدلبيّ، المستشار البطريركيّ.

منذ ذاك الحين، وبعد أن عاد المطران توتونجيّ بضعة أيام إلى حلب لكي يرتّب أموره ويودّع أبناء أبرشيّته، اعتزل الحياة العمليّة، وقطن دير المخلّص قرب صربا (لبنان)، حيث كان موضوع حفاوة رهبانيّته الباسيليّة الحلبيّة وإكرام الجميع، لمّا انطوت عليه نفسه الكريمة من دماثة الأخلاق والتقوى الراهنة، حتّى وافته المنون في دمشق في ٢١ شباط سنة ١٩٨١. ونُقل جثمانه إلى دير المخلّص قرب صربا (لبنان)، ودُفن في مقبرة الدير.

عمل المطران توتونجيّ في ظروف صعبة، وبذل كلّ ما عنده من إمكانيّات في خدمة الأبرشيّة الحلبيّة، وعرف أن يستقيل في الوقت المناسب، لا حفاظًا على صحّته فقط، بل لكي يفسح المجال أمام غيره، فيلتقط خلفه المشعل الذي هوى من يده قبل الأوان، ويتابع المسيرة. وبذلك أعطى مثالاً رائعًا في التجرّد، كما ترك لأبرشيّته صورة حيّة في الصبر والأناة واحتمال المصاعب والمضايقات من حيثما أتت.

ـ ٢٥ ـ

ناوفيطوس إدلبيّ

(٦ آذار ١٩٦٨ـ ١٩٩٥)

هو كاتب هذه النبذات التاريخيّة عن أساقفة الروم الملكيّين بحلب. وقد آلت إليه رعاية الأبرشيّة الحلبيّة العزيزة. فقضى في خدمتها حتّى الآن خمسة عشر عامًا. وهو يعهد إلى العناية الإلهيّة أن تدبّر بحنانها ما سيتبعها من أعوام، لمجده تعالى وخير الشعب. ولله الحمدُ أوّلاً وآخرًا، "عن كلّ شيء ومن أجل كلّ شيء".

حلب في ٨ كانون الثانيّ سنة ١٩٨٣.